كتاب

طبقات المشائخ بالمغرب

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني رحمه الله
المتوفى حوالي 670 هـ

الجزء الأول

حققه وقام بطبعه
إبراهيم طلاي

كتاب

طبقات المشائخ بالمغرب

تأليف

الشيخ أبي العبّاس أحمد بن سعيد الدرجيني رحمه الله

المتوفى حوالى 670 هـ

الجزء الأوّل

حقّقه وقام بطبعه

إبراهيم طلّاي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

تقديم الكتاب

أضع بين يديك ايها القارىء الكريم هذا الكتاب القيم، الذى يكتب له لاول مرة ان يخرج من حيز المخطوطات وظلمات خزائن الكتب ، بعد ان تحدث الناس عنه كثيرا ، ونقل منه كتاب السير والتاريخ بالمغرب العربى ، وخاصة تونس والجزائر ، ولم يكتب له الحظ ان يعتني أحد منهم بتحقيقه واخراجه .

وما اقدمنى على هذا العمل المضنى وشجعنى عليه الا ما نحن عليه فى مغربنا هذا من حاجة الى احياء تراثنا وابراز معالم شخصيتنا التاريخية ، وربط حاضرنا المشرق بماضينا المجيد ، لنبنى نهضتنا على دعائم من الاصالة والتفتح معا ، لا نفرط ولا نفرط ، ولعلها تكون منى مساهمة متواضعة فى دفع مسيرة النهضة واثرائها ، تلك النهضة الثقافية التى تحياها الجزائر وسائر اقطار المغرب العربى فى هذه الظروف الحساسة .

وقد اعتمدت فى تحقيق الكتاب ثلاث نسخ خطية رأيت فيهن الغناء عن غيرهن ، وهن قلائل ، النسخة الاولى نسخة

خزانة شيخى الفاضل ابراهيم ابن ابى بكر القرارى ، وهى أصح النسخ ، واشدها تحقيقا ، وقد اهمل الناسخ ذكر تاريخ كتابتها وذكر اسمه ، والنسخة الثانية نسخة مكتبة الشيخ اطفيش الحاج محمد ، وهى نسخة قديمة جدا قريبة من عهد المؤلف يذكر كاتبها انه فرغ منها سنة 758 هجرية ، والنسخة الثالثة نسخة خزانة القاضى ابو فاره ابراهيم ، ويرجع تاريخها الى القرن الثانى عشر الهجرى .

وقد حاولت ان اقابل بين النسخ ما استطعت ، واثبت النص صحيحا بعد تحقيقه ، وربما تكون النسخ متفقة فى العبارة مع عدم اتضاح المراد ، أو استقامة العبارة ، عند ذلك اثبت العبارة كما هى مع الاشارة اليها ، وابداء ما يبدو لى صوابا .

وخدمة للكتاب وتقريبا له لمتناول القارىء اضفت عناوين هامشية لمختلف المسائل والمباحث الواردة فى اثناء الكتاب ، واثبتها على هامش الصفحات ، حتى يسهل الرجوع اليها ، واستجلاؤها ، كما اضفت للكتاب فهارس للعناوين والموضوعات الواردة فيه ، وللاعلام والاماكن المذكورة . وسوف يجد القارىء من حين لآخر تعليقا منى على ما اراه لا بد منه للايضاح او ازالة اللبس .

وبودى لو اخرج الكتاب وعليه دراسة علمية وتحقيقات تاريخية لتكون فائدته أكمل وأشمل ، ولكن اعتقد ان هذ االعمل سيكون خطوة ثانية بعد تحقيقه وطبعه ، وعسى أن يجد من ابنائنا الطلبة والرجال المتفرغين للبحث من

ينتدب لذلك ، وحسبى أن أكون قد قمت بأول خطـوة في الموضوع .

وقد رجوت من الشيخ الفاضل المحقــق عبــد الرحمن بكلى ــ وانا فى اثناء تحقيق الكتاب ــ ان يقدم له بمقدمة تكون أمس بالموضوع وأنسب للكتاب ، أكتفى بها عــــن التعريف بالكتاب وبالمؤلف ، فلبى رغبتي ورحب بهـــــا ، فله مِنى كامل الشكــر والتقدير ، كما أقدم ثنائى وشكرى الخالص للاخوان الذين قدموا لى يد المساعدة ولم يبخلــوا بأي جهد ، فساهموا معى فى اخــراج الكتاب بما قدمــوه من جهود وخدمات ، شكر الله سعيهم وجازاهم خــيرا .

البليدة 20 رمضان المعظـم 1394 هـ

الموافق ليــوم 7 أكتوبر 1974 م

المحقق : ابراهيـم طـلاي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

مقـــدمـــة

ان دراسة سير الاولين وايامهم الزاهرة التى تنزخـــر بالحيوية والنشاط فى مختلف الميادين من علمية وسياسية واجتماعية وعمرانية لما ينير سبيل الحياة امام المتأخرين، فان فيما يتخللها من ايام عصيبة وفى محاولاتهم الجريئة المتكررة لحل ازمتها والتخلص من ورطتها لدروسا وعبرا لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد .

ولقد كان للأسلاف رحمهم الله تاريخ مجيد حافـــل بالمكارم والاعمال البناءة ، جم المشاكل وما يستتبعها من الحلول المبنية على افكار صحيحة ونظريات سديدة ، مـــن الغباوة بالمتأخرين ان يتجاهلوها أو يغفلوا عن الاستفادة من عبرها ، على ان تاريخهم لم يصل الينا سالما كاملا ؛ فان عدم الاستقرار من جراء تحكم النزعـــات واستحكـــام المنازعات وبغي الانسان على اخيه الانسان قد شتته هنا وهناك ، فقام على المتأخرين ثمنه باهضا وخسارته فادحة، اللهم الا اذا شمروا عن ساعد الجد لاستخراج كنـــوزه

الدفينة ليستفيدوا منها فى حياتهم الحاضرة ، فكم للاسلام فى تاريخه من مآثر ومفاخر ؟ وكم انجب من عباقرة كان لعرائس افكارهم جمال رائع لو اتيح لها خطاب ؛ فان ما اغفلته الايام فوصل الينا يشير ويرشد الى هذا الارث العظيم .

هذا واذ استعدنا عزتنا المغتصبة وردت الينا دولتنا السليبة وأصبحنا مطالبين بما يدعم كيانها ويعلى شأنها ، ويمكنها من استجلاء ثرواتها واستغلالها وأكثب الصيد ابناء الجزائر فلم لايرومونه ؟ وليعملوا جادين ، فجري المذكيات غلاب .

ومن ذلك ما كان لرجال الاباضية فى القرون الاولى للهجرة من صيت ذائع وحياة روحية رائعة فى مختلف نواحى المغرب الاوسط (الجزائر) وما جاوره .

كان مجتمعهم فى المغرب مجتمعا اسلاميا فى عقيدته وأخلاقه وسمته ، غنيا برجاله وعلمائه وجيوش طلبته ، بله العامة الذين يخضعون لرؤسائهم ومشائخهم ويستميتون فى حمايتهم ، وكانت النواحى الآهلة بهم كالزاب ، واريغ ، وسوف ، وتاجديت ، وبغاى ، وجبال أوراس ، وبادية بنى مصعب ،(ميزاب) تعج بهم عجا . فكانوا الى ذلك على اتصال وثيق باخوانهم اباضية جبل وسلات ، وجبل دمر وقصطالية ، وجربة ، وطرابلس ، وجبل نفوسة . وكان بينهم تجاوب فى الاراء العلمية فيقال : قال علماء جبل نفوسة كذا ، وقال علماء قصطالية كذا . وقال علماء بغاى كذا . وقال علماء جربة كذا . وقال علماء بنى مصعب كذا الخ ... وكانت لهم خطة متحدة الاهداف فى كفاح الجورة الحاكمين بأمرهم قمعا

للظلم وتنغيصا للقاسطين وصدا لهم عن القضاء عليهم واصطلامهم ، كما هى سياسة الحكام الشيعيين يومئذ وخلفائهم من الصنهاجيين (انظر وصية المعز لدين الله معد بن اسماعيل آخر ملوك العبيديين بالمغرب لما انتقل الى مصر سنة 362 هـ لخليفته يوسف بن زيرى الصنهاجى) .

قال ابن الخطيب : لما ارتحل المعز واحتل قابس لوجهته يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الاول سنة 362 هجرية بلغ يوسف بن زيرى مشيعا اياه آبار الخشب ثم امره بالرجوع الى افريقيا ، وقال له عند وداعه : (ان نسيت شيئا مما اوصيك به فلا تنس ثلاثة اشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر (اراد زناتة ومزاته ، كما صرح بذلك فى رواية أخرى) ـ ولا تول احدا من اخوتك وبينك فانهم يرون انهم احق بهذا الامر منك ـ وأستوصى بالحضر) .

ومما أوصاه به ايضا انه قال : (تركت لك بافريقيا مائة ألف منزل فاجعل فى كل منزل فارسا تكتفى بذلك وتأتى على من حاربك) .

كانوا يعيشون عيشة الروح لا عيشة الجسد ، لا يحفلون بالقشور ، ولا يميلون الى الترف والنعيم . بل صرفوا كامل عنايتهم الى الاضطلاع بدين الله ، الى تصحيح العقيدة ، الى نشر تعاليم الاسلام بين الجماهير الساذجة وحملهم عليها قولا وعملا. فانساقوا فى هذه السبيل سبيل الآخرة ايثارا للآجلة على العاجلة . وساعدهم على ذلك تحررهم من مهام الملك التى تستنزف الجهود والاوقات وتحملهم على الانغماس فى الحياة المادية طوعا أو كرها .

انهم وان لم يعرضوا تماما عن الحياة المادية الا انهم يحيون حياة هزيلة لا تعدو ــ على عمومها ــ تربية المواشى وفلاحة الارض وغراسة النخيل والاشجار لاسيما الزياتين، الى شيء من تجارة عمادها المقايضة . واذا قدر لبعض الاشياخ مثلا ان يكون ذا ثروة فانه يفنيها في كفالة الطلبة الذين ينقطعون لخدمة العلم واقامة شعائر الدين والوعظ والارشاد احتسابا وامتثالا لما يامر به الدين ويدعو اليه القرآن الكريم . الامر الذى حفظ للدين تعاليمه . وللعلم حقائقه . ولحسن السلوك منهاجه . فكثرت جيوش العلماء وكثر تنقلهم من ناحية الى أخرى تثبيتا للاقدام ، واصلاحا لذات البين ، وتصحيحا للاخطاء ، وقياما بواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، على صعوبة المواصلات . وقلة الوسائل . وخوف السابلة . وبعد المسافات ، ناهيك انهم كانوا يسافرون فى قوافل من العلماء بتلاميذهم ومعهم مدرستهم المتنقلة وهى عبارة عن حمولة (12) بعيرا من الحصر ينصبونها كلما نزلوا مكانا فسيحا آهلا . وتتألف هذه المدرسة من أقسام : قسم للصلاة ، وقسم للشيخ ، وقسم للنساء ، وبيوت للتلاميذ ، كل وما يخصه الى آخر ما تستلزمه هذه الحركة المباركة . والحق أنهم اوتوا صبرا عجيبا على مجابهة خشونة العيش ، وترك حظوظ النفس ، ارضاء لربهم ، واستعدادا لحمل الامانة التى عرضها الله على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان ؛ يقصرون أول حياتهم على التعلم حتى اذا ما نبغوا تصدوا للتعليم . وعقد الرحلات للدعوة الى الله وتفقد احوال المسلمين ورأب صدعهم ، وجمع كلمتهم ، وتصنيف الكتب فى مختلف

انها كانت ارقى بكثير من الفن الاندلسى الذى كان مضرب المثل فى تلك العصـور ، واطبقت شهرته الآفـاق . وقد خصص لاثارها فى متحف الاثـار الجزائرى قاعة باسـم (قاعة سدراته) .

على ان وضع الاصحاب يأبى عليهم التفرغ للاكتساب فقد كانوا مقلقـين فى اوطانهم ، مخاطرين وخائفـين فى اسفارهم ، عرضة للنهب والسلب والقتل مـن غوغائهم ومـن جيرانهم . بلـه امعان الجـورة فى تجريدهم ممـا يملكون . وتشريدهم فى طول البلاد وعرضها ، والتنكيل بهم ظلما وعدوانا (انظر صحيفة 400 من سـير الشماخى وهجوم عسكر صنهاجة على قلعة درجين واصطلامها سنة 430 هـ) .

وهل تبقى بربك ثروة وسط هذه الزعازع والاعاصير ادبيـة كانت اومادية ؟ ولولا الفتن الداخلية والخارجية والحـروب المتوالية التى تسلطت عليهـم فأفقرتهم مـن الاموال وأخنت عليهم كما اخنت على لبد وأتت على مـا هنالك من ثـرات علمى ـ لأبقت تلـك القرائح الوقادة والعقول الراجحة لنا وللمكتبة الاسلامية مـا يرفع رأس الجزائر عاليا بين أمم التاريخ .

وناهيك بتجديث وما بلغت من ازدهار وتألق انوار ، فقد قصت علينا السير ما يدهش ويبهر . قال الشماخى : تاجديت موضع معلوم بقبلـة اريغ وليست ببعيدة منه . اجتمع فيه من أهل الدعوة والعلماء والطلبة وأهل الصلاح ما لم يوجد فى غيرها ، وعد فيها مائة عالم لا يـرد احدهم مسألة الى الآخر الا من جهة الادب . وفيها مائتان يحفظون مائتى كتاب ، وثمانون طالبا تؤاما ، وسائر الطلبة كثيرة.

ويحضرالصلاة ثلاث مائة فارس. واذا كبروا تكبيرة الاحرام نفرت المواشي الخ ... ودخل عامل لصنهاجة فرأى كثرة العزابة وكثرة الحلق وضيق المكان فاعتقد انهم يدنسون وجـه الارض بالخلاء والسماد فدار فيها وحواليها فلـم يظفر بشيء مما تكرهه عينه ، وتعابه نفسه . فقال وقد مديده بسيفه : (ما يخاف الناس الا من هذا او من الله) فهذا ـ يعنى السيف ـ ليس هذا موضعه ، وما منعهم من ذلك الاخوف الله .

وبالجملة قل ان يخلـو موطن من مواطنهم من علمـاء عاملـين وزهاد مخبتين ، وصالحين ذوى كـرامات ساطعة الانوار رغم بغي البغاة من امراء وقبائل ومن فتن داخلية، ظهرت عقابيلها بعد . فكانت بمثابة جسم قوى يتمتـع بحصانة صحية لا تظهر عليه عوارض المرض وان ظلـت جراثيمها كامنة في دمائه ، حتى اذا ما ضعف الجسم ظهرت العوارض من جديد فتغلبت عليه فأوردته مورد العطب . كذلك مجتمعنا هذا ظلت عوامل المحو والابادة تناوشه ، وظل هو بدوره يقاومها بينما قوة مقاومته تضعف شيئا فشيئا حتى القى السلاح واستسلم لضربات الدهر القاسية القاضيـة . وهكذا ينقرض المذهب الاباضى مـن هـذه المواطن العديدة . فبموت علمائهم ومفكريهم فشا الجهل في ناشئتهم وعامتهم، وفقدوا من يأخذ بأيديهم الى صراط الله العزيز الحميد ، فعصفت بهم رياح الزيـغ وابتلعهم خضم المجتمع فأصبحهم غيرهم بين عشية أو ضحاها الا من رحم ربـك .

ونحن اذا استثنينا البقيـة الباقية بورجلان وجـدنا المذهب الاباضى بالمغرب الاوسط ينحصر فى بادية بنـى

مصعب (ميزاب) ــ وان لم يكن ثمت بنجوة مما انتابه فى مواطنه الاولى ــ ولو ذهبنا نستعرض ما مني به في ادوار تاريخه من خــوف ونهب وسلب وسطو وفوضى وتسلط الاطماع ومن فتــن داخليــة وقحط ومسغبة وامراض وضيق عيش وغير ذلك من ارزاء الحياة لتعجبنا كيف قدر لمجتمع صغير مثله ان يبقى الى اليوم فى الوجود . ولعلــه يظل كذلك ــ ما دام يستمسك بالدين ــ صامدا صمــود الجبال الراسية يهــزأ بالانواء والاعاصير . ويضحك فى وجه النوائب والمحن الى ان يرث اللــه الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ، ومن يدرى ؟ وما ذلك على الله بعزيز .

هذا وبالرغم مما تقــدم فقد استطاعوا ان يحققــوا الاهداف الآتية :

1 ــ وقوفهم كالشجا فى حناجر العبيديين المارقين الذين نشروا الزيغ والالحاد . وعاثوا فى الارض فسادا : لــم تسلم من ظلمهم وأذاهم طائفة من طوائف المسلمين غــير الشيعيين . ولولا هذه المقاومة لأتت دولة بنى عبيد على معالم الايمان الصحيح في مغربنا. ولا حول ولا قوة الا بالله (انظر ان شئت كتاب معالم الايمان للدباغ) .

2 ــ ابقاؤهم معالم حضارة رائعة فى سدراتة ونواحيها كما اسلفنا الكلام على ذلك .

3 ــ انشاؤهم مجموعة قرى هى مدن ميزاب آخر معقل للاباضية بالجنوب الجزائرى . وان ما يمتاز به اهلــه من الاستقامة بصفة عامة لشاهد صدق على ما كنا نصف بــه أسلافهم والحمد لله .

وبعد، فبودنا لو تجافينا اثارة الدفين من تاريخنا القديم ونشر بعض ما يتخلله من صفحات قاتمة . لولا قصدنا ان يتعظ بذلك ابناء الجزائر اليوم . ويستفيدوا من اغلاط الماضي عسانا ــ ونحن على اعتاب تشييد دولتنا من جديد ــ ان نقيمها على أسس متينة من العدالة والوحدة والتسامح وتجافي عوامل الانهيار واسباب السقوط التي وقع فيها من سبقنا ، والعاقل من اتعظ بغيره .

يكفي الجزائر ما عانت من عنت الاستعمار ، وما قاست من ويلاتــه وبوائقه ، وما أصل فيها من الجهــل واسباب التفرقة والعداوة والفساد . فــلا ينبغي لنــا بحــال ان نرتكب في سلطاننا ما نشكوه من غيرنا . وهذا لا يتحقق الا اذا سادت في الامة الروح الدينية والحصانة الخلقية ، والا فلن تنفع وحدها الجيوش الجرارة في قمــع الظلم ، ولا كتائــب البوليس والجندرمة في حفظ النظــام ، ولا محاضرات المرشدين وخطب الائمــة من علياء المنابر في ايقاف تيار الفساد والاخلال بالامن الذي تتوقف عليــه سلامة البلاد وراحة العباد .

ان ازدهار الاســلام في عهوده الذهبية التي استطاع فيها انقاذ العباد من عبادة العبــاد . وتحرير الشعــوب المستعبدة من براثن الاضطهاد والاستبداد . انما كــان باقامة الــدين والتخلق بخلق القــرآن الكريم . وسوس الرعية بالعــدل : لا محسوبية ولا محاباة ولا عصبية ولا مداجاة . بهذا ــ لا غير ــ ندعم كياننا ونحافظ على وجودنا ونكسب رضا الخالق والمخلــوق ، ونبقى لنــا في سجــل التاريخ صفحة ذهبية يتأسى ويعتزى بها مــن ياتي بعدنا من ابنائنا . فاللهم يسر وأعن .

كتـــاب الطبقـــات

لا شـــك ان نهضة علميـــة ظلت قرونا متصلة الحلقات تترك ميراثا ادبيا خصبا يغنى المكتبة الاسلامية عن اللجوء الى مصادر غيرها لمعرفة تاريخها ، ولكن هيهات هيهات ان تبقى ثروة مع الفتن ، والفوضى وجور السلطان وغزوات المغيرين . ونحن اذا اقتصرنا على ما وصل الينا من هـــذا التاريخ ـ كسير أبى زكرياء يحيى الورجلانى ، وسير أبى عمار عبـــد الكاف التناوتى ، وسير أبى سهـــل ابراهيم ، وســـير أبى نوح صالح بن ابراهيم ، وســـير أبى الربيع سليمان بن عبد السلام الوسيانى ، وســـير أبى القاســـم البرادى الدمرى المعروف بكتاب (الجـــواهر) ، وسير أبى الربيع سليمان بن يخلف المزاتى ـ اذا اقتصرنا على ذلك فانه لا يعطينا الا صورة مصغرة لا كاملـــة لتلك الحيـــاة الخصبة . أما غيرها مما اشارت اليه كتب السير ولم يصل الينـــا ككتاب : (المغرب فى تاريخ المغـــرب) للامـــام أبى يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلانى الذى شيد بذكره ، وقيل عنه انهفي بعض مكاتب اروبا ـ فمن ميراثنا الضائع، فهو : اما مما قضت عليه بوائق الدهر . واما ان يكـــون مما بقى فى زوايـــا بعض الخزانات فعثت فيه الارضـــة فذهب ضحية الاهمال والامتراش ، والامر لله .

ومن بين الكتب الباقية التى نشرت صحائف ناصعة عن رجالالاباضية العاملين بالشمال الافريقى الى حدود القرن السابع للهجرة ، وفصـــل كثيرا مما اجملناه فى مقدمتنا كتـــاب الطبقات للشيخ أبـــى العباس احمـــد بن سعـــيد الدرجينى . وكتاب الطبقات من مصـــادر ســـير الشماخى الذى يعتبر المرجع الرئيسى في التعريف برجال الاباضية.

والشيخ أبو العباس أحمد الدرجيني من علماء القرن السابع الهجرى ومن أسرة ماجدة ، أسرة علم وتقوى وكفاح ، كان لها المكان الاسمى فى توجيه الجماهير ومشيخة العلم بنفطه ، وقصر درجين وقصطالية من بلاد الجريد ، فهو أبو العباس أحمد بن سعيد بن سليمان بن على بن يخلف المزاتى ، خمسة فى نسق علماء نحارير ، لم يتخلل سلسلتهم الذهبية جاهل أمى ، وزيادة على ذلك فان أبا العباس شاعر ، وأبوه سعيد شاعر ، وجده سليمان شاعر ، بيد أن صاحب الطبقات كان اشعرهم ، كما صرح له بذلك أبوه سعيد اذ قال له : (انت أشعر منى ، وأنا أشعر من والدى) والجد يغلب عليه الشعر الملحون باللغة البربرية ، وبودنا لو اطلعنا على هذه القصائد اذا لتأتى لنا دراسة انفاس شاعر من شعراء ذلك العصر ، وانت خبير ان الشعر الملحون ترجمان الجماهير الشعبية فى احاسيسها وتعبير صادق عن الروح السائدة بينهم .

اما تاريخ ولادته فهو فى مطلع القرن السابع ، قال الشيخ البرادى فى كتابه « الجواهر المنتقات مما اخل به كتاب الطبقات » نقلا عن أبى العباس الدرجينى نفسه يحدث عن بداية تعلمه اذ يقول : (وذلك انى دخلت حلقة وارجلان ــ حرسها الله ــ عام ستة عشر وستمائة فى ربيع الآخر منها فى أول ما وجب علي الصوم ، والبال خال من الهم ، وكنت اعجب ممن ينفرد ولا يجتهد ، وممن يخلو بالمفيد كيف لا يستفيد ؟ ...).

أخذ العلم عن أبى سهل يحيى بن ابراهيم احد علماء وارجلان ، وأيمتها المشاهير فى القرن السابع ، وكان أبو العباس نسيج وحده ذكيا المعيا ، مقبلا بكليته على

التحصيل ، عاملا بوصية ابيه الذى وجهه توجيها صادقا ، ودفع به دفعا قويا بقصيدته التى حظه فيها على الجد فى طلب العلم ، والاكتراع من مناهله العذبة الصافية ، نقطف منها الابيات الآتية :

مضت سنة واستقبلت بعدها أخرى
فياليت شعرى ما تجىء به البشرى ؟

ابالعلم فزتم ، أم الى اللهو ملتم ؟
ونحن نعد العام ، والفصل ، والشهرا

ألا انها تحصى عليك لياليا
فما الترك والاهمام للحر بالاحرى

فحاسب أبا العباس نفسك ، جاهدا
وناقش ، ولا تنس الصغيرة والكبرى

ألا فانتهزها يا أحيمد فرصة
فمن لك دأبا فى استقامتها دهرا

ومهما استقمت قوم الله سعدها
فلست بمبعوث هناك الى عمرا

فكن طالبا جزلا ، اديبا ، مهذبا
ولا تخش حسادا ، وان نظروا شزرا

فان تك تلميذا نبيها ، وحاذقا
فشيخك بحر العلم اعظم به بحرا

فما عذر من استاذه فذ عصره
« أبو سهل » الحبر الذى قد علا فخرا

حوى العلم ، والدين القويم وراثة ،
فاصبح فى ذا العصر أطيبهم ذكرا

فقيه تناهى فى العلوم فحسبه
بكل فقيه ماهر فطن أزرى

به « ورقلا » تزهو جمالا وبهجة
به اشرقت نورا ، به ابتسمت فخرا

هذا وقد صرح فى صدر الكتاب انه قسمه الى جزئين ، جزء التاريخ ، وجزء السيرة ، كما قسم كل قرن ـ على غرار أبى عمار عبد الكافى ـ الى طبقتين، الخمسين الاولى، والخمسين الثانية ، وقد سد بهذا التقسيم ثغرة طالما شكا منها الباحثون ، هى خلو المراجع الاولى غالبا من تاريخ الميلاد أو الوفاة ، فانبهم لذلك عصر كثير من رجال التاريخ على الباحثين ، فكان فى طريقة الدرجينى تخفيف من مؤونة البحث ، وحصر لعصر كل ـ وكم للنظام من يد فى تيسير العسير ـ ترسم خطى أبى زكرياء يحيى بن أبى بكر البراسنى فى سيره ، قدما بقدم ، بيد انه فصل فى طبقاته ما اجمله أبو زكرياء فى سيره .

على اننا اذا تصفحنا الكتاب لا نجده يقتصر على ذلك ، بل يسير على نهج علماء السير السابقين ، لا تخلو تراجمهم من استطرادات مهمة ، ومحاورات علمية ، قيمة ، لا سيما اذا كانت تتصل بالمترجم له مباشرة ، او بسبب قريب الامر الذى كانت به كتب التراجم مشحونة بالابحاث العلمية ، وقد يشغل مجموعها احيانا الحيز الاكبر من الكتاب ، ولذا نجد مصنفنا كثيرا ما يسوق مسألة ثم يكر عليها جرحا وتعديلا ، وأخيرا يقرر فيها القول المعتمد .

وهكذا ينتقل بنا من تاريخ الى سيرة الى مسائل شرعية وبيـان احكامها الى غـير ذلك مما يجعـل الكتاب سائغا ، مستساغا .

وبالجملة فكتاب الطبقات يعطينا صورة اجمالية عـن رجـال الاباضية الى حـدود القـرن السابع ، والدارس للتاريخ الاسلامى فى الغرب الاسلامى لا يمكن أن يستوفى معلوماته دون الاطلاع على هذا الكتاب القيم ، فتتبعه أيها القارىء الكريم بتـدبر وامعان تجـد الخبر اليقين (ولا ينبئك مثل خبير)

هذا ، وقد شاءت همة الاستاذ ابراهيم طلاي ـ أحـد ابناء الامة النابهين واستاذ الادب بثانـوية البليدة ـ ان يكشف عن هذا الكنـز الدفين ، ويقوم بطبعه وتحقيقه ، وسوف لا يلبث ـ نظرا لمقدرة الاستاذ وعنايته المعهودة ـ ان يقدمه الينا بحول الله وقوته ، تحفة ثمينة ، ودرة غالية ، تسر الناظر ، ويتحلى بها جيد العلم ، وفقه اللـه وسدد خطاه ، انه ولى التوفيق ، نعم المولى ونعم النصير .

ميزاب ، بكلى عبد الرحمن بن عمر



وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور يعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور، خلق الانسان عمله البيان وكل شيء عنده بمقدار سبحان من جعل له عينين ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين ، فسعيد يسره لليسرى وشقى يسره للعسرى ، هو الذى خلقكم وما تعلمون لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، احمده حمد من عرف جلاله وكبرياءه وأقدس من دون التشبيه صفته واسماءه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين الذى ارسله الله رحمة للعالمين ونسخ بشريعة دينه كل شريعة ودين ، وعلى آله واصحابه الاكرمين ، وتابعيهم باحسان الى يوم الدين ، وتابعى التابعين صلى الله عليه وعليهم اجمعين صلاة دائمة الى يوم الدين .

وبعد : فان العلم دليل يقتدى به،والى طريق الرشد هاد يهتدى به«انما يخشى اللهمن عباده العلماء» «والعلماء ورثة الانبياء » وفى الآية والخبر دليل على ان العلم ما صاحبه العمل ، وصادفته الخشية والوجل، فانه من خشي الله تعالى لما لديه ، ويسعى فيما يقدم بين يديه ، وهل لمن عرى من الخشية فوز بعمل الحسنات ، واستحقاق وراثة تلك الدرجات ؟ وينبغى لمن نزع الى هذا النزع وطلب هذا العمل الارفع، ان يتعرف مناقب السلفوالاخبار ، ويحصل سيرهم الصالحة ليقتدى بحميد تلك الآثار ، فان ذلك مما يقوى الرغبة والاشتياق (I) والحرص على المصير الى تلك المنازل السنية واللحاق ، ويحض على الطريق الاقوم ، وينهى عن اهواء الهاوين فى هواء الخسران والندم ، فما اقمن من عرَف طريق الصلاح ان يتبعه ! وما اقبح من جهة ان يضيعه ! وقد استمرت عادة اصحابنا ان أول ما يمرن عليه المبتدىء اذا وصل ، السكينة والوقار وتعليم سير السلف ، لتكون لهم على اتباعهم معينة ، فاذا اكتسى تلك الحلة قلما بدلها ، ثم بعد ذلك « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » . فالله ينفعهم وينفع بهم فى الدنيا والدين ، ويجعلنا لآثارهم مقتدين ، لا مبدلين ولا مغيرين، وينقذنا برحمته اجمعين ، وهو ارحم الراحمين .

وقد سأل من وجبت طاعته ولم يسع اهمال أمره واساءة طاعته ان اجمع من سير اسلافنا واخبارهم ما تيسر لى جمعه وأضع فى ذلك تصنيفا ، واحرز كل خبر بما يليه من

(I) فى نسخة : الاستيشاق

كتاب ابى زكرياء يحيى بن ابى بكر رضى الله عنه (1) ، استخلص ذلك وانتقيه فبادرت لاجابة سؤاله ايجابا لعظم حرمة السؤال وان كان ينبغي ان اكـــون ممن استعفى واستقال فرأيت عصيانه من النكير بل المحظور ، فأخذت فى تهذيب الكتاب المذكور واضيف الى ذلك ما لا بد منه من خطبة وشعر غير مشهور ، عـــلى انى معترف بالقصر والفهاهه ، وراغب فى الاغضاء من ذوى الفطان والنباهة متيقن ان الماء يطيب بطيب موارده ، وان كان اجاجا ، وقد يعود مرا معافا وان كان عذبا ثجاجا ، ولا شك انى قصدت الفن الذى بدأت بذكره لم احفل بعيب عائب، ولا بشكره ، فان ظفرت بموافقة من أجبت سؤاله فقد ظفرت بالمرغوب، فان قصرت فلا غرو لابطاء السكيت (2) عن شأوى المجلى ، والله اسأله . التوفيق والارشاد الى سواء الطريق ، وقـد رأيت ان اقدم مقدمة تكون فراشا للكتاب ، تفهم منهـــا ألفاظ اصطلح عليه اصحابنا المتأخرون ، وفيها عند مـــن لا يعرفها اضطراب، ثم آتى بتسمية مشائخها وذكر طباقتهم خلفا عن سلف ، على ترتيب يتأتى بيانه ، ليتم المقصـــود ويتألف ، ثم اجرد السيرة وانقلها من الكتاب المذكور ، على حسب ما وقعت فيه ، وما كان فى الفاظه خشونة نقلـــت معانيه فيكون تفهم ما سئلت سهلا على قارئه .

ذكر الفاظ مما اصطلح عليها أهل الطريق وتعارفوه بينهم

على من تطلـــق لفظـــة العـــزابى

فمن ذلك العزابة واحدهم عزابى ، هـــذه اللفظـــة

(1) يشير الى تاريخ ابى زكرياء يحيى بن ابى بكر الذى لا زال مخطوطا وهو أصل هذا الكتـــاب

(2) السكيت بصيغة التصغير : آخر الخيل فى الحلبة عكس المجلى

استعملتها لقبا لكل من لازم الطريق وطلب العلم وسير أهل الخير ، وحافظ عليها وعمل بها ، فان حسن جميع هذه الصفات سمي عزابيا ، وان حافظ على السير والعمل بها فقط سمي به ، وان حصل العلم دون السير والعمل بها والمحافظة عليها لم يسم بهذا الاسم ، واعلم ان لهذا الصنف سيما انفردوا بها ، واحوالا عرفوا بها ، لا يتفضل عليهم فيها سواهم ، وذلك فى تسميتهم ، وخطابهم ، ومؤاكلتهم، ولباسهم، واوقات نومهم، وقيامهم، واورادهم وصيامهم ، وعبادتهم ، وعندهم فى ذلك قوانين يعتادونها وحدود لا يتعدونها ، وهذا الاسم مشتق من العزوب عن الشيء وهو البعد عنه ، فاستعير لمن بعد عن الامور الدنيوية الشاغلة عن الآخرة ، ولو استقصينا وصف تلك الاحوال لاتسع القول فطال ، وسيأتى ذكر ما امكن من ذلك فى موضعه ان شاء الله ، وأول ما استعمل هذا اللقب فى أيام ابى عبد الله محمد بن ابى بكر رضى الله عنه ، لما أسس الحلقة ورتب قوانينها .

الحلقة ، اسم لجماعة تشتمل على الشيخ يعلمهم العلم ويلقنهم السير ويبصرهم فى الدين بحسب ما يفتح الله على كل واحد منهم ، يحصل البعض ، وان أعياه الكل ، « فان فان لم يصبها وابل فطل » ، فكانهم محلقون ولو انهم مفترقون .

التلميذ اسم للواحد المبتدىء عند الدخول فى الطريق سواء كان طالب فنون أو مقتصرا على الصلاحية فقط ، وأصل هذه اللفظة فارسى .

الختمة

الختمة : اجتماعهم لذكر الله والدعاء عند طلوع الشمس وعند غروبها بشيخ أو بغير شيخ ، وكأنهم يختمون به عمل الليل وعمل النهار .

المجتمع والجمع والميعاد ، ألفاظ مترادفة على معنى واحد وهو انيجمعهم الشيخ على وعظ يفيدهم ، أو لتذكير أمر مهم يكون شورى من اصلاح فساد أو تلافى فوات ، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، فمع الاختيار ان يكون ذلك يوم الآثنين ويوم الخميس ، ويكون فى أى وقت دعت اليه الحال ، ليلا أو نهارا ، فى أى يوم كان ، أول من رتبه ابو الحر على بن الحصين بمكة (1) .

الهجران

الهجران والابعاد ألفاظ تترادف على معنى واحد وذلك متى أجرم واحد من أهل الطريق جرما ، أو ظهرت عليه خزية أو أتى بنقيصة فى قول أو عمل أو تضييع ، فأنه يهاجره كل أهل الصلاح فلا يكلم ولا يحظر جماعة ولا يؤم ولا يؤاكل ، ولا يجالس ، وكانت خطة حالت بينه وبين أهل الخير ، فان تاب واستغفر قبل منه ورجع الى الجماعة ، وزال عنه شين ذلك الوسم ، وكان بقاؤه فى وحشة الهجران بقدر عظم الجرم وصغره ، وتوبة المجرم واصراره ، فمنهم من يتوب فيرجع فى الحال ، ومنهم من يبقى ساعة أو ساعتين أو يوما أو يومين أو اياما أو اعواما أو عمره ان عظم الجرم وداوم المجرم على الاصرار ، وترك الاستغفار ، أسأل الله ان يقينا شر انفسنا وشر كل ذى شر .

---

(1) أبو الحر على بن الحصين العنبرى الشارى من أصحاب عبد الله بن يحيى طالب الحق وهما من الشراة ، عاش فى اوائل القرن الثانى للهجرة بجنوب الجزيرة العربية رحمه الله

الظهور : تولية امام عدل يسند اليه الامور .

الكتمان : ملازمة الامر سرا بلا امام .

ولاية الدفاع : ان يدهم أهل الكتمان بداهمة ، فيولوا عليهم من يدفع عنهم العدو .

ذكر طبقات المشائخ وتسمية المشاهير منهم جيلا بعد جيل

هذا الفصل نقتله مما فعله الشيخ ابو عمار عبد الكافى رضى الله عنه : وذلك انه لما رأى العزابة يسندون أمر دينهم واحدا عن واحد ، اكابر عن اكابر ، وثقة عن ثقة ، رأى من حسن نظره ان يكون ذلك جملة عن جملة ، ولم يتخللها خلل ولا اختلال ، لان ذلك اذا كان واحدا عن واحد دخله الغلط ووقع فيه الطعن ولان اخبار الآحاد ضعيفة عند اصحاب الحديث فرتبها رحمه الله على المبين من سني الهجرة ، والتاريخ الذى بينه وبين هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر الخمسين من كل مائة ، وسمى من تيسر ذكره ممن اشتملت عليه كل خمسين سنة من المئين المذكورة .

قائمة فى اسماء المشائخ

فالذين اجتمعت عليهم الخمسون الاولى من المائة الاولى هم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفضيلتهم رضي الله عنهم ، واسماؤهم ومزاياهم أشهر من ان نحتاج الى تعدادهم ، فهم نجوم الهدى ومصابيح الدجا، وانما نعتت على مكانتهم من امهاد الفضل ، تبركا بذكرهم ، ولئلا يكون السكوت عن ذكرهم فى محالهم من التقدم اعراضا ، أو التجوز عن شرفهم غمضا (1) واغماضا . (2)

(1) تساهلا . (2) التجاوز عن الشىء وتركه

ومن اشتملت عليهم الخمسون الاخرى من المائة الاولى :
جابر بن زيد الازدى ، وعبد الله بن اباض المدنى ، وعمران بن حطان الشيبانى ، وجعفر بن السماك العبدى وابو بلال مرداس وعروة ابنا ادية ، وهى جدة لهما وهما ابنا جدير حنظليان فيما ذكره المبرد ، وصحار العبدى ، وقريب ، وزحاف ، وسالم بن عطية الهلالى ، والخباب بن كليب، والاحنف بن قيس، واياس بن معاوية، ونظراؤهم كثيرون .

ومن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة الثانية :
ابو عبيدة مسلم بن ابى كريمة التميمى ، وضمام بن السائب ، وابو مودود حاجب الطائى ، وابو عبيدة عبد الله بن القاسم ، وابو نوح صالح بن نوح الدهان ، وعبد الله بن يحيى الكندى،وابو حمزة المختار بن عوف الشارى، وبلج بن عقبة، وابرهت ابن عبد الرحمن، وابو الحر على ابن الحصين العنبرى ، وابو يزيد الخوارزمى ، وابو محمد المهدى ، وابو روح ومازن ابنا كنانة ، ونظراؤهم كثير .

ومن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة الثانية ومن هنا انتشار المذهب بالمغرب، ولذلك كان رجاله شرقيين وغربيين عربا وبربرا تلامذة ابى عبيدة وغيرهم ، الربيع ابن حبيب ووائل بن ايوب الحضرمى وابو غسان مخلد بن المعرد ، وعبد السلام بن عبد القدوس ، ومحبوب بن الرحيل ، وابو الخطاب المعافرى وهو عبد الاعلى بن السمح وعبد الرحمن بن رستم الفارسى ، وعاصم السدراتى ، وابو داود القبلى ، واسماعيل بن درار الغدامسى ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم ، وابو حاتم الملزوزى وابو سفيان ، ونظراؤهم كثير .

ومـمن اشتملت عليهم الخمسون الاولى من المائة الثالثة :
أفلح بن عبد الوهاب ، وابو مرداس ، ومهدى ، وابان بن وسيم ، ومحمد بن يانس ، وابو مهاصر ، وابو زكريـاء التوكيتى ، وعبد الحميد ، ونظراؤهم كثير .

ممن اشتملت عليه الخمسون الاخيرة من المائة الثالثة :
محمد بن افلح وابنه يوسف وسعد بن ابى يوسف وعمروس ابن فتح ، وابو منصور الياس ، وابو معروف ، ونظراؤهم كثـير .

وممن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة الرابعة :
حسنون ابن ايوب ، وابو مسور اليهراسنى ، وابو الخطاب وسيل بن سيتتن (I) الزواغى ، وابو القاسم يزيد بـن مخلد ، وابو خزر يغلى بن زلتاف ، وهى امه وهو ابـن ايوب ، وعبود المزاتى ، وجنون بن يمريان ، وسليمان بن ماطوس ، وسليمان بن زرقون النفوسى ، ومحمد بن مسلم وابو سهل الفارسى ، ونظراؤهم كثير .

وممن اشتملت عليه الخمسون الاخيرة من المائة الرابعة :
أبو نوح سعيد ابن زنغيل وابو صالح بكـر بـن القاسم اليهراسنى ، وابو زكرياء فصيل بن ابى مسور ، وابـو عمر النملى ، وابو موسى عيسى بن السميح الزواغى ، وابو نوح سعيد بن يخلف المدونى ، وابو محمد ويسلان ابن يعقوب ونظراؤهم كثير .

وممن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة الخامسة :
ومن هنا ابتداء العزابة ابو عبد الله محمـد بن بكـر ،

(I) إثبته صاحب السير باسم وسيل بن سنتين ، وكذلك صاحب الاباضية فى موكب التاريخ وهو أصـح

وزكرياء ويونس ابنا فصيل بن ابى مسور ، وعبد الله بن مانوج ، وعبد الله بن زورزتين ، وويسلان بن ابى صالح وابو بكر الزواغي ، وورسفلاس ابن مهدى ، وعبد الله ابن الخير ، وورسفلاس بن عبد الله ، وابو مكدول مطكودانس الزنزفي ، وأهل غار « أمجاج » وابو جابر بن سدرمام ، وابو عمران موسى بن زكرياء ، وكباب ابن مصلح وابو يحيى زكرياء بن جرنان ، وعبد الله المدونى ونظراؤهم كثير .

وممن اشتملت عليه الخمسون الاخيرة من المائة الخامسة سليمان بن يخلف ، وابو سليمان داود بن ابى يوسف ، وابو العباس احمد بن محمدبن بكر،وعيسى بن يرشوكسن ويحيى بن ابى بكر ، وزكرياء بن ابى زكرياء ، وماكسن ابن الخير، ومزين بن عبد الله، ومصالة بن يحيى، وسليمان ابن موسى ، وعبد الله ابن سلام ، واسماعيل بن ييدير .

وممن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة السادسة عبد الرحمن بن معلى ، ويحيى بن زكرياء ، وايوب بن اسماعيل، واسماعيل بن المعيز، وعبد الله بن محمد. فالى هنا انتهت تسمية من سمينا ـ ثم قال فهؤلاء ائمتنا فى الدين وقاداتنا فى الاسلام رحمهم الله .

« قال الشيخ ابو العباس » ، فهذا الترتيب الذى رتبه الشيخ ابو عمار عبد الكافى رضى الله عنه حسن فى المعنى الا انه لم يذكر الطبقة التى فيها شيوخه ومعاصروه الا بعضا من الكل واستغنى فيها عن كثير من العدد ، وفيمن سمى كفاية ، ولولا قصده الاكتفاء بتسمية من سمى لزدت من معاصره عدة مشائخ ، أئمة أهل علم ودين ، واصحاب

تواليف اضراب عثمان بن خليفة السوفى وقرناؤه ولكنى عدلت عن ذلك اذ المقصود تسمية جماعة فالمحصول قد حصل ، ورأيت ان اذكر جماعة الاشياخ الذين أخذوا عن الجماعة التى انتهى اليها ترتيب الشيخ ابى عمار واضمهم الى الخمسين من المائة التى نحن فيها وهم الذين اخذنا نحن عنهم وفى آخر الكتاب اذكر ان شاء الله ما وصل لي وصح عندى من مناقبهم ، وكراماتهم ، فيتقدم ذكر مناقب من تقدمهم فيكون كل واحد فى رتبته ، ويجرى كل سابق فى حلبته .

فممن اشتملت عليه الخمسون الاخيرة من المائة السادسة ابو عمار عبد الكافى بن يعقوب التناوتى ، وابو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتى ، وابنه ابراهيم ، وزكرياء ابن صالح ، وفصيل بن ابى مسعود ، واسحاق بن ابراهيم ومحمد التميجارى ، وموسى النفوسى ، وابو نوح بن يوسف وابنه يحيى ، ويوسف بن خلفون ، ومحمد بن ابى على السوفى ، وعبد السلام بن عبد الكريم ، والفضل بن ابى سفيان ، واسماعيل بن صالح ، ويوسف بن محمد الوسيانى ، وفى هذه الطبقة ادركتهم يعدون جدى سليمان ابن علي، وجدى يخلف بن يخلف النفوسى،ونظراؤهم كثير.

وممن اشتملت عليه الخمسون الاولى من المائة السابعة مشائخ جيلنا فمنهم من صار الى الله ومنهم الاحياء ، فمن الاموات محمد بن ابى جميل ، وسعد بن معاذ ، وابراهيم ابن اسحاق ، وابو سهل يحيى ، وابو يعقوب بن عبد الله ، وميمون بن معدين ، وقد اشير علي بان انظم والدي فى سلكهم، ومن الاحياء ، يحيى بن فصيل، وعيسى بن زكرياء

وصالح بن سليمان الزواغي ، ويحيى بن داود السعيدى(I)
ويبيب بن محمد ، واحمد بن محمد ، وعمر بن يخلف
الزواغي ، ومن هذه الطبقة معاصرون من أهل الاجتهاد
والزهد والكرامات وليسوا هنالك فى العلوم : عبد الكافى
ابن ونمو الريغى، وابراهيم بن عيسى المديونى، وسليمان
ابن يكنى ونظراء النوعين كثير .

فهؤلاء اشياخنا وقادتنا وائمتنا وساداتنا جعلهم الله
اعلاما للهدى وجنبنا باتباعهم سبيل الموبقات والردى
وحشرنا اجمعين فى زمرة أوليائه المتقين .

ثم نأخذ فى ذكر ما بسطنا لاجله مقدمة الكتاب ، ونذكر
الامم فالامم من اخبار المتقدمين ، ونأتى بعده بمناقب
الصالحين ، وربما اندرج ذكر بعض المناقب فى اثناء
التاريخ والاخبار ، والله الموفق وبه نعتصم وهو حسبنا
ونعم الوكيل ، ومن هاهنا ابتدائى فى استخراج ما انبه
عليه من الكتاب المذكور فأول ذلك ذكر سبب مصير مذهب
الاباضية ببلاد المغرب وابتداء أمرهم ونقتله من أرض
المشرق واخبار حملة العلم الخمسة النفر .

اول داع لمذهب الاباضية بالمغرب

حدث غير واحد من اصحابنا عن الامام افلح عن ابنه
عبد الوهاب عن جده عبد الرحمن بن رستم انه قال : أول
من جاء يطلب مذهب الاباضية ونحن بقيروان افريقية ،
سلامة بن سعيد قال قدم علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة
مولى ابن العباس متعقبين على بعير فسلامة يدعو الى مذهب
الاباضية وعكرمة يدعو الى مذهب الصفرية ، فسمعت
سلامة يقول وددت ان لو ظهر هذا الامر يعنى مذهب

(I) كذا بالنسخ ولعله بالصاد نسبة الى صعيد مصر

الاباضية يوما واحدا من أول النهار الى آخره فلا أسف على الحياة بعده ، فقام عبد الرحمان مجتهدا فى ذلك الامــر ، فقال له رجل من أهل الدعوة ان كنت تريد العلم بما كلفت به وعلقت مطلبه بخاطرك ، فدونك أرض البصرة ، فــان بها رجلا عالمــا يكنى ؛ ابا عبيدة مسلم بن ابى كريمــة التميمى ، فانك تجد عنده ما تطلب ، فلذلك توجه عبــد الرحمن بن رستم الى البصرة رحمه الله ، وقيل ان أمـــه هى التى ارشدته الى ذلك وله حديث سأذكره بعد ان شاء الله عند ذكر الخمسة النفر الذين قرأوا على ابى عبيــدة واذكر ما صح عندنا من خبرهم فى موضعه من الكتاب .

ذكر فضائل الفرس من العجم

بلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى : « يايها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه » الآية اشار الى سليمان الفارسى وكان جالسا بين يديه قال : لعلهم ان يكونوا من رهط هذا ، وعنه صلى الله عليه وسلم قال : « ان لله كنزا ليس من ذهب ولا من فضة ، لكنه فى بطون ابناء فارس » ، وذكر ابن داب عن عمر بن الخطــاب رضى اللــه عنه انه مشى ذات يوم مــع المغيرة بن شعبة ، وكان المغيرة اعور ، فقال له عمر رضى الله عنه : هــل أبصرت بعينيك هذه قط شيئا يا مغيرة ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين قال لــه عمر سيعور الاســلام كما عورت ثــم ليعمن حتى لا يدرى من له ولا من عليه ، فاذا اتى عليه مائــة وستون سنة رد عليه سمعه وبصره ، بوفد كوفد الملوك ، طيبـــة ارواحهم ، صالحة اعمالهم ، فقال لــه المغيرة من أى مــاء يا أمير المؤمنين ؟ امن ماء الحجاز ام من ماء العراق ام من ماء

الشام ؟ فولى عنه عمر وتركه ، فوليت الفرس تاهرت على رأس ستين ومائة . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو تعلق الدين بالثريا لنالته رجال من العجم ، واسعدهم به فارس ، وروى زيد بن اسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا وقصها على اصحابه ، فقال رأيت غنما سوداء خالطتها غنم بيض ، فتأولتها ان العجم يدخلون الاسلام فيشتركونكم فى نسائكم ، واموالكم ، فتعجبوا من ذلك ، فقالوا : العجم يدخلون بلادنا يا رسول الله ! فقال : أي ، والذى نفسى بيده لو ان الدين تعلق بالثريا لنالته رجال من العجم ، واسعدهم به أهل فارس ، ومن طريق آخر ان النبيء صلى الله عليه وسلم قال : لو تعلق العلم بالثريا لنالته الفرس ، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : « ستدعون الى قوم أولى باس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » هم بنو حنيفة وقال بعضهم هم فارس .

قصة سقوط شرافات الايوان وملوك فارس

وذكر ابن قتيبة وعمرو بن بحر الجاحظ وغيرهما من اصحاب التاريخ عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال لما كان ليلة مولد النبيء صلى الله عليه وسلم ، ارتج ايوان كسرى ، فسقطت منه اربع عشرة شرافة فعظم ذلك أهل مملكته فما كان باوشك من ان كتب اليه صاحب اليمن يخبره ان بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة ، وكتب اليه صاحب الشام يخبره ان وادى السماوة انقطع تلك الليلة وكتب اليه صاحب طبرية يخبره ان ماء تلك الليلة لم يجر فى بحيرة طبرية ، وكتب اليه صاحب فارس يخبره ان بيوت النيران خمدت تلك الليلة ، ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة فلما تواترت الكتب عليه ابرز سريره وظهر لاهل مملكته ، فاخبرهم الخبر ، فقال : الموبذان ايها الملك انى رأيت تلك

الليلة رؤيا هالتنى ، قال له وما رأيت ؟ قال له : رأيت ابلا صعابا تقود خيلا عرابا حتى اقتحمت دجلة وانتشرت فى بلادنا فقال له : لقد رأيت ، فما عندك فى تأويلها ؟ فقال له:ما عندى فيها ولا في تأويلها شىء ، ولكن ارسل الى عاملك بالحيرة يوجه اليك رجلا من علمائهم فانهم أهل علم بالحدثان فبعث اليه فوجه اليه عبد المسيح بن نفيلة الغسانى ، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر فقال : ايها الملك والله ما عندى فيها ولا فى تأويلها شىء ، ولكن جهزنى الى خال لى فى الشام ، يقال له سطيح فقال : جهزوه ، فلما قدم على سطيح وجده احتضر فناداه فلم يجبه وكلمه فلم يرد عليه فقال عبد المسيح :

اصم ام لم يسمع غطريف اليمن
يا فاضل الحطة اعيت من ومن

اتاك شيخ الحى من آل سنن
ابيض فضفاض الرداء والبدن

رسول قيل العجم يهوى للوثن
لا يذهب الوعد ولا ريب الزمن

فرفع اليه سطيح رأسه فقال : عبد المسيح على جمل مشيح الى سطيح ، بعثك ملك بنى ساسان لارتجاج الايوان وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى ابلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، حتى اقتحمت الوادى ، وانتشرت فى البلاد ! عبد المسيح : اذا ظهرت التلاوة ، وغاض وادى السماوة ، وغارت بحيرة ساوة ، وظهر صاحب الهراوة ، فليس الشام بشام ، يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرافات ، وكل ما هو آت آت ، ثم قال :

ان كان ملك بنى ساسان افردهـــم
فان ذا الدهـــر اطـوار دهاريـــر

منهم بنو الصرح بهـرام واخوتـــه
والهرمزان ، وسابـور وسابـــور

فربما اصبحـــوا منهـــا بمنـــزلة
تهـاب صـولهم الاســد المهاصـــير

حثو المطى ، وجـــدوا فى رحالهـــم
فما يقــوم لهـم سرج ، ولا كـــور

والناس أولاد عـــلات ، فمن علموا
ان قـــد أفــل فمحقور ومهجـــور

والخـــير والشر مقـــرونان فى قـــرن
فالخـــير متبـــع ، والشر محـــذور

ثم اتى كسرى فأخبره الخبر فغمه وهاله ثم تعزى ، وقال الى ان يملك اربعة عشر ملكا يدور الزمان ، فملك منهم تسعة الى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن قتيبة فالله أعلم ممن التمام، وليس الا الخمسة الائمة الذين ولوا بتاهرت من أرض المغرب ، ولوها نيفا عـلى مائـــة وخمسين فيما ذكر بعض الرواة ، قال ابو العباس احمـد رحمه الله . اما قول الشيخ ان التمام كان بالائمة الخمسة وانهم منهم فانما اراد فى النسب لا فى غيره ، واراد ان ولايتهم اذ ولوا صحيحا الا ان ولايتهم على دين الاســلام ومذهب العدل والقوام .

فضائل البربر من العجم

وعن فضائل البربر من العجم ما بلغنى ان عائشة رضى

الله عنها ، دخل عليها ذات مرة رجل من البربر وهى جالسة ومعها نفر من المهاجرين والانصار ، فقامت عائشة عن وسادتها فطرحتها للبربرى دونهم ، فانسل القوم واجلين بذلك ، فلما قضى البربرى حاجته وخرج ارسلت اليهم عائشة ، حتى اجتمعوا اليها ، فقالت لهم : ما الذى اوجب خروجكم على تلك الحال ؟ قالوا : لايثارك علينا وعلى نفسك رجلا كنا نزدريه ، وننتقص قومه ، فقالت انما فعلت ذلك لما قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت أتعرفون فلانا البربرى ؟ قالوا نعم ، قالت كنت انا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات مرة جالسين ، اذ دخل علينا ذلك البربرى ، مصفر الوجه غائر العنين ، فنظر اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ما دهاك ؟ أمرض ؟ فارقتنى بالامس ظاهر الدم ، فجئتنى الساعة كأنما انتشرت من قبر ، فقال ، يا رسول الله صلى الله عليه وسلم،بتفي هم شديد ، فقال ما همك ؟ قال : تردد بصرك في بالامس خفت ان يكون نزل في قرآن ، فقال : لا يحزنك ذلك ، فانما ترديدى البصر فيك لأن جبريل عليه السلام جاءنى ، فقال أوصيك بتقوى الله وبالبربر قلت : وأى البربر ؟ قال قوم هذا ، واشار اليك، فنظرت اليك ، فقلت لجبريل ما شأنهم ؟ قال : قوم يحيون دين الله بعد ان كاد يموت ويجددونه بعد اذ يبلى ثم قال جبريل : يا محمد دين الله خلق من خلق الله نشأ بالحجاز واهله بالمدينة ، خلقه ضعيفا ثم ينميه وينشئه حتى يعلو ويعظم ، ويثمر كما تثمر الشجرة ، ثم يقع وانما يقع رأسه بالمغرب ، والشيء اذا وقع لم يرفع من وسطه ، ولا من اسفله ، انما يرفع من عند رأسه .

وفد من البربر يفد على عمر ابن الخطاب

وبلغنا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قدم عليه

وفد من البربر ، من لواتة ارسلهم اليه عمرو بن العاص
وهم محلقو الرؤوس واللحا ، فقال لهم عمر مـن انتم ؟
قالوا من البربر من لواتة ؟ فقال عمر لجلسائه : هل فيكم
من يعرف هذه القبيلة فى شىء من قبائل العرب والعجم ،
قالوا : لا ، قال : العباس بن مرداس السلمى عندى منهـم
علم يا أمير المؤمنين هؤلاء من ولد بنى قيس ، وكان لقيس
عدة من الاولاد ، احدهم يسمى بربر بن قيس ، وفى خلقه
بعض الرعونة فقال : اخرق ذات مرة فخرج الى البرارى ،
فكثر بها نسله وولده ، فكانت العرب تقول تبربروا أى
كثروا فنظر اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاستحضر
ترجمانا يترجم كلامهم ، فقال لهم مالكم محلقو الرؤوس
واللحا ؟ فقالوا شعر نبت فى الكفر ، فاحببنا ان نبدلـــه
بشعر ينبت فى الاسلام ، فقال هل لكم مدائن تسكنونهـا
فقالوا : لا ، قال : فهل لكم حصون تتحصنون فيها ؟ قالوا :
لا ، فقال : هل لكم اسواق تتبايعون فيها ؟ قالوا : لا ، قال :
فبكى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال له جلساؤه وما
يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر أبكانى حديث سمعته من
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم حنين ، حين انهزم
المسلمون فنظر الي رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبكى
فقال ما يبكيك يا عمر ؟ فقلت أبكانى قلة هذه العصابـة
من المسلمين ، واجتماع أمم الكفر عليها ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا تبك يا عمر ، فان الله تعالى سيفتح
للاسلام بابا من المغرب بقوم يعز بهم الاسلام ويذل بهـــم
الكفر، أهل خشية وبصائر يموتون على ما أبصروا، وليست
لهم مدائن يسكنون فيها ولا حصون يتحصنون فيها ، ولا
أسواق يتبايعون فيها ، فلذلك بكيت الساعة . حين ذكرت

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ذكر من الفضل عليهم فردهم الى عمرو بن العاص وأمره ان يجعلهم فى مقدمات العسكر ، واحسن اليهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأكرمهم ، وأمر عمرو بن العاص ان يحسن اليهم ، فكانوا مع عمرو بن العاص حتى قتل عثمان ، فلما كان هذا الخبر فى عصابة من أهل المغرب عن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجونا ان يكونوا ائمتنا ومن اقتفى آثارهم ، وان يكونوا أهل تلك الفضيلة .

كانوا يقاتلون ليقيموا دين الله

وبلغنا ان رجلا من ذرية ابى بكر الصديق رضى الله عنه عن بعض الخلفاء انه قال : يا اهل مكة ويا اهل المدينة أوصيكم بالله وبالبربر خيرا ، فانهم سيأتونكم بدين الله من المغرب بعد ان تضيعوه ، هم الذين ذكرهم الله فى كتابه بقوله : « يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين . يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » . لا ينظرون فى حسب امرىء غير طاعة الله ، قال البكرى : فمن حين وقعت الفتنة انما نقاتل نحن العرب على الدينار والدرهم وأما البربر فانهم يقاتلون على دين الله ليقيموه ، قال : وهو يرفع الحديث الى ابن مسعود رضى الله عنه ان آخر حجة حججنا قام خطيبا فقال : يا اهل مكة ويا اهل المدينة أوصيكم بتقوى الله وبالبربر فانهم سيأتونكم بدين الله من المغرب ، وهم الذين يستبدل الله بكم اذ يقول : « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا امثالكم » والذى نفس ابن مسعود بيده لو ادركتهم لكنت لهم أطوع من امائهم ، واقرب اليهم من دثارهم ،

وبلغنا عن عائشة رضى الله عنها انها أبصرت صبيا له ذؤابتان ذا جمال وهيئة فقالت من أى قبيل هذا الصبى الشقي ؟ قالوا من البربر ، قالت عائشة البربر يقرون الضيف ويضربون بالسيف ويلجمون الملوك لجام الخيل .

تفضيل البربر لا يعني تفضيلهم على العرب فهم في الدرجة الاولى

قلت وانما قدم الشيخ رحمه الله ذكر الفرس والبربر تنبيها على فضيلة ائمتنا اذ كانوا من الفرس وفضيلة من انتهى اليه مذهبنا بالمغرب اذ كانوا جلهم البربر ولم يقصد بذلك تأخير العرب عن الفضيلة اذ فضيلة العرب افضل وشرفهم أقدم فمنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واصحابه ، وعلى ألسنتهم أنزل القرآن ، ومنهم كان اسلافنا من الصحابة والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين ، ولكل خصلة من الفضل بحسب عطاء الله ويسره له ، والله يؤتى من فضله من يشاء والله واسع عليم .

سوق الحديث الى ذكر النفر الخمسة الحملة العلم وأخبارهم

أبو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى ، وعبد الرحمن بن رستم الفارسى، وعاصم السدراتى، واسماعيل ابن درار الغدامسى ، وابو داود القبلى ، وتحدثهم الى ابى عبيدة رحمه الله وأخبارهم الاول فالاول .

أخبار عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن كسرى الملك الفارسى رحمه الله

كان مولده بالعراق وكان ابوه منجما وكان يرى في علم مدخر عندهم ان ذريته ستلى أرض المغرب ، وكان أبوه رستم متوجها من العراق ومعه عبد الرحمن ابنه وزوجته

ليصل الى أرض المغرب ، فلما كان بمكة أو قريبا منهـا ادركته حمامه ، وانتقضت ايامه ، فلقي عبد الرحمن وامه الحجاج من أهل ارض المغرب بمكة فتزوج رجل من القيروان ام عبد الرحمن ، فأقبل بهما حتى قدموا أرض القيروان ، ونشأ بها عبد الرحمن .

انتقال عبد الرحمن ابن رستم الى المشرق طلبا للعلم

فلما بلغ مبلغ الرجال وقرأ وتصفح ، نظر اليه رجل من أهل مذهبنا ، فقال له يا بنى ، ان كنت جادا فيما أراك تطلبه فاقصد أبا عبيدة مسلم بن ابى كريمة ، تجد عنده ما تطلب . فسار عبد الرحمن بن رستم الى ابى عبيدة رحمه الله فاجتمع بالنفر الذى ذكرنا ، فقصدوا ابا عبيدة فصافحهم ابو عبيدة وسألهم عن أحوالهم ، ومن أين أقبلوا فاخبروه انهم أرادوا تعلم العلم، فاجابهم الى ذلك ، ومكثوا عنده عدة سنين ، وكان ابو عبيدة رحمه الله مستخيفا

يدرسون فى سرب خفية

تخوفا من بعض امراء البصرة (1) فادخلهم سربا وجعل فيه سلسلة وطفق يعمل القفاف بباب السرب فمتى رأى شخصا مقبلا حرك السلسلة فسكتوا فاذا انصرف حركها فيأخذون في دراستهم ، وكان عبد الرحمن شابا جميلا حديث السن وكان ابو عبيدة يجعل بينه وبين الناس سترا لئلا يشغلهم بجماله ، فلما بلغوا من العلم ما شاء الله وأرادوا الانصراف الى بلادهم رغب عجائز متصلحات من المذهب الى ابى عبيدة فى ان يريهن عبد الرحمن ليودعنه ويزودنه بالدعاء ، فقالت احداهن : بارك الله فيك كما بارك فى عين الشمس ، وقالت الثانية بارك الله فيك كما بارك فى انسان العين ، وقالت الثالثة : بارك الله فيك كما بارك فى مطيب الطعام من الملح . فلما عزموا على

(1) هو الحجاج بن يوسف امير الامويين على العراق

المسير الى بلادهم كلموا ابا عبيدة وشاوروه فيما يستقبلون من أمورهم ، فقالوا له : يا شيخنا أرأيت ان لو كانت لنا قوة بالمغرب ووجدنا فى انفسنا طاقة أفنولى علينا رجلا منا ؟ فقال لهم ابو عبيدة توجهوا الى بلادكم فان يكن فى أهل دعوتكم من العدد والعدة ما تجب معه التولية عليكم ، فولوا على انفسكم رجلا منكم ، فان ابى فاقتلوه ، واشار الى ابى الخطاب رحمه الله تعالى .

اسماعيل بن درار يسال الشيخ ويستفتيه ورجله فى الركاب

قالوا فلما أرادوا الخروج من عنده هيأ الشيخ المركوب لتوديعهم ، ووضع رجله فى الركاب فسأله اسماعيل عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الاحكام قبل ان يستوى على متن الدابة ، فقال له : ابو عبيدة اتريد ان تكون قاضيا يا ابن درار ؟ قال له : أرأيت ان ابتليت بذلك ! فبماذا تأمرنى يرحمك الله ؟ وقد ذكر انه انما قال له ذلك فى موطن قبل الموطن المذكور . ثم توجهوا الى المغرب فلما وصلوا عرضوا الامامة على عبد الرحمن فاعتذر بامانة كانت عنده للناس فقبلوا عذره وأرادوا تولية ابى الخطاب رحمه الله .

فلنذكر ولايته وايامه وسيرته .

قال الشيخ أبو العباس رحمه الله انما وضع الشيخ رحمه الله فى هذا الموضع من كتابه ذكر ولاية ابى الخطاب ، ثم ولاية الفرس ، لما اعتمده من ذكر ولاية الفرس وانتشار المذهب وائمته ونقله الى أرض المغرب فلما كان ذلك هو المهم جعله أولا ، والذى ينبغى ان نقدم نبدأ بذكر من استخلف من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم امامة عبد الله بن وهب الراسبى رحمه

الله و نبذاً من اخباره ، ثم نأخذ السير على التدريج ، ولعل فعله اصلح والذى رآه انجح ، اذ علم ما عداه قد انتهى حفظ الاكثرين اليه واغنت شهرته عن الدلالة عليه ، فنشرع فى ذكر ولاية من ولى بالمغرب ، ولنبتدىء بذكر ابى الخطاب رحمه الله ، وله التقدم لسبقه اليه ولاستحقاقه اياه ، وسبق فضيلة العرب ثم لا بد ان شاء الله من ذكر ما امكن من اخبار من اشرت اليهم فى موضع يفرد لذلك ان شاء الله تعالى .

امامة ابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح
رحمه الله ورضى الله عنه

ذكر بعض اصحابنا انه لما قدم ابو الخطاب واصحابه من المشرق الى اطرابلس اهتم بامور الناس ومصالح المسلمين من له فيهم نظر من المشائخ والاعيان ، وافاضل الناس ، واجتمعت جماعة ممن وصفته، وذلك بعد قتل الحارث وعبد الجبار ، والناس حينئذ فى الكتمان فكانوا يتفاوضون فى عقد الامامة ، وفيمن هو اهل لها ، فاجالوا افكارهم فيمن يولونه امورهم ، ثم اذا اجتمع رأيهم على امضاء ذلك جعلوا يرددون النظر فيما عزموا عليه هل لهم به طاقة ؟ وهل يستطيعون مدافعة عدوهم ام لا ؟ فكانوا يجتمعون فى موضع يقال له « صياد » بخارج مدينة طرابلس ويظهرون انهم يجتمعون فى قضية أرض مشتركة بين قوم ارادوا قسمتها ، وذكر انما اظهروا انهم اجتمعوا فى قضية لرجل وامرأة تخاصما فيها وتفاقم امرهما فكانهم يريدون اصلاحهما، وكلما انقضى مجلس وانفصلوا دخل منهم جمع الى والى المدينة فسلموا عليه مداراة له ، حتى اذا اتفق

رأيهم على عقد الامامة اجتمعت كلمتهم على مبايعة ابى الخطاب رحمه الله .

مبايعة ابى الخطاب بالامامة خارج طرابلس

وذكر بعض اصحابنا انهم لما اتفقوا على ذلك جعلوا بينهم موعدا معلوما ليجتمعوا فيه بصياد ، فاتفقوا على ان يأتى كل واحد منهم بجماعة رجال من عشيرته واتباعه ، وان يأتوا بالاسلحة ويجعلوا الدروق في الجواليق ويخفونها بالتبن ، وجعلوا امارة بينهم وبين من فى المدينة من مشائخ أهل دعوتهم ومن لا يقدر على النهوض معهم انهم اذ رأوهم دخلوا المدينة بجماعتهم ان يشهروا السلاح ، واخبروهم سرا ان الامام ابو الخطاب، فلما كانوا بالموعد الذى يجتمعون فيه بعامة المسلمين من شيوخ القبائل من نفوسة وهوارة وزريشة ، وزناتة وغيرهم فتوافوا بصياد ، ومعهم ابو الخطاب ، حين عمدوا لعقد ما اعتقدوا قالوا له امض معنا على بركة الله الى الامر الذى ترددنا فيه منذ زمان ، قال فخرج معهم ابو الخطاب ولم يدر ما يريدونه فلما وصلوا صياد تكلم متكلمهم ، فقال أليس قد اجتمع رأينا على ما قد علمتوه ؟ قالوا بلى ، قال فأتموا أمركم اذا ، فقامت منهم طائفة ناجية فتناجنوا ساعة، ثم رجعوا فقالوا لابى الخطاب أبسط يدك لنبايعك على ان تحكم بيننا بكتاب الله وسنة نبيئه صلى الله عليه وسلم وآثار الصالحين ، فقال لهم ابو الخطاب ما حسبت ان لهذا كان خروجى معكم ، فقالوا لا بد لنا من تقليدك أمور المسلمين . فلما رأى جدهم ، قال لا اقبل ان اتحمل امانتكم الا على شرط، قالوا كل شرط يجوز فنحن نعطيكه ، ونعطيك فيه ، فقال لهم : شرطى عليكم ان لا تذكروا فى عسكرى مسألة الحارث وعبد الجبار، خوفا من ان يكون فى جماعة المسلمين اختلاف وفرقة .

بيان مسألة الحارث وعبد الجبار واختلاف الناس فيها

اليقين هل يدفعه الشك أو لا يدفعه الا اليقين

وقد حدث بعض اصحابنا ان مسألة الحارث وعبد الجبار اتصلت الى المشرق فكان بين اصحابنا الذين في المشرق بهذه المسألة اختلاف وفرقة وفي المغرب اشد من ذلك ، حتى كتب اليهم ابو عبيدة وابو مودود حاجب الطائي رضي الله عنهما بالكف عن ذكرها . قال الشيخ ابو العباس الخلاف الذي في المسألة قديما وحديثا اصله في الولاية المعينة هل تنتقل الى الوقوف أم لا الا ان انتقلت بحكم متعين الى البراءة ؟ وهذه المسألة مبنية في العقائد وفي الفقه ، على اليقين هل يدفعه الشك ؟ فعند اصحابنا ان اليقين يدفع الشك ولا يدفعه الشك ، فالولاية لا تنتقل الى الوقوف ، وعند الزيدية انها تنتقل الى الوقوف ولهم في ذلك اشكالات يأتي ذكرها ومدافعتها ، وذلك ان الحارث وعبد الجبار كانا رجلين موصوفين بالصلاح ، وهما من أهل الولاية ، فوجدا في موضع واحد مقتولين وسيف كل واحد منهما في جثة الآخر . فوقع الاختلاف فيهما ، فقائل يقول ان كلا منهما قتل الآخر، فينبغي ان نبرأ منهما فهذا ارذل الاقوال ، وقائل بان كل واحد منهما قتل الآخر الا انا لا ندري الباغي منهما فنبرأ منه ولا المبغى عليه فنتولاه فلا يسعنا الا الوقوف عن ولايتهما والبراءة منهما هذا قول اصحاب عبد الله بن يزيد ، فقائل انهما باقيان على ما كانا يستحقانه من الولاية لان صلاحيتهما متيقنة وقتل احدهما الآخر مشكوك فيه فلا نتوقف عن ولايتهما فهذا من الاحتمال ، اذ من الاحتمال الذي سبق الى الخيال ان يكون البغاة الذين قتلوهما قد أولجوا سيف كل واحد منهما في جثة صاحبه وتركوهما لما أرادوه من هذا الخلاف

فهذا قول اصحابنا . وللزيدية (I) هنا افراط بمسئلتين ، احداهما ان يقع اللعان بين الزوجين وهما من أهل الولاية فلا بد ان يكون البعل قاذفا أو تكون المرأة زانية ، وكلا الفاحشتين من الكبائر الا انا لا ندرى من ارتكبها منهما فعلينا الوقوف أو البراءة ، والثانية ان ترى من بعد رجلين من أهل الولاية وقد جرد كل واحد منهما سيفه ، وضرب صاحبه حتى ماتا ولست تدرى الباغى ولا المبغى عليه ، قلنا هذا كله احتمالات ولنا فى رسول الله اسوة حسنة ، اذ نزل عليه : « وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم » ، فلم يبلغنا عنه صلى الله عليه وسلم انه توقف عن مواصلة احد ممن اظهر الايمان من أهل المدينة ولا من الاعراب ولا انه تجنب احدا مع انه صلى الله عليه وسلم اعلم انه لا يعلمهم ، وان الله تعالى يعلمهم ، بل أبقاهم على ما هم عليه من الولاية المتقدم اليقين بها حتى فضحتهم الآية من سورة براءة فى قوله تعالى : ومنهم ، فلما عرفوا يقينا انتقلت الولاية الى البراءة ، فاطلب ذلك فى موضعه تجده .

وبلغنى عن ناس من اصحابنا الذين بالشرق . بل قد وقفت عليه من قولهم : انهم رجحوا قول اصحابنا فى القتيلين والمقتولين ، ورجحوا قول الزيدية فى الملاعنيين فاعتمد هداك الله على القرآن وما تعلق به يدحض كل قول يخالفه ، فهذا هو الخلاف الذى فى المسئلة .

رجعنا ، فأراد ابو الخطاب رضى الله عنه ان يقطع الاختلاف من جماعة المسلمين بامامته ، فقالوا له لك ذلك

(I) لعله اليزيدية . تأمل

علينا ، فبايعوه على القيام بحقوق الله ، وعلى ما فى الكتاب والسنة واتباع الائمة المهتدين ، فقبل مبايعتهم ، وانصرف الى المدينة ومعه جماعة المسلمين ، وذكر بعض أصحابنا ان ولاية ابى الخطاب كانت على رأس اربعين ومائة سنة ، ثم اجتمع رأيهم على دخول المدينة مدينة طرابلس وبها عامل لابى جعفر المنصور ، فعمدوا الى رجال باسلحتهم فحملوها فى الجواليق على الجمال ، وكأنهم عير أقبلت الى المدينة ، وقد جعلوا افواه الجواليق الى داخلها من اسفل ، وجعلوا مع كل جمل رجلين بالسلاح ، فلما توسطوا المدينة ولم يفطن احد بما صنعوا فتحوا الجواليق ، فخرج الرجال والسلاح فى ايديهم ، وقالوا : لا حكم الا لله ، ولا طاعة الا طاعة الله وطاعة ابى الخطاب ، وقصدوا نحو العامل ليقتلوه ، فأبى عليهم ابو الخطاب من ذلك ، وقال : انما دخلنا عليهم بالامان . فلما رءاهم أهل المدينة وقد شهروا السلاح قالوا : هذه غدرة ، فقال لهم اصحاب ابى الخطاب : لا بأس عليكم لسنا بأهل غدر . فمن اراد العافية منكم فليقم فى منزله ، وخير ابو الخطاب العامل فى الاقامة فى المدينة وينخلع عن العمل ، أو الخروج بالامان . فاختار الخروج الى أرض المشرق ، ودفع لابى الخطاب مفتاح بيت المال فأخذها منه .

فاحسن ابو الخطاب رضى الله عنه السيرة وعدل فى سيرته واحكامه ، وكانت ولاية ابى الخطاب اربع سنين وقد ولي على رأس أربعين ومائة ، وبلغنا ان امرأة من نساء القيروان كتبت بطاقة الى الامام ابى الخطاب رضى الله عنه تشكو اليه جور «ورفجومة» تقول فيما كتبت له : « اما بعد (يا أمير المؤمنين) فان لى ابنة وقد بلغت فى الخوف عليها

ابو الخطاب يهاجم القيروان ليجعل حدا لافساد ورفجومة

من ورفجومة والحوطة عليها ان حفرت حفرة تحت سريرى وصنتها فيها عنهم خشية ان يفسدوها كما فعلوا بامثالها فانظر الينا والسلام» وكانت ورفجومة ولاة مدينة القيروان فلما وصلت البطاقة الى ابى الخطاب رضى الله عنه صادفته وهو يتوضأ ، فقرأها وجعل يبكى رحمة بما نزل بها، فنادى (الصلاة جماعة) واجتمع اليه الناس وصلى بهم ، ثم صعد المنبر خطيبا ، فحمد الله واثنى عليه ثم أخذ فى ترغيب اصحابه فى الجهاد وامر رعيته فى التأهب والاستعداد ، وان يعزموا على المصابرة والجلاد ، فخرج من المسجد وسل عند بابه سيفه وكسر غمده ، قال : لا حكم الا لله ترغيبا فى الجهاد وغضبا لله ولدينه ، وبلغنا من طريق آخر ان ورفجومة اخرجوا امرأة من القيروان وهى تصيح وتقول : اغيثونى معاشر المسلمين ، فلم تجد احدا يدفع عنها فلما بلغ ابا الخطاب رحمه الله ما نزل بها ، واستغاثتها بمعشر المسلمين فلم تجد احدا يدفع عنها قال ابو الخطاب مجيبا لها : لبيك لبيك . وقد ذكر بعض اصحابنا ان امرأة من أهل القيروان طلبها ورفجومة فصاحت من القيروان يا ابا الخطاب اغثنى فمد الله في صوتها فسمعها ابو الخطاب من مدينة طرابلس ، فقال لها : لبيك يا اختاه ، قال الشيخ ابو العباس رحمه الله ولا ينكر هذا وامثاله من كرامات الاولياء يؤيده ما بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله جل وعلا : « لا يزال العبد يخدمنى حتى احبه فاذا احببته وهبت له عينى فيرى بها وسمعى فيسمع بها » الحديث ، ولا تقل العين والاذن ههنا جارحتان ، بل الكلام عليهما كالكلام على امثالهما مما نزل فى القرآن وفيما ورد فى السنة ، وكل ذلك محمول على قدرة الله تعالى ،

قال : فعند ذلك امر ابو الخطاب مناديه بان ينادى : النفير النفير،فعسكر على طرف المدينة حتى اجتمع اليه من اصحابه جموع كثيرة ، ثم ان ابا الخطاب خرج فيمن اجتمع له من اصحابه ومعه عبد الرحمن بن رستم الفارسى رضى الله عنه ، فخرجوا فى سنة ممحلة ذات جوع وجذب ، فأمدهم الله بالجراد، فاذا نزلوا نزل معهم، واذا ارتحلوا ارتحل معهم.

تخيير ابى الخطاب جنده بين الجهاد او الرجوع

وبلغنا ان ابا الخطاب لما خرج أمر مناديه فنادى : ايها الناس من له ابوان كبيران أو احدهما فليرجع ، ومن له عروس قريب عهدها فليرجع ، ومن اراد الرجوع منكم فليرجع بالليل ، فلما جنهم الليل رجعت طائفة من عسكره. فلما كان بالغد أمر خيلا تقطع وراءه فوجد اثر من رجع من الناس الى أهلهم ، ثم فعل ذلك فى الليلة الثانية وفى الليلة الثالثة ، حتى رجعت خيله فاخبرته بانه لم يبق من يرجع ، وانه لم يبق معه الا من له رغبة فى الجهاد ، فعرض عسكره في ستة آلاف، وقال فيما قال : انى لأرجو لمن خرج في عسكرنا ومات مجاهدا ان يكون من أهل الجنة الا من فيه احدى ثلاث : قتل نفس بغير نفس ، وافتراش فى حرام . واقتناء أرض غصبا . فمن كانت فيه هذه الخصال أو واحدة منهن فليعلم انه واجد منهن مخرجا أما قاتل النفس فبان ينقاد لاولياء المقتول ، فان لم يعلم له ولي فليدفع نفسه فى سبيل الله ، واما الاثنتان الاخيرتان فانه ليشهد على نفسه بتركهما والتخلى عنهما . وبلغنا ان ابا الخطاب مر بمدينة «قابس» فحاصر اهلها حتى ضعفوا واذعنوا له بالطاعة فجعل على المدينة عاملا ، وارتحل حتى اذا نزل على القيروان فحاصر

استشهاد عاصم السدراتى فى حصار القيروان

أهلها اشد الحصار ما شاء الله ، وفى مدة حصاره القيروان مرض عاصم السدراتى مرضا شديدا ، وكان من اخيار

أهل العسكر ، وانجدهم، واشهدهم شوكة على أهل القيروان فسمع بمرضه أهل القيروان وانه اشتهى القثاء فبعث أهل القيروان ببائع القثاء ، فسموا واحدة من قثائه ، وأمروه ان لا يبيعها الا لعاصم السدراتى فمضى البياع بما عنده من القثاء الى المعسكر ، فاشترى لعاصم اصحابه تلك المسمومة ، فأتوه بها فاكلها فثار فيه سمها ، حتى هلك ، وقد هرب البياع حين باعها فاستشهد عاصم رحمه الله ، فصاح أهل المدينة اين عاصم السدراتى المقتول بالسم ؟ ثم جعلوا يقولون مات عاصمكم يا بربر . فعلم ابو الخطاب انهم خدعوه وبلغ منه موت عاصم مبلغا عظيما ، فقال لاصحابه : انهم خدعونا وغدرونا ، فسنخدعهم ونغدرهم كما فعلوا ، فخدعهم رحمه الله ، وامر أهل العسكر بان يأخذوا سلاحهم ويخلوا اخبيتهم ويخرجوا تحت الليل ويأخذوا الطريق شبه الهاربين مذعورين ، فاصبح منزل عسكر ابى الخطاب خاليا ، فظن أهل القيروان انهم هربوا منهم ليلا ، وقالوا : انهزمت البربر ، واخذوا بآثارهم ، ومضى ابو الخطاب رحمه الله فيمن معه الى واد وراء فحص رقادة ، وكمن فيه بخيله ورجله، فأخذ اهل المدينة فى طلب ابى الخطاب واصحابه. فلما لحقوا بهم، وجدوهم معسكرين فثار ابو الخطاب واصحابه فى وجوههم ، فهزموهم فتبعهم ابو الخطاب واصحابه ، يقتلونهم ، حتى دخلوا معهم المدينة فتحصلت المدينة لابى الخطاب فى سنة احدى واربعين ومائة من التاريخ

فلما ولى ابو الخطاب المدينة استعمل عليها عبد الرحمن ن رستم رحمه الله ، وقد أمر ابو الخطاب اصحابه حين كان فى حصار المدينة ان لا يفسدوا زرعا ولا غيره .

انه لا يشبه من ولي عليكم من قبل

وحدث بعض أصحابنا ان شيخا من شيوخ القيروان بعث ابنا له يرتاد مزرعة كانت له بقرب منزل عسكر ابى الخطاب فقال يا بنى : اذهب وانظر هـل بقي فى مزرعتنا شيء ، قال : فخرج الغلام الى المزرعة فوجدها سالمة لم ينلها فساد ، فرجع الغلام الى ابيه فأخبره ، فعجب لذلك وعجب الناس لعدل ابى الخطاب وسيرته وطاعة اصحابه له فيما يأمرهم به وينهاهم عنه . وكان من مقالة الشيخ المذكور اذ ذاك لمن حضره من أهل القيروان : أتظنون ان ابا الخطاب يشبه من ولي عليكم قبله دينا وفضلا ؟ وان سيرتهم كسيرته حسنا وعدلا ؟ كلا والله . أين مثل ابى الخطاب فى سيرته وعدله وفضلـه !

وبلغنا ان امرأتين قد خرجتا من القيروان حين فتحها الله لابى الخطاب بعد هزيمة اهلها ، فنظرت احداهما الى القتلى مزملين فى ثيابهم كانهم رقود ، فقالت لصاحبتها : انظرى اليهم كانهم رقود . فسمي ذلك الموضع رقادة الى اليـوم . ولما دخل ابو الخطاب المدينة أمر اهل المدينة بأن يخرجـوا الى قتلاهم ليدفنوهم .

المحارب الموحد لا يحل سلبه

وقد أمر ابو الخطاب من يتفقد القتلى ، فوجد قتيـلا واحدا منهم مسلوبا ، وأمر مناديا ينادى فى عسكره من نزع عن احد من القتلى شيئا فليردده ، فلم يرد احد شيئا . فعلم ان سالبه عمل غير صالح ، فلما أيس من رده سلـب القتيل المذكور طوعا ، ومخافة من عقاب الله تعالى ، دعـا ابو الخطاب ربه عز وجل ان يفضحه ويظهره على اعـين الناس ، فامر ابو الخطاب فرسانا من عسكره بان يخرجـوا ويجروا خيلهم بين يديه وكان فيهم رجل فارس من سدراتة فلما اجريت الخيل انقطع حزام سرج السدراتى ، فوجـد

كساء سفسارية تحت سرجه ، فسقط الكساء على اعين الناس . وقيل بل كان جبة حرير . قلت والجراد أيضا عند الاحتياج اليه واجابة الدعاء على الخائن كل ذلك من الكرامات فأخذه الامام رحمه الله فعزره حسب ما اقتضاه الاجتهاد .

وبلغنا ان ابا الخطاب رضى الله عنه لما هزمهم احسن فيهم السيرة وامر اصحابه ان لا يتبعوا مدبرا ، ولا يجهزوا على جريح فقال رجل من لواتة من عسكر ابى الخطاب يقال له خالد أناكل من اموالهم كما يأكلون اموالنا ويعتقدون انها غنيمة احلت لهم ؟ فقال : ابو الخطاب رحمه الله ان فعلنا كما فعلوا فحق على الله ان يرفضنا ويدخلنا معهم جهنم فنكون كما قال الله تعالى : « كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء اضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون» (1) ثم ان ابا الخطاب توجه الى مدينة طرابلس وقد استعمل عبد الرحمن بن رستم رحمه الله على القيروان . وعلى ما يليها من المدن ، فاستعمل عبد الرحمن على كتابته رجلا منهم يقال له عبد الله بن عقيب ، فصلحت احوال الناس .

ان فعلنا بهم مثل ما فعلوا بنا تكون متساوين فى الذنب

وقد كان الرجل السدراتى لما لم يتجاوز عنه ابو الخطاب رأى ان قد نزلت عليه مصيبة عظيمة فى اجتماع الفضيحة والاعانة عليه ، فسار مغضبا ، متوجها الى بغداد ليستنفر منها جيشا من تلقاء ابى جعفر المنصور ، فلما وصل بغداد طلب الدخول على ابى جعفر فوقف على الباب سنة لا يؤذن له فى الدخول على ابى جعفر ولا بالانصراف ، فبعد تمام

(1) سورة الاعراف : آية 37 ـ 38

قدوم ابن الاشعث من قبل العباسيين لمحاربته

حول اذن له ابو جعفر فى الدخول ، فدخل عليه وخلا به ، وسأله عن حاجته ، فقال له : حاجتى ان تنفذ معى عسكرا الى ناحية المغرب ، فامر ابو جعفر بالاستعداد بالمسير الى أرض المغرب ، فانفذ جيشا وجعل عليه محمدا بن الاشعث الخزاعى اميرا . وذكر بعض اصحابنا ان عدد أهل العسكر خمسون ألفا ، وقال : بعضهم سبعون ألفا ، فجعل على طائفة من العسكر رجلا دون ابن الاشعث ، فتوجه ابن الاشعث قاصدا الى ابى الخطاب،فلما انفصل العسكر من مصر ارسل عيونه فكانت العيون تختلف بين الفريقين باخبار كل منهما الى الآخر ، وبجميع ما يحدث عندهم . فقدمت عيون ابن الاشعث من عند ابى الخطاب فسألهم عن اخباره ، فقالوا له أنجمل ام نفصل ؟ فقال : بل اجملوا ، فقالوا رأينا رهبانا بالليل واسدا بالنهار ، يتمنون لقاءك كما يتمنى المريض الطبيب ، لو زنى صاحبهم لرجموه ولو سرق لقطعوه ، خيلهم من نتاجهم ، ليس لهم بيت مال يرتزقون منه وانما معاشهم من كسب ايديهم . فلما سمع ابن الاشعث ما وصفوه هاله ذلك ، فشاور الامير الذى دونه فى الرجوع فأبى له من ذلك .

مناورة ابن الاشعث

ولما رأى ابن الاشعث ذلك وخاف تفرق الكلمة ، عمد الى رجال من عسكره فامرهم ان يتزيوا بزي الرسل ، كأنهم قدموا من ارض المشرق ، واودعهم كتابا استخرجه على لسان ابى جعفر ، وامرهم ان يتنحوا عن العسكر ، فاذا كان وقت الضحى من الغد اقبلوا كأنهم قادمين من بغداد بكتاب خليفتهم ، فلما كان الوقت الذى وعدهم بالقدوم فيه اقبلوا ، فلما رءاهم أهل العسكر تبادروا ، وأتوا بهم الى ابن الاشعث ، فناولوه الكتاب الذى

قدموا به ، فقرأه وأظهر ان ابا جعفر امـــره بالرجــوع ، فرجع بالعسكر لما اعتل به من أمر ابى جعفر اياه بالرجوع لامر هو احوج اليهم فيه مما توجهوا اليه ، فرجع ، وكره صاحب ابن الاشعث الرجوع فلما رءاه كذلك أرسل اليه وأمر به فقتل ، فخيل الى الناس ان ابا جعفر امره بذلك ، وضم الى نفسه العسكرين . ثم انه كر راجعا الى المشرق وتباطأ في سيره، وقرب المراحل، والعيون تختلف باخبار الفريقين فاذا ارتحل ابن الاشعث أول النهار نزل عند انتصافه ، فاذا كان غدا ارتحل، وعيون ابى الخطاب كلما رأت ابن الاشعث ارتحل مرحلة رجعت منهم طائفة ، وابن الاشعث كلمـــا ارتحل مرحلة أمر خيلا تقطع الاثر خلفه لتنظر هل بقي فى عسكره من عيون ابى الخطاب أم لا ، وعيون ابن الاشعث فى عسكر ابى الخطاب مقيمة ، فلما وصلت عيـــون ابى الخطاب اليه من عسكر ابن الاشعث تخبره برجوعه ــ وقد اجتمع على ابى الخطاب زهاء تسعين ألفا ــ ابتدرت الناس الى مواطنهم وذلك فى زمان الحصاد ، فقال لهم ابو الخطاب يا قوم : ان العرب أهل مكر وغدر ، فلا تفترقوا عـــن ملككم ، حتى تستيقنوا برجوع القوم ، وغلبت عليه العامة فأذن لهم بالحاق (I) أهليهم فساروا وتفرقوا عنـــه ، وفى كل ذلك لم تزل عيون ابن الاشعث فى عسكر ابى الخطاب .

مباغتة ابن الاشعب لابى الخطـاب

فلما تيقنوا تفرق جموع ابى الخطاب اسرعوا بالمسير الى صاحبهم ، فاخبروه بافتراق العسكر عن ابى الخطاب ، فكر ابن الاشعث راجعا يطوى المراحل ، فلم يشعـــر ابـــو الخطاب الا وعسكر ابن الاشعث قد غشي حيز طرابلس ، وأبو الخطاب بها مقيم فقال لاصحابه ان العدو قد غشي

(I) كذا فى النسخ لعله باللحاق بأهليهم

حريمي فلا يسعنى القعود عن المدافعة عن رعيتي ، وقـد اعلمتكم من قبل بما كنت اتوقعه من مكر العـرب ، قال ففرق الرسل ابو الخطاب فى البلدان تستنفـر عسكـره ، وتستمدهم فارسل الى عبـد الرحمن بن رستم يستحثه ، فأمر ابو الخطاب اصحابه بالخروج فاشار عليه بعضهـم بالاقامة حتى تاتيه امداده ، فابى الا الخروج ، وقـال : لا يسعنى المقام ، وقد دخل العدو حريم رعيتي ، حتى ادفع عنها ما غشيها أو الحق بالله ، فخرج بمن حضره من اصحابه ومن بقرب المدينة من نفوسة وهوارة وزويشة وغيرهـم ، يريد محمد بن الاشعث فالتقيا « بتاورغا » وهو على مسيرة ثمانية أيام من طرابلس .

« مقتل ابى الخطاب واصحابه رحمهم الله »

حدث غير واحد من اصحابنا ان ابا الخطاب لما سمـع برجوع ابن الاشعث اليه خرج بمن حضره من اصحابه فأجد السير اليه ، فوجده ابو الخطاب قد سبق الى الماء نازلا عليه فقال ابن الاشعثِ لاصحابه : ان نزل أبو الخطاب واصحابه واستراحوا وسقوا كراعهم ، واستقوا فانكم لا تظفرون بهم بشىء ، ولا طاقة لكم بهم ، والا فانتم أقدر عليهم منهم عليكم ، وهذا بتاورغا ، فلما وصلهم ابو الخطاب وعسكره شاقت نفوسهم الى لقائهم ، والجهاد فى سبيل الله على بصيرة فلاقاهم ابو الخطاب فى قلة والعدو فى كثرة ، فاسرع القتل فى اصحاب أبى الخطاب واشتد القتال فكان الرجال بـين الصفين تنهدم كالحيطان ، ولم يبرح ابو الخطاب واصحابه رحمهم الله حتى استشهدوا جميعا ، وكانوا فى أربعة عشر ألفا فيما ذكر الرواة ، وقد ذكر بعضهم اثنى عشر ألفا ، فلم ينج من القتل الا اليسير ، فتسامعت رعيته بمقتله ،

فهربوا الى الجبال ، ولجأوا الى الحصون المنيعة والقـــــلاع العالية . وبلغنا ان عبد الرحمن بن رستم رحمه الله لما وصلته رسل الامام اسرع ليلحق به ، فلما انتهى الى مدينة « قابس » تلقاه مقتل الامام وعسكره ، فافترقت عساكره وكر راجعا الى مدينة القيروان ، فلما سمع عبد الرحمن بن حبيب بمصاب ابى الخطاب ومن معه وتفرق العساكر ثار من مدينة القيروان ، وطلب عبد الرحمن بن رستم فلـم يجده ، فلم يــزل يبحث على اخباره حتى ظفر به فابتدره رجل من أهل القيروان من اصحاب عبد الرحمن بن رستم الى عبد الرحمن بن حبيب شافعا اليه فيه فقال له ايها الامير لى اليك حاجة ، فقال حوائجكم كلها مقضيـــة ، الا عبـــد الرحمن بن رستم ، رضى الله عنه ، فقال ان لم أسألك فى عبد الرحمن بن رستم ففيم أسألك ؟ فتركه له . وبلغنــا ان عبد الرحمن بن رستم لما اراد استعمال ابن حبيب على بعض اموال المسلمين قال : يا معشر المسلمين ، لا تولوا ابن حبيب امور المسلمين ، فانه ابليس الا ان عليه بشر ابن آدم ، فحقدها عليه ابن حبيب .

خروج عبد الرحمن الى المغرب الاوسط

فلما تفرق جنود ابى الخطاب وجنود عبد الرحمن بـن رستم وتخلص من ابن حبيب خرج عبد الرحمن هو وابنه عبد الوهاب وعبد لهما خائفين مستخفــين ، متوجهـين الى أرض المغرب ، وليس معه حمولة ولا مركوب غـــير فرس واحد ، فمات الفرس فى بعض الطريق ، فدفنوه مخافـة ان تقص أثرهم ، فيطمع فيهم ، وذلك فى خارج قسطيلية ، فسمى ذلك الموضع « قبر الفرس » فلما عدموا الفرس وقد ضعفت قوى عبد الرحمن تعاون عليه ابنه يحمله تـارة ، ويحمله العبد أخرى ، فاذا حمله العبد قال عبد الوهاب :

ان ادركنا العدو فلا تحططا ابى عن ظهرك لما دون خمسمائة ونحوها ، واذا عيى العبد وحمله عبد الوهاب قال : له العبد كقوله له ، فلما وصلوا حول واد ، أجج (1) وهو جبل منيع قصده عبد الرحمن وتحصن به .

تحصن عبد الرحمن بجبل سوفجج

وحدث أبو الربيع سليمان بن يخلف رحمه الله عمن حدثه : ان عبد الرحمن لما تحصن بوادى اجج وتحصن بالجبل ، لحقه هنالك ستون شيخا من شيوخ الاباضية من طرابلس ، وسمع ابن الاشعث بذلك ، فأقبل مجدا معدا فى طلبه ، فأخبر بأنه فى جبل منيع ، حتى وصله فحاصر عبد الرحمن بن رستم بعد ان عسكر على عسكره مخافة ان يأتيه ابن رستم واصحابه ، فأطال المكث تحته فوخم عسكر ابن الاشعث ووقع فيهم الجدرى ومات منهم خلق كثير ، فجمع ابن الاشعت اصحابه فقال لهم مستشيرا : قد رأيتم هؤلاء القوم وما هم فيه من المنعة واقامتنا عليهم لا تجدى شيئا ، فما ترون فى الاقامة عليهم أو الارتحال عنهم ؟ فاختلف رأيهم ، فجد هو على الارتحال ، فرجع الى القيروان وقد يئس من عبد الرحمن واصحابه ودخلها وتحصن فيها .

ولاية ابى حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزى الهوارى رحمه الله ورضى عنه

حدث غير واحد من اصحابنا ان ابا حاتم ولى مدينة طرابلس فى رجب سنة اربع وخمسين ومائة ومكث فيها اربع سنين ، وكانت ولايته ولاية دفاع ، وطلب الحق ، يرسل ثقاته بما يجتمع من مال الصدقة الى عبد الرحمن

(1) كذا اثبت فى النسخ ، وما تثبته المراجع الاخرى : سوفجج

قبل ظهوره ، وسبب ولاية ابى حاتم ان جماعة من اصحابه من بقية من كان مع أبى الخطاب لما أنسوا من نفوسهم فى حيز طرابلس بعد ابى الخطاب قوة ، هموا بالاجتماع لامر ابرموه ، فاظهروا عن انفسهم غيره ، كما فعلوا أول مـــرة فى تولية ابى الخطاب ، فعزموا على القيام على حيز طرابلس وواليها من قبل ابى جعفر المنصور فسمع الوالى باجتماعهم فأخرج اليهم خمسمائة فارس ، وأمر عليهم أميرا منهـــم . فلما وصلتهم الخيل ، قال لهم امــيرها : اجيبوا بالطاعـــة لامير المؤمنين ، قالوا اجبنا بالطاعة لامير المؤمنين . لا يعنون ابا جعفر ، وامير الخيل يعتقد انهم عنوه ، فرجع بخيلـــه الى والى المدينة ، فاخبروه باجابتهم ، فلم يقنعه ذلك منهم . ثم أن جماعة اعيان اهل الدعوة اجتمعوا ليلـــــة منصرف الخيل عنهم ، واتفقوا على عقد الامامة لابى حاتم ولايــــة الدفاع ، فعقدوها له فى ليلتهم تلك ، فلما اصبح خـــرج اليهم الوالى بنفسه فى خيل عظيمة ، فلما اتاهم قال اجيبوا لطاعة امير المؤمنين ، قالوا اجبنا لطاعة امير المؤمنين ، قال اجيبوا لطاعة امير المؤمنين ابى جعفر المنصور ، فقالــــوا عليك لعنة الله ، وعلى أي كافر معك ، يعنون ابا جعفـــر فناجزهم القتال فاقتتلوا قتالا شديدا فهزمهم أبو حاتـــم ومن معه من أهل الدعوة ، فاتبعوهم يقتلونهم حتى دخلوا مدينة طرابلس ، فمات من ذوى الجبابرة بشر كثير .

القتيل من اهـــل التوحيد لا يسلـــب

وبلغنا ان ابا حاتم لما هزم الله على يديه العدو وقد كان معه من عوام البربر من لا نظر له فى امور الدين وانمـــا حضروا تسليما لامور المسلمين فعمدوا الى أسلاب القتلى فنزعوها عنهم ، فغضب ابو حاتم لذلك ، وقال ليس مــــن سيرة المسلمين اذا قتلوا من بغى عليهم من أهل التوحيـــد

ان يسلبوه ، بل يقولون لاهل المدينة ارجعوا الى قتلاكم فادفنوهم وخذوا ثيابهم . والآن اما رددتم الاسلاب ، واما اعتزلت اموركم ، وتركت الولاية ، فلما سمعوا ذلك منه اطاعوه وردوا اسلاب القتلى . فدخل ابو حاتم رحمه الله مدينة طرابلس اثر الهزيمة فاقام بها ما شاء الله ، ثم نادى بالخروج الى افريقية ، فبلغنا انه خرج اليه جيش من افريقية ، فتلقاه ابو حاتم ببعض الطريق ، فقاتلهم فهزمهم الله له ، واحسن فيهم السيرة ، فلم يجهز على جريح ولم يسلب قتيلا .

حصار ابى حاتم للقيروان وتسريح جيش ابن الاشعث

فلما نزل بالقيروان حاصر اهلها سنة ، وطال الحصار على اهلها فالقوا السلم واذعنوا واطاعوا ، الا ما كان من ابن الاشعث فانه انحجز في دار الامارة في بقية من أصحابه الذين قدم بهم من أرض المشرق ، فحاصره ابو حاتم سنة أخرى ، بعد دخول المدينة فاجلى ابو حاتم من بها من بقية جند ابن الاشعث فاعطى كل خمسة منهم قربة وخشبة يحملون عليها قربتهم ، واعطاهم خنجرا يصلحون به نعالهم ، واعطى كل رجل من الخمسة رغيفا لزاده ، فتفرق اولئك البقية منصرفين الى المشرق ، وذكر بعض اصحابنا ان السدراتى المجلود على الخيانة الذى جلب العسكر من المشرق ندم على ما فعل من اعانة العدو على قومه ، واهل مذهبه ، واذاءته اياهم ، فخرج ببقية العسكر يريد بهم المشرق ، واظهر لهم انه يريد ان يردهم الى بلادهم فاخذ بهم طريقا مضلة فهلكوا عن آخرهم .

ذكر وقعة مغمداس

وبلغنا ان ابا حاتم سمع بطوالع اقبلوا من المشرق فخرج من مدينة طرابلس فتلقاهم بموضع يقال له (مغمداس)

على مسيرة ثمانية ايام من المدينة ، فلما وصلهم ابو حاتم صفوا واقتتلوا قتالا شديدا ، فهزم الله على يديه العدو ، فقتل منهم ستة عشر ألفا ، وبلغنا ان رجلا من الحضر لقى رجلا من أهل الدعوة ، فقال له المخالف ما تفسير تاورغا ؟ (يقرعه بمقتل أبى الخطاب واصحابه رحمهم الله) وكان صاحبنا فطينا فاجابه ، بان قال تفسيرها : مغمداس فيه أربعة اكداس ، فى كل كدس اربعة آلاف ، ثم لما هزمهم رجع الى طرابلس وحسنت حالته فيها .

مقتل ابى حاتم واصحابه رحمهم الله

مقدوم يزيد ابن حاتم الازدى بجيش من المشرق

وبلغنا ان ابا حاتم لما تمكن فى مدينة طرابلس دس الكتب الى المشرق من بقي من الطوالع بطرابلس والقيروان الى ابى جعفر ببغداد ، يشكون ابا حاتم . ويستقضون عليه ، فأنفر الى ابى حاتم جيشا كبيرا . وامر عليه يزيد ابن حاتم الازدى قال : فلما انفصل يزيد بن حاتم من مصر بعساكره ، وسمع ابو حاتم بتوجهه ، جمع اصحابه ومن ولى عليه من القبائل ، فحضهم على الجهاد ورغبهم فى الاستشهاد . ولما قرب يزيد من حيز طرابلس خرج اليه ابو حاتم بمن معه من اصحابه ، حين نزل موضعا يقال له « جنى » ومعه قبيلة من البربر يقال لها مليلة ، يزيد بن حاتم على ابى حاتم ، فسأل ابو حاتم من حضره من هوارة . هل أعان ابن حاتم علي أحد من البربر ؟ فقالوا : ليس أحد من البربر الا قبيلة واحدة من هوارة . يقال لها مليلة فقال ابو حاتم : اللهم اذلل مليلة ، فاجاب الله دعوته ، فبقيت فيهم الى اليوم ، فهم اذل البربر ، قيل وكان مع ابن حاتم رجل من نفوسة يقال له عمر بن مطكود لا غير .

استشهاد ابى حاتم ومن معه

فلما التقى الفريقان اقتتلوا قتالا شديدا ، فاستنجز القتل فى اصحاب ابى حاتم ، فلما رأى ذلك ابو حاتم قال لاصحابه : زفونى الى الموت فى سبيل الله زفاف العروس ، وقفوا لى قليلا قال ، فتقدم ابو حاتم رحمه الله حتى استشهد ومن معه من اصحابه وهم .. .. (I) رحمهم الله .

وبلغنا ان الموضع الذى استشهدوا فيه يرى فيه نور ساطع يضىء فى كل ليلة الخميس يبصر من بعيد ، يصعد عمودا فى السماء وكذا ذكر من شاهده من أهل عصرنا على الصفة المذكورة . وحدث يعقوب بن يوسف اليجرانى انه اجتاز هو وصاحب له بالموضع المذكور ، فى ليلة شديدة الظلمة ، وكانت ليلة الخميس ، فلما هبطاه وهو فى مطمئن من الارض ، اضاء لهم النور حتى تبين اثر الحشرات فى الارض ، كما تتبين نهارا ، فلما خرجا منه دخلا فى مظلمة عظيمة ، فالتفتا الى الموضع فاذا الضياء ساطع فى الهواء ، والظلمة تحفهم من كل جانب فعادا ، الى الموضع فطفقا يدعون الله تعالى لما تبيناه من كرامة ، وكان يعقوب رجلا شجاعا شديد المرة لا يروعه هول ولا يصيبه خور ، بل كان ثبتا لا يتهم خبره .

امامة عبد الرحمن بن رستم
رحمه الله ورضى عنه

حدث غير واحد من اصحابنا ان عبد الرحمن بن رستم ولى بتاهرت على رأس ستين ومائة ، وذكر بعضهم انه ولى

(I) بياض فى الاصل

سنة اثنين وستين ومائة ، والله اعلم أى التاريخين أصح

وسبب ولايته ان جماعة اهل الدعوة اتفقوا على ان ينتخبوا موضعا يبنون فيه مدينة تكون حصنا لهم ، فارسلوا رجالا من ذوى المعرفة ، وفرقوهم فى الجهات يتخيرون مكانا يصلح لما حاولوه ، ورجعوا وقد وقع اختيارهم على تاهرت ، فدلوهم عليها ، فاتفق جمهورهم مع أهل تاهرت القديمة على شيء معلوم يأخذونه على غلتها ، وقد كانت قبل ذلك رياضا لا عمارة فيها الا السباع والهوام .

انشاء مدينة تاهرت

فلما اتفقوا على عمارتها امروا مناديا ينادى بسباعها ووحوشها وهوامها انا اخرجوا فانا اردنا عمارة هذه الارض فأجلوها ثلاثة ايام ، وبلغنا انهم رأوا وحوشها تحمل أولادها خارجة بها منها ، فكان ذلك مما رغبهم فى عمارتها وقوى عزمهم على انشائها. ثم انهم اطلقوا النيران فاحترقت اشجارها ، وبقي أصول ما احترق منها فشق عليهم مؤونة اقتلاعها ، فعمدوا الى حيس فلثوه بعسل ، وجعلوا تحت اصل كل شجرة منها شيئا قليلا ، فلما جن الليل طرقت الخنازير تلك الاصول ، فجعلت تتبع رائحة الحيس ، وتحفر تحت الاصول ، حتى أتت على آخرها ، فلما اصبحوا وجدوها مقتلعة ، فعمدوا الى مكان فأصلحوه لصلاتهم ، فلما ارادوا بناءه وقع اختيارهم على اربعة مواضع فاقرعوا عليها ، ايها يجعل المسجد الجامع ، فوقعت القرعة على المكان الاول الذى اصلحوا لصلاتهم ، فبنوا الجامع به ، ثم اخذوا فى انشائها وعمارتها ، فجعلوها ديارا وقصورا .

سبب اختيار عبد الرحمن للامامة دون غيره

ثم ان أهل الخير والصلاح وذوى الآراء السديدة من جماعة أهل الدعوة رأوا ان لهم قوة تجب معها عليهم تولية امام . فتشاوروا فيمن يرون لذلك أهلا من القبائل ، فوجدوا من كل قبيلة رأسا أو رأسين ، فكل منهم أهل لذلك فقال فضلاؤهم : ان عبد الرحمن بن رستم ممن لا تجهلون فضله ، وهو احد حملة العلم وعامل الامام أبى الخطاب رحمه الله ، وقد كان المسلمون عرضوا عليه الامامة قبل تولية ابى الخطاب فاعرض عنها ودفعها عن نفسه فهو أهل للامامة لدينه وعلمه ، وسابقته ، ومكانه ، وغير ذلك من حميد أوصافه ، لا سيما وليست له قبيلة تمنعه ان بدل أو غير . فان رأيتم توليته أموركم فافعلوا ، فاتفق رأيهم جميعا على توليته ، فبايعوه على الامامة ، بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآثار الخلفاء الراشدين ، فأحسن السيرة فى امامته ولم ينقم عليه أحد فى حكومته ، ولم يكن فى ايامه اختلاف ، والاباضية كلها يومئذ مجتمعة متآلفة لم يثر فيها ثائر .

وصف مدينة تاهرت وكيف انشئت

قال الشيخ ابو العباس وقد وقفت فى كتاب المسالك والممالك من ذكر بناء تاهرت على ما هو أوضح وأزيد فائدة ، ورأيت ان اثبته فى هذا الموضع وان كان فى بعضه خلاف لما صححناه عن المشائخ . ذكر ابو عبيدة البكرى « ان تاهرت مدينة مسورة لها اربعة ابواب ، باب الصفاء وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن ، ولها قصبة مشرفة على السوق وتسمى المعصومة ، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة ونهر آخر يجرى من عيون تجتمع تسمى « نافس » ومنها شرب بساتينها وهى فى شىء ، وفيها

جميع الثمار وهى شديدة البرد كثيرة الغيوم ، والثلــج .
قال أبو عبد الرحمن بكر بن حماد : (I)

ما أحســن البــرد وريعـانــه
وأطــرف الشمــس بتـاهـرت

تبــدو مــن الغيــم اذا مــا بــدت
كأنهــا تنشــر مــن تحــت

فنحـــن في بحــر بــلا لجــة
تجــرى بنــا الريــح عــلى السمت

نفــرح بالشمس اذا مــا بــدت
كفــرحــة الــذمي بالسبــت

وتاهرت الجديدة على خمسة اميال منها تاهرت القديمة وهى فى شرق الحديثة ، ويقال انهم لما ارادوا بناء تاهرت كانوا يبنون بالنهار ، فاذا جن الليل واصبحوا وجــدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حينئذ تاهرت السفلى ، وهى الحديثة وكان صاحب تاهرت ميمون بن عبد الوهاب بـن عبــد الرحمن بن رستم ، بن بهرام بن ذو شراز بن سابور بــن بابكان بن سابور ذى الاكتاف الملك الفارسى . كان ميمون رأس الاباضية وامامهم ، وامام الصفار ، والواصليــة ، وكان يسلم عليه بالخلافة ، وكان مجتمع الواصلية قريبا من تاهرت ، وكان عددهم ثلاثين ألفا ، فى بيوت كبيوت الاعراب يحملونها ، وتعاقب مملكة تاهرت بنــو ميمون وبنــو اخويه اسماعيل وعبد الرحمن بــن الرستمية الى سنة ستة وتسعين ومائتين 296 ، فوصل ابو عبد الله الشيعى

(I) هو الاديب المشهور والشاعر التاهرتى ولد بها وتوفى بها سنة 292 هـ

مدينة تاهرت فدخلها بالامان ثم قتل فيها من الرستمية عددا كبيرا، ، وبعث برؤوسهم الى اخيه ابى العباس ، واطيف بها فى القيروان ، ونصبت على باب رقادة . واقام ملك بنى رستم بتاهرت مائة وثلاثين سنة . وذكر محمد ابن يوسف ان عبد الرحمن بن رستم كان خليفة لابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح بن عبيد بن حرملة ايام تملكه على افريقية ، فلما قتله محمد بن الاشعث الخزاعى وذلك فى صفر سنة اربع وأربعين ومائة 144 هرب عبد الرحمن باهله وما خف من ماله ، ونزل القيروان فاجتمعت اليه جماعة من اصحابه واتفقوا على تقديمه وبنيان مدينة تجمعهم ، فنزلوا موضع تاهرت البرج وهو غيضة اشب ، ونزل عبد الرحمن منها موضعا مربعا لا شجر فيه ، قال البربر : (نزل تافدمت ، تفسيره : الدف شبهوه بالدف لتربيعه ، وادركتهم صلاة الجمعة فصلوها هنالك فلما انقضت الصلاة ثارت صيحة شديدة على اسد ظهر فى الشعراء فاخذ حيا وأوتى به الى الموضع الذى صلوا فيه فقتل هنالك ، فقال عبد الرحمن بن رستم هذا موضع لا يفارقه سفك دم ، ولا حرب ابدا ، وابتدروا من تلك الساعة فبنوا فى ذلك الموضع مسجدا وقطعوا خشبه من تلك الاشجار ، فهو كذلك الى اليوم ، وهو مسجد جامع وهو من اربع بلاطات ، قال : وكان موضع تاهرت ملكا لقوم مستضعفين من منداس وصنهاجة فراودهم عبدالرحمن على البيع ، فأبوا ، فوافقهم ان يودوا اليهم الخراج من الاسواق ، ويبيحوا لهم بنيان المساكن فاختطوا وبنوا ، وسمى موضع تاهرت معسكر عبد الرحمن الى اليوم . (I)

(I) راجع المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب . وهو جزء من كتاب المسالك والممالك من ص 66

امداد من اباضية المشرق لعبد الرحمن

قال الشيخ : وبلغنا ان الوالى على أهل عمان في ايام عبد الرحمن رجل يسمى عبد الوارث ، وأبو عبيدة حي اذ ذاك وفى امامة عبد الرحمن رحمه الله . ثم ان ولاية عبد الرحمن بالمغرب اتصلت بمن بالبصرة من أهل الدعوة فبعثوا اليه بثلاثة احمال مالا ، فلما وصلت الرسل تاهرت جعلوا يسألون عن دار الامارة وقد خلفوا المال بخارج المدينة ، فلما وصلوا الدار ، وجدوا الامام رحمه الله فى أعلى بيت يعمل بيده فى السقف ، والعبد يناوله الطين ، فسألوا العبد ان يأذن لهم ، ويستأذن عليهم . وقد علم العبد ان سيده يسمع كلامهم ، فقال له : اخرهم قليلا : فنزل وغسل من الطين جسده ، فأذن لهم ، فدخلوا فسلموا عليه ، وامر بخبز وسمن فقدم بين ايديهم فلما أكلوا استأذنوا للتنحي عنه للنجوى ، فأذن لهم ، فتناجوا واتفقوا ان يدفعوا له المال ، وانهم راضون ما عاينوه من احواله . فلما وصلت الاموال ووضعت للامام ، شاور اصحابه فيها فاشاروا عليه بان يأخذها ، ويبثها فى فقراء المسلمين ، وفى الاسلام ، وفعل رحمة الله ذلك بمحضر الرسل .

يرد مساعدة اباضية المشرق حيث صاروا فى غنى عنها

فلما رجعت الرسل الى المشرق اعلموا اخوانهم بسيرة عبد الرحمن وعدله وفضله ، وبعثوا بعد ذلك باموال اكثر من الاولى ، فلما وصلت الى عبد الرحمن شاور اصحابه أيضا ، فقالوا : رأيك يا امير المؤمنين ، فقال اما اذ رددتم الي الرأي ، فان رأيى ان يرد الى أهله ، فهم أحوج منا اليه فقد قوانا الله واغنانا ، فله الحمد ، فشق ذلك على الرسل وليس لهم بد من طاعة الامام ، فعجب أهل المشرق من زهادة الامام فى الدنيا ورغبته فى الآخرة فأقروا بامامته ووصلوه بكتبهم . فكانت تاهرت حرزا وحصنا لجماعة

أهل الدعوة وسميت المعسكر المبارك . قلت اما كون الامام رحمه الله وافق اصحابه في صرف المال الاول في الوجوه التى ادلوا بها لما رأى في ذلك من سد الخلل ، وأما رده المال الآخر فلعله تعلق بقوله صلى الله عليه وسلم تؤخذ من اغنيائكم وترد في فقرائكم ، فقصد التخصيص في الاضافة ورأى فقراء موضع أخذت منه الزكاة بها أولى ، ولعله علم ان في المال الاول مالا غير مال الصدقة ، وان المال الآخر كله من مال الصدقة فرأى فيه الرأي الذى ذكرته من صرفه في فقراء الجهة التى أخذ منها المال .

يجعل الامامة بعده شورى بين ستة انفار

قال : فلما حضرت الوفاة عبد الرحمن رحمه الله جعل الامامة شورى في ستة نفر كصنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه : احدهم مسعود الاندلسى ، وكان فاضلا فقيها ، ورعا من شيوخ المسلمين ، وابو قدامة يزيد بن فنديين اليفرني ، ومروان الاندلسى ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن ، وابو الموفق سعدوس ابن عطية ، وشكر بن صالح الكتامى ، فلما مات رحمه الله اجتمع أهل الشورى يتفاوضون فيمن يولونه أمور المسلمين فتدافعها بعضهم الى بعض . الا ان عامة المسلمين مالت نفوسهم الى اثنين من النفر المسميين ؛ احدهما مسعود ، والآخر عبد الوهاب فبعضهم أراد تولية هذا ، وبعضهم أراد تولية هذا ، فمكثوا نحو شهرين يرون الرأى ثم ان الجمهور رجحوا مسعود أو مالت نفوسهم الى توليته ، فتبادروا ليبايعوه ، فهرب واختفى فابتدروا عبد الوهاب ليبايعوه فلما سمع مسعود بتركهم اياه وطلبهم عبد الوهاب خرج مبادرا ليكون أول

من يبايعه ، وكان ابو قدامة لما لم تمل قلوب الناس اليه ورأى انه قد خلا منها اراد تولية عبد الوهاب وقال : هو منا أقرب رحما من غيره ، فلعل ذلك يعطفه علينا ، وانما قال ذلك لان ام عبد الوهاب يفرنية فرجوا ان يؤثرهم في الامر ، فقام ابو قدامة في نفر من اصحابه فأبوا الا مبايعة عبد الوهاب لما يرجونه من ايثاره اياهم ومع ذلك فقد تخوفت نفوسهم منه .

امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن رحمهما الله

فلما اراد الناس مبايعة عبد الوهاب تقدم مسعود الاندلسي ليبايعه فعارضه ابن فندين واصحابه بالقول ، فقالوا نبايعه على شرط ان لا يقضي أمرا دون جماعة معلومة ، فقال لهم مسعود : لا نعلم في الامامة شرطا غير ان يحكم فينا بكتاب الله وسنة نبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فترك ابن فندين واصحابه الشرط . فتقدم مسعود فبايع عبد الوهاب وبايعه الناس بعد ذلك بيعة عامة وحملوه الى دار الامارة ولم يتخلف عن بيعته احد ولم ينقم عليه احد في حكومة ولا في أمر من أموره حتى نجم ابن فندين واصحابه .

لا نعلم في الامامة شرطا غير ان يحكم بكتاب الله وسنة رسوله

أول افتراق في الاباضية

مع ان طائفة تنتحل اسم الاباضية يقال لهم (العمرية) لم تجمعنا واياهم العمرية من قبل وهم يزعمون انهم اباضية ، ويسندون مذهبهم الى عبد الله بن مسعود رحمه الله وهم تبع عيسى بن عمير ، وسنفرد كتابا في الرد عليهم ، ونقض ما خالفوا فيه أهل الحق ، ونذكر فيه

الافتراقات والرد على كل فرقة خالفت أهل الحق ، قلت انما نبه الشيخ رحمه الله على ذكر العمرية ليعلم ان الافتراق قد كان من قبل ، وانما عنى هنا أول الافتراق بالمغرب ، قال الشيخ اسماعيل بن صالح رحمه الله سألت الشيخ ابا نوح بن يوسف رحمه الله قلت : أين الكتاب الذى وعد به الشيخ ابو زكرياء ؟ قال قد قام عنه به الشيخ ابو عمار عبد الكافى وهو الكتاب « الموجز » (1) رجعنا . فاما سبب افتراق الاباضية فيما ذكر غير واحد من اصحابنا فهو : ان عبد الوهاب رحمه الله لما ولى المسلمين استعمل على ولايته كلها أهل الورع والزهد ، وكل من علم انه ليست له رغبة فى الولاية ، فاستعان على ما قلده الله من أمور المسلمين باهل العلم والبصائر فى الدين . ولما رأى ذلك ابن فندين واصحابه وتحققوا مخالفة ما يرجونه من ايثاره اياهم ، تغيرت قلوبهم وتنكرت صدورهم وساءت ظنونهم وسقط فى ايديهم وندموا على ما فرط منهم فى مبايعة عبد الوهاب ، واخذوا فى العلل والاباطيل ، وقالوا : انما كانت ولاية عبد الوهاب على شرط ان لا يقطع أمرا دون جماعة معلومة ، ورجعوا فى حاجة (2) امرهم الذى لم يجزه لهم اهل البصائر من قبل ، وجعلوا يفتشون ذلك عند الجهال والطغام ، ومن ليست لهم بصيرة فى الدين يستنزلون عقولهم، ويستفزون افكارهم،ويحيلون عقائدهم واشاعوا انه حابى عليهم بعض الناس ، وولاهم الامور دونهم ، وزعموا انهم بذلك أولى من سواهم ، وانه لا ينبغى ان يلى امر جماعة المسلمين احد اذا كان فى الجماعة من هو

---

(1) لا زال الكتاب من جملة المخطوطات ، وقد قام الدكتور عمار الطالبى من جامعة الجزائر اخيرا بدراسة عليه ، واخبرنى انه يقوم بطبعه

(2) كذا فى النسخ ، ولعل الصواب : ورجعوا الى لجاجة أمرهم

اعلم منه ، فتفاقم امرهم ، وكثر القيل والقال فى البلد ، وعظم داؤهم ، وكثر النزاع وانتشر الخلاف ، فتارة يقولون نحن وليناه ، وتارة يقولون كيف يلينا وفينا اعلم منه ، وتارة يقولون انما كانت ولايته على شرط .

استفتاء علماء المشرق فى خلاف ابن فندين

ثم ان جماعة المسلمين اجتمع رأيهم مع ابن فندين واصحابه على التوقف ، واصطلحوا على وضع اوزار الحرب ويراسلوا فى هذه القضية اخوانهم بالشرق ، فما اجابوهم به وقفوا عنده ، وعملوا به . فبعثوا رسولين وتوجها الى المشرق ، فلما وصلا مصر وجدا بها شعيب بن المعروف وشيعته فأخبراه بموت عبد الرحمن ومبايعة الناس عبد الوهاب وخروج ابن فندين عليه وادعائه فى امامة عبد الوهاب ، وما زخرف من الاباطيل ، فلما سمع شعيب ما ذكراه من الاختلاف خلا بطائفة من اصحابه ، منهم ابو المتوكل ، فعزموا على المسير الى تاهرت ليكونوا ألتاء على الامام ، ثم ان الرسولين توجها الى مكة فوجدا أبا عمرو الربيع بن حبيب وابا غسان مخلد بن المعرد رحمهم الله فى جماعة من اصحابنا ، واخبراهما بما فيه من ارسال اخوانهم اليهم ، وبما حدث بالمغرب ، فدفعا اليهم كتبهم وقرأوها واجتمعوا ليجاوبوا عنها فكتبوا :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما . أما بعد ، فقد اتصل بنا ما وقع قبلكم وما كتبتم فيه ، فأما ما ذكرتموه من أمر الشرط فليس من سيرة المسلمين ان يجعلوا فى الامامة شرطا : ان لا يقطع الامام أمرا دون جماعة معلومة . الامامة صحيحة والشرط باطل ، فلو صح فى الامامة الشرط لما قام لله حق ولا اقيم له حد ، ولبطلت الحدود والاحكام ، وضاع الحق ، والجماعة

يتعذر اتفاقها . على ان الامام ان قدم اليه سارق فلا يمكنه ان يقيم عليه الحق فيقطع يده حتى تحضر الجماعة ، أو زنى احد فلا يرجم أو يجلد حتى تحضر الجماعة ، ولا يجاهد الامام عدوا ، ولا ينهى عن منكر ، الا بمحضر الجماعة ، فيكونوا كلهم اذا اماما ، وكلهم لا امام ، فهذا ابطال ، وتتبعه غير الاستقامة ، ورمي الامامة به بغي ، والسؤال عن هذا غي . واما ما ذكرتم من تولية رجل وفى جماعة المسلمين من هو اعلم منه فذلك جائز اذا كان مستكملا لشروط الامامة ، وكان من أهل الفضل والدين والعدل والسياسة والمنزلة المرضية ، فقد ولى ابو بكر الصديق رضى الله عنه ؛ وزيد بن ثابت افرض منه ، وعلى اقضى منه ، ومعاذ بالحلال والحرام اعرف منه ، وأبي بكتاب الله أقرأ منه ، كل شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ومع هذا فلم يكن احد منهم أولى منه بالامامة ، فالجواب اثبات الولاية وابطال الشرط، ولوانعقدت عليه ، وتخطئة من اختلفه واحله غير محله » .

ومما ضمنوه جوابهم ان الامامة لا تبطل الا بحدث فى الامام بعد الاعذار والانذار ، وتمادى المحدث على الاصرار والاستكبار ، فحينئذ يجب القيام عليه . وابطال ما صار من أمر المسلمين اليه .

شعيب يتوجه من مصر الى مقر الامامة يؤازر ابن فندين

ونرجع الى ذكر شعيب وذلك انه لما انتهى اليه الرسولان بما قد تقدم ذكره من وقوع الخلاف بالمغرب توجه الى تاهرت فى نفر من اصحابه ، دون مشاورة من بمصر من المشائخ أهل الدعوة ، بل قد نهاه عن ذلك من فطن به منهم فسار طمعا فى الامارة ، فلما وصل هو واصحابه دخل على الامام ولم يكن له بد من الدخول عليه ، فسأله الامام رحمه

الله عن الامامة والشرط فأجابه بان الامامة صحيحة والشرط باطل ، وسأله أيضا هل تجوز تولية رجل وفى جماعة المسلمين من هو اعلم منه ؟ فاجاب بجواز ذلك . ثم ان شعيبا خرج فتوجه نحو ابن فندين ، واصحابه فأطمعوه فى الامارة ، فندم على فتياه للامام رحمه الله فوازر (1) ابن فندين واصحابه على الامام ، وصار لهم عونا على الخلاف ، فخرج من بالمدينة من اكابر اصحاب ابن فندين الى المنازل المتدانية من تاهرت ، وجعلوا يستفسدون قلوب أهلها ويجتمعون فيها بحل ما انعقد من الامامة، ويتناجون بالاثم والعدوان ، ولذلك سموا « النجوية » . ثم بعد ذلك اجتمعوا لاظهار انكار امامة عبد الوهاب فسموا «النكار». ولما ادخلوا بذلك شغبا فى الاسلام سموا «الشغبية» ، ثم الحدوا فى اسماء الله تعالى فسموا « الملحدة » . وسموا النكاث لنكثهم البيعة بغير حدث، وبلغنا انهم كانوا يدخلون المدينة بالجماعات ، فتكلم جماعة من المسلمين بذلك ، واشاروا على الامام بان ينهاهم عن ذلك ، فنهاهم الامام فلم ينتهوا ، وعاب عليهم خروجهم من المدينة الى المنازل فقالوا : هذه مدينتنا وتلك منازلنا ، فان رأى الامام فى ذلك منكرا تركناه . قال فاعرض عنهم الامام ثم صاروا بعد ذلك يدخلون المدينة بالسلاح ، فاشار أيضا جماعة من المسلمين على الامام بان ينهاهم عن ذلك . فقالوا : ان رأى الامام فى امساك السلاح منكرا تركناه قال : فاعرض عنهم الامام ، وامر اهل المدينة بامساك السلاح مخافة منهم من غدر يحدث منهم .

اصل تسمية النكار ومبدا هذه الفرقة

---

(1) من وازره موازرة على الامر عاونه وقواه ، مقلوب آزره

وبلغنا ان نفرا منهم اجتمعوا على غدر الامام فأداروا الامر بينهم ، فقال قائلهم كيف لنا بالوصول الى قتله ؟ فلم يتجه لهم ذلك . ثم ان رجلا اشار عليهم بأن يحضروا تابوتا فيجعلوه فيه ، ويمضوا بالتابوت الى الامام كأنهم مختصمون فيه ، وكان الاتفاق قد تعذر ، ليفضي الامر الى وضعه على يد الامين ، ثم لا يرضون الا ان يكون فى امانة الامـام ، فعمدوا الى تابوت وادخلوا فيه الرجل المشير ، ومعه سيفه وكان غلق التابوت من داخله ، فأقبلوا بالتابوت الى الامام رحمه الله، ففعلوا ما عزموا عليه من الملاحاة. حتى اظهروا ان كادوا يقتتلون ، فقال قائلهم للامام : يا امير المؤمنين أفصل بين هؤلاء القوم ، وانزع التابوت من ايديهم جميعا حتى يصطلحوا أو يصح لمن يصح منهم ، فقالوا باجمعهم : قد اصاب فيما اشار به عليك يا امير المؤمنين ، فقـال : دونكم وما اشار به . فقال المختصمون : لسنا نثق بامانة أحد الا ان يكون امير المؤمنين، فتوخى رحمه الله مرضاتهم وساعدهم ، فقال : احملوا تابوتكم الى حيث آمركـم ان تضعوه ، فلما حملوه تبين للامام ان الذى حملوه ثقيـل وقال متمثلا « يا بؤسا للغدر فما اسجاه ! ! » . ثم ان الامام تأمل التابوت فوجده مغلقا من داخله ، فازداد ريبة وغلب على ظنـه انهم ارادوا الغـدر . وكانوا قد رغبوا فى ان لا يوضع التابوت الا فى بيت ينام الامام فيه ، فلما وضعوه خرجوا مستبشرين فرحين ، وظنوا ان قد ظفروا بحاجتهم فخيبهم الله ، ورد عليهم مكرهم وجعل كيدهم فى تضليل .

وقد ذكر انهم قالوا لصاحبهم اذا انت قتلت الامام فأذن لصلاة الصبح عند طلوع الفجر ، فاذا سمعوا اذانه ابتدروا لدار الامام ، وان هو لم يؤذن علموا انه لم يظفر بحاجته

فلمـا جن الليل أخذ الامام رحمه الله فى صلاته فلما فرغ منها وكانت عادته اذا فرغ منها ان يتناول كتابا فيقـرأ فيه حينا من الليل ، فلما كانت تلك الليلة عمد الامام الى زق منفوخ فوضعه على فراشه والقى عليه ملحفة بيضـاء ، فلما قضى حاجته من قراءة الكتاب وحان وقت نومه أخذ مصباحا ، وأوقده وكب عليه غطاء يستـره ، وتنحى الى جانب البيت واقبل على الصلاة بحيث لا يسمعه ولا يـراه من بالتابوت . فلما هدأ صوت الامام عن صاحب التابوت ، وظن ان الامام قد نام ، فتح التابوت فخرج منه فنظر فى البيت يمينا وشمالا ، فلم ير شيئا الا بياضا فى ناحية البيت كهيئة المضطجع ، فظن انه الامام ، فتيممه فجرد سيفـه ، والامام رحمه الله يراه ، فلما وقف عـلى الفراش ضرب الزق بالسيف فظن انه قد قتل الامام فلما سمـع الامـام وقعة السيف على الزق كشف الغطاء عـن المصباح واتـاه الامام والسيف فى يده فقده نصفين ولفه فى تابوته .

فلما كان من الغد اجتمعوا فسألوا من لقيهم ، هل حدث حادث فلم يخبروا بشىء فقال بعضهم لبعض : أسمع احـد منكم عن الامام وعن صاحبكم شيئا ؟ فكل قال : لا ، فقالوا : امضوا بنا لنأخذ تابوتنا ، فنقول قد اتفقنا . ففعلوا ذلك فقال لهم الامام : امضوا الى حيث وضعتموه فخذوه . فمضوا حتى دخلوا البيت فوجدوا تابوتهم فى الموضع الذى تركوه فيه فحملوه ، فلما وصلوا الى مأمنهم فتحوا التابوت فوجدوا صاحبهم قتيلا مقدودا نصفين ، فخيب الله سعيهم ، واخلف ظنهم ، والحمد لله ، فخرجوا من المدينة خوفا من ان يوقـع بهم الامام والمسلمون لسوء صنعهم .

ابن فندين يهاجم تاهرت

ثم ان شعيبا لما خرج من عند الامام قال لابن فندين واصحابه ماذا تنتظرون به فبادروه ورعيته لتظفروا بغفلته وانما قال ذلك استعجالا وخوفا ان يأتي الجواب من المشرق فتكون عليهم الحجة ويفترق عنه أهل الشغب وقد علم ان الصواب ما افتى به أولا ثم رجع عن الصواب حين طمع فيما طمع فيه ، وكان ابن فندين واصحابه يتربصون الدوائر بالمسلمين ، ويتوقعون فرصة ينتهزونها ويترقبون من أهل المدينة غرة يجدونها ، والامام كما ذكرنا قد أمر بامساك السلاح رعيته واصحابه ، فهم على ذلك ، فلما كان ذات يوم خرج الامام لبعض حاجاته ، فبادر يزيد بن فندين واصحابه المدينة ليدخلوها على حين غفلة من أهلها فقامت فى المدينة الصيحة فتبادر الناس من كل مكان فخرج افلح بن الامام فى سلاحه مبادرا فوجدهم على باب المدينة، وقد كادوا يدخلونها ، فوقف افلح على الباب واثبت احدى رجليه فى صفات الباب (I) حتى انسلخ جلد قدمه الى العرقوب وجعل يتقى بدرقته ، حتى لم يجد فيها حصنا يتقى به شيئا ، فرمى بها ، فاقتلع باب المدينة فتترس به ، وعاد يتقى به الطعن ، والضرب ، فتكامل عنده أهل المدينة فوجدوا يزيد بن فندين مقابله ، وعلى رأس ابن فندين بيضتان ، وضربه افلح بالسيف فقد البيضتين والرأس ، ونشب السيف فى عمود الباب ، فخر ابن فندين صريعا ، فوجد افلح فى يده بعض الشدة حين ضربه فظن ان صلابة فى رأس ابن فندين ، فقال « ما اقوى رأسك يا بربرى يا مشوم » ولما رءاه اصحابه صريعا ولوا منهزمين ، فقتل منهم جماعة كثيرة فكان عدد القتلى اثنى عشر ألفا فعثر بهم

(I) كذا فى الاصل ، وفى نسخة القطب فى صفات بالباب

شؤمهم أول مرة فى هلاك هذا العدد الكثير . وبلغنا ان دم قتلاهم سالت على باب المدينة كالسيل لكثرتهم .

ثم ان أهل المدينة اجتمعوا فى عدد وحاولوا ان يردوا الباب كما كان فلم يستطيعوا ذلك ، فقالوا لأفلح اردد ما نزعت فقال : ردوا علي غضبى آنفا اردده لكم ، ثم ان الامام رحمه الله رجع الى المدينة فوجد على بابها المقتلة فهاله ما رأى فسأل عن ذلك فاخبر بما كان من ابن فندين واصحابه فامر بجمع القتلى فجمعوا ، وصلى عليهم رجاء للصلح وطلبا للعافية لعامة المسلمين ثم ان شعيبا لما انهزم القوم هرب الى مدينة طرابلس ، فاظهر مخالفة الامام والبراءة منه واستقبل الحجاج بذلك ، واتصل ذلك بالربيع رحمه الله وبمن بالمشرق من أهل الدعوة فبرؤوا من شعيب وابن فندين ، ومن قتل معه ، ومن سلك سبيله ، الا من تاب . وكان الربيع يقول فى مجالسه : عبد الوهاب امامنا وتقينا وامام المسلمين ويظهر البراءة ممن خالفه ، فقيل له : كيف تبرأ من شعيب بغير حدث ؟ فقال : أي حدث اعظم من خلافه لعبد الوهاب وبراءته منه ؟ ثم ان بقية اصحاب ابن فندين الذين لم يصابوا يوم قتل عمرت صدورهم ضغائن واحقادا فتنحوا ناحية عن المدينة ، فاجتمعوا بكدية ، فسميت كدية النكار ، وجعلوا يفشون الخلاف والفساد سرا وجهرا ، وفى كل ذلك لم يزل شرهم يعود عليهم ، وبعد ان أهلك الله ابن فندين واصحابه قدم الرسولان بالجواب من فقهاء المشرق مشتملا على ما تقدم ذكره من ولاية عبد الوهاب واستحقاقه الامامة ، وتخطئة ابن فندين واصحابه ، والبراءة منهم . فزاد ذلك يقينا كل من شرح الله صدره للطاعة ، وحمدا

لله على ما وهب له من سلامة دينه ودنياه ، وثبوت عقائدهم على صحة يقينهم

الغدر بابن الامام ميمون

وبلغنا ان ميمون بن عبد الوهاب قتل ليلا وقطع لحمه اربا اربا ، فلما اصبح وجده اهل المدينة على تلك الحال فأوتى به الى الامام رحمه الله فنظر اليه الامام فقال : أى بنى ، اجتمعت فى مصيبتى فيك ثلاثة امثال للعامة ، احدها قولهم فيمن مرت الخيل بكسائه ، والثانية قولهم فيمن اصيب بليل ، والثالثة قولهم اذا مسست ابن السلطان فأمسسه مسا عنيفا . ثم جهز ابنه ودفنه ، ولم يدر من قتله وذلك بعد مصاب ابن فندين واصحابه ورجوع الجواب . ثم ان ابنا لميمون خرج ساعيا ، فلما وصل الى النكار نادوه يا ابن المهدور دمه ، فرجع الى جده عبد الوهاب فاخبره الخبر ، فجعل يبحث عن قاتله حتى حقق ان النكار قتلوه ، فاخرج اليهم عسكرا وامر عليه ابن ميمون فأدركهم بعد أيام فألفاهم مجتمعين علىاهبة ينتظرون . فصادفوه فقاتلهم فهزمهم الله له ، وقتل منهم عددا كثيرا فقصر الناس عن احصاء عدد القتلى ، فقالوا : أي اسماء القوم اقل عددا فصححوا ان اقل اسماءهم هارون ، فقالوا احسبوا كم قتيلا اسمه هارون ، فوجدوهم ثلاثمائة، فما ظنك بسوى هارون فاوهن الله قوتهم ورد كيدهم واذلهم .

مكانة الرستميين فى المغرب

وكان بيت الرستميين بيت العلوم وجامعا لفنونها ، من علم التفسير والحديث ، والفرائض ، والاصول ، والفروع وعلم اللسان ، وعلم النجوم ، وقد حكى عن بعضهم انه قال : معاذ الله ان تكون عندنا امة لا تعرف منزلة القمر ، وبلغنا ان عبد الوهاب بعث ألف دينار الى اخوانه بالبصرة ليشتروا له بها كتبا ، فاقتضى نظرهم ان يشتروها ورقا

وتطوعوا بالمداد واجرة النساخ والمفسرين ، حتى اكملوا ديوانا عظيما فبعثوا به اليه فشق (I) جميع الديوان فقال الحمد لله اذ ليس فيه مسألة عزبت عنى الا مسألتان ولو سئلت عنهما لاجبت قياسا على نظائرهما ووافقت الصواب .

محاربة الامام رحمه الله للواصلية

حدث غير واحد من اصحابنا ان الامام عبد الوهاب رحمه الله لما أوهن الله على يديه كلمة النكار واورثهم الخزي والعار ، تحرك الواصلية بعض الحركة ، وهم قوم من البربر اكثرهم من زناتة ، وذلك لما احسوا بوقوع التفرق وحاولوا ان ينتهزوا فرصة ، فبلغ الامام ذلك فاعذر اليهم مرة بعد مرة ، وقد نشأ فى الواصلية شاب حدث السن شجاع لا يقوم له شيء ، وهو ابن اميرهم، وفيهم رجل ينتحل المناظرة فتكاتفت كلمة الواصلية ، واجتمعوا من كل أوب منحازين من تاهرت ، واكثرهم أهل البادية . فاظهروا مخالفة الامام رحمه الله ، فاعذر اليهم ، ثم خرج اليهم ، بعساكر كثيرة فقاتلهم مرة بعد مرة فكان الشاب الواصلى لا يدرك احدا الا قتله، وابوه يحرضه على القتال.

عبد الوهاب يستمد نفوسه فتمده باربعة رجال

فلما رأى ما نزل به منهم ، وان حربهم مقيم ، أرسل الى أهل نفوسة يستمدهم طالبا منهم جيشا نجيبا يكون فيهم رجل مناظر عالم بفنون الرد على المخالفين ، ورجل عالم بفنون التفاسير ، ورجل شجاع ، يستعده لمبارزة الشاب الواصلى ، ولما وصلت رسل الامام رحمه الله الى جبل نفوسة ائتمروا فيمن يرسلونه الى الامام ، فاجتمعوا

(I) كذا بالنسخ ، لعله فشقق جميع الديوان . فيكون من شقق الكلام : اخرجه احسن مخرج ، فى الحديث : (تشقيق الكلام عليكم شديد)

على ان يبعثوا اربعة نفر احدهم مهدى الويغوى ، والثانى أيوب بن العباس ، والثالث ابن يأنيس ، والرابع قيل اسمه محمد ابو محمد ، وقيل ابو الحسن الابدلانى ، رحمهم الله ، فاستحضرهم عامل جبل نفوسة فلما حضروا اعلمهم بما كان من استمداد الامام ، واتفاق الجماعة على توجيههم وامروهم ان يتأهبوا للمسير .

فبلغنا ان النفر تساءلوا فيما بينهم فقال لهم مهدى اما انا فاكفيكم المناظرة ، وقال محمد بن يأنيس وانا تفسير القرآن ، قد اخذته عن الثقات ، واعتمدوا على أيوب فى المبارزة . وأخذ النفر فى اهبة السفر فخرجوا من جبل نفوسة متوجهين الى تاهرت ، فلما انفصلوا عن الجبل رغب اليهم محمد بن يأنيس فى ان يكون لهم خادما فأبوا عليه ، فألح عليهم الى أن اجابوا رغبته فجعلوا كلما رحلوا، ساروا نهارهم الى الليل ، فاذا نزلوا عمد محمد بن يأنيس الى خيلهم فعلفها ، ثم أخذ فى معالجة معيشتهم فاذا طعموا أو ناموا اقبل على الصلاة راكعا ساجدا الى الفجر، وكان صائما نهاره وقائما ليله ، فكان هذا دأبه ودأبهم ، فلما رأوا تماديه على ذلك شق عليهم ، واشفقوا عليه . فرغبوا اليه ان يرفق بنفسه أو يدع عن بعض ما تكلفه فى سفره ، وينام ساعة من ليله ، فأبى ، فعزموا عليه ان يترك ، والا نظروا فى خادم سواه ، فلما تحقق جدهم وخشي ان يعزلوه عما تولى من خدمتهم . قال : قد اجبت ، على ان تأذنوا لى فى ركعتين لا غير ، فطابت انفسهم وأذنوا له فى الركعتين فلما كان فى الليلة المقبلة وقد فرغ من خدمتهم قام ليأتى بالركعتين فقرأ فى الركعة الاولى نصف القرآن ، وفى الثانية النصف الآخر ، فطلع عليه الفجر ، فلما كان من

الغد وعلم اصحابه بما كان منه شق عليهم اشد مما كان قبل ، فرغبوا اليه فى ان يعودوا الى الحالة الاولى ، ورأوا ذلك ارفق به مما صار اليه .

ان كان لا يدخل الجنة الا من كان مثله سوف لا يجد بها انيسا

وبلغنا انهم ناموا ذات ليلة فاستيقظ أحدهم فرأى ابن يأنيس قائما يصلى وكانت ليلة مطيرة شديدة البرد والريح فسمع لكساء بن يأنيس صريرا اذا ضربته الريح ، فقال : ان كان لا يدخل الجنة الا من كان مثلك يا ابن يأنيس فستستوحش فيها . بل الله لطيف بعباده ورحمته واسعة .

وبلغنا ان الامام رحمه الله لما سمع بخروجهم من جبل نفوسة متوجهين اليه قال لعبيده من بشرنى منكم بقدومهم فهو حر ، وكان العبيد اذا اصبح خرجوا من المدينة ينظرون يمينا وشمالا ، وكان احد عبيد الامام أعرج لا يستطيع النهوض مع العبيد فكان يرقى سور المدينة فلما كان يوم قدومهم أبصرهم العبيد الذين كانوا فى خارج المدينة ، فلما تحققوا ذلك بادروا يتسابقون ليخبروا الامام فلما رءاهم الاعرج عن بعد ، عجل الى الامام فبشره ، فخرج حرا فجاءه اصحابه فوجدوا الاعرج قد سبقهم بالبشارة فقالوا «فاز بها الاعرج» فلما وصل النفر المدينة أخبروا الامام بانهم اربعة ، فساءه ذلك ، وكان ينتظر قدوم عسكر كبير فلما دخلوا على الامام رحمه الله ، سألهم عن احوالهم وعن قدومهم فى اربعة نفر دون عسكر . فاخبره كل واحد منهم بما تكفل به ، واعلموه انهم بمعونة الله عز وجل ومساعدة الامام يقومون مقام العسكر . فامر الامام رحمه الله بانزالهم فى دار الضيافة ، فاقاموا فى أبر حال .

وبلغنا ان الامام أجل قبل ذلك الواصلية أجلا ، قبل قدوم النفوسيين ، فلما قدموا قال لهم : تأهبوا للخروج

قالوا له : دعنا حتى نستريح وتستريح دوابنا فقد اساءها السفر ، فأسعفهم ، ولما جرى ذكر المناظرة بينهم وبين الامام واعلمهم مهدى انه يكفيهم المناظرة قال لهم الامام : انه جرى بيني وبين الواصلى المنتحل المناظرة كلام ، اريد ان اعرضه عليك فقال : افعل يا امير المؤمنين ، فجعل الامام يعرض عليه ما وقع بينهما من مناظرة ، ويذكر سؤال كل واحد منهما ، وجواب الآخر ، فكلما وجد من كلام الواصلى حيدة ، قال : يا امير المؤمنين زاغ في الحجة ، وزاغ عن الحجة ، حتى اطلع الامام رحمه الله على جميع ما لبس فيه المعتزلى ، ومواضع حيداته ، فوثق بان مهديا سيظفر بالمعتزلى .

مهدى يقنع عددا من علماء المعتزلة

وبلغنا ان مهديا لما صار بتاهرت ــ جعل ــ يغيب عن اصحابه اياما لا يدرون له مستقرا ، حتى ساءت ظنونهم ، فلما كان ذات ليلة قدم عليهم ، فقالوا له : قد استبطأناك ففيم كان مغيبك ؟ فقال لهم : اني قد رددت الى مذهب الحق سبعين عالما من أهل الخلاف .

ثم ان الامام بعث الى رئيس المعتزلة بانه سيخرج اليهم في يوم كذا ، فلما كان ذلك اليوم وقد ساءت ظنون المعتزلة وامتلأت قلوبهم رعبا يتوقعون ما سيجلى لهم من أمر نفوسة فكانوا في غم شديد ، فامر الامام رعيته بالخروج الى الواصلية والحضور لمناظرة مهدى للمعتزلة . فقال له ايوب بن العباس يا امير المؤمنين : ان فرسى قد اتعبه السفر فلو امر لنا امير المؤمنين بخيل نركبها ، فامر الامام رحمه الله ايوب بدخول دار الدواب فدخل الاصطبل فجعل كلما رأى فرسا حسن الصورة، أخذ بناصيته وجذبه فلا تثبت حوافره على الارض يكاد يسقط على رأسه ، حتى آتى على آخرها

فلم يعجبه منها شيء فقال ايوب للامام اجمع (1) فرسى فان تعبه علي احسن الي من غيره ، فامر الامام بفرسه فاحضر ، فلما جذبه كما فعل بكل فرس اجتذبه قبل ولم يال جهدا فى جبذه فاقنع الفرس برأسه فى الهواء طامحا ، ولم تزل له حوافر مثبتة فى موضعها ، ثم ردد النظر فى الفرس فوجد به الحفاء ، فامر باحراق الرمل حتى حمي ، وفرش ، وأمر عليه فرسه يطأ ذلك الرمل بحوافره ، ففعل به ذلك ثلاثة ايام ، فبعد ذلك امر الناس بالخروج ، فخرجوا والتقى العسكران والناس ينظرون الى ايوب ، فيتعجبون بما يسمعون عنه من الشجاعة ، وانه لا يلقى شجاعا الا قتله ، فاعذر الامام الى المعتزلة ودعاهم الى ترك ما به ضلوا ، فأبوا الا المناصبة وسألوا المناظرة ، وقد صفت الصفوف فخرج مهدى للمناظرة بين الصفين ومعه جماعة من اصحابه ، فقال مهدى لمحمد بن يأنيس أخرج اليه فناظره ، فقال له ابن يأنيس رحمه الله : بل اخرج اليه انت ، ولست باعلم منا ، ولكن اخشى ان يعقدنى العرق الذى من قبل ابن يأنيس ، فخرج مهدى فتقدم الى المعتزلى، وقد كان قبل ذلك اسلمته نفسه فارسل الى مهدى فى خفية من اصحابه : ان انا ناظرتك فظفرت بى سترت علي ، وان ظفرت بك سترت عليك ، فليس منا احد يدرى لمن يكون الظفر . فارسل مهدى الى اصحابه ان علامة ظفرى بالمعتزلى ان انزع القلنسوة عن رأسى ، واضعها تحت ركبتى ، . ثم تناظرا فجرت بينهما وجوه من المناظرة والناس يعلمون ما يقولون ، فلم يظفر احد بصاحبه ، ثم دخلا فى مناظرات لم يفقهها احد غير الامام ، ثم دخلا فى وجوه لم يفقهها

---

(1) فى نسخة القطب أجمع على فرسى

احد ولا الامام ، فما كان باوشك من ان ظفر به مهـــدى والقى القلنسوة ، فكبـــر اصحاب مهـــدى لعلمهم بظفـــره بالمعتزلى ، فلما رأى المعتزلى ذلك قال غدرت يا مهـــدى . وافترقا عن مجلس المناظرة ، وقد اظفر الله مهديا ، ونصر حجة أهل الحق ولله الحمد . ثم خرج الفتى المشهور بالشجاعة يطلب المبارزة ، فأخذ ايوب بن العباس فى اهبـــة الخروج اليه فجبذ فرسه حتى استوى بين الصفـــين واراد ركوبه بحيث يراه كلا الفريقين ، فتجاهل فى ركوبه ، فضحك منه عامة الفريقين وازدروه ، فقال لهم ابو الفتى الواصـــلى الآن جاء من يقتل ولدى ، افلا ترون ان فرسه لما ركبه ادلى واسترسل ، ولا يفعل الفرس ذلك الا تحت الفارس الحاذق الممارس ، فخرج ايوب الى الفتى فبارزه فتطاردا قليلا ، وتضاربا حينا ، فحمل عليه ايوب فضربه وقتله ، وذكـــر بعض اصحابنا انه شكه بالرمح واحتمله كالجرادة ، فلما رأت المعتزلة رئيسها وفارسها صريعا ، ولوا منهزمين بعد ما حمي الوطيس، وقتل الرئيس واستنجز القتل في المعتزلة وكان افلح بن عبد الوهاب يضرب ناحية وايوب يضرب ناحية أخرى ، وكان سيف ايوب بن العباس ليس له الا حد واحد ، وقيل ان ذلك لانه اذا عيي حمله على عاتقه ، فلما امعن أهل العسكر فى قتل الواصلية ودوخوهم ، وضعت الحرب أوزارها ، ولم يكن بقى من المعتزلة الا اليســـير ، وصار المسلمون يعدون من قتله افلح ومن قتلـــه ايـــوب ، فوجدوا احدهما يزيد على الآخر واحدا ، قيل وصاحـــب الزيادة هو افلح ، وذكر بعض اصحابنا ان قتلى افلـــح اربعمائة . ولما أوهن الله المعتزلة ، وانهزموا وعسكـــر الامام فى سافلتهم ، بلغنا ان ايوب بن العباس رأى شخصا

قائما كهيئة الرجل فى حومة القتال ، فخاله رجلا فضربه بالسيف فأحس شدة ، فلما رجع قال لاصحابه : انى ضربت شيئا فيه شدة ولم ادر ما هو ، فتصفحوا القتلى فوجدوه عمودا قائما ، فلمسوه بايديهم ، فسقط منفصلا من الموضع الذى اصابته ضربة ايوب .

بطولات ايوب بن العباس

ثم بعد ذلك بزمان ارسلت المعتزلة الى ايوب بن العباس بان يأتيهم بعد فعله الافاعيل فيهم ، فعزم على المسير اليهم فمنعه اصحابه فأبى الا المسير فحذروه الغدر ، فلم يعبا بهم ، فسار ايوب حتى وصل بعض احيائهم ، فتيممه فاذا برجال من الحي ينتظرون المامه بهم ، فانزلوه فى خص ورحبوا به ، فلما جن الليل قدموا له العشاء وهى جفنة طعام عليها شاة ووطب من لبن ، قال فأكل جميع ما احضروه وشرب ما فى الوطب من اللبن ، ثم اسند ظهره الى دعامة الخص وجعل يتلو القرآن ، حتى طلع عليه الفجر ، فصلى الصبح بوضوء العشاء ، فلما طلعت عليه الشمس ، امرهم بان يقدموا فرسه ، فقدموه وهم عازمون على غدره ، فلما ركب فرسه تكلم متكلمهم ، فقال : يا ايوب ان فتيان الحي راغبون فى ان تلاعبهم على فرسك ، فقال ايوب اجل ، ثم ان فتيان الحى ركبوا خيلهم ، فتناولوا قضبانا يترامون بها ، وفيهم رجل شجاع قد تكفل لهم بغدر ايوب فلاعبهم ايوب قليلا ، ولم يشعر الا والرجل خلفه قد شد عليه بالرمح ، فتغافل عنه ايوب حين علم به ، فلما اراد ان يضربه اتقى ايوب ضربته ، وشد عليه ايوب فقتله فحمل على اصحابه فقتل منهم ثمانية ، ثم حمل أخرى فقتل ثمانية أخرى، فصاح ايوب بنساء الحي هل يكفيكن، أو ازيدكن ؟ فقلن : قد اكتفينا ، قال فتوجه ايوب فمر بواد فوجد فيه

اسدا ولبوة وأشبالهما ، فشد عليهما بالسيف فقطع ارجلهما فتركهما يزحفـــــان ، واجتاز بحى من احياء البربر ، فقال يا اهل الحى من اراد منكم اللحم المكروه فليقصد الوادى عند السدرة ، فابتدر الحى الى الوادى فوجـدوا الاســـد واللبوة وأشبالهما فطفق القوم يأكلون .

زهد مهدى وورعه

وذكر بعض اصحابنا ان مهديا كان رجلا ورعا زاهدا فى الدنيا طالبا للآخرة ، وكان له أخ أو ابن خالة طالبا للآخرة من غير اعراض عن حظه من الدنيا ، فاختصما يوما بتاهرت الى الامام ، فقال ، مهدى : يا امير المؤمنين ان هذا اخى قد شغلته دنياه حتى كاد يضر بآخرته ، فقال الآخر : ان هذا اخى قد شغله رفض دنياه حتى كاد يضر بآخرته ، فاعرض عنهما ودعا لهما بخير .

ليست الدنيا عدوة الآخرة

ولما توجه الامام رحمه الله الى جبل نفوسة اصابه مطر بين منازل نفوسة وهو مرتحل ، فقصد دار مهدى فوجدها دار عابد زاهد ليست له رغبة فى الدنيا ، فلم يجد بها ما يقى عن نفسه القطر ، فرغب اليه ابن خالته الذى له حظ من الدنيا وسأله انتقال الامام ومن معه الى داره ، واعلمه ان ذلك ارفق بالامام لما هو فيه من اليسار ، واخف عـــن مهدى لما علمه فيه من الاقتار ، فاجابه سؤاله ، فخرجوا الى دار ابن خال مهدى ، ومهـــدى معـــه ، فلمـــا دخلـــوا داره وجدوها دار ذى نعمة وبسطة ، وسعة رزق ، فخلع على كل واحد منهم ثيابا جديدة لم يصبها مطر ، وفرش فرشا وثيرة واحضر أطعمة حفيلة ، وأظهر لهـــم مـــن صنوف البر ما استحسنه الامام غاية الاستحسان ، حتى استدعى منـــه ان

قال لمهدى : الآن خصمك ابن خالتك (1) فيما اختصمتما ، وبان ان حجته قامت على حجتك .

تتزوجه رغم فقره لصلاحه

وبلغنا ان مهديا خطب امرأة بجبل نفوسة فاستشارت فى أمره شيخا من المشائخ . فقال لها : ان مهديا رجل لـه رغبة فى الآخرة وزهد فى الدنيا واجتهاد فى الصلاح وله أرض كريمة محثوث لها سد فوق سد ، قد انهدمت سدودها وخربت جسورها ، ولم تدعه نفسه الى اصلاح شيء منها ، ولا يستطيع اصلاحها العدد القليل من الناس ، واراد ان يتزوجك ، فلا تصلح جسوره الا بتراب تنقليه على رأسك فزادها ذلك رغبة فيه وفى صلاحيته وتزوجها مهدى ، فلما كان بعد ذلك بدهر ، زارها الشيخ فلم يجدها فى بيتهــا فاعلم بمكانها ، فوجدها فى الحرث مع مهدى ، وهى تنقل التراب على رأسها لاصلاح الجسور ، فذكرها الشيخ فيما اعلمها من قبل به ، فحمدت الله على ما اعطاها من خدمـة ولي من أوليائه . قال الشيخ ابو العباس وانما ساق الشيخ رحمه الله هذا الخبر قبله ليعلمك بمراتب الرجال ومـا حووا من درجات الكمال ، وهم مع ذلك لا يعتورهم كبـر ولا استنكاف ، بل قد سلكوا سبيل من درج من اخيـار الاسلاف ، فالله ينفعنا ببركتهم اجمعين .

نزول الامام عبد الوهاب رحمه الله على مدينة طرابلس

حدث غير واحد من اصحابنا ان الامام رحمه الله أراد المسير الى الحج فاخذ فى اهبة السفر ، ثم سار متوجهـا ، فلما وصل الى جبال دمر استعمل عليها رجلا من أهلهـا

(1) أى غلبك فى الخصام

يقال له فزار ، ثم توجه الى جبل نفوسة ، فاجتمعت عليه جموع نفوسة فأخبرهم بما عزم عليه من تيممه الحج .
فقالوا يا امير المؤمنين ان رأيت المقام فعلت، فانا نخشى عليك من المسودة (١) ، فانهم ان علموا بمسيرك عن بلادك وتوجهك الى بلادهم لم تسلم من آفة تصيبك منهم ، من قتل ، أو سجن ، أو نكال . وقد تعين عليك القيام بأمور المسلمين ، والنظر فيما يجمع كلمتهم ، ويصلح شأنهم فاقامتك فيهم آكد ، وواجب . فقد علمت انك لو غبت عنهم لضاعت الحقوق وتفرقت الكلمة ، قال فأرسل الامام رحمه الله الى اخوانه بالمشرق وكان المقدم فى ذلك العصر فى العلم والورع والفضل أبا الربيع بن حبيب ، رحمه الله وابن عباد المصرى ، فلما وصلهم الرسل والقوا اليهما من القول ما دار بين الامام وبين جماعة نفوسة ، واخبروهما ان الامام يستفتيهما مستضيئا علما من نورهما ، مع ما وهب الله له من العلم ، معتمدا ان فتيا غيره فى نازلة مختصة به أولى ، وانهى للنفس عن الهوى . فاجابه الربيع بان من كان مثلك فى العناية بأمور المسلمين ومحل امانتهم وخاف على نفسه من أهل الجور والبغي ، فينبغى له ان يستأجر من يحج عنه وهو حي . واجاب ابن عباد بان من كان على هذه الصفة فليس عليه حج ، لان امان الطريق من الشروط التى هى مشترطة فى وجوب الحج . فمكث الامام رحمه الله ينتظر رسله ، فلما قدمت الرسل بالجوابين أخذ بجواب الربيع وارسل من يحج عنه .

الامام يهتم فى دروسه بمسائل الصلاة

وأقام بجبل نفوسة فى تلك الحالة سبعة اعوام يستدرجهم في تعليم مسائل الصلاة ، وانفصل عنه فيما ذكر

---

(١) لقب العباسيين

قبل تكميلها . قال ابو العباس احمد بن الشيخ ابى عثمان سعيد ، وذلك لان نوازل مسائل الصلاة كثيرة ، وهى اول ما يحافظ عليه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما يحاسب به العبد الصلاة » .

الامام عبد الوهاب يحاصر طرابلس

قال وكان الامام رحمه الله لما صرف الرسل الى المشرق جمع جموعا كثيرة وعسكرا ونزل على مدينة طرابلس محاصرا لها ومحاولا دخولها فى الطاعة ، والمصير الى ما عليه أهل الحق ، فحاصرها اشد الحصار ، ثم رأى له الصواب فى الارتحال عنها فارتحل عنها .

الافتراق الثانى فى الاباضية

حدث جماعة من اصحابنا ان الامام رحمه الله لما اراد التوجه الى تاهرت اجتمعت جموع أهل بلاد طرابلس ، فسألوا واليا يوليه عليهم ، وأراد ان يولى عليهم بعض وزرائه فلم يوافق ذلك مرادهم ، ورغبوا فى ان يولى عليهم وزيره السمح ابن عبد الاعلى رحمه الله ، لما رأوا محبة الامام فيه ، وحسن ظنه مع كونه ابن امامهم . فلما علم الامام عبد الوهاب رحمه الله ان رغبتهم فى السمح ، اذ لا يقوم مقامه فى نصيحة وعناية وحسن محبة احد ، ثم قال لهم ومع هذا فانى أوثركم به على نفسى ، فاستعمله عليهم وارتحل الى تاهرت . فلما ولى السمح على حيز طرابلس احسن فيهم السيرة ، وعدل فى احكامه ، فصلحت احوالهم فلم يزل مقرا بامامة عبد الوهاب وناصحا له فى رعيته حتى حضرته الوفاة ، وقد كانت عماله على نواحى طرابلس

تولية السمح ابن ابى الخطاب عبد الاعلى عاملا على نفوسه

سالكين مسلكه ، فى حسن السيرة ، فاجتمع اليه اصحابه فقالوا له : اوصنا وأمرنا بأمرك ، فانا مطيعوك فى الحياة وبعد الممات ، فانك لم تال بيننا رشدا جزاك الله عن رعيتك وعن الاسلام خيرا . فقال لهم السمح رحمه الله أوصيكم ونفسى بتقوى الله ، والعمل بما أمركم به ، والانتهاء عما نهاكم عنه ، وطاعة امامكم عبد الوهاب وتأييده ما دام على الحق الذى عليه سلفه ، وجهاد من خالفه ، فبذلك تستقيم احوالكم ، وينتظم شملكم ، ويتم خير دينكم ودنياكم .
وتوفي رحمه الله ، فلما توفي عظم مصابه وبلغ فى الناس فقده مبلغا عظيما . وخلف ولدا اسمه « خلف » فلشدة محبة الناس فى السمح وعظم منزلته فيهم أحسنت العامة الظن « بخلف » وأراد من ليست له بصيرة فى الدين ولا نظر فى العواقب توليته عليهم ، فقال أهل البصائر : لا ينبغى لكم ان تفتاتوا على امامكم فى شىء مما قلده الله من اموركم ، وولاه من صالح جمهوركم ، فقال ذووالعقول القاصرة : اما ان فعلنا ذلك رجونا ان يكون وفق ارادة امامنا ، وقال فريق منهم : نوليه على انفسنا ريثما يصل من الامام أمر نقف عنده ، فان اثبته اثبتناه ، وان عزله عزلناه . فابى ذلك كله أهل الصلاح كابى منيف اسماعيل بن درار الغدامسى وابى الحسن ايوب ، وامثالهما . فغلبت العامة وولوه من غير اذن الامام ، ولا رضى من أهل الصلاح فولوه على انفسهم . وكاتبوا الامام بموت عامله ، واقامتهم ولده مقامه، على انه ان اجاز ذلك اجازوه والا عزلوه . فلما وقف على ما خاطبوه جاوبهم بما نصه :

يولون ابن الوالى دون استشارة الامام

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

« اما بعد فانى آمركم بتقوى الله تعالى ، والاتباع بما امركم به ، والانتهاء عما نهاكم عنه ، والذى كتبتمونى به من وفاة السمح وتولية بعض الناس خلفا ، خلفا منهم ورد أهل الخير ذلك ، فان مولى خلفا بغير اذن امامه قد أخطأ سيرة المسلمين ، ومن ابى توليته فقد اصاب ، فاذا اتاكم كتابى هذا فليرجع كل عامل استعمله السمح الى عمله الذى ولي عليه، الا خلف بن السمح، فحتى يأتيه أمرى وتوبوا الى ربكم لعلكم تفلحون » .

فلما وصل جواب الامام أهل بلاد طرابلس بما تضمنه من رد العمال الى اعمالهم ، وتخطئة من ولى خلفا، وتصويب من توقف عن توليته ، قلقوا فكتبوا الى الامام يراجعونه في أمر خلف ، ويسألونه ان يجيز توليتهم اياه . فجاوب رحمه الله بكتابين احدهما الى الجماعة ، والآخر أفرد به خلفا ، يعلمهم ان ذلك لا يسعه من قبل الله تعالى ، وانه لا سبيل الى بقائه على عمل . ثم اقتضى نظر الامام رحمه الله ان يوجه امناء من قبله الى جهة طرابلس مختبرين لاحوالها ، وعلم (1) اليهم بتولية خلف على جهات طرابلس ان وجدوه قد اعتزل واطاع الله ، وامر التقدمة . وان هم وجدوه مصرا على الخلاف نابذا امر الامام وراءه ظهريا ، رفضوه . واخبروا أهل الصلاح بان امامهم برىء منه ، فليجتنبوه ، حتى يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين . قال فوصل امناء الامام فوجدوا خلفا فى عتوه واستنكاره ، فدفعوا له كتابا

(1) يريد عهد اليهم وامرهم

بالاعتزال ، فابى . وشايعه على ذلك اصحابه الذين ولوه وانهم لما وصل كتاب الامام بتخطئتهم كتبوا الى ابى سفيان محبوب بن الرحيل كتابا وجهوه اليه بالمشرق ، وهو اذاك رأس جماعة أهل الدعوة هنالك ، والمقدم عليهم بعد انقراض طبقة الربيع ومعاصريه ، رافعين اليه ما صدر عن الامام فيهم ، وقدروا ما هم عليه من اصابتهم بزعمهم ، وحسنوا تولية خلف ورجوا ان يكون منه جواب يوافق نظرهم الفاسد ، فوصلهم جوابه رحمه الله بتخطئتهم وتصويب من امتنع عن توليته ، وتوجيب طاعة امامهم .

هؤلاء ينبذون طاعة الامام بحجة انه ليس في حوزتهم

فلما وصلهم جواب محبوب بما خالف مواقفهم نبذوه واخذوا في مسلك طرق الضلال ، حتى اعلنوا بنبذ امامة عبد الوهاب وقالوا ما هو لنا بامام ، وانما امامنا خلف ، اذ هو في حوزتنا، والحافظ لجماعتنا، والجامع لكلمتنا. واما عبد الوهاب فانه في حوزة غير حوزتنا ، وغير أهل لجماعتنا، فبرأ منهم أهل الدعوة وليس بيننا وبينهم خلاف الا في مسألة الاقرار بامامة عبد الوهاب .

استعمال أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني رحمه الله ومحاربته خلف بن السمح الخبيث بن الطيب

ذكر جماعة من اصحابنا ان عامل الامام عبد الوهاب رحمه الله ابو الحسن ايوب ادركته منيته فكتبت نفوسة ومن حولهم من بلاد طرابلس الى الامام ، يخبرونه ويستدعون منه استعمال عامل ، فكاتبهم بان يعلموه برجل يرضى لاعمالهم وتتفق عليه كلمة أهل الفضل منهم ، فسموه له ، فكاتبوه باتفاق كلمتهم على ابى عبيدة عبد

الحميد الجناونى ، فكتب بتوليته على اعمالهم والنظر فى امورهم ، ولا علم له بما أرادوه . ونفذ به امر الامام فاجتمعت جموع أهل بلاد طرابلس من نفوسة وغيرهم على ابى عبيدة ليسمعوا منه ويطيعوا ، فلما قرأ كتاب الامام تنصل من الولاية وقال : انا ضعيف قالها مرارا فكتب الى الامام متنصلا ومقرا بالعجز والضعف . فلم يقبل منه الامام عذرا فكتب اليه بالاقامة على ما ولاه من القيام على امور المسلمين .

الامام يقول لابى عبيدة : ان كنت ضعيفا فالحق يقويك

وكتب فيما كتب به اليه « ان كنت ضعيفا فى المال فبيت مال المسلمين تقويك، وان كنت ضعيف البدن فالحق يقويك وانكنت ضعيفا فى العلم فعليك بابى زكرياء اللالوتى فاستعن به فيما يستقبل من امورك » . فاجتمعت عليه أيضا الجموع فقاللهم انتظرونى، فغاب عنهم ما يدرون ما يحاول فسار الى عجوز نفوسية مشهورة بالعلم والدين والصلاح ، فاستشارها فى تحمل ما تقلد أو الفرار ، فقالت له هل تعلم في بلادك من أهل زمانك أقوم منك بما كلفت به واحق بتقليد ما تقلدت ؟ قال : اما فى امور الرجال فلا ، قالت فادخل اذاً فيما قلدك الامام ، والا فانى اخشى ان تهشم عظامك فى نار جهنم ، فقد قامت عليك الحجة ، فرجع اليهم وتقلد ما قلده من امورهم فكانت جماعة نفوسة يذكرون فضلها ، ويعترفون بها .

الهروب من المسؤولية بعد قيام الحجة اثم

فلما ولى عبد الحميد احسن السيرة وقام بحقوق الله عزوجل وعمل بطاعته . فلما سمع خلف بن السمح بتولية الامام عبد الحميد بلغ ذلك منه مبلغا عظيما ، واستكبر ، واستخف اشياعه من الضلال فأطاعوه ، وجعل يشن الغارات على رعية عبد الحميد ، ويدس اللصوص ، فوجه اليه

أبو عبيدة عبد الحميد يأمره بالكف عن الرعية، فلم يكف ، فكتب ابو عبيدة الى الامام يخبره بما نزل بالرعية فكتب اليه الامام ان يعامله بالملاطفة والملاينة ما استطاع ،لعله يتذكر أو يخشى ، فقال له : ان لم تجد بدا من المدافعة فدافع عن الرعية . فمكث يلاطفه حينا الى ان ورد عليه الخبر بوفاة الامام رحمه الله .

امامة افلح بن عبد الوهاب
رحمه الله

ولما توفي عبد الوهاب تدانى العدو من تاهرت طمعا فى الاستيلاء عليها ، ورجوا الظفر بها وباهلها لما ظنوه من عجزهم عن المدافعة، اذ اضحوا بلا امام، فابتدر جماعة أهل الدعوة ، فبايعوا افلح بن عبد الوهاب ، فعقدوا له الامامة فكان ميمون النقيبة، فسكن الله به البلاد ووقيه من الفساد . ولما بلغ ابا عبيدة موت الامام وتولية ابنه افلح الامامة ، كتب ابو عبيدة الى افلح يستشيره فى امر الخبيث بن الطيب ويستأذنه الدفاع ، فكتب اليه بمثل ما كتب به ابوه رحمه الله .

استفحال المشاغبين فى نفوسة

فلما بلغ خلفا وفاة الامام وتولية افلح انف واستكبر ولم يقر بامامته ، ولا دان بطاعته ، وانحاز بمن معه الى موضع يقال له « تيمتى » فسلط اشياعه على الطعام ، وشن الغارات على راعايا الامام ، واستباح الاموال ، واخرب الديار ، وقتل الرجال . حتى قتل عدة من اصحابه ، يحسب انهم من رعية ابى عبيدة عبد الحميد ، ثم عظمت صولته واشتدت شوكته حتى استمال كثيرا من الناس فمالوا اليه ، واكثر ميلهم خصب جانب خلف ، وجذب حيز ابى عبيدة ،

فكانوا معه طلبا لمعاشهم ورغبة فى الدنيا وكانوا معه على رأيه وبدعته .

ولما رأى قلة اصحاب ابى عبيدة وكثرة من معه من الضلال سولت له نفسه الخبيثة انتهاز الفرصة ومبادرة ابى عبيدة واصحابه ليستأصل شافتهم ، فجمع عساكره وتيمم أبا عبيدة فلما سمع به أبو عبيدة امر اصحابه بالخروج فخرجوا.فعسكر ببعد من الجبل ولما تدانى العسكران بعث خلف رعيلا من خيله نحو أربعمائة فارس ، فهم اصحاب عبد الحميد بان يخرجوا الى محاربتهم فمنعهم عبد الحميد من ذلك رقوبا ما عند الامام ، وطلبا للسلامة ، فقصدت الخيل قرية يقال لها « ويدوف » من رعية عبد الحميد ، فانتهبوا ما امكنهم من الاموال وقتلوا ما قدروا عليه من الرجال ، وكان اكثر الخيل اخذه خلف وأهل بيته ومواليه ومماليكه.

محاربة عبد الحميد الجناونى لخلف

فلما تحقق عبد الحميد بغيهم ولم يجد بدا من قتالهم أمر اصحابه بقتالهم . فالتقوا وانهزمت خيل خلف وقتل منهم عدد كثير . فاراد اصحاب عبد الحميد اتباعهم فنهاهم عن ذلك . واحسن السيرة ولما رأى خلف ما اصاب اصحابه من الهزيمة والقتل ، كر راجعا الى الموضع الذى منه خرج وهو موضع يقال له تيمتي فأقام به ، ورجع عبد الحميد الى موضعه وامر اصحابه بالرجوع الى مواضعهم ، وظن ان القوم لا يريدون بعد ذلك بأسا ، ثم ارسل الى خلف اذا ما فعلت ما فعلت فكن فى حيزك ، واكون فى حيزى ، وضع الحرب ، فابى خلف الا المحاربة وجعل يشن الغارات على رعية عبد الحميد ، وسلط عليها من يسومها أنواع العذاب لا يألوا فسادا وقتلا فى الاموال ، والانفس ، ثم ان خلفا ازدهى بكثرة من اجتمع له من العدد ، فامر ابو عبيدة

اصحابه بالخروج ، فخرجوا وهم فى عدد قليل ، ولكنهم أهل بصائر يموتون علىما بايديهم من **الحق** . لا يأسفون على ما فاتهم من دنياهم ولا يعدون **زائدا الا تقوى** بهم ، ولا مطلبا الا ما يقدمونه لأخراهم . **و**قد اختلف فى عددهم فقيل سبعمائة وقيل عدد اصحاب بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر ، فاقبل خلف بمن اجتمع لهوقد غره بالله الغرور ، ولم يدر « ان الله مع الذين اتقوا والذين **هم** محسنون » فجاء فى أربعة آلاف فارس فارسل الى ابى عبيدة رسولين بخلع ولاية افلح ويقر له بالولاية ، فلما قدم رسولاه بذلك الى ابى عبيدة حاجهم ابو عبيدة فى امر الائمة ، فقال : هل احدث افلح أو ابوه في الاسلام حدثا يحل لكما معه خلع ولايتهما ؟ واحتج عليهم بطاعة السمح لعبد الوهاب رحمه الله ، فاعتلا بانقطاع الحوزات ، فقال لهما: السمح قد اقر بطاعته على اختلاف الحوزات ، فقال له احدهما انا نخاف ان لم نجب الى طاعة هذا الرجل هراقة الدماء ، فقال ابو عبيدة : ايهما اعظم هراقة الدماء أم الترك للقيام بدين الله تعالى ؟ فقال له الرجل : هراقة الدماء اعظم ، قال له عبد الحميد : لو كان الامر كما ذكرت ما افترق اصحاب النهروان وغيرهم، واصحاب النخيلة، وابو بلال واصحابه، وعبد الله بن يحيى ، وابو حمزة واصحابهما ، وابو الخطاب ومن معه ، وابو حاتم ومن تبعه ، ولأذعنوا للطاعة دون هراقة الدماء ، انما قاتلوا وقتلوا فى القيام بدين الله ، ولم ينكلوا خوفا من اراقة الدماء بل قد بذلوا مهجتهم ، مجاهدين على آثارهم خير مقتدمين ، لا نبغى عنهم بدلا ولا عنهم حولا . فمن حاول منا غير ذلك فالله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ، ثم قال للرسولين : فان استعظمتم هراقة

تعطيل احكام الله اعظم وزرا من هراقة الدماء

الدماء ، فارجعا الى صاحبكما فقولا له : ان هذا يـــوم الخميس فدعونا ، فاذا كان غدا يوم الجمعة نصوم لله تعالى ونطلع ، أنا ، وهو ، وابو المنيف اسماعيل بـــن درار ، فنبتهل فنجعل لعنة الله على الظالمين ، ونسأل الله ربنا ان يفتح بيننا وهو خير الفاتحين .

اخبار القتال الذى جرى بين الطائفتين

فرجع الرسولان الى خلف فاخبراه بما جرى بينهما وبين ابى عبيدة من القول فامر خلف عساكره بالتهيء للقاء ابى عبيدة ، فلما قرب عسكره عسكر ابى عبيدة ، تقدم رجل من اصحاب خلف ممن يرى تصويب ابى عبيدة واصحابه تميل نفسه اليهم ويشفق عليهم ، فقال لابى عبيدة : تنح باصحابك الى سفح الجبل فان كانت الدائرة لكم ادركتم ما رجوتم ، وامنتم ما خفتم ، وان تكن عليكم كنتم فى حصن ولا يضركم ذلك . فقال ابو عبيدة لاصحابه هذه نصيحة قد اخرجها الله منعدوكم وعدوه ، فامر اصحابه بالتنحى ، واسندوا ظهورهم الى جبل فظن خلف ان ذلك على جبـــن وهلع فقدم سرعان خيله ، ورعيان رجله ، فلمـــا جـــاء والعساكر على اثره ، وغشوا ابا عبيدة دعا ابو عبيـــدة بوضوء فتوضأ مستترا برجال ، وصلى ركعتين وابتهـــل وتضرع الى الله تعالى عز وجل ، وسأل ان يقل شوكتهـــم وقال : « يا من لم اعرض عنه منذ استقبلت أمره لا تفرق هذه العصابة على يـــدى » وبلغنا ان رجـــلا مـــن اصحاب خلف دنا من عسكر ابى عبيدة فقال لرجل منهم ما الـــذى أوقفكم ؟ قال وقفنا ندعو الله ، فقال الخلفى فما بـــال السلاح ، فقال للدفاع فى سبيل الله ، قال من تدفعون ؟ فقال : ندفع من بغى علينا ، فقال له آخر من اصحاب ابى عبيدة لصاحبه مالك النت له القول ؟ فقال له : طمعا فى

الصلح ورغبة في تأخير بعض الشر، يا اخى، ثم تدانى القوم بعضهم من بعض ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، وذلك فى عشية الخميس الثالث عشر من رجب سنة احدى عشرة ومائتين ، قال وكان فى عسكر ابى عبيدة رجل شجاع ، حاذق بالطعن يقال له العباس ، ولد ايوب بن العباس ، فنظر اليه ابو عبيدة فرآه يضرب يمينا وشمالا ، وقد حمى الميمنة والميسرة والقلب ، فقال ابو عبيدة وقد ركزه انه لحمي المعقبات ، وقاه الله نار العقاب ، وذكر عن العباس انه ضرب رجلا بسيفه فأطار رأسه ، وقال العباس للرأس : الى النار وقال الرأس : وبئس المصير ، وكان ممن يكثر النسك والاجتهاد قبل ذلك ، فقال العباس : هذا جسد كنت ادعو له بالجنة زمانا ، وانه لمن وقود النار ، انا لله وانا اليه راجعون ، نسأل الله خواتم الخير .

ثم انهزم اصحاب خلف واسرع القتل فيهم ، فقتل منهم عدد كثير ، فأمر أبو عبيدة اصحابه ان لا يتبعوا مدبرا ، ولا يجهزوا على جريح ، واحسن فيهم السيرة ، فانحاز خلف وبقية اصحابه الى الموضع الذى يقال له تيمتى ، وامر باخراج جميع من فيها من نفوسة ، واجلهم ثلاثة ايام ، وقال من وجد فيها بعد الثلاثة ايام فمهدور الدم، وباخراج اليتامى ، والارامل ، ومن لا ذنب له ، فخرجوا من ديارهم كرها . ولما رأى اصحابه ما نزل بهم من خسار الدين والدنيا ، تفرقوا عنه الا قليلا منهم .

ثم سار من تفرق عنه منهم يقرأون على أبى عبيدة السلام ، تائبين ، فمن جاء منهم قبل توبته ، فاوهن الله شوكة خلف فلم تكن له بعد ذلك حركة ثم مات فى زيغه ثم ابنه مات ، ولم تكن له حركة . ثم ولد ابن خلف بعدها

فانحاز الى جزيرة جربة وما جاورها ، وسنذكر خبره اذا وصلنا اليه ان شاء الله .

ايام افلح كانت ايام استقرار

ثم ان الامام افلح رحمه الله تمكن في امامته واستقامت له الاحوال واستقامت به ، ولم يبق فى ايامه بعد خلف منازع ولا فى جهاته طالع ، وبلغنا انه كان فى العلوم متفقها وعلى انواعه متطلعا ، ولقد ذكر انه كان يجلس لأربع حلق وذلك قبل بلوغه الحلم . وقام أبو عبيدة على ما ولاه الامام ملازما طاعة الله وحفظ ما اوجب عليه حفظه ، من حدود الله وحقوق رعيته الى ان توفي رحمه الله . ثم استعمل الامام رحمه الله العباس على ما كان عليه عبد الحميد ، فأحسن السيرة وعامل رعيته بما عاملها به ابو عبيدة عبد الحميد من الرفق والحنان والعدل والاحسان الى ان توفي العباس رحمه الله .

الافتراق الثالث فى الاباضية
خروج نفاث وهو فرج بن نصر

حدث غير واحد من اصحابنا ان الامام رضى الله عنه استعمل على قنطنار ابا يونس وسيم بن يونس النفوسى ، فولى قنطنار وما والاها ، فاحسن السيرة . ووسيم هذا من نفوسة الجبل ، ومنها خرج تحرجا من تباعات الناس ، وذلك انه كان له اماء يحتطبن من غير املاكه ، فخرج ذات مرة لما شعر بذلك فوجد المواضع التى يحتطبن منها قد دمرت وتهدمت جسورها ، لاستنقاع الماء بها لما صنع الاماء فلم ير السلامة الا فى الهروب بدينه ، فولاه الامام قنطنار لما علم من صلاحيته وورعه ، وكان له ابن اسمه سعد ، وكان ذا فهم وذكاء ، فسار سعد الى تاهرت ليطلب العلم

بها فكان هو ونفاث بن نصر يحضران معا مجالس الامام رحمه الله : يقرآن عليه ، فكان كل واحد منهما يجتهد ويجهد نفسه فى دراسة العلم ، حتى حصلا ما رأيا فيه مقنعا ، وتشوقا الى بلادهما ، وذلك بعد وفاة وسيم ، فخرجا متوجهين الى بلادهما . وكان الامام لما بلغه موت ابى يونس عازما على استعمال عامل يلى جهات قنطنار ، فنظر فى ذلك فلم ير له اهلا الا سعدا لما تحققه من صلاحيته واختبره من حسن حاله ، فكتب كتابا باستعمال سعد ، فطواه ، وختم عليه بخاتمه ، وأودعهما اياه ، ولم يعلمهما أيهما العامل . وقال لهما حين دفعه اليهما : لا تفكاه حتى تصلا قنطنار .

نفات يخالف الامام وينتقده

فسارا فلما كان ببعض الطريق غلب الشره على نفاث فاستخفه حب الرئاسة ، فأستغفل سعدا وتخلف الى رحلهما ، ففض خاتم الكتاب وقرأه ، فوجد سعدا هو العامل ، فظنت نفسه الظنون ، واعتقد العداوة واضمر الغش لاستعمال الامام سعدا دونه ، ولما وصلا قنطنار قرأ بها كتاب الامام ، فسمع اهلها واطاعوا ، فاقام سعد واليا عليهم ، محسنا للسيرة ، عاملا بطاعة الله عز وجل ، وتمادى نفاث الى بلاده ، فسئل عن الامام واحواله ، فاظهر الطعن فيه ، وقال انه اضاع امور المسلمين ويزيد في الخلقة اذا مشى ، ويلبس الطرطور ، ويخرج الى الصيد، ويصلى بالاشبور (I) ، فبلغ الامام طعنه فيه ، وارسل الامام اليه بان يحضره بما نقم عليه ، فقال ان كان ما تقول حقا قبلنا ورجعنا اليه ، وان كان باطلا فايه ، وهذه الكلمة فيها معنى الوعيد ، فلما بلغ ذلك نفاثا ، قال ايه من السلطان هو القتل .

(I) فى بعض النسخ الثبور

فتاوى غريبة لنفاث

وله مسائل انتحلها لا أصل لها منها زعمه ان الخطبة بدعة ومنها قوله ان ابن الاخ الشقيق أولى بالميراث من الاخوة للاب، وانهم يحجبونهم ، ولما انتشرذلك عنه وسمعه مشائخ أهل الدعوة ، قالوا لو لم يكن له جرم الا فتياه هذه لكان بها أهلا للضلال ، فكيف والضلال محيط به في جميع الاحوال،فمن مذموم احواله ما بلغنا انه دخل قرية وجاء الى دار رجل من اهلها فلم يجده فانصرف ، فلما اتى صاحب الدار اعلمه اهله بمجيء نفاث يسأل عنه ، فابتدر الرجل وركب دابته وخرج يطلب نفاثا ، ليرجع الى مذهبه ، فسار الى الليل فادرك نفاثا فى ظلمة شديدة ، ونفاث لا يراه فسمع الرجل نفاثا يعاتب نفسه ويقول : ضللت وأضللت يا نفاث ، فحمد الرجل ربه ورجع الى اهله ، واقام على مذهب اهل الحق ، وبلغنا ان ابن اخت لنفاث اتاه فقال له : عبر لى رؤيا رأيتها ، رأيت رجلا جمع شعيرا فجعله صبرة كبيرة فرقي سنور اعلاها ، فقال له ذلك رجل جمع علوما فاستولى عليه الشيطان ، فقال انت هو الرجل يا خالى .

نفاث صاحب علم وذكاء ولكن حرم التوفيق

وبلغنا انه بلغ مبلغا عظيما فى تحصيل العلوم واوتى فهما ، الا انه فسد ذلك بما طبع عليه من الحسد ، وغلب عليه من حب الخوض فى غمرات الدنيا ، فمن فهمه ان امرأة سألته عن بيض طاهر طبخ فى ماء نجس ، هل سينجس البيض ام لا ، فقال لها قفى مكانك حتى اخرج اليك ، فدخل الدار واخذ نيلجا فجعله فى ماء ، وطبخ فيه بيضا حتى نضج ، فلما قشر البيضة وجد لون النيلج قد خلط الى داخل البيضة ، فعلم ان القشر لا يمنع النجس فخرج الى المرأة ، فاعلمها ان البيض غير طاهر . وبلغنا ان سعدا خرج فى اثر نفاث ليتلافى اهل جبل نفوسة ، قبل

استفساد نفاث ، ثم شرع فى بناء دار مجاورة لنفاث ، وجعل اخوانه يحسنون عونه فى البناء ، وفى اثناء ذلك لم يزل نفاث يلازم العمل معه بيده ، وكان يحسن صناعة البناء فكلما رأى ذلك منه خاف توهم النفوسيين انه راض عن نفاث ، فكان يقول له بمحضر جمعهم الى متى انت مقيم على كفرك يا نفاث ؟ فقال معاذ الله من الكفر (I) يا شيخ فاذا خلا سعد باصحابه قال لهم ، ما كان جزاء من يحسن عونى ان اعامله بقبح من القول ، ولا ان اقابله الا بالاكرام ، وانما خفت ان يراه معى اهل الموضع فيحسنون به الظن ويجد سبيلا الى فتنتهم .

نفاث فى بلاط العباسيين

وذكر عن نفاث انه توجه الى ارض الشرق ووصل بغداد ومكث فيها زمانا وكان يستأنس برجل من أهل بغداد ، ويجالسه وبينما هما ذات يوم جالسان ، اذ سمع نفاث مناديا ينادى فقال لصاحبه ما هذا ؟ فقال مسألة وقعت فى مجلس امير المؤمنين ، فمن اجابه عنها فله سؤاله ، ومناه فقال له نفاث انا اجيب امير المؤمنين عن مسألته ، فقال له صاحبه اخشى عليك من القتل ان لم تجبه بعد تكلفك بالجواب . فقال له بل اجيبه عن كل ما سأل . فاجتاز به خدمة السلطان وانطلق معهم فلما مثل بين يديه سلم عليه فقربه السلطان فسأله عن احواله، وبلده ونسبه ومولده، فقال له نفاث : يا أمير المؤمنين أنا رجل من البربر والبربر لا أدب عندهم فان رأى أمير المؤمنين الصفح عن العبد ان أساء والتجاوز عنه ان بدا منه الجفاء فعل ؟ فقال له السلطان : قل ما بدا لك

(I) لا تنس ان الاباضية تطلق كلمة كفر على اقتراف المعصية والاصرار على الذنب على حد قول الرسول عليه السلام للصحابة (لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)

فسأله السلطان عن المسألة فاجاب عنها ، ثم سأله عن مسألة أخرى فاجاب ، ثم سأله عن أخرى فاجاب ، وذلك بمحضر الفقهاء الاكابر من أهل بغداد، فطفق كل منهم يسأله فيجيب حتى نفذ السؤال فلم يقف عن جواب . فنظر اليه السلطان نظرة مزدر برثاثة حاله على ما اوتى من العلم ، فقال نعم العسل في ظرف سوء ، ففطن به نفاث ، فقال معرضا : ونعم الرجل في قبر سوء ، يعني ديوان جابر بن زيد رحمه الله فانه في خزانة السلطان لا ينتفع به احد ، فغضب السلطان لذلك وهم به . وتذكر ما قدم من اذنه في ان يقول ما شاء ، فامسك ، ثم انه قال له : سل حاجتك ، فقال له حاجتي ان تهب لي ديوان جابر بن زيد رحمه الله (I) لاستنسخه ، فاجابه السلطان الى ذلك . فلما خرج نفاث قال للسلطان بعض وزرائه ، يا امير المؤمنين هذا ديوان معدوم غير موجود الا في خزانتك ، فكيف تسمح به لسواك فيخرجه فيصير في غير خزانتك ، وفي غير بلدك ، ويزاد به هذا المغربي فخامة . ما هذا برأى ، فقال لهم اني قد وعدت الرجل ومثلي لا ينبغي له ان يخالف وعدا ، فما الحيلة فاشار عليه احدهم ان يخيره في يوم وليلة مقبلة من ايام اقامته فينسخ فيهما ما قدر عليه ، ففعل ، فاختار يوما وليلة واعلمه بهما ثم اعد جميع ما قد رأى ان فيه كفاية ، من حبر واقلام مبرية ، وورق وكاغد واستأجر جماعة من الوارقين . فلما كان اليوم الذى عزم فيه على أخذ الديوان وقد هيأ كل ما يحتاج اليه ، فرق الديوان على الوارقين ، وجعل لكل ناسخ دينارا ولكل ممل نصف

يظفر بديوان جابر ابن زيد في بغداد ثم يدفنه بعد

(I) هو الامام الجليل والمحدث الثقة ، وهو أول من نقل عنه المذهب الاباضي ويبدو ان ديوانههذا مجموع الاحاديث والآثار المروية عن الصحابة على الطريقة الاولى التى انتهجتها كتب الحديث ، وتوفى رحمه الله سنة 96 هـ

دينار ، فلما كان آخر النهار استدعى آخرين ، وجعل لكل ناسخ دينارين ولكل ممل دينارا فالاجرة الاولى على عمل النهار ، والاخرى على عمل الليل ، فما انقضى الليل الا والديوان كله قد كمل نسخه ، الا سفرا واحدا . فجاءه رسول السلطان يطلب الديوان ، فدفعه الى من تناوله له ، وأبقى فى يديه السفر الذى لم ينسخه ، فشقه فى مجلس السلطان مرة واحدة فحفظه كله ، فاعلم السلطان بذلك فامر بامتحانه فاخذ منه الكتاب فقرأه سردا بلا نظر ، فعجب السلطان بذلك ، ففصل نفاث من مجلسه فاملأ السفر على من نسخه فكمل له الديوان ، واعملت الحيلة فى القبض عليه . واعمل هو حيله فى التخلص ، وسلك طريقا مجهولة ، حتى نفذ الى بلده ومعه الديوان . قيل بانه سبعة احمال . فلما وصل الى بلاد طرابلس وجد اصحابه الذين ضلوا لضلالته قد قلوا وضعفوا ، فساء ظنه وخشي ان اظهر الديوان تكون جماعة أهل الدعوة هم المنتفعون به ، فلم تسمح نفسه الخبيثة باظهاره ، فحفر حفرة ودفن فيها الديوان بحيث لايعلم له موضع ، ففقد الى يومنا هذا ، ومات نفاث وكان بدء أمره نفاقا وكفرا وعاقبته حسدا ، فنعوذ بالله من علم لا ينفع وعمل للكلم الطيب لا يرفع،ولم يبق ببلادنا من يقول بقول نفاث وينصر حجته الا فريق من مطماطة فمنهم من بالجمة ومنهم بالجبل واليه ينسبون، فيقال لهم النفاثية، فوقى الله الامامة شره ، ودحض عزه .

وفاة الامام افلح وولاية ابنه ابى بكر

واقام الامام رحمه الله بتاهرت سالمة ايامه من الشوائب متصفا بجميل الخير وحميد المناقب ، رادعا لكل باغ وظالم لا تأخذه فى الله لومة لائم ، الى ان توفي رحمة الله عليه

وكانت مدة امامته ستين سنة . فولى بعده ابنه ابو بكر وكان ابنه محمد غائبا بارض المشرق لقضاء فريضة الحج فدل عليه واخذ بمكة وحمل الى بغداد وسجن بها حينا ، ثم اطلق واحسنت جائزته ، فتوجه يريد المغرب ، فزعموا انه لما انفصل من بغداد كان ببغداد من اهل التعديل من اعلمهم انه سوف تكون له ولاية ، فجدوا فى طلبه يريدون به شرا ، فنجاه الله من شرهم ووصل الى تاهرت فوجد اهلها مجتمعين فى امر ابى بكر لما بينه وبين ابن عرفة . وذلك ان ابن عرفة من اعيان اهل تاهرت فكانت بينه وبين ابى بكر مواقعة افضت الى حرب وكاد الافتراق ان يقع والفتن لا ترفع بينهما ، فبينما الناس فى ذلك اذ أصبح ابن عرفة قتيلا . فنسب الى ابى بكر وهذا ما منع من وقوع الاتفاق على طاعته ، فلما يسر الله بقدوم محمد كان رافعا للخلاف، وقاطعا لقبائح الاوصاف فاعتزل ابو بكر الولاية وانسلخ منها . ولم يجد الناس لمحمد محيدا عنها ، فعقدوا له بيعة ، والتزموا سمعه وطاعته .

امامة محمد بن افلح بن عبد الوهاب رحمه الله

حدث غير واحد من اصحابنا ان محمدا بن افلح اجمعت على توليته جماعة المسلمين ، فولوه على انفسهم فلم يختلف عليه اثنان ، وبلغ الغاية في العدل والفضل والاقتداء بمن سلفه ، فكانت نفوسة فيما قيل لا يعدلون ايامه وسيرته الا بأيام جده عبد الرحمن وسيرته وذلك انهم اتخذوا مجلسه حينئذ كالمسجد ، فطائفة يصلون ، وطائفة يقرأون الكتاب ، وطائفة يتذاكرون في فنون العلم، ومكث فى امامته اربعين سنة على هذا الحال ، محمود السيرة مجتهدا

في الصلاح قائما بالحق قاضيا بالعدل الى ان علت سنه ورق عظمه ، وتوفي رحمه الله ، وله تآليف في الرد على اهـــل الخلاف لا يشق فيها غباره ولا تياره ، فولى بعده ابنه يوسف ابن محمد بن افلح رحمه الله .

امامة يوسف بن محمد بن افلح رحمـه اللـه

ولما مات محمد رحمه الله ولى ابنه يوسف ، فمكث في الامامة اثنى عشر سنة ، وقد اطردت له الامور ، ولم يبغ عليه احد من رعيته في أمر من الامور ، وكان عامله على جبل نفوسة ابا منصور الياس على ما كان عليه في ايــام ابيه ، وايام جده ، وكان قاضيه اذ ذاك عمروس بن فتح رحمه الله وكان عالما كبيرا ولــه تواليف في الاصـــول والفروع . وكان قد عزم على ان يؤلف تأليفا مرضيا على ثلاثة قواعد : الكتاب ، والسنة ، والرأى ، ويجعل كــل قاعدة بمعزل فادركه اجله عجلا قبل تأليفه « فانا لله وانا اليه راجعون » ، وفي ايام يوسف كان طلب أبي منصور ولد ابن خلف على ما سيأتي ذكره . وذلك ان ابا منصـــور كان فاضلا مستجاب الدعاء ، ذا كرامات ، ذكر عنه انــه اذا خرج في عسكر ركب بغلة وكان لا يتقى النبـــال ، وكانت النبال تتحادى عنه وعن بغلته يمينا وشمالا ، وهو مقتحم الحروب ، لا يقع شيء منها عليه ولا عليها ، قلــت ولعل ركوبه البغلة لان ينشط العامة ، ويشجعهـــم ولان يعلموا انه لا يحدث نفسه بفرار فيتاسوا به ، وان كانت البغلة ليست بمركوب لمقتحم الحروب . وحدث يعقوب بن ابي يعقوب ان ابا منصور رحمه الله خرج في طلب ولد ابن خلف في آخر ولاية الرستميين وقد هرب منه وسار الى

ابو منصـور الياس واخبـاره

زواغة والتأمت زواغة . واجمعوا ان يمنعوه ، وكانوا على مذهب ابيه فسمعوا قوله واطاعوه واقبلوا مجيبين دعوته الى ان من الله عليهم بأبى منصور فردهم عن مذهبه ، الى مذهب الحق حسبما يأتى ذكره ان شاء الله ، قال فسار ابو منصور بعسكر من نفوسة فلما وصل ريضة بخارج جزيرة جربة وجد بها جموع زواغة ، فى اعداد كثيرة محدقين على ولد ابن خلف ، عازمين على منعه من ابى منصور ، قال : فقام فيهم شيخ من بنى يوراسن يقال له ابو سلامة ، فقال : يا معشر زواغة عندىلكم نصيحة، وذلك ان تختاروا واحدة من ثلاثة اما ان تتركوا بادية زيرة ، وتدخلوا جزيرة جربة فتمتنعوا باخوتكم وتمنعوا صاحبكم ، واما ان ترسلوا وفدا الى الامام ، فترغبوا اليه فى ان يفردكم بعامل ، فتخرجوا من طاعة نفوسة ، فلا يكون لهم عليكم سبيل . واما ان تدفعوا لى ابن خلف فانطلق به الى نفوسة تحت امان وانا كفيل بسلامته ، وانهم لا يخرجون فيه عن قانون الحق ، فلما سمعت زواغة مقالته قام رجل من عامتهم فقال ما اراد هذا اليوراسنى الا الايقاع بخليفتنا ، فقال ابو سلامة : كيف قلت ؟ فابتدر الجواب رجل من علمائهم ، فقال اعرض عنه يا ابا سلامة ، فانه جاهل ، فقال قد اعرضت عنه ، وقام منصرفا عن محفلهم . ثم ان زواغة اجتمعت على مناصبة ابى منصور فناجزهم القتال فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزمت زواغة ، وكان اكثر شجر الريضة قريب عهد بالانشاء ، وكانوا لما غرسوه حفوه باعواد اثبتوها فى حفر ووصلوا ما بينها بالحبال لترد عنها الوحش لئلا يفسدها ، فاكثر تلك الارض على هذه الصفة ، فلما خرج القوم اعترضتهم تلك الحبال ، فكلما راموا مهربا وطلبوا

ابو منصور يحاصر خلفا واتباعه فى مدينة جربة

ملجأ حالت تلك الحبال بينهم و بين ما يطلبون ، فطفق اصحاب ابى منصور يقتلونهم فى كل مكان ، حتى مات منهم عدد كثير ، فرجع عنهم . واجتمع من ابقته الوقيعة منهم فلجأوا الى جزيرة جربة واستجار ولد ابن خلف برجل من زواغة يقال له معقل من بنى تامستاوت ، فادخله فى قصر من قصور جربة ، يقال له غردان فسار اليهم أبو منصور بعسكره ، فلما دنا من جزيرة جربة وجه رجلا من بنى يراسن الى الزواغى مجير ولد ابن خلف ، وارسل معه مائة دينار مصارفة ، ودخل الرجل جربة فلما وصل الى الزواغى سلم عليه وجعل يصافحه ويصب الدنانير من كمه الى كم الزواغى فلما أحس بالدنانير جعل يسأله عن أحوال الشيخ ويقول له : لو اتيت الى اولادنا لدفعناهم اليك . وكان ابو منصور رحمه الله لما قدم الى جربة وصل اليها بعد ثلاثة أو قريبا منها لان من سيرته اذا كان مرتحلا بعسكره وحضر وقت الصلاة نقر فى الطبل فيقف أول العسكر وآخره ثم ينزل فيصلى بهم ، فاذا صلوا ارتحلوا . وكان هذا دأبه فهو سبب مهله في السير، فلما حل بهم أبو منصور تقدم الى معقل ولد ابن خلف ، فقال : انزل ايها الامير فقد طالما ارملت نساء زواغة ، فقال ولد ابن خلف ليتكم لم تسمونى اميرا وناداهم نداء فيه جفاء ، قال، فدفعوه الى ابى منصور فسار به ولم يكن بجربة حينئذ حركة ولا قتال ، فاحتمل ولد ابن خلف الى الجبل فسجنوه هنالك، ولم يزل مسجونا حتى نزلت عنده نازلة في قطع رجل لص (1) ، فاختلفوا فيها فاحتاجوا اليه ، فانه كان عالما فتوجهوا نحوه وسألوه من أين تقطع

(1) لعله ليس بلص ، بل قاطع طريق ، والا فاللص لا تقطع رجله

رجل السارق فافتاهم بانها تقطع دون العقب ، فقال عند ذلك مقالة جابر بن زيد لما استفتي فی السجن وخبره مشهور وسيأتي ذكره ، وقد ذكر بعض اصحابنا ان الفتى تاب ورجع الى مذهب أهل الحق ، وحسنت حاله ، ثم ان أبا منصور توفي رحمه الله وولى مكانه افلح بن العباس بنفوسة من قبل الامام فكان حسن السيرة كأبيه .

يستفتونه وهو في السجن

وقعة مانو وانقراض الامامة

حدث غير واحد من اصحابنا ان نفوسة كانوا اطوع رعايا بالدولة الرستمية واكثرها عونا على الخير واشدها بأسا فی النصر على الاعداء ، وفي ذلك يقول الامام رحمه الله : انما قام هذا الدين بسيوف نفوسة واموال مزاتة ، وانشهر الصيت على نفوسة حتى اشتهر فی بلاد المشرق عند سلوك المسودة، لمكاتبات أهل بلاد القيروان وأهل طرابلس وغيرها من بلاد المغرب التي انتشرت بهادعوتهم ، واستقامت بها مملكتهم ، وبهم ظهروا على من سواهم وكان ذلك فی ايام المتوكل ببغداد .

انما قام هذا الدين بأموال مزاتة وسيوف نفوسة

فلما تواترت الكتب اليه من الجهات الغربية ان دعوة الرستميين قد تمت وايامهم قد استقاست لا ينازعهم فيها منازع ولايدافعهم عنها مدافع،ويستنفرون من عنده جيشا ينتظم به اليهم ملك طرابلس والمغرب فاهتز لذلك وتحرك اليه خاطره ، فوجه عسكرا الى المغرب ، وامر عليه ابراهيم ابن أحمد من بني الاغلب فتوجه ابراهيم بعسكره الى المغرب قاصدا تاهرت ، فلما قرب من طرابلس سمعت بخبره نفوسة فاجتمعوا ، واجتمع رأيهم على ان لا يتركوه وما اراده من المسير الى تاهرت ، دون ان يناصبوه . فاتصل به ما عزموا عليه ، فوجه اليهم ان اتركوا الي ساحل البحر

مقدار نشرعمامتي لأجتاز فيه انا ومن معى ، فأبوا من ذلك فلما رأى ابراهيم ان لا بد من رجوعـــه الى المشرق أو مناصبتهم عزم على لقائهم ، فقال لأصحابه خذوا اسلحتكم وشمروا وجوزوا على الساحل ولا تتعرضوا لهؤلاء القوم فان تركونا وطريقنا . . . والا قاتلناهم ، فبلغ نفوسة ما عزم عليه ابراهيم ، فقال بعضهم دعوا هذا الرجل يجتاز ولاتتعرضوا له بشيء ، فأبى الاكثرون ذلك وكان ممن كره تعرضهم سعد بن ابى يونس واشار بالكف عنهم ، فقـــال له بعض العامة : يا سعد تشوقت الى شداخ قنطنار فجزعت من القتل فى سبيل الله . فقال لهم يا قـــوم ليس فى ما تقولون ، ولكن خشيت ان تذبح البقرة فيتبعها عجلهـــا ـ يعنى بالبقرة نفوسة وبالعجل قنطنار ـ ثم خرجوا الى العسكر يمنعونه السلوك الى المغرب . فلحقوه بموضع يقال له مانو ، وهو قصر على ساحل البحر من ابنية الامم السالفة فاقتتلوا قتالا شديدا لم ير أشد منه بالمغرب فى ذلك العصر فخرج رجل من عسكر المشرق يطلب المبارزة من عسكـــر نفوسة فلم يخرج اليه احد الا قتله ، فأراد الخروج اليـــه افلح بن العباس وهوامير الجيش ، فأبى ذلك أصحابه فقال لا بد من ذلك فخرج اليه فقتله افلح واشتد بينهم القتال ، واسرع القتل في الفريقين وكثر القتل والجراح في نفوسة حتى هموا بالانهزام ، فلما رأى ذلك افلح أمر صاحـــب البند ان يركزه فى الارض حتى لا ينهزم احد على البند ، فأبى صاحب البند من ذلك . ثم اقتتلوا مليا ، ثم رجـــع فقال اركز البند فأبى فقال لا بد ان تحفر للبند فتركزه فقال له صاحب البند انى قد امسكته معجدك ومع ابيك ومع اخيك ، ولم يأمرنى احد منهم بأن احفر له ، وها انا حفرت

له حفر الله لك . فلما ركزه فى الحفرة ، ولى أفلح منهزما وتركهم يلوذون به ، ولم يستجيزوا ان ينهزموا ويتركوا البند قائما ، فقتل منهم بشر كثير . وقد كان أفلح فيما بلغنا قد كره خروجهم الى ابراهيم ، وقتالهم اياه ، ولذلك فعل بهم ما فعل . ثم ان رجلا من ذوى البصيرة فى دين الله ردد بصره في البند فرآه قائما والناس يلوذون به ويصرعون حوله فعمد اليه وقال انى لارى انك لم يبق لك حظ فى النصر ، وانك منهزم ، فضربه بسيفه فسقط .

اثر وقعة مانو على نفوسة

فلما رأى من بقي من عسكر أفلح ان البند قد سقط ولوا مدبرين ، فافلت من افلت منهم . فذكر من يوثق به ان عدة القتلى اثنا عشرألفا، فمن نفوسة يومئذ اربعة آلاف ومن سائر القبائل ثمانية آلاف، وكان فى القتى اربعمائة عالم ، ولم يبق بعدهم عالم يفتى فى النوازل الا ابو القاسم البغطورى ، وعبد الله بن الخير . ثم تلامذتهما بعدهما . وبلغنا ان عمروس ابن فتح كان فى آخر العسكر وتحته فرس سابق وكان يحمى صاحبه ، فاذا طلب لحق واذا طلب سبق ، فنصبوا له حبالا واضطروه اليها ، فعثر به الفرس واخذ أسيرا .

تلك كلمة ذل لا يسمعها منى

ومضوا به الى ابراهيم بن أحمد ، فاشار الى عمروس بان يستعفى فيعفى عنه ، قال عمروس تلك كلمة لا يسمعها منى ، ولكن أسأل ان لا تنزعوا عنى سراويلى هذا ، فانى أوقن بالهلاك ، فجعلوا يقطعون اعضاءه فقطعوه أنملة فأنملة ، فلما وصلوا بالقطع الى عضده استشهد رحمه الله .

ثم ان بقية نفوسة بعد الواقعة رجعوا الى جبل نفوسة فتحصنوا فيه ، وتشاوروا فى عزل أفلح بن العباس وتولية

ابن عم له ، فاتفق جميعهم على ذلك الا ابا معروف فانه أبى ذلك خشية الاختلاف .

ثم ان نفوسة عزلوا أفلح بن العباس فأقاموا عوضا عنه ابن عم له ليقوم بأمورهم ، حتى يخاطب الامام بما رآه ، وبما دعاهم الى ذلك ، فلما فعلوا ذلك حنق على فعلهم أفلح، حتى رام الخروج على جماعة اصحابه ، والقيام بمخالفتهم ، وكان له صديق من نفوسة فعرض على صديقه ما عزم عليه من الخلاف ، وحاول منه ان يساعده على ذلك فامتنع ، فبلغ أبا معروف ما عزم عليه أفلح فجاءه خفية وقبح عليه الخلاف ، وسوء عواقبه ووعظه ، فركن اليه ولم يتهم قوله، لما تقدم منه أيضا من كراهية خلع أفلح ، فأراد الله به خيرا فكف ، فأقام ابن عمه نحو ثلاثة اشهر فلم يحسن التدبير ، ولا امرا من الامور ، فلما رأوا عجزه أخروه ، وقدموا أفلح على ما كان عليه ، وكان ذلك ببركة ابى معروف وحسن سيرته ، وقد ذكر جماعة من اصحابه عن رجل من عسكر ابراهيم قتل أخ له فجاء ليلا ليحمله على دابته ، ثم التفت الى موضع المعركة فرأى شيئا يطوف على القتلى فلما مر بقتلى عسكر افلح نادى : كبروا يا أهل الجنة ، فكبروا بأجمعهم، ثم مر بقتلى عسكر ابراهيم فنادى انبحوا يا كلاب النار ، فنبحوا باجمعهم ، ونبح أخوه على الدابة فألقاه عنها وهرب ، ومضى لسبيله .

ابراهيم بن الاغلب يتتبع بقية اهل الدعوة

ولما فرغ ابراهيم من نفوسة ذكر له ان بقنطنار بقية من أهل الدعوة ، فقصدها ، ولم يشعروا حتى غشيهم سحرا ، فقتل منهم عددا كثيرا ، وأخذ من صلحائهم وعلمائهم ثمانين رجل ، فشدهم وثاقا ، ثم سار ، فذكر له ان بنفزاوة ايضا جماعة اخرى ، وفيها رجل عالم يقال

له ابو بكر بن يوسف النفوسى ، رحمه الله ، ووجه اليه ، فأخذته رسله من تيزاج، وهى قرية من قراها، فلما أخذوه سألهم الشيخ ان يدعوه حتى يركع ركعتين ، فتركوه فصلى واخذ فى الدعاء والتضرع الى الله عز وجل ، فارسل الله عليهم ريحا صرصرا ، فأظلمت الارض اشد من ظلمة الليل فحيل بينهم وبين الشيخ فأخذه ابنه بيده ، وكان الشيخ مكفوف البصر ، ومضى الى تناوتة ، وهم اهل القرية المعروفة بشيطان، من قرى نفزاوة، فنجاه الله من كيدهم.

ثم ان عدو الله توجه الى القيروان بالثمانين رجلا الذين هم فى وثاقه ، من قنطنار ، وفيهم رجل يقال له ابن تتيت مقطوع العرقوب ـ ولم تطب نفسه بالهروب دون اذنهم ـ فأذنوا له ، فسل رجله من القيد وهرب . فأخذ اصحابه ، فقتلوا باجمعهم ، فكان ما ابقته من الضعف هذه الواقعة وما اتصل بها سببا لانقراض الدعوة ، وذلك لان نفوسة كانوا عمدتها ، قامت بقيامهم ، وانقطعت لانقطاعهم ، فلما ضعفوا انتهكت الحرمة . واستفزت الامامة . حتى انقرضت حسبما ياتى ذكره .

نبدأ بنبذ من أخبار عبيد الله ووقوعه بأرض المغرب وانتشار مذهب الشيعة بها ، وما يتصل بذلك من الاخبار التى ذكرها ، ويفتقر هذا الكتاب اليها ، حتى لا يخلو منها ، لارتباطها بشيء سلفنا

رأيت باستخارة الله ان اختزل اكثر ما ذكره الشيخ رحمه الله ، فى هذا الموضع ، لقلة فائدته ، واذكر منها موضع الحاجة ، واستخلصه عن مقتضى ما ذكره « الرقيق » فى تاريخ افريقية ما تدعو اليه الحاجة .

عبيد الله الشيعى وظهوره بالمغرب

فأقول : عبيد الله هذا هو الذى يكنى ابا القاسم ، وسموه المهدى محمد ، وهو الذى يسمى : الامام القائم بن على بن موسى ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ، بن على بن ابى طالب فيما ذكره الرقيق .

وقد ذكر الرقيق ان المهدى هو ابو محمد ، وان الخليفة بعده ابنه القائم ابو القاسم محمد بن المهدى وبعده ابنه المنصور اسماعيل بن القائم ، وبعده ابنه المعز ، معد بن المنصور ، ومعد هو ابو تميم ، وسيأتى ذكر شىء عنه فى أثناء أخبار هذا الكتاب .

ما قيل فى نسب الفاطميين

وقد قال بعض الناسبين ، واصحاب التواريخ ان انتسابهم الى أهل البيت غير ثابت ، وكان هذا قد حصل به شىء من علم الحدثان ، وكان يرى ان امره بعزلاعة من ارض اليمن ، ومنها تفرق دعاتهم ، وان بأرض المغرب تتم الدولة ، ويمم ذكرها ورأى بالعلامات ان ابا القاسم الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى هو الداعى باليمن ، فلما اتى الوقت وجه الى اليمن داعيا ، فأقام بأرض اليمن، الى ان انتشرت به الدعوة الشيعية وان عبد الله الحسن بن احمد بن زكرياء الكوفى المعروف بصاحب البدر هو الداعى بأرض المغرب ، فوجهه اليها وامره ان يبدأ بلقاء ابى القاسم الداعى باليمن ويتمنى سيرته ، وينتظر مخارج افعاله ، فيجتهد بها ، ففعل .

اقامة عبيد الله بقلعة كتامة

ثم خرج الى مكة فصادف بها جماعة من كتامة ، ممن حج تلك السنة ، وكان منهم من تقدم له شىء من التشيع ، فصاحبهم حتى أنزلوه قلعة ايكجان بنظر ميلة ، من بلاد كتامة ، فلذلك قيل له الكجانى ، ثم انتقل الى تاصروت ،

فأقام ببلاد كتامة داعيا مدة سنتين ، تمكنت به الدعوة الشيعية ، وانتشرت فيما يليها من الجهات بعد ان عبأ العساكر ، وكابر الحروب ، وقارع غير واحد من الاغالبة ، وقوي ، وافتتح البلاد فى أخبار تطول ، وانما قصدنا من ذلك الاختصار .

وفى اثناء هذه المدة توفى الامام بالعراق ، وعهد الى ابنه المهدى عبيد الله ، فجاءته فى الكتاب عبيد الله (I) يعلمه ان الامور قد تمهدت ، او كادت ، فتوجه الى المغرب مجاهدا قاصدا سلجماسة ، فاجتاز فى طريقه على وارجلان فاستخف به سفهاؤها ، وحتوا فى وجهه التراب يقولون : هذا الذى جاء من الشرق يطلب الملك ، وكان اشر الناس عليه أهل قصر بكر ، فلذلك فى رجوعه حسبما يأتى ذكره حرق المسجد الكبير ، وكان عند وصوله ورجلان سأل من رئيسها ؟ فقيل له : غيار ، فتطير بهذا الاسم . فتوجه الى سلجماسة فوجد صاحب سلجماسة اليسع بن مدرار فأكرم مثواه ، وأسكنه عالية دار لرجل من أهل سلجماسة ساكن فى اسفلها ، فلما كان ليلة من الليالى رأى السلجماسى فى منامه كأن ثعبانا عظيما فى داره مضطجعا ، فانتبه مذعورا ، فقص الرؤيا على ضيفه من غير ان يعلمه انه الذى رآها ، فقال له ان صح ما ذكرت فهذا ملك يملك المغرب والمشرق، فقبل يده وقال : والله يا مولاى انى رأيت الرؤيا وليس معى فى دارى غيرك ، فازداد بذلك أنسا وازال وحشته ، واقام بسجلماسة الى ان فتح ابو عبد الله طبنة وبغاي وطرابلس والقيروان وقفصة وما يتخلل هذه المدن من القرى ، واستولى على جميع افريقية ، واجلى عنها

(I) كذا فى النسخ التى ظفرت بها

سقوط تاهرت على يد الفاطميين

من كان فيها من الاغالبة ، فلما طاعت له البلاد واستقامت له الامور عزم على المسير الى سجلماسة فى طلب المهدى عبيد الله فخرج ابو عبد الله من رقادة الى سجلماسة ، فاجتاز على تاهرت فكان منها ما كان من غدر بنى اليقظان بالامام يوسف بن محمد بن افلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم رحمه الله ، وشكى من بتاهرت ونظائرها من الشيعة والواصلية وغيرهم الى الشيعة امارة الفرس ، وسألوه أن يستأصل شافتهم، وخرجت دوس(I) بنت الامام يوسف رحمه الله، تشكو الى ابى عبد الله الشيعى غدر بنى يقظان اباها ، ووعدته ان يتزوجها ان هو أخذ لها ثار ابيها ، فجاءه فيمن جاءه من أهل الموضع ومعهم ابوهم ، فسأله ابو عبد الله الكجانى من انت ؟ قال : أنا يقظان فقال بل انت حيران ، ما الذى دعاكم الى قتل اميركم فاسلبتم ملكه ، واطفأتم نور الاسلام بغير سبب ، والقيتم بايديكم الينا بغير قتال ؟ ! ثم امر بهم فقتلوا جميعا ، ثم ان يعقوب بن الامام وابنة اخيه دوس خرجا فى خفاء الى جهة وارجلان حتى نزلاها وانما خرج بها خوفا من ابى عبد الله الشيعى ان يستنجز الوعد ، فطلبها فلم يجدها ، ودخل المدينة فانتهبها وانتهك حرمتها ، واجلى كثيرا من اهلها ، وجعل اعزة اهلها اذلة . وكان دخوله المدينة بالامان فلما دخلها غدر وقتل اهل بيت الامامة من الرستميين واهل الملك وأهلك الحرث والنسل ، فانقطعت الامامة بموت الامام يوسف رحمه الله ومن قتل معه ومن قتل بعد دخول المدينة وذكر انه وجد صومعة مملوءة كتبا وهى المشتملة على

(I) اثبتها صاحب الازهار الرياضية باسم دوسرة

ديوان تاهرت الذى يذكره العزابة ، فانتقى منه ما انتقى واحرق الباقى ، فلم يبق لشيء من الديوان اثر أصلا .

ولما علم عبيد الله بقدوم ابى عبد الله خرج ليلقاه وقد علم جميع الدعاة والقياد انه صاحب الوقت ، وان له يدعو بعد ما خاف عليه الغدر من ابن مدرار ، فلما قدم على عسكر ابى عبد الله جاء معه ابنه القاسم فقدم لهما ابو عبد الله فرسين فركبا وحفت بهم العساكر ، ومشى عبيد الله والدعاة بين يديه وابو عبد الله يقول : هذا مولاي ومولاكم ، وابن ابنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى كنتم تنتظرون ، وجميع الناس يسمعون كلامه ، وعقدوا له البيعة فلما دخل افريقية وذلك فى عام 297 سبعة وتسعين ومائتين ، وقد تمكنت دولته ، وجه عسكرا عظيما الى وارجلان ، فلما سمع اهله باقبال العسكر تحصنوا بالكدية المعروفة بكريمة ، وهى كدية حصينة شاهقة بينها و بين وارجلان قدر ستة اميال ، فملأوا مؤاجل بها ماء ، واخرجوا ما قدروا عليه وما امكنهم ، فلما وصلهم العسكر دمر الديار وحاصروهم فى الكدية ، وطوق بها سبعة اطواق ، وهم بالمقام معهم ، حتى يهلكوا عطشا ، فقال لهم رجل ممن كان معهم ويقال انه يهودي لعنه الله هاتوا قصاعا كبارا ، فملأوها زيتا ، ونصبوها على حرف « كريمة » بحيث يراهم أهل العسكر وجعلوا كانهم يمتجون الماء ويصبونها للجمال تشرب ، ومعهم جمال كثيرة وقد تمكن منها العطش ، فجعلت الجمال كلما رأت القصاع مملوءة حسبتها ماء ، فقصدتها فكلما كرعت وجدته زيتا فقنعت برؤوسها ، وتنفض مشافرها ، وتنشر بأنوفها ،

حصار عبيد الله الفاطمي لوارجلان

فلما رأى ذلك اهل العسكر قالوا ما هذا الا عن ماء جـــم لا تكنسه الدلاء ، ففيم المقام ؟ وارتحلوا وقد كانوا حــين انتهاب الديار وجدوا بيضة نعامة مملوءة شعيرا فحملوها معهم فلما وصلوا رملة ايفران لحقهم رجل من وارجــلان ممن اراد هلاك المسلمين فوالاه من العسكر ناس سدراتيون فقال لهم لم ارتحلتم عن القــوم وليس معهم ماء ؟ وانما تلك حيلة احتالوها عليكم ، فارجعوا فانكم ستظفـــرون فابتدره السدراتيون ، فقتلوه خوفا ان يسمع مقالته احد من أهل العسكر . وانما فعلوا ذلك حمية لاخوانهم وقبيلهم ان يظفر بهم اهل العسكر ، ولما وصل اهل العسكـــر الى صاحبهم بالقيروان لامهم ، ونسب اليهم التقصير ، فقالوا : كيف نقاتل حصنا هكذا ؟ ورشقوا رغيفا بأعلى ذرع طويل وهذه مطامرهم ، واخرجوا له البيضة المملــوءة شعــيرا . قالوا كيف نقاتل هؤلاء وأى فائدة تفيد بقتالهم ؟ فنجاهم الله عز وجل . وبسر اسباب سلامتهم ، ولما تمكن امر عبيد الله بالقيروان واستحكمت دولته بلغ عن ابى عبد الله انه عازم على غدره فلما تحقق ذلك منه بذاته وبمن صافــوه على ذلك من الكتاميين ، فقتلهم اجمعين ، وذلك فى جمادى الثانية سنة 298 ثمان وتسعين ومائتين وسلم له ملك افريقية حتى قبض وولى بعده ابنه القاسم وفى ايامه ظهر ابو يزيد بن كيداد اليفرنى .

ذكر اخبار ابى يزيد مخلد بن كيداد الناكثى

حدث بعض اصحابنا ان ابا يزيد رجل من بنى يفرن وكان مسكنه بقلعة « سدادة » من تفيوس ، قلت اما نسب سدادة فوهم أو غلط . وان كان هذا النسب قد وقع أيضا ليس هكذا فى كتاب الرقيق ، وانما ذكر اصله مـــن بنى

تحقيـــق نسبـــه

ويسيان توزر ، ثم نشأ بتفيوس وليس كذلك . انما كان مسكنه في منزل يلي جهة سدادة وهو اليوم خال دارس في الجانب الغربي منه كانت مدرسة ابي يزيد على عين ماء ، هي معروفة بعين النكارة الى يومنا هذا ، وعشيرته من اهل تطاوين ، وهم رهط « بني كندل » قال : وله حديث مع ابي الربيع سليمان بن زرقون في ابتداء اشغالهما بطلب العلم ، ورجوع ابي يزيد الى مكان مذهب النكارة وتركه لمذهب الوهبية نستدركه في موضعه ان شاء الله ، وانما قصدنا هنا ان نذكر قيامه على القاسم بن عبيد الله ، وما آل اليه أمره فاول ما اوقع في نفسه القيام انه لما توجه الى المشرق يريد الحج حين فراره من عبيد الله لما طلبه ، فلما وصل الى مصر نظر اليه رجل من اهل مصر وقد حلق رأسه وقال له : غط رأسك ايها الثائر فلما سمعها ابو يزيد وقع في نفسه ما وقع من ذلك فسار متوجها . فطولب في بعض البلاد التي سلكها بمكس ، فاستعظمه ولما رجع ووصل الى قرب جبل نفوسة فارقه من كان معه من اهل جبل نفوسة ، قاصدين منازلهم . فقال لهم ابو يزيد : اقرأوا اخواننا السلام ، وقولوا لهم قد فاتنا منكم كثير وفاتكم منا كثير ، وانه ليس لله علينا ان نشتري حجه ، يشير بهذا الى المكس الحقير الذي طولب به ، ويريد بهذه الرسالة اختلاف القلوب .

افتضاح امر ابي يزيد وسجنه

ثم سار حتى وصل موضعه بتقيوس ، فجعل النكار يجتمعون عليه في المكان المعروف به واطلع منهم من اطلع على ما عزم من القيام حتى اشتهر خبره ، وفشى وسمع به ابن المهدي القاسم ، فكاتب والي قسطالية بمطالبته والبحث عنه ، لانه كان يرى ان قائما يقوم عليه من زناتة

فيلقى منه شغبا ، وسمع من علامات ابى يزيد ما دله على انه الذى يقوم عليه .

فوجه اليه والى قسطالية من توزر فأخذ وسجن فى توزر مكبولا ، فطال مقامه فى السجن حتى قنط وييئس من السلامة واشتدت عليه ابواب الحيل . فبلغ خبره جماعة من النكار ، فتشاوروا فى امره ، فأجمعوا على ان يختاروا اربعة رجال اهل شدة ونجدة ، فساروا آخر النهار ودخلوا مدينة توزر ، فوقف احدهم على باب المدينة وتقدم ثلاثة الى السجن وكسروا بابه وقتلوا السجان ، واخرجوا جميع من فى السجن ، فاخرجوا صاحبهم فى كبوله ، فحمله احد الثلاثة على ظهره وجرد الآخران سيوفهما ، فجعل احدهما امامه والآخر وراءه فكل من قام اليهم قتلوه ، حتى خرجوا من المدينة ، فلم يتبعهم احد . فلما وصلوا موضعا بين الحامة وتوزر وهنالك صخرة حطوه عليها ، وكسروا الكبول ، حتى اطلقوه ، والصخرة معروفة بصخرة ابى يزيد الى اليوم ، فتوجهوا بصاحبهم الى صحراء سماطة قاصدين بنى درجين ، وكان بها حينئذ عدد كثير زهاء ثمانية عشر ألف فارس ، فيما ذكروا ورجوا ان يمنعوه فلم يكترثوا به ، اذ كان على غير المذهب .

التجاء ابى يزيد الى أوراس

فسار من عندهم مستخفيا حتى وصل جبل أوراس ، وكان عند اخوانه بالجبل مكرما ولم يزل البحث عنه حتى علم موضعه فوجه اليه القاسم بن عبيد الله جيشا عظيما ، فحاصروه بجبل أوراس سبع سنين ، وبلغت نفوسهم التراقى حتى قال قائلهم لما نزل بهم ما نزل من البلوى والضرر ، وقال : « جبل لا يصعد ، ومطر سكب ، وفتى مستقص ، وشيخ لا ينثنى ونحن المبتلون » . ولما رأى القوم ما نزل

بهم اتوا ابا يزيد ، وقالوا له قد رأيت ما نزل بنا من هلاك هذا آلفتى ، ولا طاقة لنا بمدافعته ، ولا صبر على اكثر مما اصابنا من الضرر ، وهلاك رجل واحد ايسر من هلاك جماعة كبيرة ، فقال لهم ابو يزيد امهلونى هذه الليلة .

ابو يزيد يفك الحصار بحيلة

فلما اظلم الليل امر بخمسمائة ثور ، وان يشد بكل قرني ثور منها حزمة حلفا ، وفى ذنبه أخرى ، وامر بخمسمائة رجل من اصحابه من ذوى النجدة والبأس واخذوا سلاحهم واستاق كل رجل منهم ثورا ، حتى اذا قربوا من العسكر اطلق كل رجل منهم نارا فى حلفا ثوره فلما احست الثيران حرارة النيران ، ركضت وخاضت العسكر ، والرجال فى ساقتها بالسيوف مسلطة ، يضربون بها كل من ادركوه من اهل العسكر ، وجعل الله ذلك سببا لهزيمة العسكر ، فانهزموا وابو يزيد واصحابه يقتلونهم حتى قتلوا عددا كثيرا ، ولما اصبح عرض ابو يزيد عسكره فعرض فى اثنى عشر ألف فارس ممن صار اليه من عسكر الشيعة خاصة ممن كان عدوه بالامس وسار فى طلب عسكرهم ، فتسامعت به القبائل فجاءوه من كل مكان ، وطار اسمه فى الآفاق فاجتمعت له عساكر عظيمة ، حتى عدوا فى عسكره ألف ألف أبلق فيما قيل ، ومعه جماعة كبيرة من مزاتة فجعل يفتح المدن والقرى حتى افتتح الساحل كله ، واقبل يريد قسطالية ، التى منها خرج فافتتحها . فلما احس من نفسه قوة ورأى كثرة من معه ، قال له بعض عزابته الى متى ننتظر بثأر يزيد بن فندين يومى الى امامهم المقتول بتاهرت ، فقال له أبو يزيد ان نحن تخلصنا وتفرغنا من نسج الكساء اشتغلنا بفليه .

الاباضية يعتزلون فتنة ابى يزيد

قال وكان حوله جماعة من مزاتة فيهم مسارة بن غني وهو يومئذ رأسهم فسمع مقالة ابى يزيد وفهم المثل الذى ضربه ، فقال له : لا تظن ان الوهبية خرجوا معك فانهم في مساجدهم وانما خرجنا معك نحن نشاركك في أكل هذه الميتة ، فدع ما تحدث به نفسك والا اقتتلنا قتال كلاب الحي ، يريد بالميتة الاموال التى كانوا ينتهبونها ، ثم انه سار يريد القاسم بالقيروان ، فكل مدينة وقرية مروا بها اخربها وسبى النساء واستباح الاموال ، كفعل نافع بن الازرق وغيره من الخوارج ، بل قد زاد عليهم ، وكان معه رجل من علماء النكارة يسمى زكرياء وكان ينكر عليه ، ويقول ان هذا لهو الخروج من الدين ، ولما رأى أبو يزيد ذلك منه خشي ان يفسد عليه قلوب العامة ، فامر بقتله ليلا ، فلم يعلم خبره . فلما سمع القاسم باقبال ابى يزيد اليه بجنود لا قبل لهم بها خرج من القيروان ، يريد المهدية وخلف على القيروان واليا من قبيله .

ابو يزيد يحاصر القيروان

فلما نزل ابو يزيد على القيروان حاصرها حصارا شديدا حتى أشرف أهلها على الهلاك ، فانهب طائفة من المدينة وحاز كثيرا من اطرافها ، والقوا اليه بايديهم ، وخرجوا باجمعهم الا قاضى المدينة ، فانه انحجز في دار الامارة بأموال جسيمة فوجه اليه ابو يزيد بان يخرج فأبى ان يخرج الا عن امان فأمنه فلما خرج شاور أبو يزيد فى امره وزراءه فقال احدهم (وكان يكنى ابا عمارة) ألم تعلم ما قال فى كتاب كليلة ودمنة ؟ قال وما الذى قال ؟ قال : (ليس شىء اروح للقلب من قتل عدو ، وان بلغ فى الضعف النهاية) فامر ابو يزيد بقتله فقتل بعد أخذه بالامان ، واخذ جميع تلك الاموال .

الافساد والتخريب الذى قام به

وذكر ان عـــدة ما خربت مــن القــرى عــلى يديــه فى افريقية ثلاثون ألف قرية ، وفعل فى افريقية مـــن الفسوق والفجور والعصيان وانواع الفساد ما لم تفعله الفراعنة ولا احد من ملوك اهل الكفار .

وبلغنا انه عوتب يوما على ما يفعله اهل عسكره مــن الفساد واستباحة المحارم ، فقال « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » وكان فى هذه الحركات كلها يركب على حمار اوتى به من مصر ، فكان يعجز الخيل ان مشى وعدا ، وبلغنا ان الشيخ ابا القاسم يزيد بن مخلد الوسيانى رحمه الله قال يوما وقد وصف له ما اخرب ابو يزيد من البلدان فذكر قوما فقال لقد فتح فيهم ابو يزيد بابا ، الا انه لــم يحسن السيرة ، وبلغنا انه مر بعسكره على قابس فنظر الى جناتها فاراد تقويم جناتها فقومت بكسر درهــم فامـــر بافسادها . فاقام عليهم مدة يدمر ويخـــرب ، فلما اراد الارتحال عنها قومت بدرهم ، فصار يطالب أهل قابس بما بين القيمتين . وبلغنا انه نزل الساحل فاخذ اهل عسكره صبيتين جميلتين ، فجاءته امهما شاكية، فقالت له : يا شيخ ان العزابة اخذوا ابنتين سبوهما وغصبوهما وهما حرتان فلم يجبها ، غير انه قال : وهل فى افريقية حرة ؟ فخافت المرأة على نفسها ، فهربت ونجت بنفسها . وبلغنا عنـــه انه لا يبيت كل ليلة الا على اربع ابكار من بنات الاحرار .

محاصرته للمهــدية ثم انهزامه

ثم ان ابا يزيد سار من القيروان يريد المهديـــة حتى نزلها وحاصر بها القاسم زمانا طويلا وكان قد نزل بالرملة التى بباب المدينة وبنى حول المدينة مصلى هو اليوم معروف بمصلى ابى يزيد ، ولم يزل محاصرا الى ان توفي القاسم وولى ابنه اسماعيل فسمع ، اهل العسكر بوفاة القاسـم

فسروا بذلك وطمعوا فى افتتاح المدينة ، فبشروا ابا يزيد بذلك ، فاغتم وقال لاصحابه : قد مات رجل اديل لنا عليه وولى رجل يمكن ان يدال له علينا ، ثم ان ابا يزيد قام فضرب احد مصراعي باب المدينة وكان عند اسماعيل فيما له من علم الحدثان على ما زعموا ان ابا يزيد يخيب اذا ضرب فى ذلك المصراع ، ويصيب ان ضرب فى المصراع الآخر . فلما ضرب فى جانب الخيبة قويت نفوس من بالمدينة وقال له بعض من فى البرج أخطأت ياشيخ، فنشب القتال فكانت الدائرة على ابى يزيد ، فانهزم . وذكر ان ميمنة عسكره انهزمت حتى بلغت الهزيمة الى القيروان ولم يشعر من فى الميسرة ، وذلك لكثرة العساكر ، فسمع ابو يزيد بان اسماعيل قد دس الكتب الى القيروان بمصاب أبى يزيد ، فحاصروا عامله عليها حتى اخرجوه . وولى أبو يزيد واتبعت ابا يزيد طائفة من خيل اسماعيل حتى ادركوه ، وقد ارتث (1) جراحا ، فالقى بيده على احدهم وقال له خلصنى ، قال له من انت ؟ فقال انا أبو يزيد ، فاتى به الى اسماعيل فاعلمه انه اسر رجلا يزعم انه أبو يزيد ، قال وانا لا اعرفه فدعا اسماعيل بمن يعرف أبا يزيد، فأعلمه انه هو. فاستدعى الاطباء ليعالجوه يريد حياته ليعذبه بانواع العذاب ، فاعلمه الاطباء انه لا مطمع فى حياته ، فامر اسماعيل بسلخه ، فأخذوا يسلخونه فلما انتهوا الى سرته مات . وذلك فى محرم سنة ستة وثلاثمائة وتفرقت عساكره . .

ابنه الفضل يخلفه من بعده

ثم ان ابنه الفضل جمع جموعا من بقايا عسكر ابيه فقصد بها احياء مزاتة وعندهم حينئذ الشيخان ابو القاسم

(1) ارتث مبنى للمجهول ، حمل من المعركة جريحا وبه رمق

وابو خزر الوسيانيان فى جمع من اهل الدين والصلاح نازلين اضيافا عند اخوانهم فى الله من مزاتة ، فلم يشعروا الا والاخبية تضرب حولهم .

وكان العسكر فيما زعموا ثلاثين ألفا . فقال الفضل لمزاتة ادفعوا الي ابني عمى فاليهما قصدت ، ولم اقصد اليكم يا مزاتة يعنى الشيخين لان بنى وسيان من يفرن . فعزم قوم من اهل الدنيا المطرحين للدين على ان يدفعوهما اليه ، فابى ذلك اهل الدين والصلاح فتشاوروا فقال احدهم قد تبين لى ان أهل الدنيا لا يدفعون عنكم فدافعوا عن انفسكم وعن اضيافكم ، فان اخوانكم من اهل الدنيا مهما رأوكم فى الاهتمام بالمدافعة وتحققوا منكم هذا الجد قاموا لقيامكم ، فما منكم الا وله أخ وابن أخ وابن عم فى أهل الدنيا ، فما منهم من يخذل اخاه أو يسلمه للموت ، فقالوا قوموا باجمعكم فقاموا غضبا لله . فهم بين مسرج فرسه وملجمه ومعتضد رمحه ومتقلد سيفه عازمين على الجهاد ، فما استتموا اهبتهم الا واهل الدنيا قد جاءوا تائبين ، نادمين ، دافعين عن المشائخ واعترفوا بما فرط منهم من اهمال حقوق المشائخ والصلحاء ، فلما تلافوا زللهم قبلوا منهم ، واجتمعت كلمتهم وتأهبوا جميعا ونهضوا ، وكان ميسارة بن غني ممن وافق رأيه رأى أهل الصلاح أولا ، وأخيرا قال للمشائخ : ان لى اثنى عشر ولدا وقد وهبتهم اليوم لله ، ولكم ، فزحفت جموع مزاتة مقام عسكر الفضل . ومن اعجب ما ذكر اخبار ميسارة يومئذ ، انه نظر الى عسكر العدو فرأى الفضل فى ربوة وقد احاط به موكب من انجاد خيله ، وفرسانهم قد تراكموا على الفضل حتى اسودت بهم الربوة، فقال ميسارة

اهل الدنيا متقلبون لايدفعون عنكم وقت الشدة شيئا

لاصغر أولاده : امك طالق ان لم تكشف تلك الخيل على تلك الربوة ، فحمل عليهم فلم يزل يعاركهم حتى كشفهم من الربوة ، واقتتل الفريقان فهزم الله العدو وقتل منهم بشر كثير .

وحدث الثقات ان عسكر الفضل لما انهزم وكان ثلاث فرق ، ففرقة نجوا هاربين وفرقة قتلوا اجمعين وفرقة كان اكثرها هالكين . وهرب الفضل فيمن هرب حتى انتهى الى قرية من قرى تلك الجهة فدخلها وطمع فى النجاة ، فأخذه أهل القرية وقتلوه واتوا برأسه الى اسماعيل بن القاسم متوسلين به عنده ، فاحسن اليهم عدو الله . وقد بلغنا عن رجل من هوارة يقال له محمد بن عربية انه ضلت له ابل فخرج فى طلبها على فرس له سابق فلما جنه الليل بات فرسه بدون علف ولما اصبح وافى هزيمة الفضل وكان من سرعان خيل مزاته فكان كلما لحق برعيل من خيل الغفضل قطعه عن اصحابه وثبطه حتى تلحق به خيل مزاتة ، فتستأصله بالسيف ، فربما لحق بجماعة رجال فيقطعها على الخيل ، ولم يمسه ضعف ولا أحس من فرسه كلا وكانت لهذا انابة فى آخر عمره واجتهاد وصلاح .

ذكر شيء من اخبار يعقوب بن الامام افلح رحمهما الله ورضى عنهما

هروب بقية العائلة الرستمية الى وارجلان

ولما نزل الداعي للشيعة تاهرت خرج يعقوب بجماعة خيل من اصحابه بعيالاتهم ، وخرجوا فى خفاء خوفا مما ينالهم من عدوهم ، فشعر بهم ابو عبد الله فوجه فى طلبهم جيشا ، وكان يعقوب على فرس من نهاية السوابق ، فلما لحق سباق العسكر باصحابه جعل يواقف العدو وحده حتى يتنفس اصحابه ، فيهمز فرسه حتى يصل اصحابه ،

ثم اذا لحقوه أيضا واقفهم ، وثبطهم على اصحابه ، فكان ذلك دأبه ودأبهم حتى نجى الله يعقوب واصحابه ، ورجع عنهم العدو ، ولم يطمعوا منهم في قليل ولا في كثير .

فسار باصحابه متوجها الى وارجلان ، فذكر عنه انه لما كان في بعض الطريق نظر نظرة في النجوم فقال لاصحابه (انكم لا يجتمع منكم ثلاثة نفر الا كان عليهم الطلب ، افترقوا فقد انقطعت ايامكم وزال ملككم) ، فاقبل بمن معه من اهله حتى نزل وارجلان وذلك على عهد الشيخ ابي صالح جنون بن يمريان رحمه الله ، فتلقاه ، وعرضوا عليه ان يولوه على انفسهم ، وقال : لا يستتر الجمل بالغنم فصار مثلا ، فمكث فيهم دهرا وكان معه ابنتاه وابنة اخيه قد منعهن من التزويج ، ثم ان جماعة من مشيخة وارجلان اجتمعوا وحرضوه على انكاحهما ولا يعطلهما ، فقال لهم اذا رغبتم في هذا ورأيتموه صلاحا فانا لا اصاهر الا رجلين فاضلين احدهما من أهل الدين والآخر من اهل الدنيا ويكونان على اختياري . فقالوا له ضع يدك على من شئت فقال : اما الذي هو من اهل الدنيا فحمو بن اللؤلؤ ، واما الذي هو من اهل الدين فالعز بن محمد ، فانكحهما الابنتين قيل وكانت لحمو امرأة أخرى فاغتمت حين سمعت باملاكه جعيدة الامام ، اغتماما شديدا ، حتى أفضى ذلك بها الى الموت ، فطاب بعدها عيش الزوجين .

مكانة يعقوب بن افلح في العلم والعبادة

وكان يعقوب يحمل انواعا من العلم ، بلغنا ان سائلا سأله ذات يوم ، أتحفظ القرآن ؟ فقال : استعيذ بالله من ان ينزل على موسى وعيسى عليهما السلام ما لم احفظ واعرف معناه ، فكيف بالكتاب المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم !

وكان أيضا فى غاية من مجاهدة نفسه ، وكان صاحب كرامات .

بلغنا انه قام ذات ليلة يتجهد فى بيته فبينما هو قائم يصلى اذ خر سقف البيت الا الخشبة التى تقابل رأسه ، فما برح قائما خاشعا حتى جاءه الناس فكشفوا عنه الردم فوجدوه على حالته ، ولما خرج من صلاته بعد اتمامها قالوا له : ما ظننت ؟ قال : ظننت ان القيامة قد قامت . وله رحمه الله بوارجلان آثار مشهورة ، وفضائل مذكورة .

الافتراق الرابع فى الاباضية

وذكر جماعة من اصحابنا ان يعقوب نشأ له ولد بوارجلان يكنى ابا سليمان ، فاخذ فى قراءة كتب اهل الخلاف ومدارستهما وكان ابوه يقول لاهل وارجلان : احذروا هذا ، فانه قرأ ديوان احمد بن الحسين ، فلما مات رحمه الله اجتمعت لتجهيزه جموع أهل وارجلان حتى كفن فى اكفان مثله ، فصلى عليه ودفن فى مقبرة الشيخ ابى صالح وقبره ظاهر هناك الى عصرنا هذا غير مندرس وهو من المشاهد المزورة واماكن البركات المأثورة .

ابنه ينتحل مسائل حبا للزعامة ورغبة فيها

واخذ أهل وارجلان فى تعظيم ابى سليمان والرفع من قدره لو اراد الله رفعته ، لكن صدقت فيه فراسة ابيه رحمه الله فانتحل ابو سليمان مسائل غير مرضية ، وشرع فى خلاف المسلمين وتبديل ما كان عليه سلفه من قوام الدين فاشتهر عليه مسائل مستنشعة . منها قوله ان فرث الانعام نجس والى هذه المسألة ينسب فكان يقال له الفرثى بهذا السبب ، ولما ذكر عنه حاول اختباره جماعة ممن كان يعظمه وأراد ازالة التهمة عنه ، أو الخروج عن الشك لليقين ،

فاستعملوا له اطعمة حفيلة قد طبخوا فيها مصران الغنم ومباعرها غير مستخرج بعرها ، وركبوها مع اللحم على الثريد، واستدعى ابا سليمان بمحضر الطعام، فلما تناول مصرانا من تلك المصارين وشقه ليأكله وجد فيها فرثا ، فألقاه فقال هذا طعام نجس ، فقال له صاحب الطعام فماذا يصنع به؟قال تحفر له حفرة ويكفأ فيها ، وقطع عذر من أكله . فبلغ ذلك الشيخ ابا صالح رحمه الله وكان ممن يغضب لله ويقوم فى تغيير المنكر ، فكره ان ينتشر ذلك فى العوام فيعتقدونه صوابا، فيأخذ ذلك بقلوبهم، ويفضى بهم الى الارتياب فتقع الفتنة والاختلاف ، فاستخص من فوره جماعة من اصحابه فساروا الى الدار التى فيها الطعام فاستأذن هو واصحابه ، ودخلوا ، واستدعى بذلك الطعام وبالماء فغسلوا ايديهم ، فأكل واكلوا حتى قضوا حاجتهم من الطعام ، فأزال ما وقع فى النفوس المرضى من تلبيس ابى سليمان .

دعوة الشيخ ابى صالح اياه الى المباهلة

فكان بينهما بعد ذلك مناكرة وتنازع وتقاطع لهذا السبب حتى قال له الشيخ يوما ان شئت باهلتك ، فقال ابو سليمان اجل ! فاتفقا على المباهلة يوم الجمعة الاقرب اليهم فخرجا الى قبلة وارجلان بعد ان اقترعا على « كريمة » و « تسرسرين » موضعين معروفين هناك فوقعت كريمة لابى سليمان فتوجه اليها ، وجعل يبتهل ومعه جماعة من اصحابه اهل الضلال الذين شايعوه ، وتوجه الشيخ الى تسرسرين فاتخذ بها مصلى هو اليوم بها معروف واخذ فى الدعاء والابتهال ، وكلاهما يدعو الله على المبطل . فما كان الا قليل حتى جاء الشيخ مسرورا واثقا من الله عز وجل ، وبالاستجابة مبتهجا ، ولما حاول ابو سليمان

واصحابه النزول من كديته ارسل الله عليهم ريحا صرصرا وحجارة ترميهم ، وظلمة ، فضلوا عن الطريق وتفرقوا ولم يهتدوا الى يوم السبت . ففضحهم الله واظهر ما اسروا من الفساد ، ولم يرد بهم خيرا فيتوبوا ، بل لجوا فى طغيانهم وعموا فى ضلالتهم ، فعجل الله عز وجل بهلاكهم ، فلم ينطل على المسلمين شغبهم ، ولم يبق منهم أحد ، فبعدا للقوم الظالمين .

المسائل الغريبة التى انتحلها ابو سليمان

وكان الذى صح عنهم من المسائل الشرعية التى أفتى بها بخلاف ما عليه المذهب سبع مسائل : احداها الفرت المتقدم ذكره . والثانية تحريم الجنين . والثالثة والرابعة تنجيس عرق الجنب وعرق الحائض . والخامسة نجاسة دم العروق المستبطنة للظهر بعد ذكاة الشاة . والسادسة صوم يوم الشك . والسابعة الزكاة للاقرب ، قال لا تعطي لهم .

الى هنا انتهت الاخبار المنتقاة من سير الدولة الرستمية وأئمتنا الهادين رحمهم الله اجمعين .

وقد أتى الشيخ ابو زكرياء رحمه الله بذكر المشائخ الذين ظهروا بعد انقراض الامامة الى ان رتبت الحلقة فأحيا برتوبتها معلم الدين وتبين العاجزون من المجتهدين وذكر كيف كان السبب لذلك وابتدائه ، فرأيت ان أصل ذلك بما مضى من اخبار الائمة وأضعه من هذا الكتاب ، وتحققت ان ذلك جيء بصواب لوجوه : منها ان كلتا المدتين مدة امامة وان كانت الاخرى عارية من الولاية . فالذى ينبغى ذكر اتصال هذه بتلك ، وان تنظم معها فى سلك . ونذكر المشائخ الذين اقتبسوا لذلك النور من امامة الظهور الى غير ذات الظهور . وأيضا قد مضى ذكر الافتراق الاول والثانى والثالث والرابع وبقي خامس سيأتى ذكره

متصلا بما يليه قبله لا يقطع بعد ذلك من غير جنسه قاطع (I) وأيضا قد مضى من ذكر الشيعة ما تقدم من أنبائها المشهورة وبقى من اخبار نهايتها ما تدعو اليه هاهنا الضرورة ، وما يتخلل من انباء وعجائب اخبار ، يجرى فى ذكرها مع ما يليق بها فى مضمار . فنبدأ بذكر الاشياخ شيخ بعد شيخ الى أيام ابى عبد الله رحمه الله .

ذكر شيء من اخبار ابى الربيع سليمان بن زرقون رحمه الله ورضى عنه وابى الخطاب وسيل بن سيتتن وابى أيوب بن كلابة الزواغيين

كان ابو الربيع احد علماء عصره ، وهو من نفوسة « تابديوت » قرية بجبل تيرشوين وبها مولده ومسكنه، قال ابو زكرياء حدثنى بعض من ادركته من السلف ، قالوا أدركنا ديوان الشيخ ابى الربيع قائما مشتملا على انواع من علوم الدين يقرأ فى قرية « تابديوت » وهى اذ ذاك عامرة قال وكان ابو الربيع انما قرأ العلوم وتفقه ببلد سلجماسة ، هو وابن كيداد ، وكان شيخهما الذى قرأ عليه يعرف بابن الجمعى ، وكان ابن الجمعى رجلا من أهل الدعوة اقبل من بلاد المشرق تاجرا وكان مطلعا على علوم الحيل والنظر ، نحريرا ، فقدم ابن الجمعى الى توزر وبها اذ ذاك ابو الربيع شاب يحاول طلب العلم ، وله فهم وذكاء فلما ظفر بابن الجمعى كان كل واحد منهما وافق الآخر ، فكان ابن الجمعى يصرفه فى حاجته وكان مختصا به مقربا

اخبار ابن زرقون مع شيخه ابن الجمعى

(I) فى نسخة : لا يقطع بين ذلك قاطع

لديه ، وربما حاوره ببعض الالفاظ المحتملة الملتبسة ، اختبارا لفهمه ، واستحسانا لما يصدر من جوابه ، لا استخفافا بقدره ، فمن ذلك انه يوما من الايام عجب لما ظهر من فهمه وفطنته ، فقال له انك لفي الطين ، فقال غير منزلق يا شيخ ، وارى عن ذلك بالفطنة ، وكأنه وصفه بها واضطجع ابن الجمعى فى ليلة شديدة البرد فدثره ابو الربيع ، فقال له الزيت خير ، كانه يريد به جزيت خيرا ، فقال على الطعام يصلح يا شيخ . وامثال هذا من الملح كان يستحسنها ، وامعن ابو الربيع فى الابرار والتخدم والاجتهاد ، حتى عظمت درجته عند ابى الجمعى وعلت منزلته، ولما عزم ابن الجمعى على السفر الى سلجماسة عرض على ابى الربيع ان يصحبه ان احب تكميل ما يحاول من طلب العلم ، فاجاب وصاحبه هو وابن كيداد قبل تبديله فمكثا يقرآن عليه ما شاء الله الى ان حصلا ما حصلا من العلوم ، ولما حضرت ابن الجمعى الوفاة آثر ابا الربيع بديوانه ، فأوصى له به .

ابن الجمعى يوصى بديوانه لتلميذه ابن زرقون

فلما مات ابن الجمعى قدم ابو الربيع من سلجماسة الى قسطيلية وقد اشتهر اسمه وبهر علمه وعلا ذكره ، وطفق الناس يسألونه عن فنون العلم فيجيب ، واضطربت قسطيلية كلها من اجله وكان بها شيخ مؤدب فكان كلما رأى ذلك من احوال ابى الربيع زها المؤدب ، فقال انا والله علمته وعلي قرأ . ومنى استفاد ، وذلك لانه أقرأه اذ كان صبيا .

وبلغنا ان أهل سلجماسة بعد انفصال ابى الربيع عنها اختلفوا فى مسألة حتى تفاقم الامر بينهم وكادوا يقتتلون ثم انهم رضوا بان يوجهوا رسولين بسؤالهم عن المسألة

المذكورة الى ابى الربيع ، فما أجاب به فيها وقفوا عنده ، وعملوا به . فقدم الرسولان بالسؤال ، فاجاب ابو الربيع فى المسألة بجواب قطع اختلافهم واوجب ائتلافهم .

وحدث غير واحد من اصحابنا ان ابا الربيع وابا يزيد مخلد بن كيداد خرجا ذات مرة فى بعض شؤونهما ، فنزلا على حي من احياء الوهبية ، فاضافوهما ولم يحتفلوا بهما كبير احتفال ، ولا احسنوا قراهما ، فوقع من ذلك فى نفس ابى يزيد شر ، ثم مرا بحي من احياء النكارة فأكرموا مثواهما واحسنوا قراهما فقال ابو يزيد لابى الربيع : الا ترى ما بين الرجال والرجال ؟ فهل لك فى الرجوع الى مذهب هؤلاء ؟ فقال له ابو الربيع : لست اريد عرض الدنيا فيما هو أجل من هذا ، فأبتغيه بدينى ، فكيف بالشيء الحقير أبذل بسببه ديني . ولو كان مرادى طلب الامور الدنيوية لنلت جليلها بعلمي ، لكن الآخرة خير لمن اتقى ، والذى تشير به والله لا افعله ابدا ، فافترقا . وانطلق ابن كيداد فاظهر ما وقع فى نفسه من اعتقاد مذهب النكارة وترك مذهب الوهبية . فخاب وحاب حوبا كبيرا لما اراد الله من شقاوته، فخسر نفسه، ودينه ، ودنياه نعوذ بالله من سوابق الشقاء .

لو كان مرادى طلب الدنيا لنلت جليلها بعلمى

وبلغنا ان ابا الربيع توجه الى افريقية فوجد اكثر اهلها قد تغيروا ورجعوا الى مذهب النكارة ، فلم يزل ابو الربيع يلاطفهم ويبين لهم طريق الهدى حتى عادوا الى مذهبه ، وبلغنا انه دخل حصنا فوجد سبعة اسرة منصوبة وعلى كل سرير شيخ من شيوخ النكارة ، فقال له احدهم : هلم يا ابا الربيع وفسح له في السرير ، فلما كاد ان يستوى على السرير استعمل كانه عثر فوقع عليه حتى آلمه بمرفقه

وجعل يقول له كالمعتذر كسرتك يا شيخ ، وكانه لم يعتمد الوقوع عليه ، ثم انه ناظره واصحابه حتى كف لجاجهم ، وقطع احتجاجهم وطردهم عن تلك الاحياء ، ومنع ما احضر لهم من الغـذاء ، ثم اتبع آثارهم فى افريقية يطردهـم حيثما وجدهم ، ويرد مزاتة الى مذهب الوهبية حتى لم يبق بها للنكار أثر .

وبلغنا انه توجه الى جبل نفوسة وكان بها الشيخ ابو القاسم البغطورى ، يتولى نفاثا قبل ان تقوم عند الشيخ حجة على نفاث ولم يثبت عنه سوء لما احدث من الاحداث ، فكان على ولاية عنده . فقال ابو الربيع لاهل المنزل الذى به ابو القاسم : شيخكم يوالى نفاثا وانتم توالون شيخكم فكلكم نفاثية ، وذلك لئلا يعتقدوا تصويب ترك البراءة من نفاث ، فلم يتولوه بعد ذلك . وبلغنا ان عجوزا سألته عن البراءة من الناكثين قال : وانت هاهنا الى الآن ، وكنت اظن انك فقيهة ، انه من لم يكن له مال يتصدق به فليلعنهم حين يصبح فكأنه تصدق بصدقة عظيمة .

وبلغنا ان ابا الربيع قدم الى ريزة فوجد اربع فرق من الاباضية ، مستأثرين لا يغير احد منهم على الآخر ، وذلك فى ايام ابى الخطاب وسيل بن سيتتن الزواغى ، ووجد كل فريق منهم رأسا منفردا بمزية يختص بها فى مدة ، فاما الفصل فى القضايا والاحكام بينهـم فالى ابى الخطـاب ، والفتيى الى النكارى ، والامامة فى صلاة قيام رمضان الى الخلفى ، والاذان الى النفاثى . فلما قدم اليهم ابو الربيع وجدهم على هذا الحال مجتمعين فى مجلس للمذاكـــرة ،

(I) كذا فى النسخ لعل حتى آلمه بمرفقه أو ركزه بمرفقه

فجلس فى طرف المجلس والى جانبه رجل ممن يحسن السؤال والاستماع ، فلقنه ابو الربيع سؤالا فقال له : اسأل عنه هذا النكارى المتصدر فى المجلس ، فسأله فلما سمع النكارى عجب فاثر (1) به السائل وتوقف عن الجواب وتعلثم ، فقال له الربيع : اجب السائل عن مسألته فقال : بل اجب انت ، فاجاب ابو الربيع عن السؤال بعد ان استعاد السائل فاعاد فلما اجاب سأله بعض من فى المجلس عن مسألة أخرى ، فاجاب ثم سأله عن أخرى فاجاب ثم عن أخرى . قالوا له : ارجع الى الصدر فرجع وبقي النكارى فى مكانه مطروحا ، وكان هنالك من أهل الدعوة من كره ذلك التساتر والمداهنة فسأل بعضهم ابا الربيع : ما تقول فى النكار ؟ قال : كفار ! (2) قال : ما تقول فى الخلفية ؟ قال : كفار ! قال : ما تقول فى النفاثية ؟ قال : كفار ! فلما سمعوا ذلك منه نظر بعضهم الى بعض ثم قالوا : « الدعاء لنفترق عن المجلس » ، فدعوا وأمنوا ، وتفرقوا ، وكان بعض اصحاب ابى الخطاب استقبح ما قابلهم به ابو الربيع فجاء الى ابى الخطاب ، واعلمه انه عجل عن القوم ، فقال له ابو الخطاب : كلا بل فصل بينكم دينكم على وجهه .

ابن زرقون لا يرى المداهنة

وقد بلغنا ان نفوسة الجبل كاتبوا ابا الخطاب هذا يعيبون عليه اربعة اشياء ، ويعاتبونه بها : وهو التزام الامور بيقضان (3) وتغريم الايتام والارامل الاموال للظلمة، واستفتاء النكارية، والائتمام فى الصلاة بالخلفي فلما وصله كتابهم بكى ، ثم قال : الحمد لله الذى رزقنى

اخبار ابى الخطاب وسيم

---

(1) كذا ، لعل الصواب : عجب كيف أثاره السائل

(2) لا تغفل ان الكفر يطلق عند الاباضية ويراد به كفر النعمة لا الكفر بمعنى الشرك بالله ، أو الخروج من الاسلام

(3) كذا فى النسخ ، وفى نسخة القطب التزام الامور بيقظان بالطاء

اخوانا فى الله ، يعاتبوننى فيما بلغهم عنى ويذكروننى ، فكتب اليهم اما ما ذكرتم من التزامى امورى بيقضان فانما كان التزامى احتسابا بالله . واما ما ذكرتم من امـــوال الايتام والارامل فان الظلمة اذا اقبلوا اليهم أمرتهـــم بالمداراة عن انفسهم . واما استفتائى النكارى فانما احكم بما عندى لا فتواه ، واما تقديم الخلفى للصلاة فانى اذا صليت الفريضة ناديت يا فتح فيتقدم ويصلى بالناس ولم أمره بالتقدم والسلام .

ومن اخبار ابى الخطاب وسيم بن ستتن الزواغى رحمه الله ورضى عنه ان رجلا من أهل القيروان كانت عنـده ذمامة من علم بانه سيبنى مسجدا فى موضع يقـــال له ــ تيمزرت ــ بقرية من جزيرة جربة وانه لا يبنيها الا ولى من أولياء الله تعالى ، فاجمع الرجل على التجهيز الى الموضع وعقد عزيمته على بنيان مسجـد هنـــاك ليكون لتلـــك الفضيلة أهلا . فخرج من القيروان يريد الموضع فلما وصل اليه وجد ابا الخطاب قد سبقه وبنى المسجد بالمكان المذكور فذلك المسجد الى اليوم معروف به ومنسوب اليه وهو من المشاهد والامكنة المكرمة المزورة .

وحدث يحيى بن يحيى قال : جاء رجل الى ابى الخطاب وهو لا يعرفه فقال له : لى عليك دينار فأعطنيه . فقال له : أبو الخطاب انى لا اعرفك فمن أين لك علي دينار ؟ فالح عليه فتأمل فيه ابو الخطاب فقال : كـذا ، وقـــال : ان خصومتى معك لمن العار ، ودفع لـــه الدينار ، وبلغنا ان أبا الخطاب جاءه رجل من أمليانى يراسن، كان له أخ فقير، يقال له تبنون ، فقال البراسنى لابى الخطاب أيجوز لى ان ادفع لأخي شيئامن الزكاة أم لا ؟ فقال لـــه أبو الخطاب :

الزكـاة لا تدفـع لمـن لا يحافظ على الفرائض

ائتنى به ، فأتى به وكان غير محافظ على فرائض دينه ، فلما حضر استتابه الشيخ فاظهر التوبة والرجوع الى الخير فقال ابو الخطاب للرجل ادفع لاخيك زكاة مالك . ثم قال الشيخ لتبنون انما قد البسناك لباس التقوى فان انـت تعريت عنه فلا يقتلنك الا الجوع . فنكث تبنـون وغير . فاستجيب فيه دعاء الشيخ . ولما مات ابو الخطاب رحمه الله قالت امرأة معافرية من ذرية ابى الخطاب المعافرى رحمه الله « وهى تبكيه » : لما مات ابو الخطاب مات الحق ، فبقيتم يا زواغة هامة ببطون كالاخرجة ، وعمائم كالابرجـة ، ونعال مبلجة ، واحكام متعوجة ، قال الشيخ ابو العباس وانما عبرت بقولها مات الحق عن فقد من يحكم بالحق من آل ابى الخطاب ، ويقوم مقامه فى فصل الخطاب ، ولو كان غير هذا لم ينبغ ان يجلد فى كتاب .

ان لم انـل بالدنيا الجنـة فـلا رزقنيها اللـه

ومن اخبار ابى ايوب بن كلابة الزواغى مع ابى الخطاب وغيره ما بلغنا انهما خرجا فى شهر رمضان ذات يوم فى بعض شؤونهما ، فرأوا ليلة القدر ، فاخذ كل واحد منهما فى التضرع فكان دعاء ابى الخطاب ان يصلح الله آخرته لا يعدو ذلك ، وكان ابو ايوب يقول اللهم هب لى دنيا انال بها الآخرة فقال له ابو الخطاب : يا اخى ما هذا فى الموقف العظيم تتعرض لذكر الدنيا ؟ فقال له : ابو ايوب ان لـم انل بها الجنة فلا رزقنيها الله ، وكانا جميعا « بريزو » ثم ان الله عز وجل بسط الرزق لابى ايوب فاتسعت له الدنيا اوسع ما يمكن ان يكون لمثله ، وبلغنا انه ربما اجتمعت له صبرة طعام فى الاندر . « بريزو » ، فيراها من بجزيرة جربة لعظمها . وانه أطلق الله يده فى ماله للصدقـات

اخبـار ابى ايـوب ابـن كـلابة

والصلاة للصادر والوارد والقريب والبعيد فلا شك دعاءه استجيب ان شاء الله .

يذكره ابنه بالجنة

ومما يذكر عنه انه نزلت به رفقة ليمتاروا قمحا، ففتح لهم مطمورة ، وانزل ابنا له في المطمورة ، فقال له : ما فعلت المطمورة يا بني ؟ فقال له الغلام : قد حسنت الا ، فقال له ابو ايوب : وما ذاك يابني ؟ فقال : قمحها قمح الجنة ، فكان قول الصبي تنبيها ، وان كان لم يقصد ، فقال له : اخرج ، فخرج الغلام فاعطى كل رجل من أهل الرفقة ثمنين قمحا برسم زاد الطريق ، ثم تصدق بجميع ما في المطمورة عن آخرها ، وكان شيئا كثيرا .

كرم ابي ايوب رحمه الله ، واحتفاؤه بالضيف

وذكر عنه انه جاءته جماعة من مشائخ اهل الجبل في عام ممحل في غاية من الجوع والهزال ، فلما رأى ابو ايوب ما بلغ بهم من سوء الحال ، انزلهم واحسن نزولهم ، فكان يذبح لضيافتهم كل يوم كبشين احدهما للعشاء والآخر للغداء على اطعمة حفيلة ، فاقاموا عنده على هذا الحال شهرا ثم سمعوا برخص اسعار جربة فارادوا ان تكون مسيرتهم اليها ، وان يوجهوا بما معهم الى من يتكفل لهم ذلك ، فشاوروا في ذلك الشيخ أبا مسور الياسني رحمه الله وأشاروا له بان يطلع ابا ايوب لئلا يقول قد اختاروا دونه بدلا ، فاعلمه أبو مسور بمرادهم ، فقال له ايوب انه وجد مكتوبا على صخرة في البحر ثلاث كلمات : احداهما لا يركب البحر الا ذو خطر ، أو جاهل مغرور ، والثانية مالي مالي ما دام في كمي ، فاذا خرج من كمي كنت فيه مدعيا ، والثالثة من اعطى ماله قراضا اعتراه البرسام . فرجع اليهم بما سمعه منه فجاءوه يستثبتون قوله ، فقال لهم : الذي قال لكم ابو مسور صحيح وان كان قد اخذ تشقيق الكلام من بني سلاوة ، يعني اخواله ، وكان ابو

مسور اذ ذاك فى بدايته ثم امر ابو ايوب باطلاق بغـال المشائخ فى الاندر تأكل كيف شاءت ، فقال له بعضهـم كيف تصنع على هذا فى اخراج زكاة مالك ؟ فسكت عنـه حتى شرع فى الكيل فجعل يخرج العاشرة ثم التاسعة ثـم الثامنة ثم السابعة ثم السادسة ثم يعـود الى اخراج العاشرة ثم على التوالى الى السادسة ، فكان هذا فعله الى ان اكمل كيل جميع ما عنده من الحب ، ثم اوفر حمولهم طعاما صلة بلا ثمن ، ولذلك كان قد ثبطهم ، فانصرفـوا شاكرين .

قيل وكان احدهم يسمى ابا يعقوب الدمرى ومعه ابن له فقال لهم ابو ايوب اجعلوا للصبى حظا فيما بايديكـم من الطعام ، فقالوا له ان يكن اهلا لمعروفك ، وكان ممـن تتولاه ، كان مستحقا لما اشرت به ، فقال دعوه حتى اطلع الليلة على احواله وأختبره ، فلما اصبح قال لهم انه عندى من أهل الولاية .

خير ما يدخره المرء التقـوى

وبلغنا عنه انه خرج ذات مرة فى عدة من اصحابـه يريدون زيارة نفوسة الجبل فبينما هـم يسيرون اذ رأوا رفقة قد اقبلت فظنوا انه عسكر للعدو ، ونزلوا عـن بغالهم ولجأوا الى جبل كان قريبا منهم ، فلما جنهم الليل اهمه مبيته ومبيت اخوانه دون عشاء ، فقال : أيكـون عندى ألف قفيز من طعام بالقيروان او بالجربى، وعندى ما يغمرها اداما من الزيت ، وأبيت أنا واخوانى بلا عشاء ؟ ان خير ما يدخر المرء التقوى ، ولما وصل اهل الرفقة الى البغال عرفوها واحتاطوا عليها ، حتى ردت الى اصحابها ، فكانت تلك الليلة مما زاده حثا على فعل المعروف، واحتقارا

لما يدخره من متاع الدنيا ، وحرصها فى الازدياد مما يقدمه بين يديه ، رحمة الله عليه .

الافتراق الخامس فى الاباضية
خبر السكاك وانتحاله مذهبه المرذول

ذكر عدة من اصحابنا ان السكاك يعرف بابد الله اللواتى النسب ، قنطنارى المسكن ، وكان له اب من أهل الصلاح ، فبلغنا ان اباه توجه الى الحج قبل ان يولد له ابد الله ، فلما كان فى بعض الطريق رأى فى منامه ان قد ولد له شيطان فلما قضى حجه ورجع الى اهله وجد مولودا له ، فسمي ابد الله فنشأ . ولما احتمل الادب دفعه ابوه الى المؤدب ، فقرأ وحفظ القرآن ، ولما اشتد وبلغ الحلم اخذ فى طلب العلم ، فلما نال منه دقائق دعت نفسه الى الخلاف ، ونبذ ما عليه الاسلاف .

آراء السكاك الغريبة

ويقال سبع مسائل خالف فيها جميع اهل الحق ، أبطل السنة ورأى المسلمين ، قال ابن عمه ان الله قد أغنى عنهما أولى العقول والالباب بكتابه العزيز فليس من راى ولا من سنة . الثانية قوله ان الصلاة جماعة بدعة . الثالثة قوله ان الاذان بدعة،فاذا سمع هو وأصحابه الاذان قالوا : نهيق الحمار ، الرابعة ان الصلاة عندهم لا تجوز بما لا يعرف معناه وتفسيره من القرآن ، والخامسة قوله ان بقول الجنات مما ينبت فى سماد بنى آدم كل ذلك نجس بنجاسة ما نبت عليه ، السادسة ان الصلاة لا تجوز بثوب فيه قمل ، السابعة ان بول الدواب فى الاندر حين درسها اياه نجس فلا يطهر ما بالت عليه الا بالغسل . وجدت عن ابى يعقوب يوسف بن نفاث رحمه الله قال : ادركنا بقية اصحاب

ابد الله السكاك اذا قرب وقت الصلاة خرجوا متجنبين عن الناس الى مفاحص قد هيؤوها لانفسهم ، فيصلون فيهـــا فرادى ، وعنه ادرك جماعة الشيوخ بقسطيلية يصلــون على جميع موتى أهل القبلة كلهم من المخالفين وغيرهم الا اصحاب السكاك فانهم من مات منهم جعلوا فى رجليه مرابط وجروه بها الى موضع يوارونه فيه ، وكان مشائخ السلف تتقارب اقوالهم فى السكاك واصحابه ، وتتفاوت فقائــل بشركهم ، وقائل بنفاقهم ، وهذا المذهب قد فني اصحابــه فلم تبق لهم بقية ، وهم لم يتجاوز مذهبهم قنطنار كحــال الفرثية لم يتجاوز مذهبهم وارجلان حــتى فنى الفريقان الى غير رحمة الرحمن .

ذكر شيء من اخبار ابى القاسم يزيد بن مخلد وابى خزر يغلى بن زلتاف الوسيانيين رحمه الله

كان ابو القاسم وابو خزر من اهل الحامة حامة قسطيلية وكان ابو القاسم اسن من ابى خزر ، وكانا قد برعــا فى العلوم وكان شيخهما الذى أخذا عنه الادب وعلم اللسان وعلم الفروع ابا الربيع سليمان بن زرقون النفوسى رحمه الله ، واخذا علم الاصول من سحنون بن أبى ايوب وكان ابو القاسم موسعا عليه فى الرزق وابو خزر مقترا عليه ، انما يعيش من كسب يديه ، قيل وكان مــــن شأنهما فى بدايتهما ان شرعا فى قراءة كتاب وأخذ فى أى فن كان . فكانا يأخذان من كتابهما درسا وينهض ابو خزر للاكتساب واصلاح المعيشة ، فاذا غاب أخذ ابو القاسم الكتاب يقيــد درسا لم يحضره ابو خزر ، فاذا جاء ابو خزر من شؤونــه وقد علم أنه يفوته بدرس يقول له : أعد على مــــن حيث

تركتك ، فيقول له ابو القاسم : نعم لى مرتان ولك مرة ، فيعيد معه ما قد كان أخذه ، فكان ذلك دأبهما الى ان حصلا على علوم جمة ولابى القاسم على ابى خزر من فضيلة السبق قدر ما يفوته به حين طلب المعيشة ، حسب ما ذكرنا ومع ذلك فلم يقصر عنه ، ثم انهما تصدرا شابين فكانت طلبة أهل الدعوة تؤمهما من كل جهة ، يقرأ عليهما كل طالب ما طلب من أى الفنون شاء ، من علم القرآن والحديث والاصول والفقه وعلم العربية والسيرة حتى اشتهر ذكرهما ، وعلا امرهما .

ابو القاسم يعلمهم وينفق عليهم !

وكان ابو القاسم هو المنفق على الطلبة والقائم بمؤونتهم وابوه اذ ذاك حي فقال رجل من اهل الحامة ان ابنك هذا لمجنون يعلمهم وينفق عليهم ! ! وتزوج أبو القاسم امرأة من اهل الصلاح والاجتهاد تسمى الغاية ، وكانت تحسن عونه على ماهو في سبيله ، واعلم يوما بمحضرها ان احد الطلبة الذين يقرأون عليه قد تزوج فتنكر لذلك . وقال لاصحابه لان يبلغنى موت احدكم اهون على من ان يبلغنى انه تزوج . فقالت له : ولم تزوجت انت اذا ؟ فقال : لو علمت مكان مسألة من العلم استفيدها ممن فاتنى بها ، لشددت اليها رحلى فى مشرق أو مغرب ولا اخشى ان يعذبنى الله الا على الجهل .

يخشى ان يعذبه الله على الجهل

ونذكر بعض ما بلغنا من اجتهاد هذه المرأة وذلك انها اصغت يوما الى مذكرة الطلبة فورد ذكر القراءة فى الصلاة فسمعت بينهم القول بان من قام الى الصلاة فقرأ فى نفسه ولم تتحرك بالقراءة شفتاه ولا نطق بها ان عليه الاعادة ، فلما تحققت ذلك وجاء الليل اقبلت فاعادت احتياطا صلاة سنة فى ليلة واحدة ، قال ابو العباس قلت وفى ذلك فرق

حكم القراءة فى الصلاة بدون التلفظ

بين صلاة المأمون اذا لم يقرأ ما يجهز فيه الامام وانصت ، وعند الانصات واجب فى الجهر واما فيما يسر فيه الامام فلا بد من القراءة عند اصحابنا، ويضعف عندهم الترخيص فى ترك قراءة ما يسر فيه الامامَ ، وعند غيرنا الاولى ان يقرأ ، وان ترك رفعه عنه الامام . فيمكن ان يكون الغاية لم تصل صلاة من عامها خلف امام ، ويحتمل ان يكون اخذت باشد الاقوال ، ويحتمل ان يكون احتياطها على ما صلت مما لم تجهر خاصة .

الشيخان يتعرضان لمؤامرة

قال وبلغنا ان ابا القاسم وابا خزر وغيرهما من المشائخ خرجوا سنة من السنين الى البادية ، يعلمون اهل البادية ما جهلوا من فهم امور دينهم ، ويذكرونهم ما نسوا ، ويتفقدون احوالهم لئلا يغيروا ، فيضلوا ، ومع المشائخ جماعة من الطلبة الاحداث فبينما هم فى حى من احياء البربر الوهبية اذا برجل نكارى يزعم انه فى مذهب الوهبية ورجع اليه ، وكره المذهب الذى كان عليه فتلقوه بالقبول ، وكان عندهم فى أبر الاحوال واظهر من نفسه صلاح حال واجتهادا فى الطلب ، وحبا فى الصالحين ، وانما كان يترقب من الشيوخ غرة ليظفر ببعضهم فيغتاله ولم يفطن احد لما اضمر ، فلما كان ذات يوم وقد خرج الشيوخ والطلبة من مقيلهم واخذوا فى الاشتغال بوظائف صلاتهم صلاة الظهر ، وأخذ كل واحد يصلى منفردا ، فى جانب ، وتنحى الشيخ ابو القاسم ناحية ، وقد رصده النكارى فاراد انتهاز الفرصة فى هذه الغفلة ورأى رماحا مركوزة مغفولا عنها ، فاجتذب منها رمحا وقصد بها نحو الشيخ ابى القاسم وهو مصروف الهمة ، فيما هو يرصده ، فجاءه على حين غفلته عما يراد به ، فطعنه من خلفه وهو يرى

ان قد شكه لما خرج الرمح من قدامه ، وانما أخذت الطعنة عن جسده جانبا ، وكان عليه محشوا فنفذ الرمح مما اصابه ، فسلم جسد الشيخ . ولما سلمه الله من كيد عدو الله ، تصايح الناس بالغدر فابتدروه واخذوه ، فطفقوا يجرونه يريدون الاتيان به الى الشيوخ ، فيروا فيه رأيهم ولم يروا ان يحدثوا فيه حدثا قبل مطالعة الشيوخ ، فقال لهم من كره ابقاءه ممن حضر معهم : انظروني حتى أشاور الشيوخ ، فغاب مقدار ما يصل فيهم ويعود فعاد فعرفهم ان الشيوخ اشاروا بقتله ، فقتلوه والرجل لم ير الشيوخ انما اختفى غير بعيد منهم .

ان ما ابكاه ما راى من جهلك

وبلغنا ان رجلا من نفوسة الجبل نظر الى ابى القاسم وكان راكبا على دابة مسرجة بسرج محلا بالذهب وزينة عجيبة ، فقال النفوسي لابى القاسم يا شيخ ليس هذا من سيرة اهل الدعوة ، ولا يعرف ذلك من افعالهم ، فبكى ابو القاسم وأتى النفوسي الى الجبل فأخبر من لقي بانه قد وعظ الشيخ ابا القاسم حتى ابكاه ، فقالوا له انما ابكاه ما رأى من جهلك . وكان لابى القاسم مطية عظيمة يسافر بها الى القيروان بزى عظيم وحلة سنية . واشتهر بذلك مع ما اشتهر به من العلم والادب والدين والحسب ، وكان اذا دخل مدينة القيروان اضطربت المدينة وكثرت السؤالات ، والمباحث فى معضلات يدخرونها له ، فلا يقف فى شىء منها ، فعظمت بها منزلته وارتفع ذكره .

الرد على المشبهة

فمن مسائله التى وقع فيما بينه وبينهم الجدال انه اجتاز برجل من الوارقين يكنى ابا ابراهيم فرءاه ابو القاسم يكتب : تشبيه الخالق بخلقه ، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، فاستعظم

ابو القاسم ما أتى به المشبه من جراءته على الله تعالى ، وانكر ذلك عليه ، فجرت بينهما مناظرة حتى قال له المشبه اذا كنت تزعم ان الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض فاخبرني عمن اراد ان يبطل ربه كيف يقول ؟ فقال له ابو القاسم مثل قولك هذا ، فانقطع الكلام بينهما . قلت قول ابى القاسم للمشبه مثل قولك هذا يريد اذا وصفته بصفات الحدوث الزمت فناء الحادث فابطلت بقاءه .

مكانة ابى القاسم لدى الفاطميين

وكان ابو القاسم عظيم القدر عند ملوك القيروان وهم الشيعة اذ ذاك ، فكانت مسائله عندهم مقضية وجميع احواله مرضية ، فمن ذلك ان ابا تميم الشيعى كان اذا سخط على بلدة وجه اليها جيشا معلما براية حمراء ، وله أيضا راية بيضاء توجه مع من يسير الى من استوجب الرضا فالرايتان موجودتان بالرضا والسخط. فبلغنا ان أبا تميم وجه جيشا الى الحامة ودفع اليه الراية الحمراء وسمع الخبر ابو القاسم وتحققه ، فتوجه الى القيروان عجلا لا يألو جهدا حتى دخل على ابى تميم فسأله عن حاجته ، فقال عفوك على اهل الحامة ، فعفى عنهم ودفع اليه الراية البيضاء ، فرجع مجدا يطوى المراحل خشية ان يسبقه الجيش الى الحامة فيؤثروا بعض الآثار المكروهة ، فما نزل الجيش على الحامة الا وابو القاسم قد وصل بالراية البيضاء فلما رأوها تنحوا ، ولم يتعرضوا لاحد بسوء ولا مكروه .

راي ابى تميم المعز فى المشائخ الثلاثة

وذكر ابو تميم يوما ابا القاسم وصاحبيه أو ذكروا عنده ، فقال اما يزيد بن مخلد فلم تلد العرب مثله ، واما يغلى فعالم ورع ، واما سعيد بن زنغيل ففتى مجادل ، فلم يزل هذه حال ابى القاسم مع ابى تميم ، الى ان قضى الله عز وجل بأن يحضر ابو القاسم مجلس ابى تميم ولا ثالث

معهما ، فاقترح اليه ابو القاسم ان يريه سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراه اياه ، فتناوله ابو القاسم واستله وهزه بين يديه ، وذعر ابو تميم ودخله روع عظيم فلم تسكن مخافته حتى رده له ، فكان ابو تميم بعدها يقول لمن يحضره من وزرائه : انى لم آمن على نفسى حين مكنت ابا القاسم من السيف حتى يدخل السيف يدى أو قال : حتى يرجع السيف الى يدى ، فوقع فى نفس أبى تميم من ابى القاسم خوف عظيم فصار من ذلك اليوم يقبل فيه قول الوشاة ، وكثر الطعن فى ابى القاسم الى ان تقول عليه رجل يهودى زعم انه تحدث مع ابى القاسم فى امر ابى تميم فقال له ابو القاسم : ليس بيننا وبينه الا يسير فنقوم عليه نخرجه من تلك المدينة ان شاء الله ، يعنى القيروان . فبادر اليهودى ورفع هذا القول الى ابى تميم ، وبلغ الخبر المشائخ ، فعاتبوا ابا القاسم على محادثة اليهودى فقالوا له : احسن الله عزانا فيك .

قوة مزاتة فى افريقيا

وكان المشائخ على حسب عادتهم يخرجون الى البادية فى أوان الربيع ، وكان اكثر خروجهم الى مزاتة وكانت مزاتة بافريقية فى قوة عظيمة من مال وحال ورجال وخيل ، وقالوا : انهم كانوا اذ ذاك فى اثنى عشر ألف فارس ، واما الرجال فلا يحصون كثرة .

وبلغ ابا تميم شدة محبتهم لابى القاسم وطاعتهم له وانقيادهم لاوامره هم وغيرهم من أهل المذهب الذين بالبادية من قبائل افريقية ، فعلم انه لو دعاهم لامر لم يتخلف عنه منهم أحد ، وتصور فى خاطره ما نقله اليهودى وقامت عنده دلائل ما يحذر من قيام ابى القاسم عليه ، فكتب الى واليه على الحامة يامره بان يقتل ابا القاسم ويبعث

اليه برأسه ، والوالى لم يرد قتل ابى القاسم لمكانه منه من الصداقة المرعية ، بل اقبل على ابى القاسم كالواعظ لـه واشار عليه بالمسير الى الحج ، فقال انى حججت فقال : انكم معشر الوهبية تحسنون اعادة الحج وتؤثرون فضله فقال له : ليس لله علي ان احج مرتين ، واستبطأ ابو تميم واليه فكتب اليه كتابا ثانيا بمثل ما كتب فى الاول ، فلم تكـن معه أيضا مبادرة الى ما امره به ، بل اقبل على القاسم وقال ألا تخرج الى بعض البلاد التى فيها معظم أهل مذهبك مثل وارجلان وغيرهما فتنتفع بهم وينتفعوا بك ؟ فقال اترانى أن اخرج من الدنيا وانا حي ؟ يعنى بالدنيا قسطيلية، وفي كل ذلك لم ينتبه ، لما اراد الله من تمام امره ونهاية حكمه واستبطأ ابو تميم من الوالى امتثال ما امره به فكتب اليه كتابا ثالثا يامره بقتل ابى القاسم ويقول له : اما وجهـت برأسه واما وجهت من يأتى برأسك ، فلما وصل الكتاب الثالث وتبين منه عزمه على قتل ابى القاسم وعلم ان لـم يقتله كان هو المقتول ، استدعى ابا القاسم وناوله الكتاب الاول والثانى والثالث وقال له : لاجل هذا كنت اشـير عليك بما اشير انما كنت احتال على سلامتك مع سلامتى لو قدر الله بالسلامة . والآن لا اوثر عليك الا نفسى .

قتل ابى القاسم من طرف المعز الفاطمى

فلما رأى ابو القاسم الكتب الثلاثة ايقن بالموت وقال امهلنى حتى اركع ركعتين . قال : فتركه حتى ركع ركعتين فما استتمها الا والدار مشحونة رجالا عليهم السـلاح فابتدروا ابا القاسم وواثبوه فلم يجد الوالى من نفسـه قدرة على مشاهدة ابى القاسم فى هذه الحالة ، وادركتـه شفقته عليه لما بينهما من المودة الاكيدة فطلع الى غرفة فى الدار فدخلها ، واغلق بابها عليه . قيل وكان فى يد ابى

القاسم سكين وجعل يدافعهم عن نفسه ، فمهما أحس الوالى ان ابا القاسم دفع الرجال وهربهم نظر اليه مسرورا بذلك . واذا ادفعوه وحصروه دخل واغلق على نفسه الباب فلم يزل هذه حاله معهم الى ان قتلوه . فمات مظلوما شهيدا ومضى حميدا رحمة الله عليه فلما قتلوه غيبوه .

وابتدروا ابا محمد ويسلان بن يعقوب المزاتى رحمه الله فاخذوه وقالوا له : انت صاحب ابى القاسم . ومضوا به الى السجن، وقال لهم متنصلا : اين صحبته ؟ افي المدارج أم غرنيبس ؟ وهما موضعان يقعد فيهما السلابة اذا خرجوا لقطع الطريق . وكان ابو محمد ويسلان جهير الصوت ، حافظا لكتاب الله عز وجل فلما انتهوا به الى السجن لجأ الى قراءة القرآن ، فلم يكن له شأن الا قراءة القرآن ليلا ونهارا . حتى شكى اهل السجن ما لقوا منه من الارق ، فاخرج من السجن ثم سئل بعد ذلك عن السجن وعن صفته فقال : يصلح لقراءة القرآن .

ثورة ابى نوح وابى خزر لمقتل ابى القاسم

ولما قتل ابو القاسم عظمت المصيبة فيه عند جميع اهل الدعوة ، وبلغ فيهم قتله مبلغا عظيما ، ولم يجدوا فيه سلوة ولا سمحت نفوسهم بالصبر عن دمه ، والطلب بثاره فاجتمع الشيخ أبو خزر ومن معه من المشائخ فى القيام بامر الله عز وجل ودفاع ائمة الضلال ، الا انهم لم يروا ان يشرعوا فى شيء من ذلك دون مشاورة اهل الدعوة ولا ان ينهضوا دون استنجادهم فارسلوا الى جهة طرابلس أبا نوح سعيد بن زنغيل فتوجه الى جبل نفوسة وكان شيخهم حينئذ والذى اليه ينتهى امورهم « عون بن عبد الله بن ابى عمر بن ابى الياس » فجمعهم ابو نوح وشاورهم ، فقالوا له : نحن بعد وقعة مانو فى ضعف والذى يظن بنا

من الفضل لا ننهض اليه ، ولكن جدوا في امركم وكونوا على اهبتكم ، فنحن نعينكم بما قدرنا عليه ، ولا نبخل عنكم بطاقتنا . فرجع عنهم ابو نوح وسار الى جربة فاجتمع بجماعتها واستشارهم فكان مراد العامة منهم القيام في الله ، وطلب ثار الشيخ الا ما كان من ابي صالح اليراسني رحمه الله فانه كره ذلك . ولعله رأى ما لم ير غيره ، وفراسة المؤمن مما ينبغي ان تتقى كما جاء في الآثار ، وكان من قوله لابي نوح لا تهيجوا على أنفسكم أهل الخلاف فانهم أكثر منكم عددا ومددا،وأقوى يدا،الا العامة فانهم احبوا اجابة دعوة الشيخ ابي نوح فرجع ابو نوح الى المشائخ فاخبرهم بما عند اهل طرابلس،فاتفق رأى الشيخ واصحابه على ان يكاتبوا بني امية في شأن ابي تميم ويستنهضوهم ، ليكون قيامهم عليهم جميعا ، وبنو امية بجزيرة الاندلس ، فامروا ابا نوح بان يكتب الكتاب فكتبه عنهم بما ارادوه من الرأى ، ووجه الكتاب الى بني أمية ، فأخذ الكتاب في الطريق فانتهى به الى ابي تميم فقرأه ، فازدادوا حنقا . وكان ابو محمد ويسلان أيضا ممن كره القيام على ابي تميم ، وكان يقول لاصحابه لا تعلمون ان جل من معكم من قبائل « مزاتة » ليس لكم فيهم ما تقومون به وتعولون عليه . ونظر يوما الى أبي نوح وقد اكثر النجوى في القيام على أبي تميم ، وقال له : ساعلم يا ابا نوح من أين تخرج نجواك . ثم ان تميم سمع بخروجهم عليه ، واستعدادهم لقتاله ، فارسل الى المشائخ ان ارجعوا الى بلادكم ، التي كانت بها أوائلكم قبل هذا من تاهرت وغيرها فتكونوا على ما كانت عليه أوائلكم ونكون على ما كان عليه أوائلنا ، فكان ذلك مراد

ابى خزر فعرض على اصحابه هذا الذى قاله ابو تميم فابت العامة الا مناصبة أبى تميم ، وقتاله ، والطلب بثأر الشيخ ، ثم ان ابا خزر ارسل الى ناحية الزاب واريغ وارجلان أبا محمد جمال ابن المدونى يستنفرهم ويستمدهم ، وذكر يعقوب بن اسحاق ان رسل ابى خزر وصلت الى اهل وارجلان فاستنفرهم فخرجوا فى قوة عظيمة وسلاح شاك ، ثم ان ابا خزر اجتمعت له جموع مزاتة فى اعداد كثيرة خيلا ورجالا . فاعجبته كثرتهم ، وحدثته نفسه انه يدرك ما طلب ببعض مزاتة ، فضلا عن جميعها وكيف ومعه جماعات من غير مزاتة ، فلم ينتظر من يزداد ، من الامداد ، فانتهز الفرصة بهذا الجمع العظيم الذى اجتمع له ، وعزم على التعبئة فى (باغاي) .

وحدث ابو محمد ميمون بن حمودى رحمه الله قال وجدت الواح التلاميذ الذين خرجوا الى باغاي بمسجد المنية ، وكانوا قبل ذلك يتعلمون الفروسة بفحص مسجد ابى خزر ، قلت اما مسجد المنية فخارج كنومة بتفيوس ، وكانت اذ ذاك عامرة، واما مسجد الشيخ ابى خزر فحدثنى ذو السن من أهل دقاش تفيوس انه المسجد الذى يشارفها وقد وقفوا فى عدد . وسمعت نحوا من ذلك ، حكي عن غيرهم ، ممن يوثق به ، وهو موضع معروف البركة وقيل هو بالحامة ، والله اعلم .

ابو خزر يتعجل فيحاصر باغاى

قال : ثم ان ابا خزر عقدوا له الولاية على الدفاع ، وطلب الحق ، على انهم ان يظفروا بما طلبوا عقدوا له الولاية على الظهور ، فزحف ابو خزر ولم ينتظر الامداد . فلما وصلت عساكره الى باغاي حاصرها ، وفيها طيان الصقلى . وكان واليا عليها من قبل ابى تميم ، وكان قائدا

من قواده وزعيم انجاده ، فكتب طيان الى ابى تميم يعلمه ان قائما قام ثائرا فى البربر ، يعرف بابى خزر الوسيانى وانه اجتمع اليه خلق عظيم ، ولما بلغه الكتاب اغتم لذلك غما شديدا، وقد أثرت الرسل من عند طيان بقوة ابى خزر وزيادة أمره وكثرة ما صار حوله من العساكر ، فجمع عساكره فلما كان فى اليوم الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، خرج بعساكره الى باغاي ، يريد لقاء ابى خزر فوافاه قريبا منها بعد قتله طيان ، وبلغ فى ابى تميم قتل ابى خزر طيانا مبلغا عظيما ، وكان ابو خزر لما حاصر طيانا اشد الحصار دافع عنه أهل الموضع فلقوا من محاصرة ابى خزر اياهم شدة عظيمة ، وأيسوا من السلامة . واضطر ابو خزر الى القصر القديم ، وطمع فى الظفر بهم . فلما رأى ذلك أهل الموضع جعلوا ينتهبون ما فى القصر من الاموال بعد موت صاحبهم فيبذلونها خفية لمن يرجون عنده خلاصا فيما هم فيه ، وبمن يأملون فيه النفع من أهل عسكر أبى خزر ، يستميلون القلوب بذلك ، ويرمون فى العسكر الخلل . فما وصلتهم عساكر أميرهم الا واداروا حيلة ظفرتهم بما كانوا يحاولونه ببذل المال .

وذلك ان فخذا من مزاتة من عسكر ابى خزر يقال له بنى يليان غلب فيهم حب الطمع على صيانة الاحساب والاديان ، فعرف أهل الموضع ان الطمع قد استهواهم وان بمصانعتهم يدركون مناهم ، فجاعلوهم فى خفاء بمال جزيل على ان ينهزموا بغير قتال ، ويكونوا سببا لوقوع الفشل فى عسكر ابى خزر ، ولم يكن احد من أهل العسكر علم بالجعائل التى أخذها بنو يليان على خذلانهم ، ولا

انهزام ابى خزر ومن معه

اتهموهم بالوقوع فى مثل هذه الدنية ، قيل وكان بين بنى يليان وبين فخذ آخر من مزاتة يقال لهم « بدنة » حقود قديمة فعزموا على ان يجعلوها ذريعة الى ما اضمروا من الغدر ، فلما كان صباح غد يؤمئذ،والتقى الجمعان والتحم القتال ، القوا فى مسامع أهل العسكر ان بدنة تخافت على أموالهم وأهلهم وانهم لا يتركون الاهل والمال ، بل يتوافون حمى دمارهم ، فانهزموا كأنهم يريدون استنقاذ أموالهم وأهليهم من بدنة ، وانما ذلك لامر برم بليل ، فعند انهزامهم وقعت الهزيمة فى العسكر، وكر أبو خزر وأبو نوح وعبود وامثالهم ، وكانوا فى ساقة العسكر يحمون أواخره حتى قتل منهم خلق كثير ، وقتل عبود وأصحابه فيمن قتل ، وتفرقت العساكر فوافاهم أبو تميم وقد انهزموا ، فاخدت عساكره من الاموال والغنم والجمال والبغال ما لا يحصى كثرة ، وتمادى أبو تميم فى طلب أبى خزر ؛ ووافاه يوسف بن زيرى من السير (I) ، وجعفر ابن على من المسيلة كل واحد منهم مجدا في طلب أبى خزر؛ فأخذ فى وعور ، ولم يعلم له خبر وخفي أمره ، ورجعت عنه العساكر .

وكان أبو محمد جمال قد أقبل بامداد أهل ريغ واورجلان فى جموع عظيمة وقد خرج معهم خزرون بن فلفول ، وهو أحد المشاهير فى زمانه ، فلما وصلوا موضعا يقال له أفودان يطلا ، على مسيرة نصف نهار من باغاي ، فيما قيل ، فتلقاهم هناك رسل بخبر الهزيمة فى كتاب ، فلما قرأ الكتاب بصفة الحال بكى وابكى من معه وأمر الناس بالرجوع الى منازلهم ولما انهزم العسكر تنحى أبو

(I) كذا فى النسخ لعله من « أشير » وهو مقر ولايته

خزر عن الناس وتمادى به النجا حتى لجأ الى جبل يقال له تلتماجرت ، ومعه أبو محمد يوجين فاقاما هنالك أربعين يوما حتى انقطع الخبر ، قال وليس لهما حينئذ طعام الا الاوبر (1) يصيده أبو محمد يوجين فيعالجه فيعيشان به . ثم توجه الى جبل نفوسة واستقر بها ، واما ابو نوح فتخنس (2) ولبس عباءة ، وظل يرعى ابلا فخرج أبو تميم جاداً فى طلب الشيوخ ، وفرق الرسل يمينا وشمالا فى طلبهم .

القاء القبض على ابى نوح متنكرا

فبينما هم يطلبون اذ صادفت الرسل أبا نوح راعيا متنكرا على الحالة الموصوفة ، وعرفوه وقالوا له ، ليس مثلك يرعى الابل ، وقيدوه فى الاصفاد وقادوه الى أبى تميم ، فلما دنوا من القيروان البسوه الزنار على خلق رثه ثم حملوه على جمل وجعلوا يطوفون به فى كل سوق مروا به ويبرحون به : هذا الذى سعى فى مخالفة دين الله والقيام عليه ، سعى فيه زمانا ونحن عنه غافلون ، سعى فيه بجبل نفوسة وبجربة واستمد الامداد ووعدهم الاصفاد كما يقول المنادى. وهذا كله فيما ذكر ابن ورميكوك ، وكان حسن بن ورميكوك من نفوسة قنطنار وكانت أم أبى نوح تتبعه حين يطوفون به وتظهر جلدا وشامة ، فاذا رأوا ذلك منها عجبوا وقالوا : متمثلين لا يلد الاسد الا اللبؤة، فكانوا اذا نزلوا أنزلوه عن الجمل ووكلوا به السجان ، قال أبو نوح فلما انزلونى يوما وقد قرب مغرب الشمس وتيممت للصلاة وقد اشفقت تلك العيشة من ان يقتلونى ، فحرصت بالتعجيل على الصلاة ، فقال لى السجان يا سعيد ادخل

---

(1) لعله جمع وبر بالاسكان وهى دويبة كالسنور من جنس بنات عرس . الا ان هذا الجمع غير مشهور فيها . او يقصد بنات الاوبر ضرب من الكمأة .

(2) تنكر وغير زيه .

الخباءواسترح وأزل عنك البرد ، وحينئذ تصلى ، فلما سمعت ذلك عنه رجوت الحياة ، وسكنت نفسي . قال أبو نوح وكان رجل منهم يجيئني ويقول : تركت رجال مولاي يتحدثون في أمرك ويتهددون بتمزيق لحمك وأكله بضعة بضعة ، فأقول لكن مولانا ليس عنده الا الحسن الجميل ، فاذكر فيه من الفضائل ما يسر سامعه ، فبلغه ذلك عنى ، فيعطفه علي ، الى ان عفى عنى ، فلما عفى عنى أبو تميم وقربني ورفع منزلتى ، كان الرجل الذى يجيئنى قبل بالاخبار المخوفة والتهديد يقول انما نحن عبيد مولانا ، فمن أحبه احببناه ، ومن كرهه كرهناه .

قال أبو نوح : ثم ان أبا تميم جمع أصحابه ووزراءه وكتابه وتأمل الكتاب الذى كنت قد كتبته الى بنى أمية المتقدم ذكره ، فذكر لهم انى كاتب أبى خزر وصاحب سره ، وارادوا الوقوف على خطي يعرضونه على خط الكتاب المذكور ، حتى يعرفوا هل أنا كتبته أم غيرى ، وعندهم رجل يهودى فقال لهم اليهودى أنا استخرج لكم خطه ، فقال أبو نوح بينما أنا فى ايديهم اذ أتانى اليهودى ببطاقة ومحبرة فقال لى أكتب الى مولانا ان يعفو عنك ، واعتذر بما عندك من احتجاج فان مولانا كثير العفو. ووضع البطاقة والمحبرة واداتها فخرج عنى ، فتناولت لأكتب ، فكتبت سطر البسملة لا غير ، ثم أيقظنى الله عز وجل وذكرنى الكتاب المتقدم فى شان أبى تميم الى بنى أمية ، فقلت لعله وقع الكتاب عند أبى تميم ولعل اليهودى انما جاء خديعة ومكيدة لا نصحا ، فقصصت السطر المكتوب أولا ثم استأنفت كتابا بخط غير خطى المعهود منى فلما كان بعد قليل اذ اليهودى

قد دخل وتناول الكتاب جذلانا مسرورا ، وحسب انه نال المقصود ، ودفع الكتاب الى ابى تميم فاجتمع عليه الوزراء والكتاب وجميع الوارقين ودفع اليهم الكتاب الاول والكتاب الثانى فعرض الخط ، ووجدوا الكتابين مختلفي الخط غير متفقي الحروف ، فاتفقت كلمتهم على ان كاتب الكتاب الأول غير كاتب الكتاب الثانى الا رجلا واحدا احذقهم ، فانه قال كاتبهما واحد غير انه بدل خطه ، فقالوا له لو صح ما زعمت لوقع الاختلاف فى سطر أو سطرين واما الكتاب كله فمحال ، هذا مما لا يستطيعه كاتب .

ابو نوح بين يدى المعز

ثم ان أبا تميم وجه الى أبى نوح فجاء فى قيوده فلما دخل عليه وجده فى قبة حمراء على سرير قوائمه من عاج احمر وعليه ثياب حمر وعلى رأسه قلنسوة حمراء ، وحوله رجال بايديهم الرماح ، قال فلما عاينت ذلك كله غلب على ظنى انما احضرت للقتل ، الا انى لم أيأس من روح الله . ورجوت ان يأخذ بناصيته من بيده ملكوت كل شيء ، قال فلما صرت بين يديه سلمت عليه ، فاطرق مليا فلما رفع رأسه قال لى : يا سعيد ، أحقا انكم كاتبتم فينا بنى أمية ؟ قال أبو نوح يا سيدى ان كانت معذرتى تقبل وحجتى ترفع اعتذرت واحتججت ، قال قل ما عندك فلما وجد الى الكلام سبيلا وكان شهم الجنان فصيح اللسان كثير البيان ، قال : كيف نكاتب بنى أمية وقد علمت ما بيننا وبينهم يوم الدار ويوم الجمل وايام صفين ، وهم الشجرة الملعونة فى القرآن . فلما سمع منه ذلك ابو تميم سره وتبسم وانبسط بعد الانقباض والعبوس ، قال أبو نوح فدفع الي الكتاب الذى كنت كتبته الى بنى أمية فقال ألست كتبت هذا الكتاب ؟ فقلت بالله الذى لا اله الا هو ان هذا ما كتبته

الى بنى أمية ، قال فاختلفوا فى يمينى فطائفة قالوا انــه لم يحلف لانه جعل ما زائدة وقال بعضهم انــه من البربر ولا يفطن لهذا ولا يفهمه ، قلت لا شك ان ابا نوح قصد بلفظ يمينه المعاريض التى فيها مندوحة على الكذب وسلك مسلك الملاحن . وعلى هذا تكون ما بمعنى الذى أو تكون نكرة موصوفة فيكون التقدير ان هذا الذى كتبته اوان هذا شيء كتبته ، وكلاهما حسن فيصح ، فهذا الذى قصد، والله اعـلم .

ثم قال ابو تميم نعم ما هذا بخطك الا ان يكون غيرت يا سعيد . ثم قال : يا سعيد أرأيت ان لو صادفتنى يـــوم باغاي أكنت تاركى لغيرك ، فقال لست بتاركك لغـيرى . قال هذا الذى هو أجل قد اقررت به فكيف ما دونه !. فعلم حينئذ ان ابا نوح قد صدقه فى كل ما سمعه منه . ثـــم قال له : يا سعيد اعلم ان هذه القيود انما دخلت رجـــلاك فيها بحكم شرعى ، فقال له أبو نوح عسى الله ان يجعلها كفارة ، فقال أبو تميم وقد غضب فكنا اذا مسيئين فيك ، بل عسى ان يجعلها متصلة بعذاب الآخرة . قال : أبو نوح فلما عرفت فى وجهه الغضب قلت له ليس فى ذلك ما يثبت الاساءة لمولانا . الا ترى ان الله عز وجل يبتلى عبده المؤمن فيصبر ويؤجر وليس فى ذلك ما يثبت الاساءة لله تعالى ، قال فلما سمع هذا رأيته كانه انبسط وذهب غيظه .

ابن بلكين يشفع فى ابى نوح

ثم شفع في ابن بلكين بن زيرى الصنهاجى ورغب أبا تميم فى ان يحل وثاقى ويعفو عنى فشفعه ، قال فأطلق أبو نوح فخلعت عليه خلعة نفيسة، فلما جاءوه بها وهموا بان يأخذوا الاطمار التى عليه ، ويكسوه هذا الكســـوة الشريفة ، امتنع عن الازالة لتلك الاطمار عنه ، وقال : كل

ما يأتى من عند مولانا فحسن جميل . قال فبلغوا ذلك عنه فزاد فى تكرمه ، وقرب مجلسه . وكان يرسل اليه فى كل حين لا يفتر عنه . قال ابو نوح فارسل الي يوما من الايــام فلما دخلت وسلمت عليه ، ووقفت بين يديه ، قال لى : أين صاحبك يغلى ؟ قلت لا ادرى فقال لو كان صاحبك فى غانة لجاءت به دراهمنا . ثم قال لى أتراه يخشى أمره . فقلت : ان كان من مولانا أمان عام شمل الناس فى بلادهم فــلا يخشى أمره ، وان لم يعمهم امانه فى بلادهم فانــه يخشى أمره . قال فاستبان النصيحة فى قولى .

ابـو تميم المعـز يعطى الامـان للاباضيـة

فبعث فى الامان فى بلاد الوهبية كلها وأمر ان لا يهاج منهم أحد ؛ فذكر المشائخ ان أهل الدعوة في امانه الى يومنا هذا،قلت وذلك لانهم من ذلك سالموا فسولموا، هذا الذىعناه المشائخ ، وحدث ابراهيم بن أبى ابراهيم ان أبا نوح دخل ذات مرة على أبى تميم فأمر خازنه بان يملأ كم أبى نوح مالا دنانير ودراهم ، قال أبو نوح فدخلت مع الخــزان الى بيت المال فكان يدفع الي وارخى كمى فلا يكاد يمتلىء ، فيقول الخازن ألم يمتلىء كمك الى الآن؟ فلم يزل يزيد حتى امتلأ كمى ولم اكد ان انتقل من مكانى لثقل كمى قــال فرجع الخازن الى أبى تميم فسأله عما أمره به ، فقال قــد فعلت،فأمره أبو تميم بأن يخرج متجسسا الى ما يصنــع أبو نوح وما يكون منه، فخرج الى باب القصر القديم فوجد أبا نوح يأخذ بيده ويدفع للناس يمينا وشمالا ، حتى لـم يبق فى كمه الا قدر قبضة واحدة ، فرجع الى أبى تميـم فقال له : ان الشيخ لمجنون انى وجدته يفعل كيت وكيت ، فقال أبو تميم كلا ما هو بمجنون ولكنه منتحل للرئاسة .

المعز يشارك العلماء في المناظرة حولــه

فكان أبو تميم يجمع علماء الفرق يتناظرون حوله فى العلوم فكان أبو نوح مقدما فيهم ، فحسنت حالته وازدادت مكانته لما جمع من علموفصاحة وبراعة ومعرفة بفنون الرد على المخالفين ، فكان ابو تميم لا يزال يثنى عليه ويحســن اليه ويحسن جوابه فى المناظرة. (فمن المسائل التى وقعت فيها المناظرة انه، قال يوما : يا سعيد؛ اسأل اليوم عما بدا لك ، فقال أبو نوح فما الدليل على أن لهذه الصنعة صانع ؟ فمكث الحاضرون حينا ثم اجابوا باجوبة لم ارضها ، ولا اقنعتنى . فقال ابو تميم اجيبوا الرجل بما يقنعه ورأيته قد تهلل . فعلمت ان الجواب السديد قد حضره ، ومنعــه أدبه ان يسرع به ، فقلت ان رأى مولانا أن يتفضل عــلى عبيده بالجواب فعل . فتبسم وقال يا سعيــد يقــال لهــذا السائل جوابك في سؤالك، فان قوله صنعة دليل على صانع. قلت لهم هذا والله هو الجواب المقنع ، ثم اعلمت بعد ذلك به الشيخ ابا خزر ، فاستحسنه . قال واستحضرنى يومــا آخر فوجدت رجلا معتزليا يتكلم فى اسماء اللــه تعــالى فاوعيته سمعى الى ان عثر عثرة فلم اسمح باقالته ، وذلك انه قال اسماء الله متغايرة كزيد وعمر فقلت له مع مــن تتكلم يا هذا ؟ أمع مولانا أم مع غيره ؟ فقال لى ابو تميــم ناظره ، فقلت له ألست تقول زيد غير عمرو ؟ قال بلى ، فقلت : أو كذلك الله والرحمان احدهما غير الآخر ؟ ولهما مغاير غيرهما ؟ فلم يجد جوابا ، فقال ابو تميم هذا والله الكفر بعينه ، فعجز المعتزلى ، وانقطعت حجته .

العفو عن ابى خزر ومقدمه الى القيروان

قيل ان ابا تميم اطال البحث على ابى خزر والاستطلاع على أنبائه . حتى علم انه بجبل نفوسة ، فارسل ابو تميم اليه بالامان وكان فى عز واكرام عند ابى زكرياء بن أبى

عبد الله بن ابى عمر بن أبى منصور الياس ، وكان قد علم بان البحث عليه فى جبل نفوسة فلم يقع فى نفسه خوف ، لمكانه ، فلما سمع الامان وصح عنده كتاب ابى تميم بذلك خرج من جبل نفوسة متوجها الى القيروان فعلم ابو تميم بقدومه وانه وصل الى قابس قال أبو نوح : فوجه الي أبو تميم ، فقال لى ان صاحبك قد توجه ، وقد وصل الى قابس فسر اليه وألقه هناك ، قال ولم أكن قبل ذلك اعلم له مستقرا ، فاستبشرت وقلت له ان رأى مولانا ان يوجه معى خيلا من مزاتة فعل ، فوجه معى ثمانين فارسا من مزاتة فلما خرجوا معى طعن فينا بعض الجلساء ، وقال اذا منحت لابى خزر هذا الثمانين فارسا فانه يمتنع بها حيث شاء . فوجه فى اثرنا من رد الخيل الا الاقل منها . قال فسرت الى قابس فوجدت فيها ابا خزر فسلمت عليه ، فقلت ما هذا المجىء ياشيخ ؟ اما تخاف على نفسك ؟ فقال ما بين مجيئك ومجيئى الا قليل ، لم اخرج من جبل نفوسة الا باmان أبى تميم ، وقد علمت انه لا ينقض عهدا ولا يحل عقدا ، فلما استوثقت من امانه أقبلت . قال وسارا ومن معهما الى القيروان فلما دخل ابو خزر على ابى تميم رحب به وأكرمه وعظم شأنه وانزله فى مسكن حسن وحمله على فرس كريم واجرى عليه رزقا واسعا ، والطفه ، ورفع منزلته ، وأدنى مجلسه وسنى قدره وشاع فى الفضائل ذكره وأمر له بحلة جزيلة وخلع عليه خلعة نفيسة جليلة ، وكان مجلسه على سريره دون جميع الجلساء . والقوم انما كانت نهاية شرفهم وعلو منزلتهم ان يقفوا بين يديه ، وكان دخوله وقدومه على ابى تميم فى الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة 359 تسعة وخمسين وثلاثمائة ، فاقام عنده حتى رحل معه الى مصر .

قصة انتقال المعز الى القاهرة وابى خزر معه

ولما تواترت الكتب على السلطان من جهة المشرق لصالح مصر والشام والحجاز واقامت الدعوة له بها ، سره ذلك واستبشر وأخذ فى تهيئة الخروج ، فخرج باهله وعساكره وبيوت أمواله وعزم على استصحاب الشيخين أبى خزر وأبى نوح لئلا يكون منهما بعده فى المغرب خروج عن طاعته وقيام عليهولكونه أيضاً لم يرد مفارقتهما ، فكلمهما فى ذلك ليأخذوا فى أهبة السفر، فاما أبو خزر فقال كيف بالقيام بعدك والقعود عنك ؟ واما ابو نوح فكره ذلك وكان عند أبى تميم رجل يهودي ، يعرف فضل أبى نوح ويتخدم له ويجد فى حاجته ، فعلم ما عنده من كراهية المسير فنصحه اليهودي ، وقال تمارض وانقع نخالة الشعير واشرب من مائها ، واغسل به وجهك ، فان حالك يتغير ، ويظن من يراك انك مريض ، فحين عزم أبو تميم على الحركة سأل عن أبى نوح ، فأعلم انه مريض فاستدعاه فاحضر فلما رآه مصفر الوجه متغير الحال ، ظن انه مريض فأذن له فى المقام ، فاقام مدة تأهب أبى تميم للحركة حتى ارتحل ، ولم يسأل عنه فى اثناء هذه المدة ، فارتحل ابو نوح الى جهة وارجلان وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله اذا فرغنا من اخبار أبى خزر .

وصية المعز لخلفه على المغرب

وقال ولما ارتحل ابو تميم من افريقية ولى على جميع أموره بها وعلى جميع انظارها بلكين بن زيرى الصنهاجي، وأوصاه عند توديعه بان قال له اشفنى فى أولاد المجوس زنانة ومزاتة ، واعلم انى قد تركت لك بافريقية مائة ألف منزل فمتى هممت بمحاربة عدو فاجعل على كل منزل فارسا واحدا ، فانك تكتفى بذلك حرب من تريد حربه

ويريد حربك (١). واما ابو خزر فجزع لفرقة الاخوان والنأي على الاوطان جزعا قد اظهره اذ غلب عن كتمانه ، حتى عبر فيه لسانه عن ضمير جنانه ، وسمعت بعض العزابة ينسبون اليه قطعة شعر قد قالها عند رحيله ويبعد عندى ان يكون ذلك الحال من قبله ، ولم اضعها فى جملة اخباره ولا اثرتها فى آثاره وربأت به عن ان يكون ذلك من صناعته فيكون ذلك مخلا لما تقدم من ذكر بلاغته وبراعته وهى قطعة عينية لا تليق بذى بديهة ولا روية .

ابو خزر ينتقل مع المعز الى القاهرة

واجتاز ابو خزر فى طريقه الى المشرق بلماية فبالغوا فى اكرامه وابراره ، وافرطوا فى اعظامه واكباره ، وتمنوا ان تكون عندهم مقامته ، وساءتهم مسيرته مع من لا ترضى امامته ، فأثنى عليهم وشكر ماهم فيه من حسن الطريقة ، وقال أهل الدعوة على الحقيقة وختم بعد جميل النثاء ببركة صالح الدعاء .

وبلغنا ان ابا زكرياء فيصل بن ابى مسور رحمه الله خرج من جربة حين سمع بمسير ابى خزر الى المشرق يريد وداعه ويسأله عن مسائل فى مهم دينه اشكلت عليه ولم يجد بدا من الانتهاء فيه اليه ، قال ابو زكرياء فسألته عن ثلاثمسائل فاجاب فى جميعها بما يسرنىفودعته واودعنى لوعة فراقه .

واقام ابو خزر مع ابى تميم فلم يزل معه ملحوظا بعين الكمال مقابلا بالاحتفاء والاحتفال ، واصحاب ابى تميم يلمزون ابا خزر ويطعنون فيه ويحسدونه فى تفضيله عليهم ، وايثاره دون خواصة من يصطفيه ، وبلغنا انه

(١) اما رواية ابن خلدون فانه يقول : اوصاه بثلاث : ان لا يرفع السيف عن البربر ولايرفع الجباية عن أهل البادية . ولا يولى أحدا من اقاربه .

سار ذات يوم ومعه ابو خزر يسايره الى ان اعترضهم زرع فشق ابو تميم الزرع ومعه اصحابه الا ابا خزر . فانه عدل عن الزرع جانبا حتى استدار اليهم من خارج الزرع فامكنتهم الفرصة فى ابى خزر وطعنوا فيه عند ابى تميم. فقالوا له الا ترى انه عدل عن طريقك ولم ير اتباعك عليه ؟ فاقبل اليه بعد ما قالوا فيه ما قالوا ، فقال له أبو تميم مالك يا يغلى لم تصاحبنا على طريقنا . ام انت غير راض بطريقنا ؟ فقال وكيف لا ارضى بطريق مولانا ؟ قال فمالك لم تتبعنى حين سلكت فى الزرع قال بالخبر المأثور انه : اذا سقطت الثريا فلا يدخل الزرع الا ساقيه أو ناقيه أو واقيه ، فانا لست بأحدهم فكيف ينبغى لى دخوله ؟ واما انت فواقيه فذلك لك . فأعجبه حسن جوابه،وقال لاصحابه ألم أقل لكم لا تقولوا فى يغلى الا خيرا ؟ والآن فقد اعذرت اليكم فمن وقع فيه بشر فلا يلومن الا نفسه .

بعض علماء مصر يمتحن ابا خزر

ولما دخلوا مصر تسامع علماء مصر بخبر ابى خزر واشتهر فيهم فاضطربت الجهات بذكره واشتهر عندهم ان ابا تميم وصل بعالم المغرب ، فارادوا امتحانه ليعرفوا مبلغ علمه . فكلهم شاحد غربه ومفرق سهمه ، فأجمعوا ان يحضروه على طعام وتكون المناظرة بعد تناولهم أياه ، قيل ، وكان مما عزموا عليه انه اذا حضر الطعام وحضر ابو خزر وضعوا ايديهم فى الطعام ورفعوها قبل استفاء الحاجة فان هم رأوه رفع معهم ، حين يرفعون علموا انه يفحم وانه يغلب عليه الوهم ، وان هم رأوه متماديا على الاكل حتى يستوفى منه حاجته علموا ان لا قبل لهم به . فلما حضر الطعام وحضر الشيخ جعل كل واحد منهم كلما تناول قليلا رفع يده قبل الاستكفاء ، فلما رأى الشيخ ذلك

منهم قال : ما بهذا الاكل احمرت وجوهكم . ثم جمع نفسه واخذ فى الاكل من غير احتشام ولا ارتياب ، حتى اكتفى منه ، فحين رأوه لا يقف عند الوهم امسكوا عن مناظرته والقوا السلم دون كفاح .

المؤمن المخلص عظيم القدر عند الله

قيل وكان رجل من أهل تاجديت يعرف بابى سليمان صاحب ابا خزر متخدما ، وكان كثير الملازمة له فذكر عنه انه قال بعد رجوعه كان الشيخ ابو خزر رحمه الله كثيرا ما يعظم قدر المؤمن المخلص المصلح ، وكان اذا ذكر من هذه صفته قال انه خير من الملائكة ، قلتلم يقل الشيخ هذا من عنده ولا نطق به حيث ينتقد عليه بل هو متعلق بما جاء فى الاثر : خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة وخلق البهائم من شهوة بلا عقل ، وخلق ابن آدم من شهوة وعقل. فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلب شهوته على عقله فالبهائم خير منه .

امينته الوحيدة تعليم الطلبة

ولما استقر المقام بمصر اقطع ابو تميم ابا خزر ديارا وعقارا ومستغلات فحسنت بها أحواله ونعم باله وكان فى ذلك الحال يقول : والله لا آسف على شيء فاتنى بالمغرب الا افادة طلبة أهل الدعوة ، وما يكتسب فى ذلك ثواب الله عز وجل ، وانى لأتمنى ان يهاجر للمرء منهم عشرون طالبا لا يكون لاحد منهم شغل الا طلب العلم فاتكلف لهم بالافادة فاصونهم حتى لا يتكلفون بكلفة حتى الذى يصلون به من كراء .

اخواننا فى المغرب يشددون على انفسهم

وكان ربما قال حينئذ ان اخواننا بالمغرب لأهل تشديد وانلهم عندى لرخصا وانى لأتمنى لو قلدونى فيها واخذوها عنى فيخف عنهم كثير من ذلك التشديد ، قلت اما تمنى الشيخ رحمه الله أخذ اصحابه بالرخص فليس بطعن

فى اخذهم بالأحوط . فالاشارة لقول ابن عباس رضى الله عنهما الرخصة من الله صدقة فلا تردوا صدقته ، ولعله أيضا لم يتمن ان يفتى بالرخص كل مستفت ولا ان يفتى بها فى كل حال من ضرورة أو سعة بل يفتى بها من لا يرى فى العمل بها التهاون فى الدين أو يفتى بها فى ضيق يلجأ اليه الجاء أمثاله من المجتهدين . وما يؤكد ذلك ما ذكر الشيخ ابو نوح رحمه الله من أوصافه ايجازا وذلك انه قال : كان ابو خزر أورع الناس فما سمع شيئا قط الا عمله قال : من شأنه اذا صلى الصبح ان يأخذ فى القراءة والدعاء والتضرع الى الله عز وجل منتحيا عن الناس حتى تطلع الشمس ، ومن ورعه ما بلغنا ان ابا القاسم كان يؤم الناس فى صلاة الصبح ، فلما كان يوما من الايام أبطا ابو القاسم وخافوا خروج الوقت ، فقدموا ابا خزر ليصلى بهم ، فلما تقدم عن الصف أحس بقدوم ابى القاسم ، فتأخر وقدمه.

مكانة ابى خزر العلمية

ولما مات ابو تميم ولى بعده ابنه نزار ، واضاع احوال أبى خزر فلم يتفقده بما كان يتفقده أبوه من الصلات ، فمسه ضيق عيش على الكبر ، فلازم كتمان الفقر فصبر الى ان قدم الى مصر رجل معتزلى جاء متعرضا للمناظرة فناظره علماء مصر طبقة بعد طبقة فافحم جميعهم ، ولم يبق بمصر احد يقاومه فى المناظرة ، فشق ذلك على السلطان وعلى علماء مصر ، فجمع السلطان أهل مشورته فشاورهم فى أمر المعتزلى ، فقال له بعض من كان يحضر مجلس ابيه ويحضر به أبو خزر ، ان هاهنا شيخا كان أبوك قد استصحبه من المغرب ، وكان عنده مكرما معظما موصوفا بالعلم والنظر ، ولا يرى لمناظرة هذا المعتزلى غير هذا الشيخ ، فلو وجهت اليه لكفاه هذا المهم ، فوجه اليه فلما

جاء الرسول بما اراده به السلطان ، قال له ابو خزر ليس عندى مركوب اركبه اليه ولا لباس أحضر بـه المجالس ، فرجع رسول السلطان بمقال أبى خزر فأمر له بمركـوب وكسوة سنية ، فلبس وركب ، وخرج لمناظرة المعتـزلى ، فوجده فى قبة ضربها عـلى نفسـه بالفسطاط ، نصبها للمناظرة ، فاستأذن فأذن له فدخل وسلم عليه ، وسأله عن احواله ، حتى سالـوه فيما يمشيـه (1) فقـال امشيه فى المناظرة ، فلما أطمان به المجلس اخذ فى المناظرة فما جرى بينهما كلام فى مسألة الا والغالب أبو خـزر والمغلوب المعتزلى ، حتى انقضى مجلسهما ، وانقطـع الكـلام ، وما انجلت هبوة (2) اللقاء الا والمعتزلى محضوم (3) . قـال : فأخذ يسأل أبا خزر أين تعلمت قـال فى بـلاد الشيـخ والخلفاء . قال كذبت ليس مثلك يتعلم فى بلاد الشيـخ والخلفاء انما قصد المعتزلى ان يحلف بالاكذاب لما لم يجد معه بدا فيما هو بصدده ، فكان الفلج لابى خزر . فمـن ذلك اليوم التفت وارتفع ما وهى من أحواله ونزل مـن البر منزلة امثاله ، وبان فضـل سبقه بـين السوابق ، لا يعوقه عن الرفقة عائق قيل وقال المعتزلى حينئذ ما ناظرت مناظرا قطمنى الا شابا بالمغرب وهذا الشيخ ، فقال لـه أبو خزر ان الفتى هو الشيخ ، والشيخ هو الفتى ، فزاده ذلك اعجابا واستحسنه .

اجهاد إبى نوح سعيد

واما أبو نوح سعيد بن زنغيل رحمه الله ، فانه لما فر من أبى تميم ، ولحق ببلاد وارجلان ، ومعه أهله ومـــن يختص به ، وجميعهم تحت خوف واختفاء فلما وصـــل

---

(1) هكذا فى النسـخ

(2) الهبوة الغبرة ، واهباء الزوبعة : شبه غبار يرتفع فى الجو

(3) فى النسخ محضوم ولم اجد له معنى وربما مهضوم من هضم الشىء كسره .

الموضع المعروف بالبكرات بقرب وارجلان ، تقدم من قبلهم من يبشر ابا صالح جنون بن يمريان رحمه الله بقدوم ابى نوح ومن معه ، فاستبشر وقال للبشير ارجع اليه وقل له لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، ولما وصل وارجلان انزله الشيخ وجماعة اهل وارجلان ، وأحسنوا نزوله وتجاوزوا الحد فى الاعظام واكرموا مثواه غاية الاكرام ، الا ان المختص به أبو صالح ، فانه ذكر لنا انه ملأ له بيته الى السقف تمرا ، وامثال ذلك مما لا بدله منه وأجرى له في كل يوم مائدة ، وأخرى عشية ، ثم قال في نفسه ولعل له مآرب لا اعلمها أو به خصاصة لا يعلنها ، أو مفاقر لا يسدها الا المال ، فانفرد به ذات يوم فتحدثا ساعة ، ثم قال له ابو صالح ادخل يدك فى جيبى فما وجدت فاغسل به ثيابك ، فادخل يده فوجد صرة فيها سبعون دينارا ذهبا ، فقال له من كان له أخ صالح مثلك يا ابا صالح لم يمسسه عدم ولا احتياج . قيل وبات أيضا ليلة عند ابى عمر التناوتى فعامله مثل معاملة ابى صالح فى اعداد الصرة فى جيبه فشكر صنعهما ، وقضى المآرب ، وسد المفاقر فنعم المشكور والشاكر .

مجلس ابى نوح بورجلان

وكانت جماعة أهل وارجلان تجتمع عند مسجد الشيخ جنون فمنهم المستفيد منه علما ، ومنهم المتبرك بمشاهدته والمشارك فيما يعرض من أمور دنياه ودينه ، والمقتنى خلقا يتحلى به ، والمستزيد من معرفة سبب السير فكلهم منقلب بخير وفضل . وربما حضرهم من ليس بأهل لمحاضرتهم ممن هو جنيب في مثل تلك البقعة ، ومن لا بيت له فى الرقعة ، فحضر مجلسهم ذات ليلة رجل من البله . من المغفلين الذين يحضرون مجالس الذكر فى زى المتطفلين

فقال لابى نوح اخبرنا الليلة يا شيخ بكل ما تعلمت من علم الكلام ، واستخف بعقله من حضر فاستخفوه وبكتوه واقصوه ، ولم يكن من الشيخ الا مجاملة وحسن معاملة ، الا انه قال له عند ذلك : كيف أخبركم فى ليلة واحدة بشىء أكلت فى تعلمه اقفزة ملح ، ومكث ابو نوح فى وارجلان على هذا الحال زمانا حتى أمن ما كان يخاف ، فدعاه حب الوطن الى توديع خير ألف ، ولما استفزه الاشتياق وتحقق منه العزم على الفراق قال له الشيخ أبو صالح : أقم وأقاسمك فى جميع ما املك وكان أبو صالح ذا مال كثير فى وارجلان فصمم على ما عزم عليه .

رجوع ابى نوح الى قسطيلية

فرجع الى افريقية فوجد البلاد قد تغيرت والصدور قد تنكرت ، فندم على فراق وارجلان ، ولامه اصحابه حيث لا ينفع الندم، ولا يفيد اللوم، فانه قد كان قصد فى رجوعه اصلاح ما يخشى فساده ، فوجد الفساد قد عم ببلاده فكان مقامه حينا بافريقية وحينا بقسطيلية ، لا يالو جهدا فى تدارك ما فات ، وأحياء ما لحق بحكم الاموات .

وبلغنا ان ابا نوح كان ذات مرة بقنطنار هو وتلامذته فى الاشتغال بالدراسة والتفنن فى العلوم وايضاح سبيل الصلاح والرشاد وتغيير المناكر والفساد ، فكانوا فى حال رخاء وعيش هنىء وكان مقدم بنى درجين وحنين بن وريغول ممن يفد على المنصور بن بلكين بن زيرى الصنهاجى . فوفد عليه ذات مرة فاكرمه وقربه وحياه وأحسن، فرجع على احسن حال ظافرا ببلوغ الآمال. فلما سمع بقدومه خرج ابو نوح وتلامذته ، وخرج أهل البلد ليتلقوا وحنين ، فلما كانوا بخارج البلد بحيث يبصرون وحنين نظروا فاذا جماعة قد سبقتهم فامعنوا النظر فى

أولئك الذين سبقوهم ، فاذا هـم من النكار ، فلما علـم
ابو نـوح انهم النكار وانهم سبقـوا حـدس انهم عجلوا
ليكونوا لحفاوة وحنين أهلا وليكونوا بالمكانة عنده أحق ممن
سـواهم ، وأولى ، فقال لاصحابه قفوا مكانكم ، فان هـو
صافح النكار قبلنا ، هجرناه ، فلما قرب النكار منه وقد
أشرف عليهم اصرف عنهم عنان فرسه واشار بالسلام اشارة
واعرض عنهم وتقدم نحو الشيخ ليبدأ بمصافحتهم . فلما
فهم ذلك عنه الشيخ ابو نوح وأصحابه ورأوا اعراضه عن
النكار ، قال لاصحابه قوموا بنا لنصافحه فلما كان قريبا
منهم نزل عن فرسه وجاءهم يمشي ، قال يوسف بن النفاث :
كأني انظر اليه وقد اقبل لابسا كسا خز وأشبورة نصف
الكسا ، حتى صافح الشيخ واصحابه واهتز ابو نوح لفعله ،
ودعا له حينئذ بدعوات تحققت منها البركات ، وان بركة
تلك الدعوة لباقية في عقبه الى يومنا هذا . قيل ، وكـان
من قول وحنين حينئذ للشيخ واصحابه أنا والله ما كان لى
هم في مغيبى ولا أسف على شيء لومت في سفرى هذا الا
القيام بواجب حقوقكم ، فان الذى أوجبه من ذلك عـلى
نفسى قد لا يقوم به غـيرى ان غبت أو مـت فضاعفوا في
شكـره .

وبلغنا ان المنصور بن بلكين ارسل الى ابى نوح يأمره
بقدومه اليه ، فلما جاءه الرسول بهذا الخبر قلق ابو نوح
تجددت عقابيل الخوف كالحالة الاولى ، ثم تثبت في أمـره
فتوجه الى دار وحنين في وقـت هاجرة فادخلـه فاستشار
وحنين في المسير اليه ، وهل هناك أمر يخافه عليه فيحذره
أو شر يتوقعه ؟ فقال له وحنين ان طاب على نفسك المسير
فسر ، فاني لا اخاف عليك ، وان كرهت المسير فأقم وأنا

امنعك وأخالف عليه من أجلك ، فدعا لـــه بالخير . ثم ان أبا نوح استخار الله تعالى، واجاب دعوته، فقصد المنصور وسار متوجها الى القيروان واعلم المنصور بقدومه فأذن له بالدخول ، فدخل فسلم عليه وأدناه ، وأحسن اليه وأكرم مثواه وفضله على كثـير من جلسائه واصحابه ولقي مــن القبول ضد ما كان يخطر في وهمه ويخشاه ، فبلغنــا ان المنصور حينئذ تكلم بكلام ليأنس بذلك ابو نوح وينجلي همه ، ويذهب عنه من الروع والحزن ما كــان يتوهمه ، فكان من كلامه اعلم يا شيخ ان رمحى وهبي وسيفى وهبي وذلك ليشعر بالامان ، ويتأكد منه صفاء الصدور مـــن الاضغان ، فأنس لذلك واطمأن ، وحمد الله لذلك بجميل الظـــن .

مناظرة ابى نوح فى مجلس المنصور

وكان ابو نوح كما ذكرنا عالما بفنون المناظرات والرد على اصحاب المقالات فكانت له فى المناظرات بين يـــدى المنصور اخبار مشهورة وأيام فى جميل الذكر مذكورة .

فمنها ان المجلس قد ضمه ذات مرة ورجلا يعرف بابن حمو ، وكان موصوفا بالمناظرة متعرضا لها فجرى بينهما كلام فى هذا الفن ، وتعرض ابن حمو بمناظرة ابى نوح فبدأ ابو نوح بالسؤال ، فقال له ما علامة الصنعة ؟ فقال الحدوث والحركة والسكون والزوال والانتقال ، قال ابو نوح فقلت له كل محدث مخلوق فقال وقد كابر على نفسه كل مخلوق محدث ، وليس كل محدث مخلوق . فقلت لـــه والمحدث اذا على ضربين محدث مخلوق ومحدث غير مخلوق، فليزمك ان يكون القديم على ضربين خالق وغير خالق ، قال فقال عند ذلك بل القديم كله خالق ، قال فقلت له وكذا المحدث كله مخلوق ، قال بل كل قديم خالق وليس كـــل

محدث مخلوق ، قال فقلت له ، فالكفر اذا مخلوق لانـــه محدث قال وهو جواب مضطرب الكفر مخلوق لى، قال فقلت له اذا كان الكفر مخلوقا لك فينبغى على هذا العيار ان يكون مربوبا لك ومالوها لك وانت على هذا القياس الــه فعلك وربه ، قال فقال مضطربا الكفر مخلوق لي وليس يجب اذا كان مخلوقا لى ان يكون مربوبا لى قال فقلت له فلزمك على هذا ان يكون مخلوقا لله غير مربوب له وان الله خالق لمـــا خلق من الاشياء وليس بربها ولا الهها ، قال ابو نوح فلم اسمـــــع منه بعد هذه عن كبيرة ولا صغـــيرة ، بل بهـت وانقطعت حجته. قال فقال لى المنصور : فما الذى يقول لك هذا فقلت أصلحك الله ان هذا يزعم ان لله خلقا وان لـــه خلقا غير ما خلقه الله تعالى، فيكون كل واحد منهما منفردا بخلقه قال : فقال له المنصور لقد جعلت لله شريكا يا هذا. اذقلت تخلق والله يخلق ، فهذا الشرك بعينه . وانكر ذلك القول عليه غاية الانكار وقبحه .

واقام ابو نوح عند المنصور فى منزلة كريمة وخيرات عميمة الى ان ازمع الترحال فاحسن جائزته ، وانفصل على أبر حال .

وبلغنا ان أبا نوح ناظر يكما الاعرج النكارى ، وكان من شيوخ النكارة ومن علمائهم فقال له أبو نـــوح أسالك عن حجة السمع فاخبرنى عن رجل مشرك دعاه رجـــل من المسلمين الى دينه . فاخذ يعلمه التوحيد ويدرجه حـــرفا حرفا ما منزلته قبل تكميل التوحيد ؟ اهو على حالته الاولى من الشرك أم هو مسلم ؟ قال ابو نوح ثم قلت له ان قلــت مسلما فاذا يسلم الانسان ببعض التوحيد دون بعض. وان قلت مشركا فبماذا أشرك؟ بالذى سمع من التوحيد ام بالذى

لم يسمع منه ! فوقف.وقال لا اعلم.قال فقلت له لا تحتشم ولا تخجل فانك بلغت مبلغ امامـــك عبد الله ولم تقف الا فيما وقف فيه امامك عبد الله بن يزيد . ولــو وقفت دون ذلك للمناك، وبلغنا ان الشيخ سأله بعد ذلك بعض تلامذته فقالوا له ارايت ان قال لك يكما : انما اشرك بالذى لــم يسمع فقال لهم : اذا قال ذلك فهو الرجوع الى قــولنا : ان الحجة تقوم بسماع وبغير سماع ، وهذا قد قامت عليه الحجة بعد سماع ، وبغير سماع وان قال انما اشرك بالذى سمع قيل له اسرار التوحيد اذا خير من اظهاره ، ويلزمك ان يكون ترك التوحيد ايمانا ، ويكون فعله كفرا .

مناظرة تــودى الى فتنة

وبلغنا ان رجلا من اهل الدعـــــوة ناظر رجلا نكاريا بمدينة توزر ، فجرت بينهما مكالمة افضت الى ملاكمة فقال احدهما للآخر يا حمار ، وقال الآخر يا ثور فخرجا مـــن المدينة وكل واحد منهما ممتلىء غيظا فشكا كل واحد منهما الى اصحابه ما لقي من خصمه من سوء المعاملة، وكان حينئذ الشيخ ابو نوح بتوزر الا انه غلب عن رتق الفتق ، وذلــك ان كل جماعة غضبت لما اصاب صاحبهم فخرجوا فكان منهم لقاء بخارج توزر ، فاقتتلوا قتالا شديدا فاسرع القتل فى النكارة وانهزموا واتبعهم الوهبية يقتلونهم الى تقيوس ، ولحق رجل من الوهبية يكما الا عرج فى الهزيمة وكان يكما ذميم الصــــورة ردى السيمة اشبــه شىء باليهود ، فقتله الوهبي ، وبلغنا ان أبا جعفر أحمد بن خيران رحمه الله ادرك رجلا من النكار صريعا فامسك عنه فلم يقتله فقيل له بعد ذلك لم لم تقتله فأجاب بجواب غير مقنع وكان رجلا ابله . ثم ان الوهبية ائتمروا فى اتباع النكار وحصارهم فى تقيوس ، فنهاهم الشيخ أبو نوح عن ذلك فقال لهم ان

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اديل له على قوم مرتين في يوم واحد قط ، فأبت العامة الا اتباع النكارة وحصارهم لما أراد الله. فلما لم يجد نصح الشيخ في القوم أمسك عنهم ، وخلاهم ورايهم ، فلما وصلوا تقيوس حاصروا من بها من النكارة . فلما رأوا انفسهم في الحصار أنفوا وتحاموا وخرجوا غضابا وقتلوا قتال رجل واحد ، فانهزمت الوهبية الى توزر هزيمة منكرة ، وكان ابو نوح في ساقة من العسكر يحمي ظهور اصحابه فلم يزل يذود عنهم ، حتى غشيه النكار وقد انقطع من أصحابه وحازه العدو وحملوا عليه حملة رجل واحد وطمعوا في الظفر به وكان في غالب الظن صار ميؤوسا منه الا ان الله عز وجل تداركه بلطفه فلحقه عزيز بن عيسى بن سعيد أخو الشيخ صابر المشهور ، فكشفهم عنه وحال بينه وبينهم حتى استنقذه منهم ، وافلت ، ولما نفس عن أبي نوح رجع فيهم كارا فبددهم شذر مدر . اخذ الشيخ في صدره وجعل كلما ادركتهما طائفة من العدو ، كر فيهم عزيز فردهم عن الشيخ ، حتى نجيا سالمين ، لم يكلم أحدهم كلاما . فكان عزيز يقول فيما بلغنا انا خير من أخي صابر فاني دافعت عن الشيخ حتى استنقذته . وصابر قد فر عند الهزيمة . وبلغنا ان ابا اسماعيل ابراهيم بن هلال المعروف بالبصير كان يومئذ ممن يبطيء الناس عن القتال ، ويقول أيها الناس احذروا الفتن ، ونهى، لو استمع نهيه ، وسعى في اطفاء الشر ، لو أجدى سعيه ، ثم ان أبا نوح وصل الى قنطرار ، فتمارض ولزم الفراش . فدخل عليه يوسف بن نفاث فسأله عن حاله فقال : هل تحسب اني مريض ؟ لا بل متمارض الفؤاد ، لما نزل بأهل الدعوة من النقص وشماتة

الاعداء . كان ظنى أن عبيدهم واماءهم يقابلون النكارة ويكفونهم ولو بالخزف والاحجار . فقد أصبحوا اليوم لاهل الدعوة انداداً وشفوا بعد الذلة احقاداً .

يسجن ابا نوح طمعا فى فدية

وبلغنا ان الوالى بتوزر لما رأى عظم منزلة ابى نوح وارتفاع ذكره احتال فيما يجتلب به أهل الدعوة بسببه ، فسجنه فى توزر طمعا فيما يفدونه به . فأقام فى السجن ما شاء الله الى ان سمع ان رفقة وصلت من ريغ من بنى تكسنيت برسم الميرة . فسأل هل فيهم من الوهبية أحد فعرف ان فيهم رجلا واحدا من الوهبية ، يقال له يوسف ابن توجينت فارسل اليه فجاءه فقال له هل معكم جمال تبيعونها فقال نعم ، فقال انه مع اصحابى عشرون جملا يذكرون بيعها . فقال له لعلك ان تنفذ لى شراءها منهم . فوقع القول بين يوسف وبين اصحابه فى الجمال بحسب عشرين دينارا لكل جمل فقد موابها . فلما وصلوا بها الى موضع بخارج توزر اجتازت خيل من صنهاجة من قبل والى توزر ، فساقوا الجمال غصبا فتبعها أصحابها رجاء استرجاعها منهم فلما كانوا ببعض الطريق لحقوا جملا أعرج لم يصاحب الخيل فقويت به نفوسهم اذ لم يبق بايديهم ما يبلغون به الى أوطانهم بسواه ، ويئسوا من بقيت الجمال ، واعلموا ان الوالى قد استأثر بها ، فاقبلوا يلومون يوسف وينسبون اليه ما أصابهم فى الجمال ، اذ كان السبب فى ذهابها ، وهم لا يدرون ما فى نية الشيخ من تضمينه نفسه قيمة الجمال . فلما يسر الله تسريحه من السجن جاء الى قنطنار فقدم يوسف بن توجينت بما عليه فقصد موضع ابى نوح ليلا فوجده والسراج بين يديه وحوله جمع كثير من أهل الموضع ، يغتنمون مجالسته لما

يقبسون من نوره . فقال له ابو نوح يا يوسف اني عازم على المسير الى بلاد اهل الدعوة ، فهل تعلم لى مركوبا يبلغنى ؟ قال نعم المركوب حاضر ، وكانت له بكرة اراد عليها الميرة ، فاستبشر وأطرح جميع العلائق لقضاء حاجة الشيخ . ورأى ذلك آكد عليه من غيره قال فابتدرت الى اجابة سؤال الشيخ، وعجلت الى مرافقته. فعمد الى البسط فهيأ منه حزمتين فجعلهما وطاء وبسط للشيخ بساطا لا يتاذى به وحمله فيها ، وارتحل يقود به وليس معهم ثالث .

انى لا احسن السؤال لاستفيد فافدنى

قيل وكان يوسف رجلا عاميا فقال يا شيخ انى لا احسن السؤال وانى لمشتاق الى ما استفيد منك لانتفع به ولكن هات من عندك ما فتح الله ، فقال له أبو نوح : أحبب للناس ما تحبه لنفسك،وأكره للناس ما تكرهه لنفسك ، قال فظننت انه لم يفدنى كثير الفائدة ، فاذا بجميع الفوائد جمعها لى . قال وسرنا حتى وصلنا سوف فاهتز اهلها جذلا ، وقد تقدم عندهم علم ما حل بالشيخ فخرجوا يتلقونه بالترحيب مسرورين بسلامته مما كان فيه فرحين بقدومه عليهم ، فجعلوا يجمعون ما امكنهم ويحضر كل منهم ما قدر من المال الناطق والصامت ليجبروا مصابه ، فقبل ذلك منهم ليقضي منه ما اعتقد ان ذمته به عامرة ، قيل فجاءه رجل بدينار فدفعه اليه فتناوله فقال له بعض من حضر أتعرف من هذا ؟ قال لا قال انه رجل نكارى قال ردوه قال فرجع فقال خذ دينارك . فقال لم ؟ قال لان النفوس طبعت على حب من أحسن اليها وبغض من اساء اليها وانى لا اريد ان احبك . فرده عليه .

وخرج الشيخ من هناك قاصدا بلاد بنى ينجاسن من ريغ فلما دنوا من البلاد ، قال يوسف لابى نوح اما انت فقد وصلت فان رايت أن تاذن لى فى الوصول الى اهلى قال نعم ، قد اذنت لك فأت أهلك ثم تاتينى باصحاب الجمال ففعل . فلما جاءه باصحاب الجمال وفاهم ابو نوح اثمان الجمال على الكمال .

ثلاث مسائل يسأله عنها محمد بن بكر

ومما سئل عنه ابو نوح فاجاب ما بلغنا ان ابا عبد الله محمد بن بكر رحمه الله ساله بمحراب مسجد قنطنار عن ثلاث مسائل احدها : الطفل من اولاد المسلمين اذا بلغ الحلم ما الحكم فيه ؟ فقال أبو نوح ان انست منه خيرا توليته وان لم تأنس منه خيرا امسكت عن ولايته . فقال ابو عبد الله او ما تلزمنا معارضة النكار فى الحارث وعبد الجبار ، اذ قلنا ببقائهما على الولاية وقالوا فيهما بالوقوف ، فقال ابو نوح ما يلزمنا معارضتهم فى ذلك لانا نقول انما كانت ولايتنا اياهم بو لايتنا لآبائهم ، فاذا بلغوا ورجعوا الى افعالهم زال عنهم حكم آبائهم ، وتوقفنا فيهم اذ صاروا الى حكم انفسهم ، بعد ان لم يكن لهم الا حكم آبائهم ، واما النكار فقد ازالوا الحكم الذى ثبت من الولاية من غيرهم فزال المعنى الذى اثبتوا به الولاية ولم يثبوا ضد ما ازالوا وهو ما يستوجب به البراءة ، فلا يلزمنا اعتراضهم . والثانية عن معنى الخبر الذى يؤثره بعض الناس عن النبىء صلى الله عليه وسلم ان جهنم لا تمتلىء حتى يضع الجبار فيها قدمه فتنزوى من نواحيها وتقول قطنى قطنى ، فقال الشيخ ان كان الخبر صحيحا فله وجوه منها ان قدمه هو ما قدم لها من أهل الشقاوة ، وهذا كقوله فى الصالحين : « وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق » يعنى والله اعلم :

ما قدموه لا القـدم التى هى العضو ، والثالثـة سـأله عن الورود التى تقوم بها الحجة على السامع . فقال ان يفهـم ما ورد على سمعه وذلك فى افعال الطاعات .

اهـل آخر الزمان ياخـذون بمتروك العلـم

وذكر يوما فساد الزمان واهله ، وهو يحذر ويـذكر ، فقال لمن حضر مجلسه : ان عشت يا فـلان فسيأتى عليك زمان باقوام يكثرون تتبـع الطريق حتى يذهب بهم فى ألف من بنات الطريق ، الفضة فى السنتهـم والنحاس فى قلوبهم ، انما يسمعون باضراسهم ، أقـوام يأخـذون بالمتروك من العلم ، وقال فى مثل ذلك ان شر ما خلقه الله الكفر والفقر وسيبلى بهما أهـل آخر الزمان ، فيعيشون فقراء ويموتون الى النار لا قدرة لهم على الانقاذ من الفقر ولا اعمال لهم ينجون بها من النار .

ابو نوح ينتقد اهل وارجلان فى سلوكهم

وذكر ان ابا نوح رحمه الله رجع الى وارجلان بعـد موت الشيخ ابى صالح جنون بن يمريان رحمه الله فوجد البلد قد فسـد ، والاحوال على غير ما عهد . فلبث فيهـا ما شاء الله ، ثم جعل لاجتماعهم اليه موعدا ، فاجتمع اليه جماعة ممن ينتمى الى التعيين ، فوعظهم وأخذ يقبح عليهم ما ظهر من المناكر لديهم ، فقال : انى رأيت فيكم ثـلاث خصال غير مرضية ، ولا ناهيا عنها . أحداها ان نكاح السر فيكم فاش فاذا مر أحد منكم برجل وامـرأة مجتمعين فى موضع التهمة اشمأز قلبه ، فان زجرهما عن الاجتماع فى موضع الريبة ، قالا انا متناكحان فكادت ان تظهر فيكم الفاحشة بل ظهرت . والثانية ان احدكم يطلق عبيده فلا يعولهم ولا يمونهم ولا يكفيهم طلبمعاشهم فينطلقون فى أموال الناس على غير رضى اصحاب الاموال ، وعلى غـير اذنهم فيكاد أحدكم يكون سارقا وهو فى محرابه جالس .

والثالثة انكم أظهرتم فيها بينكم التحزب والتفرق .
فطائفة منكم يقولون مسجدنا ومسجدكم وطائفة يقولون حضرينا وحضريكم ، ويهودينا ويهوديكم . فلم يجدوا جوابا فى مجمعهم ذلك الا انهم تواعدوا ليجاوبوه فلما ابطوا استرابهم . فارتحل عنهم من يومه ولم يبت تلك الليلة الا فى (تينماطوس) عند حمو بن اللؤلؤ . قيل ولما أضافه حمو . ولما كان من الغد سأله هل رزقت ذرية من ذرية أئمتنا ؟ قال نعم بنية . سيمتها أم المؤمن . فقال ارينيها فاقامها من نومها فاذا هي شمثاء سائلة العينين والانف لصغرها ، فقال ما أراها شيئا تصلح لأمر ، ولا تقوم مقاما ، فقال لا تقل فى أم المؤمن الا خيرا . فقال ومسى عسى ان اقول فى مليكة الوهبية الا أنها دون الموافقة . وقال حسن الغرض ان وافقت قلبك فتكون أولى بها فهذا حسن بالاقتداء بمن سلف ، قيل ولما ازمع الرحلة واعلمه ان طريقه يكون على بلد بنى زلفين ، صاحبه حمو مشيعا وقاضيا لواجب حقه، ومعه ابنه ابو عبد الله ومع ابى عبد الله ابنه عبد الله فخرجوا متتابعين على الطريق والشيخ قد تقدمهم فلما كانوا ببعض الطريق وقد حضر وقت صلاة الظهر نادى عبد الله اباه ان وقت الصلاة قد حضر. فنادى ابو عبد الله أباه يؤذنه بمثل ذلك . فقال له حمو اسكت ليس ذلك اليك ولا الى فقد كفيناه ، ثم ساروا قليلا فكان منهما من القول مرارا كالذى كان أولا ، فيكون جواب حمو كالجواب الاول الى ان وصلوا قريبا من المصلى الذى بخارج البلد فمال اليه أبو نوح وأناخ راحلته وأقام الصلاة ، وتقدم وصلى بهم الظهر والعصر . ثم ختموا ختمة العشية ثم صلوا المغرب

ثم قال قد ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك في غير خوف ولا مطر .

ابو نوح في مجلس والي زويلة

وبلغنا ان ابا نوح دخل زويلة وواليها حينئذ ابن خطاب واكرم ابا نوح غاية الاكرام ومعه عبد الله بن زورتين الوسياني ، فكان عنده في اعلى درجة قيل فجلس ذات يوم في مجلس ابن خطاب وحوله رجل يهودي يقال له حلبي يزعم انه حبر فقال أبو نوح كالمداعب : أسألك يا يهودي عن ثلاثة مسائل فان اجبت عنها فانت حلبي وان لم تجب فانت خلبي . احداها رجل ضرب عنق نفسه فابانها متى قتل نفسه افي حال حياته أم في حال موته ؟ والثانية الراكب في السفينة بماذا يطلب الراحة والسكون لا يمكنه على حال ؟ والثالثة رجل رمى رجلا بسهم فمات الرامي قبله ثم مات المرمي بعده اقتله حيا أم ميتا ؟ فبهت اليهودي فلم يجد جوابا . فقال له ابن خطاب تفضل علينا يا شيخ بالجواب ، قال نعم اما الذي ضرب عنقه فابانها فانه قتل نفسه في حال الموت بما فعل في حال الحياة . واما الذي في السفينة فلا يخلو من الحركتين حركة نفسه وهي اكتسابية وحركة السفينة وهي اضطرارية ، فلو كانت الحركتان اكتسابيتين أمكنته الراحة بالكف عنها ، واما الرامي فانما قتل المرمي في حال الموت بما فعل في الحياة كالمسألة الاولى .

وممن انتفع بصحبة ابي نوح وظهرت عليه بركته سريعا المعيز بن فضالة المراغني ، فانه صاحب أبا نوح من قنطلنار الى سوف وابو نوح راكب على بغلة والمعيز ماش على رجليه ، فلما وصلا سوف جعل ابو نوح يئن ويشتكي الم السفر ، حتى كان من قوله ليس في بدني عظم الا وهو واجد ألما . فقال المعيز لكني لا اجد ألما ، ولا أحسه . فقال

له ابو نوح اما اذا كنت هكذا فقد وجب عليك الحج من وقتك ، قيل فتلقت هذا الكلام منه أذن واعية ، فتاب وتنحى عن الامور الدنيوية من فوره ، وباع من عقاره ما قضى من ثمنه صداق امرأته ، واستعد للحج حتى قضاه ورجع ونفذ وصيته حيا ثلاث مرات ، وكان يختلف الى مجالس الذكر حتى مات على هذا الحال الزكي فضرب به المثل : (من كان تائبا فليتب كتوبة المعيز بن فضالة) .

« ذكر شيء من أخبار أبي مسور بن وجين اليراسنى وابنه أبو زكرياء رحمهما الله »

ابو مسور وابنه زكرياء اليراسنى

كان أبو مسور أول من اشتهر من بني يراسن بالعلوم والفضل وكان تعلمه بجبل نفوسة قرأ على ابى معروف وابى زكرياء يحيى بن يونس السدراتى رحمهما الله وكان حينئذ مقلا من المال . فكابد من ضيق العيش في صبر وكتمان ما لم يكابده غيره ، كان ربما أخذ شعيرا فطلب من الصبيان من يقليه له ، فيقتات به . فان لم يجد من يقليه صره في طرف ثوبه ، ثم رشه بالماء حتى يبتل فيقتات به ، وكان ياوى الى خربة قرية فيأكل فيها ذلك الشعير في خفاء ، لئلا يطلع على حاله احد ، ومكث على هذا حينا من الدهر لم يفطن به احد ، وكان اذا جاء الى مجلس المشائخ قعد في آخر المجلس لحداثة سنه ، فيلازم الجلوس والناس يقومون فكلما قام احد ممن بينه وبين الشيخ تقدم هو ، حتى اذا لم يبق أحد بينه وبين الشيخ ، فيصير بين يديه ، فلا يزال يسأله حتى يقوم من المجلس ، فلم يزل كذلك الى ان كان ذات يوم بمجلس مع الشيخ وقد انصرف الناس فلم يبق معهما ثالث ، فجعل

يجمع بين عناء الفقر وعناء الطلب

يسأله كالعادة ، حتى هم الشيخ بالقيام فقام أبو مسـور لقيامه ، وكان الشعير مصرورا فى طرف ثوبه ، فانحلت عقدة الصرة وتبدد الشعير على الحصير ، فنادى الشيـخ يا معشر نفوسة ما ترفعون من رفعه الله ؟ فجاءت جماعة شيوخ سمعوا نداءه مسارعين وكل منهم مشفق ان يسبقه الآخر الى البركة التى دعاهم اليها الشيخ فتنازعوا فيها اليه . تسارعوا حتى آثروا أحدهم بان يكون متكفلا بابى مسور ، فيقوم بمؤونته . فلما كفي مؤونة المعيشة تفرغ للطلب ، فضاعف الاجتهاد ولازم القراءة حتى حصل مـن العلم ما قدر له ، ولما اراد المسير الى أهله اشتغل بانتساخ الكتب فمر به شيخه ابو معروف وهو ينسخ . فقال له هذه تجارة بائرة «يا يسجا» . فقال نعم لمن ضيع دراستها واتكل على خزنها ، هذا الذى اراده الشيخ لا انه يذم اقتنـاء الكتب ، وانما يذم الاعتزاز بها واضاعة الحفظ والمذاكرة

وفى المدة التى عزم فيها على المسير تزوج امرأتـه النفوسية التى ولد له منها ابـو زكريـاء ، وكان سبـب تزوجه اياها ان شيخا من مشائخ نفوسة من اخـوال ابى مسور رحمه الله ، وجه أبا مسور خاطبا اليه فوقـع فى نفسها ابو مسور دون مرسله ، واشارت له الى ذلك ، فلما فهمه عنها ابو مسور رجع الى صاحبه فقال انظر لنفسك رسولا اليها ، فقال له الشيخ لعلـه ارادتك ، اما والله لأخطبها عليك فمضى اليها خاطبا على ابى مسور ، فتزوجها وقدم بها الى جربة ، وقد كانت الجزيرة حينئذ ليس فيها احد الا على مذهب خلف بن السمح ، غير نفر قليل قد تقدم ذكرهم . فدعاهم أبو مسور الى مذهب الوهبية فاجابه منهم من اراد الله به خيرا ، وكان بها حينئذ رجل من زواغـة

نكارى يقال له خلف بن احمد ، وكان ذا مال كثير ، وكان متكرما فكان يصنع الطعام ويدعو اليه الناس ويدعوهم الى مذهبه ، فكل من اجاب ابا مسور كان وهبيا ، ومن اجاب خلفا كان نكاريا حتى لم يبق فى الجزيرة احد على مذهب ابن السمح بل صارت كلها تبعا لابى مسور ، أو لخلف بن احمد . فاقام ابو مسور فى الجزيرة تجتمع اليه الجماعات لطلب العلم واخذ السير وانتهاج الطريـق ، وبنى ابـو مسور المسجد الكبير بجربة المعروف (ببنى يراسن) ومات رحمه الله قبل تكميله ، فكمله بعده ابنه ابو زكريـاء فصيل رحمه الله ، فكان به فاتحة كل خير وصلاح وطليعة كل يمن وفلاح ، ولهما بجزيرة جربة وغيرها من المناقب ورفيع الدرجات وعلو كريم المراتب ، ما هـو منشور فى الاقطار . ولو سكتوا اثنت عليهم الحقائب .

شهادة المشائخ على فضل ابى مسور وللبراء

سئل الشيخ ابو نوح سعيد بن زنغيل غير مرة عن الرجل المشهور من أهل الولاية اشتهارا فاشيا فى العامة ، من غير ان يثبته عندك الازكياء ، أعليك ان تتولاه دون الاطلاع على احواله ، أو شهادة من ترضى شهادته فى ذلك وأمثاله ؟ فكان جوابه لكل سائل سأله عن ذلك اما مثل ابى خزر فى افريقية ، وابى مسور فى جربة ، وابى صالح فى وارجلان فنعم ، واجتمع ثلاثة من المشائخ الموصوفين بالعلم والدين فمر بينهم ذكر أبى زكرياء فصيل رحمه الله ، فوصفه كل منهم بمبلغ معرفته ، ولا تنكر ان يكون قد وافق كنـه صفته ، احدهم ابو محمد عبد الله بن مانوج ، والثـانى ابو عمران موسى بن زكرياء ، والثالث ابو عبد الله محمد ابن بكر رحمهم الله ، فكان قول أبى محمد لو كان الوحي ينزل فى زماننا لكان ابو زكرياء اهلا لأن ينزل عليه الوحي

بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال : ابو عمران لو كانت الامامة فى وقتها لاستحقها ابو زكريـاء ، وقال ابو عبد الله لو اجتمعت خلال الخير والبر كلها بيـدك ، واردت ان تزيد منها فى أبى زكرياء لم تجد لها فيه موضعا للمزيد لاحتوائه عليها ، قال الراوى رحمه الله اما قول ابى محمد فانه لا يعنى بها التقدم على الله ، وانما يعنى كثرة علمه بالفرائض والفضائل والنوافل كما كان الانبياء فى زمانهم صلوات الله عليهم ، وعلى نبيئنا محمد عليـه الصلاة والسلام ، واما ابو محمد فانه لا ينسب اليه جهـل معنى قوله تعالى : (لا تقدموا بين يـدى الله ورسوله) قلت والاعتذار من هذا بوجوه كثيرة ولعل الاختصار من ذكرها أجمل .

قيـل وكان أبـو زكرياء قـرأ بافريقية عـلى ابى خزر رحمه الله وكان شيخه ، حدث غير واحد مـن اصحابنا ان ابا زكرياء وجهه ابوه الى نفزاوة فى سنة ممحلة ووجه معه جمالا وبضاعة ليمتار تمرا من بعض قـرى (يزمرتين) فلما وصلهم اجتمعوا واتفقوا ان يعلموه بما عزم عليه من المعاوضة فاقتضى نظرهم ان أوقروا جماله تمرا ، فوجهها من هناك لأبيه ووجه البضاعة اليه ولـم يمسك منها لنفسه شيئا ، وذكر أنه باع عمامته ليستعين بها على طريقه الذى يرومه وهو قصده الى ابى خزر برسم الطلب ، فسافر اليه من هناك ومكث عنده ما قدر اللـه مجتهدا فى طلب العلم ، الى ان حصل منه ما شاء الله ، ولما وقـع ذكـر القيام بطلب ثـار الشيخ أبى القاسم كـر أبو زكرياء راجعا الى جربة ليستأذن اباه ، ويوصيه فيما يوصيه ويودع أهله . فلما قضى من ذلك ما كان فى نفسه

سأل المحاللة من أبيه فقال انت منى فى حل من جميع حقوقى عليك الا واحدة وهى كونك رددت الدراهم من نفزاوة ولم تبقها بيدك تستمين بها على طلب العلم ، ثم ان أبا زكرياء خرج من جربة متوجها الى افريقية نحو أبى خزر ، فلما كان ببعض الطريق سمع بخبر الهزيمة التى تقدم ذكرها فرجع .

مآثر وحكم عن ابى زكرياء فصيل

ومما يؤثر من ورعه رحمه الله وتحرجه ما بلغنا ان عاملا من عمال السلطان خرج على بنى يراسن فوظف عليهم خراجا كبيرا ، فقال ابو زكرياء للعامل انهم غير قادرين على هذا القدر ، فقال له وعلى كم تراهم يقدرون ؟ قال يقدرون على كذا وكذا . فسمى له عددا فاقتصر العامل على القدر الذى ذكره ابو زكرياء فقبضه منهم ، ثم بعد ذلك راجع نفسه أبو زكرياء فندم على ما فرط منه ، ثم تصدق بقدر ما قبض مما وظف ، وأخرجه من مال نفسه للفقراء والمساكين . وقد قيل انه غرم ذلك الخراج كله من مال نفسه ورأى انه كان الذى اوجب عليهم غرم جميع ذلك المال ، وهذا هو الصحيح ، ومن تحرجه أيضا ما بلغنا ان رجلا غريبا كان نازلا بجربة تاجرا بها ، فاخذه عامل من عمال السلطان فسجنه ليغرمه مالا ، فشفع فيه أبو زكرياء عند العامل ، فشفعه واطلقه ، فلما كان بعد ذلك بمدة اذا بالتاجر قد اهدى اليه قميصا مستعملا ، فأبى أن يقبضه ، فقال له التاجر ادفع الي رأس مالى واترك لك قيمة الخياطة فأنى خيطته بيدى ، فامتنع من قبوله اصلا . ومما يؤثر من كلامه انه قال : اذا قحطت الارض فان الجنة تنال بقبضة من الطعام ، واذا قحط الاسلام ــ يعنى مسه ضعف ــ فان الجنة تنال بكلمة حق ، وقد اجتمع القحطان

في وقتنا هذا على ان قحط الاسلام اشد من قحط الارض ، وله امثال كثيرة حكيمة منتشرة فى الناس يقتدون بها في أمورهم ، حتى ان بعض المشائخ قال لو ان الالفاظ الحكيمة التى يلفظ ابو زكرياء تثبت وتحضر فى الدواوين لضاقت عنها . وكانت له بديهة حاضرة فى كل فن فلا يجوز عليه مكر ماكر ، ولا احتيال محتال .

وبلغنا ان أهل الجزيرة وغيرهم من قبائل زواغة ضمهم بالجزيرة محفل كبير عظيم لاهل المذهبين فى مهم ، قد عناهم ، وحضر المحفل العظيم المذكور ابو زكرياء . وحضره شيخ من شيوخ النكارة ودعاتهم فأراد النكارى ان يستنزل ابا زكرياء فى ذلك المحفل العظيم مما يتوقع اللبس على العامة ، ويدخل الوهم على ذوى العقول الضعيفة . فقال له النكارى بعد كلام طويل يا ابا زكرياء نحن وانتم كلنا نكار ، فانا منكرون ما كان من تحكم الحاكمين بصفين : أبو موسى. وعمرو ، ففطن أبو زكرياء فى ابتداره وقال : اما انا فلست بنكارى ، فخاب سعى الخصم ، ولم يجز توهمه على ابى زكرياء . وهذه احد مكائد القوم . أرأيت لو سكت ابو زكرياء وصدقه فى مثل ذلك المحفل ؟ أليس ذلك موقعا فى مسامع الحاضرين . ومشيما فى الغائبين عن ابى زكرياء غير ما هو عليه ؟

الوساوس وما يخطر فى القلب لا يفسد الايمان

قيل وكان فى زمانه بجربة شيخ من أهل الصلاح والاجتهاد مع البله وكان يكنى ابا محمدفمرض هذا الشيخ فى آخر عمره ، فدخلت عقله وسوسة ــ وربما كان ذلك الخوف من هرمه أومالنخوليا لمرضه ــ على ان الاولياء محفوظون ، فعاده فى هذا المرض ابو القاسم يونس بن أبى زكرياء ، فقال له يا يونس ان الشيطان قد استفزنى

وكادنى ، حتى كاد ان يهلكنى ، ويفسد علي توحيدى واخلاصى ، بما يلقيه فى خاطرى من الوسواس ، وانى لأخافه على نفسى لما انا فيه من ضعف الجسد ، وضعف العقل لكبرى ، فبادرنى بابيك ليعالجنى ويداوى علتى قبل ان يدركنى الموت وانا على الحال ، فابتدر ابو القاسم الى ابيه فاخبره بخبر الشيخ ، فجاء مسرعا فتارة يمشى ، وتارة يجرى وهو فى ذلك كله يبكى حتى قدم عليه ، فقال له الشيخ هلم يا طبيبى ، فان الشيطان اولع بى واستفزنى على ضعفى ويخيل لى كانه يقول لى : كيف ربك ؟ ويخطر ببالى ما اخشى ان يصيرنى الى الهلاك . فقال له ابو زكرياء اعلم يا شيخ ان كل ما يخطر ببالك ويتمثل فى وهمك ويحضره عقلك ويبلغه ذهنك فانه خلق من خلق الله تعالى ولا يخطر بالبال الا ما تدركه الحواس أو شبيه بما تدركه والله عز وجل متعال على الاشباه والانداد والاضداد ، واعلم ان نفي هذه الخواطر عن الله هو من محض الايمان واخلاص التوحيد ، فقال له الشيخ قد داويت علتى وشفيت علتى آجرك الله يا ابا زكرياء ، يا بني .

ادخال السرور على قلب المؤمن افضل عبادة

ان احكى فى هذه الحكاية (1) ان ابا زكرياء كانت به علة تعتاده وكان مما يهيجها عليه لحم العنز لا سيما ان كان بائتا باردا ، فكان يجتنب اللحم العنزى واللحم البائت البارد ، فلا يكاد يقدم عليه ، ومتى استعمله يوما ثارت عليه علته ، فحضر فى هذا اليوم مجيبا دعوة ابى محمد كما تقدم وكان صائما صوم تطوع ، فناوله ابو محمد قطعة من لحم بارد عنزى بائت ورغب اليه ان يأكلها ، فقال له يا شيخ ان هذا آخر النهار ، وانا صائم ، وأيضا فان بى

(1) كذا بالنسخ ولعل صواب العبارة هكذا : وبعد أن حكى هذه الحكاية ذكر ان أبا زكريـاء الخ

علة لا تكاد تخفى عليك ، فقال له سألتك بالله العظيم الا ما اكلت فلم يمكنه الا مراقبة قلب الشيخ ، وموافقته ، فتناول اللحم وأكل منه ما قدم له. فمنذ أن أكل ذلك اللحم شفاه الله من تلك العلة . ثم لم تعد له حتى لقي الله . قيل وانه أتاه بعد ذلك آت فى منامه فقال له : اعلم ان موافقتك لقصد ابى محمد وتطييب نفسه وادخال السرور عليه افضل من عبادتك سنة ، قيل وانه من ذلك اليوم يأكل المآكل التى ذكرناها ولا يجد لها الما .

ومن شكره لنعم الله تعالى ان امرأة معدمة جاءته تسأله شيئا من الزيت لتدهن به رأسها وقد أضربها الشعث. فأخذ أبو زكرياء اناء ليملأه لها زيتا ففض خاتم خابية من خوابيه ، ونظر وفكر فيما وسع الله عليه من الرزق ووهب له من الخير ، ففاضت عيناه بكاء ، وهو يقول اللهم لا نسب بينى وبينك استوجب به الخير دون كثير من خلقك ولكن بفضلك ورحمتك يا ارحم الراحمين ، ودموعه تقطر على الزيت . ومن اطراحه حظ النفس ما ذكرنا انه خرج مرة في بعض حاجته فجنه الليل وهو بمقربة من منزل موسى بن الارب ، فقصده وسأل عن موسى فاعلم انه غائب ، فخرجت اليه امرأة موسى ولم تكن تعرفه ، فقالت له من انت ؟ فقال انا ضيف . فقالت ما اسمك قال فصيل ، فانكرت الاسم . الا انها قالت له ان الاضياف ثلاثة منازل فيما يقرون به ، فضيف يقرى باللحم فاما عقيرة واما ذبيحة ، وءاخر يتأدم بالزيت وءاخر بغير ادام ، ولا ادرى أى الثلاثة انت ؟ قال اجعليني ممن يتادم بالزيت ففعلت فلما كان بعد ذلك قدم بعلها فاعلمته ، وقال ويحك فان ضيفك ابو زكرياء فقبح عليها ما قابلته به واستعظمه .

يحفظ الوديعة ويدفع زكاتها من ماله

ومن تحرجه ايضا ما بلغنا ان رجلا من أهل صفاقس دخل جربة تاجرا ثم اراد الخروج وبيده بضاعة فاراد ان يضعها فى امانة ابى زكرياء فامتنع ابو زكرياء من قبول وديعته فلم يزل يلح عليه حتى قبلها وكان قبوله بعد ان قال لا افعل الا ان تهبها لى حينا ففعل . وسافر الصفاقسى فاخرج ابو زكرياء البضاعة وعدها ، وعلم كم جملتها . فلما حال الحول اخرج عنها الزكاة من ماله ، وهى موفرة ففعل ذلك سنين عديدة كل ذلك ينتظر قدوم الصفاقسى فلم يقدم ، وطالت غيبته الى ان سمع بان مجاعة عظيمة فى صفاقس مهلكة ، فقال ابو زكرياء فى نفسه يمكن ان يكون صاحب الوديعة فى شدة احتياج اليها ، وان المانع من وصوله اليها عدم القدرة ومتى خاطرت فان نجانى الله احييت نفسا واديت امانة ، وان هلكت الوديعة غرمتها من مالى ، قيل وكان ذلك فى فصل لا يمكن فيه ركوب البحر لاضطرابه وكثرة أهواله . فأخذ البضاعة وركب البحر فسلمه الله عز وجل فطاب الى ان وصل صفاقس فسأل عن دار صاحب الوديعة ، فدل على داره فقصده فوجده فى حال شديد ، بحيث لا يعرف من يخاطب ولا ما به يخاطب ، فخرج ابو زكرياء الى السوق فاشترى طعاما بقدر ربع دينار ، وبادر صاحبه فجعل يعلله فيأكل شيئا بعد شىء حتى انقذ من الهلكة وكان على شفا منها ، فلما ذهب ما به من الضر فتح عينيه فعرف ابا زكرياء فقال له ما الذى اقدمك فى هذا الحال يا شيخ ؟ فقال اقدمتنى وديعتك ، هاهى هذه فخذها فرغب اليه ان يقتسمها فامتنع ابو زكرياء من ذلك وتضجر ، فدفعها له ورجع الى جربة موفور الثناء والحسنات الا انه ربما ذكر هذه القصة بعد ذلك فيقول لو لا انى

تبرعت بدفع الزكاة من مالى لكان لى ان اخرجها من تلـك

تحلث الشيخ وعبادته

البضاعة ، ومن جهاده لنفسه يذكر ان الموضع الذى كان يصلى فيه الصبح هو موضع معروف لا يتحول عنه فذكر لنا ان الموضع المذكور متى آتاه آت بعد انصراف الشيخ مـن صلاة الصبح وجد ذلك الموضع كأنما توضأ فيه لكثـرة بكائه وخشيته وذكر ذلك أيضا لابنه زكرياء ، ولمـا مات رحمه الله وكان ذلك ليلة من رمضان ، كان ابنه زكريـاء حينئذ يصلى فى المحراب بالناس قيام رمضان ، فلم يكن عند احد علم بموته حتى سمعوا امته تصيح وتقول : مات سيدى يا سيدى زكرياء . فدهش الناس كلهم وخرجوا من صلاتهم وذهلت عقولهم الا زكرياء ، فان الله ثبته فتمم صلاتـه ، فاضطربت الجزيرة تلك الليلة وكانما قامت قيامة عـلى أهلها ، وبلغنا ان عاملا من عمال السلطان دخل جربـة فسال عنه ، فاعلم بموته فقال دلونى على قبـره لازوره ، واتبرك به . فلما وقف على قبره قال : عاش حميدا ومات

مات امرؤ عالم انه سيموت

فقيدا ، اللهم ارحمه واعد على بلده وأهل بيته . وقال فيما قاله حينئذ مات امرؤ عالم ان سيموت . وقال ابنه زكرياء انما مثل ابى كمثل حمولة حملت حملا ثقيلا موقرا ، وقد رأت المكان الذى يحط به عنها حملها فاسرعت لطلب الراحة ، قلت هذا من احسن الامثال التى تضرب فى مثل ابى زكرياء يريد بالحمل الثقيل هذه الحياة ، لان الدنيا سجن المؤمـن وبالاسراع العمل بعد الموت ، وهذا شأن من احب لقاء الله عز وجل .

ذكر جمل من اخبار أبي عبد الله محمد بن بكر رحمه الله ، وترتيبه الحلقة وتبيينه حدودها وتأسيسه قواعدها وتحريره قوانينها

كان أبو عبد الله من أكثر الناس علما وورعا وله السبق في أنواع كثيرة من الفضائل وهو أول من ألهم سلوك الطريقة التي حفظ الله بها هذا المذهب، فرسم المهمل ، وقيد الشارد ، فامتاز طريق الصلاح من طريق الفساد ، ووضح طريق الغي وطريق الرشاد قرأ على كلا الشيخين أبى نوح سعيد بن زنغيل وأبى زكرياء بن أبى مسور وغيرهما ، رحمهم الله ، وكانت لكل واحد منهما به عناية ، وله فيه حسن نظر .

يتوسم فيه شيخه الخير والصلاح

وبلغنا انه فى ايام قراءته على ابى زكرياء نظر اليه ذات يوم فرأى اجتهاده وحسن سياسته ، وتمسكه بخلال الخير ، فقال ان أصاب خرصى ولم تخطأ فراستى فان هذا الفتى يحيى الله به دينه . فصدق تفرس الشيخ ولم يخب ما نظر بعين البصيرة ، فبلغنا انه لما مات أبو نوح وقد عمت بركته على ابى عبد الله ، وحصل من العلوم خيرا كثيرا ، الا ان بضاعته من علم اللسان كانت مزجاة ، لم ير أن يتعاطى من العلوم حتى يحصل الكفاية من علم الفصاحة فقصد مدينة القيروان ، وأقام بها مدة يتعلم اللغة والنحو ، حتى اكتفى من علم الفصاحة فصدر عن القيروان ، وبعد ذلك دارت عليه الحلقة .

مبدأ تأسيس الحلقة

وسبب ذلك ومبدأه ان الشيخ ابا زكرياء وجه ولديه زكرياء ، ويونس ، وابن أخيه أبا بكر بن يحيى ، وغيرهم من اقاربه فى جماعة ، وقال لهم اطلبوا ابا عبد الله

فحيثما وجدتموه فلازموه ، واقرأوا عليه ، وحيثما كان فكونوا معه ولو في شغل دنياه، فخرجوا من جربة حتى اذا كانوا فى جبال تمولسة ، وكانت حينئذ ليس فيها احد من أهل الدعوة ، فانهم تغيروا ، وبدلوا الا « يصليتين » عم الفقيه ابى الربيع سليمان بن يخلف ، ونساء واطفال ، قيل ، فعدل الطلبة عنها جانبا وقصدوا الموضع المعروف « بأمدر » ، فسمع يصليتن بقدومهم وعدولهم عن موضعه فساءه ذلك ، وأقبل اليهم ، ورغب كل الرغبة ، وسأل منهم الرجوع الى « تموسلة » فلم تكن منهم اجابة ، واعتذروا بكونهم عاجلين ، وكونهم خلفوا منزله ، وانه لا يلزمه تضييفهم ، ولا تعلق به من هذا نقيصة ، فلما رأى يصليتن امتناعهم من اجابة سؤاله ، قال لهم اما ان فعلتم ما فعلتم فانى لم يبق لى ولا لمن معى رجاء يعلق به ، وسأرجع الى الموضع فآخذ بأيدى النساء والاطفال ونرجع كلنا الى أهل الخلاف . فلما سمعوا ذلك منه اجابوا سؤاله ووافقوه فى الرجوع الى تمولست فأقاموا بها لديه فى كرامات بليغة اياما ، وكلما حضر الطلبة عنده على كرامة واجتمعوا فى وقت ، حظ النساء والاطفال فقال لهم : هذا دينكم (1) وهؤلاء أهل دينكم ، كل ذلك ليتمسكوا ببعض دينهم ويكونوا على ثقة من مذهبهم ، فكانوا على ذلك حتى تيسرت لهم الطريق .

فخرجوا متوجهين الى الجهة التى يرجون ان يجدوا بها ابا عبد الله وهم فى ذلك لا يعلمون له مستقرا ، فلما وصلوا تقيوس وافق وصولهم اليها قدومه من القيروان ، وقد حصل ما كان يفتقر اليه من علم اللسان ، وهو يروم

(1) كلمة الدين تطلق لمعانى عدة ، حسب استعمالها اللغوى ، منها المذهب ، والطريقة ، والسيرة ، وما يعبد به الله .

المسير الى الشيخ ابى عمران موسى بن زكرياء «بتاجديت» ليزيد عليه ما لا بأس به من علم الفروع ، فقصرت عليهم الخطا ، وقرب الله عليهم ما كانوا يظنون انه بعيد . قالوا ما اعتقدنا الا ان الله عز وجل يسر علينا ببركة الشيخ يصلّيتن ، وموافقتنا اياه ، وادخالنا السرور عليه وعلى من معه . فلما ألف الله شملهم بابى عبد الله ، اعلموه بما جاءوا فى طلبه ، والقوا اليه ما فارقوا عليه جزيرة جربة، وما وصاهم عليه الشيخ ابو زكرياء ، وأكد عليهم فى ان يكون ، ورغبوا اليه فى ان يجلس لهم ويرتب لهم الحلقة ، فامتنع كل الامتناع . ومكثوا اياما يراودونه على ذلك ، ويلحون عليه فى الطلب ، ولم تكن منه الاجابة . فلما كان يوما من الايام وهو بمسجد المنية والطلبة يكررون الرغبة الى ابى عبد الله ، اذ خرج رجل من تقيوس متوجها الى الحامة ، وخرج معه صاحب له فشيعه ، فلما افترقا نادى احدهم الآخر : ان يا فلان فاصغوا اسماعهم الى صوته . فقال له الآخر لبيك ، فقال له اجعلها لله لا تخب ، أو قال افعل فعلتك لله فلا تضيع ، قيل فلما سمعوا هذه المقالة تفاءلوا بها واقاموا بها الحجة على ابى عبد الله ، فاوجب حينئذ على نفسه واجاب ، وعطف عليهم بما سمع ، الا ان اجابته كانت على شرط ان لا يسئلوه عن مسئلة ، ولا يجيبهم حتى تمضى أربعة أشهر فتأسست الحلقة فى مسجد المنية ولبثوا مدة على الحالة المشترطة ، والاقامة لم يعقدوا عليها نياتهم ، وانسداد السبيل ينقص عن الحركة عزماتهم ، فان ذلك كان فى العام الذى قامت به زناتة على صنهاجة ، من ناحية طرابلس ، ويعرف ذلك العام بعام هزيمة الابراج، فكثرت الزلازل وامتلأت الارض

خوفا ، والشيخ فى اثناء ذلك يستخير الله فيما يقدمه من أموره ، حتى فتح الله عليه برأي فشـاور اصحابه فقال لهم ان هاهنا ناسـا رقـاق القلوب ارجـو ان ينتجع فيهم الاسلام ، ويتلقوا ما نحن عليه بالقبول ويكونوا لهذا الخير أهلا وهم : مغراوة ريغ، فما رأيكم فى الانتقال الى جهتهم ؟ قالوا فى رأيك اليمن والبركـة ، فسروا بذلـك سرورا عظيما ، واغتبطوا أى غبطة . فلما اتفق رأيهم على الانتقال «الى ريغ» قدم ابو عبد الله رسولا الى أبى القاسم يونس ابن ويـزكن الويليلى ، وكتب اليه يعلمه بما عزم عليه هو وتلامذته من التوجه ، والعمل برسم دراسة العلوم ، واكد عليه فى ان يهيىء غارا تجتمع فيه التلامذة يأوون اليـه ويحلقون فيـه ، وتكون فيه دراستهم وانفرادهم ليتسنى عـزمهـم واجتهادهـم ، فأخـذ أبـو القاسـم فى عمـل الغـار ، وفيـه ييسر ما يصلـح شـأن الحلقـة ، فما قدم ابو عبد الله وتلامذته الا وقد تيسرت أمورهـم بلطف الله عز وجل ، فاقاموا عند بنى ويليل مدة ، ثـم انتقل أبو عبد الله وتلامذته الى « تِينِيَبْشلي » فرتب بهـا الحلقة ، وشيد من كريم البنيان ما يتشبه بها العزابـة ويتشبهون به الآن ، وان كان الناس قد فسدوا ، وفسـد الزمان فهذا سبب قعود الحلقة المباركة الصادرة عن اكرام مشاركة بين الشجرتين الطيبتين المسورية والبكرية بخطبة واجابة كانتا فى الله ، فتولدت بينهما هذه الانوار البهية فلنذكر لمعا من الآداب التى جعلها قوانين ، وصيرها مهيعا لسالك سبل العلم والدين ، وكان انتقال الشيخ ابى عبـد الله الى زيـغ سنة (409) تسـع واربعمائة فلذلك يسمى الغار الاول المذكور التسعي نسبة الى هذه السنة .

ذكر لمع من سير الحلقة وما ينبغى لاهل طريق العزابة ان يلتزموه وان يعلموه ويعنموه مما رتبه الشيخ أبو عبد الله محمد ابن بكر رحمه الله

كان مما رتبه أبو عبد الله من سير الحلقة فبقى رسما يقتدى به أن جعل للعزابى الذى نظمه هذا الاسم فى سلك المتدينين ، واعتزل عن دناءة الاجلاف الدنيويين علامات ، ليعرفوا بسيماهم ، ويتميزوا من سواهم .

هيئة لباس العزابة من اهل الحلقة

فمنها انه أول ما يتجرد من طريقة أهل الدنيا بحلق شعر رأسه ثم لا يتركه يطول ابدا ، فالعزابة من شأنهم عدم الشعور ، ومنها ان لا يلبس ثوبا مصبوغا الا البياض ولا بأس بعلم الطرفين والطراز ما لم يتفاحشا ، ثم ان اقتصر على عباءة أو ملحفة لم يشنه ذلك ، ولم يعبه بل ذلك به أليق ، وان لبس ذلك على قميص كان أكمل ، ما لم يكن مبتدئا ، ولا سبيل على اقتصاره على قميص ، أو قميص دون اشتمال أو التحاف أو ارتداء ، وان اعتم فالتلحى على ما جاء فى الاثر ، وليس لبس العمامة بضربة لازب ، بل لا بأس باستغنائه عنها ، فان اقتصر على العباءة أو اللحاف غطى رأسه والقى الطرف الاعلى من هدب حاشية الجانب الايمن على العاتق الايسر لا يلقى الهدب كله على العاتق الايسر ، فان ذلك مود الى انكشاف العورة .

اعضاء الحلقة ومهامهم

وأهل الحلقة صنفان آمر ومأمور على ما يأتى تفصيله ان شاء الله ، فالآمر اثنان : شيخ الحلقة أو مستنابه ، والعريف ؛ فالعريف اثنان منفرد وغيرمنفرد فالمنفرد اثنان عريف أوقات الختمات والنوم ، وعريف العرفاء ، وهم من

حملة القرآن يكون منهم من يكتب عليه طلبة القـــرآن ألواحهم ، ويصححونها ويحفظونها على حسب ما يأتى بيانه فهؤلاء لا يحصون عددا ؛ والعريف على أوقات الدراســة ربما كان واحدا وربما اكثر فهو على قدر الاحتياج اليــه ونحو ذلك ، والمأمور ثلاثة : طبقة القرآن ، وطبقة فنون العلم ، والعاجزون ، ولجميعهم أوقات ، لما يختص به كل وقت منها .

المهام التى يتولاها الشيـخ

فالشيخ يتعلق به اشياء منها الجلوس لطلبة فنون العلم فى وقت معلوم ليأخذوا عنه فيه الدرس ، ومنها الجلوس بأثر الختمات للجواب على الاسئلة فى أى فن كان ، ويذاكر تلاميذه فيما حصلوه قبـــل ذلك ، فيستفيدون ويستفيد من حضر ، وتختص غداة الجمعة بزيادة ذكر شىء من الوعظ ان امكن ، ومنها الاستفتاح وهو قيامه فى الثلث الأخير من الليل أو فى الربع الاخير منه فيأتى الى موضع الاستفتاح فستعيذ ويبسمل ، ويقرأ فاتحة الكتاب ، ويبتدا من حيث انتهى مجلس الاستفتاح من القرآن فى الليلة التى قبلها فيهب كل نائم فمنهم من يصير معه فى المجلس ومنهم من يخرج فيدرس وحده ، لا يخرجون باجمعهم ولا يصيرون الى المجلس باجمعهم ، بل كيفما تيسر ، فيقرأون القرآن حتى يؤذن مؤذن الصبح ، فيقطعون القراءة ويدعـــون كالعادة من بعد صلاة العشاء الى وقت أذان الصبح ، ومنها ان يجمعهم فى يوم الجمع؛ وذلك يوم الاثنين والخميس ، فيعظ ويذكر ويحذر ، ويورد امثالا حكيمـــة وحكايات زهدية ، ثم يمحص جميـــع من حضر فيسأل عن أحوالهم واحدا فواحدا ، ويفقد العرفاء فمن حمدت احواله حمد الله وشكره على فوزه، ومن عيب شىء من احواله فان كان

صغيرا أقيم الى زاوية معروفة بان تكون موضعا لتأديبهم ، ثم اجتهد فى عدد ما يجلد تأديبا والكبير الى الخطة والهجران ومنها اذا قدم قادم من بلد قريب أو بعيد ، فلا يخلو اما أن يكون عابر سبيل أو طالبا للاقامة والدخول فى زمرة أهل الحلقة فيشاور الشيخ فى كلا النوعين ويستأذن فى شأنهم فان كان عابر سبيل كان له حظ فيما فتح الله عليه من المأكول غير المدخر ، فيفتح ذلك ولا يحفز (I) عليـــه فى مـــلازمـــة الاوقـــات ، ولاحـــظ لـــه فى شىء مـــن الفتـــوح التى تـــدخر لا مـــن طعـــام ولا مـــن غـــيره وان كان يريد الدخول فى الحلقة استأذن الشيخ فى شأنه فيكشف الشيخ عن احواله ، وما كان عليه فى الموضع الذى قدم منه ، فان اطلع على صلاح احواله أذن له فى الدخول لا غير . فيكون من أهل الحلقة له ما لهم وعليه ما عليهم ، وان اطلع على نقيصة ، وأحوال ذميمة طرده لا غير ، وان تعذر لبعد داره الاطلاع على الاحـــوال أو اختلفت فى صلاحه وفساده الاقوال توقف حتى يستبرىء ويستعلـــم حميدها من ذميمها ، وصحيح الاقوال من سقيمهـــا ، فان اطلع على الخير الحقه بأهله ، وان اطلع على شر أفضاه الى نوعه وشكله ، وحكمه فى مدة الاستبراء حكم المسافر عابر السبيل فى عونـــه ، لاحظ لـــه فى المقتسم من الفتوحات المدخرات ، والمعين ، وكونه لا يحفز عليه ، وكونه لا يمنع المأكول فان كان تائبا مبتدا أذن له . ومنها ان عليه تولية عرفاء الاوقات والاذن له فيما يشرى أو يباع ، ويدخـــر من الاقوات . ومنها الاذن فى قسمة ما يفتح الله من رزق مما يدخـــل عليهم ، أو مما هو مـــن اغتلالات الاوقاف ،

(I) من حفزه عن الشيء : دفعه اليه واعجله .

ومتى يقسم وعلى من يقسم ، ومنها الحكم بين المختلفين والمختصمين من التلاميذ فيأخذ المظلوم من الظالم وينصف المحسن من المسيء .

المهام التى يقوم بها العريف

والعريف المكلف بالختمات وأوقات النوم يتعلق به ارتصاد حزب الغدو في المجلس الذى تكون فيه المذاكرة، فاذا كمل الحزب أو كاد دعا جميع من فى المجلس ويؤمنون على دعائهم فيدعو أسنهم ويدور الدعاء ، فان انقضى الدعاء وتخلف احد فالخطة . فاذا كان الضحى نادى بنوم الهاجرة فينامون فاذا ناموا وتكلم أحد أوتحرك بحيث يؤذى النائمين فالخطة بل ان ابى ان ينام بغير عذر وكان تركه النوم ذريعة الى امتناع القيام بالليل حتم عليه نوم القائلة ، فان امتنع فالخطة . ثم اذا كان عند غروب الشمس نادى بالختمة فيجتمعون على أكبرهم فيدور معه من يليه في السن والمعرفة رجالا ان قلوا فثلاثة ، وان كثروا فعشرة ، لايجاوزونها ، والوسط بين التحديدين اعدل . فان استداروا ذكروا الله وقرأ قارئان آيات من القرآن ثم يدور الدعاء كالعادة ، ويؤمن من خلفهم ، ومن تخلف فالخطة . ثم اذا صلواالعشاء وقرأوا من القرءآن ما يسر الله وحان وقت النوم ما لم تكن منليالى الاحياء نادى بالدعاء ، وهى ختمة ليست بأكيدة في أكثر الاقطار ، والمتعارف ان حضروها على الكفاية ، فيدعون دعاء خفيفا فاذا دعوا فالمستحب الذى وضعه الشيخ أبو عبد الله ان يكون أفصحهم بيده كتاب ان كان في الوعظ فهو أولى والا ففيما اتاح الله تعالى، فيقرأ فيه قليلا بحيث يستمعون مجتمعين أو لايجتمعون ثم يدعو وينادى بالنوم، فاذا ناموا وتكلم أحد ، أو تحرك فالخطة ، الا ان يكون فى

مطالعة كتاب بعيدا عن النائمـــين فما على المحسنين مـــن سبيل .

عليهم ان يلتزموا آدابا في اكلهم

والعريف المتكفل بأوقات الطعام له حدود يقف عندها وأشياء متسع فيها ، وذلك ان الطعام لا يخلو ان يكون فى موضع مألفهم ، أو خارجا ، فما كان خارجـــا لا يخلو ان يكون فى محل عزابى أو فى محل دنيوى فان كان فى محل دنيوى حفز عليهم كل الحفز فى ملازمة التحفظ وأفراط الحذر ، وجعل الشعار بينهم من القول : « حسان » وربما قال : (حسان بن ثابت) أى حسنوا آدابكم واخلاقكم ، وهى كلمة يقولونها مهما يدخل فيهم غير الصنف تحذيرا ان يطلع على ما ينتقد منهم ، وان كان فى محل عزابى لم يتحفظوا كل التحفظ بل يميلون الى ضرب مـــن الادلال ، وينبسطون بعـــض الانبســـاط ، ويحسنون الظنـــون ، ولا يحتشمون فى اقتراح طيب الطعام أو زيادة الأدام ، ونحو ذلك ، فالمتعلق بالعريف فى كلا المجلسين أن يرتب جلوسهم فان غاب احدهم فى عذر ذكرهم بان يستوصوا عنه ، وان كان فى غير عذر فالخطة ، فاذا اعتدل جلوسهم استدعى بماء وغسلوا بعد اشتمالهم الشملة المتعارفـــة عند حضور الطعام ، وهو ان يخرج طرفي ثوبه على صدره بعد أن يدير كل طرف فوق العاتق الذى يليه ، فتبـــرز اليدان ولا ينكشف شيء من الجسد ، ثم يأكلون أكلا معتدلا فمن أكل أكل نهم أو أكل ذى كبر ، عيب عليه فى غير ذلك الموضع ، ونهي وقبح ، وحذر ان يعود ، فان عاد فالخطة ، فاذا طعموا تفقدهم العريف فان وجد منهم من يـــده فى الطعام انتظره حتى يقضوا حاجتهم منه . فاذا فرغوا اذن بالانصات الى الدعاء ثم يؤذن اسن من حضر فيدعو وان

كان فى مألفهم فلا يخلو ان يكون مما يقدر على ترويحه ومعالجته وحده ، أو مما يحتاج معينا ، فان كان مما يحتاج فيه معينا استعان بمن استحسن ، فان استعان بأحد فامتنع من غير عذر فالخطة . لكن ينبغى ان لا يخص بذلك من يعلم منه كثرة الانقطاع الى المدارسة والمطالعة ، فيضع الشىء فى غير موضعه ، (وان كان) مما لا بأس بقسمته قسم على ما جرى به العرف فى ذلك القطر . والذى تصلح فيه المواكلة فاما متكررا معلوما واما نادرا فالنادر يؤكل بلا شريطة الا اطراح الحرص والشره ، والترتيب فى ذلك الى العريف والمتكرر كل يوم (كالتمر) والفاكهة فى أوقاتها فترتيب ذلك أيضا الى العريف ، ولها شروط يأتى ذكرها منها ان لها وقتين ، احدهما وقت الضحى بعد استكمال اكتتاب الالواح ، وتصحيحها ، والآخر بعد صلاة العصر ، بقدر ما يقرأ فيه قارىء اللوح مرة أو مرتين ، فاذا استداروا طوائف فان من شروط ذلك الحضور ان يكون فى كل طائفة عريف يكون أسنهم أو أنبههم لا تعدو عرافته ذلك الحال ، فيبتدىء فيلقى ثلاث مسائل فى أى فن كان ثم كذلك ميامنة ثم على اليمين حتى يتم الدور ، فان وقف أحد أمسك المبتدىء يده ومنعه الاكل تأديبا وردعا وتحريضا على تحصيل الفوائد ، فان اتى بشىء قبل منه ولو بعد حين واطلقت يده ، ومن شأن هذين الوقتين ان يتفقد العريف الالواح واذا صحح آخر لوح منها دعا الى الطعام ، وبعد العصر بقدر ما ذكرناه ، فمن اجاب اكل ومن تأخر فلا اثم عليه ، فانما ذلك على الاختيار الا ان يكون هناك نافلة فينبغى للعريف ان يعرف بها تعريفا ، لا يستخفى النطق به ، فقد يكون من العزابة من به شوق

الى تلك النافلة ، فان امتنع بعد هذا ممتنع فلا يتعلق منه بالعريف ذم .

مهام عريف الدراسة

والعرفاء من حملة القرآن ترتبط بكل واحد منهم جماعة من اصحاب الالواح ، طلبة القرآن يملي عليهم ويصحح الواحهم ، ويأخذهم بالحفظ عن ظهر ، فالجماعة التي ترتبط بكل حافظ يكون اكثرهم عشرة واقلهم اثنين وهذا بحسب الاختيار وفي الامر الاشهر العام . واما مع الضرورات وعدم الرجال فلا حد لكثرتهم ولا لقلتهم . فاذا كان وقت الضحى وتأهبوا للكتب كان لكل جماعة نقيب من أنفسهم يحفز على أصحابه ويجمعهم ، ويستدعي العريف فاذا حضر استاذنه ميامنة في حفظ ما كتب أمس ، ثم يحفظون على اليمين فان حفظوا كلهم استاذنوه في الاستملاء وأملى عليهم ، وان توقف أحدهم دون الحفظ ، فان كان مبتدئا أقيل له خمس عشرات ، وان كان فوقه الا انه في أول قلم أقيل له ثلاث وان كان في الاعادة فعشرة واحدة ، فمن زاد فعلى ما يجتهد فيه العريف ، والمعروف الاشهر انه ان كان صغيرا فالزاوية والجلد ، وان كان كبيرا فالخطة والطرد، فاذا ارتسم احد بعريف فليس له ان ينتقل عنه الى غيره الا باذنه ، وان تخلف احدهم بغير عذر حتى يحفظ أصحابه ويكتبوا سطرا أو بعض سطر فالتأديب قد تقدم تفصيله ، وان كان قبل ذلك وبخه العريف ثم صفح عنه وعليه ان يختبرهم احسانا فيما قد حفظوه ليعلم كنه اشتغالهم ورغبتهم واجتهادهم ، فان وجد حفظا ركيكا فان كان ذلك لعلة في فهم التلميذ وضيق باعه ، وعلم ان ذلك الامر كان سماويا عذره، وأمره بالاعادة، وان كان التلميذ ذكيا فهما وعلم أن كان لحب البطالة وترك الدراسة اجتهد

فى تعزيره ، ولذلك يسأله الشيخ حين التمحيص يـــوم الاجتماع فـــلا ينبغى له ان يقول الا ما علم من حال كل واحد منهم .

واما عرفاء أوقات الدراسة فيتفقدون أصحاب الالواح بين الظهر والعصر فان ابطأ احدهم ابطاء لا يعـــذر فيـــه فالخطة ، وان اشتغل بما يلهيه عن قراءة لوحه فالخطة ، وان سمعه العريف يقرأ خطأ وكان مـــع ذلك لاهم له بتصحيح لوحه فالخطة ، وبين المغرب والعشاء ، فان ابطـأ او غــاب أو اشتغل بما يلهيه أو بشغل سواه فالخطة ، وان قام الى الطعام اختيارا أو الى نجوى فالخطة ، ووقت الاستفتاح ان نام او تناوم او اشتغل بغـير الدراسة ولم يكن له عـــذر فالخطة ، وبين صلاة الجمعة والعصر ان غاب عـــن الحضور لاستماع قراءة كتاب المواعظ فالخطة . وقد قلنا الا ثلاثة على ما فعلنا فطلبة القرآن يقرأون الواحهم بين الظهـــر والعصر حتمـــا . وبعد العصر استحبابا ، وصفة هيئتهم حينئذ ان يشتملوا فلا يظهروا من اجسادهم شيئا ويسندوا الواحهم الى الاساطـين ، ويقابلونها غـــير مستندين ولا مكثرين من الالتفات ، وبين العشاءين فى وسط الساحة غير مستندين ، وقد أبيح لهم الاستناد في غير هذين الوقتين ان شاءوا . والافضل للاصغرين تـــرك الاستناد ، فـــلا يتعرضون الى ما ليس بشأنهم ، غير دراسة القرآن الا ما قد عناهم من العبادة وفرائض الاسلام ، كالطهارات والصلاة والصيام ، وما اشبه ذلك . فان امتدوا الى غير ذلك كـــره مشى الغراب مع الحمام على انه من كان ذافهم وقلب ذكي ، ومن اعطاه الله قدرة على تحصيل هذا وهذا فـــلا باس فى الازدياد من الخير .

واما طلبة الادب فان اتفق ان يكــون اصحاب لويحات وصغر فى السن فينبغى لهم التأسى بطلبة القرآن فى ترك الاستناد ، واما أصحاب الكتــب فشأنهم استناد الى اركان المســـجد والابواب والى الاساطـــين وحيث يستحسن ، واستحسن منهم ولهـــم ان يجتمعوا للبحث والمذاكـــرة والمناظرة ، ما لم تفض الى توغير الصدور ، ويكون هــذا دأبهم ، ولا بد ان يكون لهم وقت معتاد يكون فيه الميعاد للحضور على الاساتيذ ، ويؤدب من غاب من التلاميذ فيآخذ كل منهم درسه وهى «دولته» على استاذه . ويجعل ما يتلقاه خير ملاذه ومعاذه ، ثم اذا كانت ختمة غداة وحضر الشيخ فان هنالك طرقا كلها حميدة ، وذلك انهم اما ان يتداولوا وضع السؤال فيبتدئون بالسؤال يوما (1) فمن أفضى اليه النوبة وغاب اجتهد فيه ، وامــا ان يسأل أفصحهم لسانا واكثرهم بيانا . واما ان يســأل اشدهم احتياجا للسراح فى ضرورة دعت ، أو لنازلة وقعت ، ثم اذا أُلـقى السؤال فان كان الجمع حفيلا بدأ فسأل الشيخ ثم على من يمينــه فيعيده الثانى الى الشيخ طلبـــا للتخفيف ، والاختصار . وان كان الجمع دون احتفال بينهم سيما ان كانوا لمأثل فانه يدير السؤال أو يحيل كل سائل على ميامنه حتى يـــدور السؤال الى الشيخ . فان علم الشيخ ان فى الجمـــع أكفى منه فى تلك المسألة أذن له فى الكلام فيها ، والا تكلم بما عنده. وللسائل ان ينبهه اذا غفل ويذكره اذا نسي، ويفتح له ان ارتج عليه ، ويعترض ان احتاج الى زيادة ايضاح . أو علم من الحاضرين ارادة استزادة كشف ، ثم يسأل كذلك من شاء ويبحث كيف شاء . ومن أراد القيام فلا يقوم حتى

(1) كذا بالنسخ والصواب ميامنة

يستاذن من يليه ، فان اذن له قام ، وان لم ياذن له أقـــام . واذا حضر غير الصنف فيكره ادارة ما يستشنع من المسائل الشؤاذ ، التى تضل الغبي : أو تجعلـــــه ينسب الرشد الى الغي ، فاذا هم الشيخ بالقيام ولـــم يستثقل تشييع مــن يختص به من طلبته ركع وركع اصحابه ركعات الضحى ، ويشيعوه تكرما له وتأنيسا به ، وان ثقل عليه ذلك ركع وركعوا وو دعوه ولم يشيعوه .

القــاصرون مـــن التلاميد

واما العاجزون فأنواع فاللـــــه حسيبهم فيعاقبهم ، أو يثيبهم . فمنهــــم الطرش والعميان والزمنى والهارمون وذوو الافهام القاصرة ، وربما استعمل مستعمل فألحــق نفسه بهؤلاء وفيه قدرة وعنده لو جد بعض الغناء ، فهذه الانــواع شانهم الاصغاء والاستماع ليحصلوا الطـــرق والاخلاق ، ويظهروا التلهف والاشتياق ، وعليهم حفـظ السيارات والمحافظة على الطـرق والاوقات ، وان اجهدوا انفسهم وزادوا ظفــــروا ببعض ما ارادوا ، فاما الزمنى والعميان فقد نطق بعذرهم القرآن واما القاصرو الفهوم فمنهم القانط التارك للعلــوم ، ومنهم مــن الأياس عنده معدوم ، وقد شاهدت منهم رجالا فلم اذمهم لاكثرهم حالا. دخلت حلقة وارجلان حرسها الله وذلك فى ربيع الاخــير سنة 616 ست عشرة وستمائة فى أول ما وجب علي الصوم والبال خال من الهم ، وكنت اعجب ممن ينفرد فلا يجتهد ، ممن يمكنه الورود فلا يرد ، ومن يخلــــو بالمفيد ، كيــف لا يستفيد . وكان لى اذ ذاك فهم بزة الى ان اشتغل البال ، وتحولت الاحوال، وكنت ازدرى بأكثر اولائك وذلك لسنى فاستغفر الله من ذلك ، فمنهم رجل يسمى ابو دوناس من بعض قراء نفزاوة سبقنى الى الحلقة باعوام والغالب على

ظنى انى وجدت لوحه فى سورة الفيل ومات فى سنة سبع عشرة ولم يستكمل سورة اخرى ، ولم يدع من قدرته شيئا وهل سمعتم بابى يزمر المصعبى كنت اسمع به قبل دخولى وارجلان وما رزق من الاجتهاد مع فهم غير قليل ، فوجدته فى وارجلان وفى لوحه « أو أمر بالتقوى » يكررها اياما كثيرة حينئذ ترسخ فى صـــدره آية او لا ترسخ فيعيدها وأقمت بوارجلان حرسها الله حولين كاملين وشهرين ثـم انفصلت وتركت لوحه فى « والضحى والليل اذا سجى » وهو فى اثناء ذلك لم يال جهدا ، وقد سبقنى الى الحلقـــة بستة أعوام أو بثمانية أعـوام لشك منى ، وهل سمعت بسلمان بن حريز لم يزل يكرر ويعيد سورة الانبياء طول اقامتى بوارجلان ، وخرجت وتركت لوحه فيها ، وبلغنى انه لم يزل كذلك يكررها منذ ثمان وعشرين سنة قبل ذلك فاما هـذا فغـير بعيد أن ينسب الى التقصير والتضييع ، والغرض ان اعلمكم ان من لم يال جهدا فهو ما جور وان لم يحصل، وان المتضيع المفرط راض لنفسه بالقوت الحرام واكتساب الآثام ، ومرتكب لسخط العلام ، نسأل الله ان يسلمنا ويختم لنا بخواتم الاسلام ، وينبغى ان تكون خدمة الطعام من هؤلاء الذين لم يفتح الله عليهم ، ولا شرح للعلم صدورهم ، لينفعهم بخدمة اهل الخير ، ويوفيهم اجورهم .

ادب العزابة والطلاب فى العبادة

«الاوقات والآداب والاحوال قد تقدم ذكر كثـير منها فيما مضى مندرجا فى غــيره» فاوقات الدراسة قد مضى ذكرها ، ووقت الراحة والتصرف هو آخر النهار ، يتصرف الى المواضع التى لا ينكر التصرف فيها كمواضع الميـــاه ومواضع الاشجار وامثالها من الاماكن التى تنفـرج فيها النفوس وتنفسح فيها الصـــدور ، فان فى ذلك اجماعا

للخواطر ، وجلاء للنواظر ، فلا بأس فى ذلك ما لم تكن هذه الاماكن معروفة بان يستقر فيها مصادف الشبهات ، كالنساء والحساسات فلا سبيل حينئذ اليها ، والاكثار من التصرف فى الطرقات والاسواق يكره وان دعت ضرورة ففى طريق نافذ ، ووقت لا يظن به ريبة ، ووقت الاكل لمعاشهم التى تختص بكل واحد منهم اذا صلى العتمة فاما وحده واما مع من توافق طبائعهم طبعه ، ويشترط التخفيف وان لا ينفصل الا بعد الدعاء . ووقت تغيير المنكر متى ظهر لا ينحصر الى وقت ، ويشترط تقدم الشيخ أو باذنه ، أو تقدم الامثل. والاوقات المستحب فيها التأهب للصلاة معروفة وهو ان يكون بمقدار ما يستبرىءويتوضأ ثم يدرك صلاة الجماعة. ويشترط بعد الاثر واعداد المدر، وأوقات نوافل الصلاة ليلا ونهارا معروفة فلا يحتاج الى زيادة ، فان احتيج فخمس تسليمات بالليل ومثلها ضحى، هذا الافضل فان زدت فلك ، وان نقصت فلا ذنب عليك ، ولصلاة الليل شروط من اطالة القرآن والخلف فى اسرارها واعلانها ، قيل الاعلان أفضل اذ فيه ايقاظ الناس وقيل الاسرار أفضل لبعده من رياء المخلوقين ، وهذا بحسب الاحوال. والاولى اخفاء العبادات . والركعات التى تصحب الفرائض معلومة وأوقات الصوم المستحب كيوم الجمعة ، ويوم قبله ، وتاسع ذى الحجة ، ويوم عاشوراء والثلاثة البيض من كل شهر وما شبه ذلك ، ومن آداب الطريق واحوالهم ان لا يتكبر على متواضع ولا يتواضع لمتكبر ، ولا يخالط أهل الدنيا ولا يجالسهم الا ان دعت ضرورة لا يوجد منها بد، ويجلسون لكى يستفيدوا مصلحة لدينهم من علم أو عمل ، والكبير أعذر فى مخالتطهم من الحدث ،

فان الكبير أهل لأن يهديهم والحدث أهل لان يضل . ومن نهى عن الاكثار من ذلك فلم ينته فالخطة . وينبغى ان يعلم ان المؤاخذة على العثرات والزام الذنب على الخطيئات انما هى بحسب أصحابها وهم طبقات ، فالكبير المبتهل حسن به الظن ، وحسن معه العبارة ، وأدمج له تفسيح زلته فى اللطف قوبل باللطف اشارة (I) ، ومن دونه فان كان فى الطريق راسخ القدم وشامخ القدر أخذته على الكبيرة والصغيرة واستعظمت نقيره من الخطايا وقطميره ، وان يكن غير ذلك تجاف عن النقير والقطمير ، واستكثرت من حسناته الشيء الحقير ، وسلكت معه مسلك التأنيس لا التنفير ، فرب قبيح من ذلك هو من هذا حسن . وكثيرا ما رأيت المشائخ يشبهون الصنفين بالماء واللبن ، ومما ينبغى لشيخ الحلقة ان يتفقد أحوال التلاميذ ، فمن كان منهم موسرا نظر له فيمن يخدم ما يقتات به من الطعام ، ومن كان مقترا نظر له فيمن يتبرع له بالخدمة والاطعام ، ولو استقصينا ذكر جميع الحدود وقع السأم دون بلوغ الغاية وفيما ذكرناه كفاية ان شاء الله .

ومن أخبار الشيخ ابى عبد الله رحمه الله :

خروج ابى عبد الله سنويا الى مزاب

ما بلغنا ان ابا عبد الله كان يخرج للحلقة فى اوان الربيع الى بوادى بنى مصعب لمآرب ، منها انه كان يطلب بذلك راحة خاطره وخواطر التلاميذ ، واستصلاحها ، وتدبير قوى اجسادهم واستصلاحها ، فانه علم ما فى بلاد ريغ من رداءة الهواء وقلة طيب الماء ، وأيضا فان بنى مصعب كانوا واصلية فعمت عليهم بركته ، فرجعوا الى دين الحق ، والطريقة المرضية ، وذلك كان اكثر قصده فى

(I) كذا فى النسخ ، ويظهر فى العبارة خلل .

انتجاعهم وحلول رباعهم ، وكان يبين لهم طرقا يتبعونها ويضرب لهم أمثالا حسنة يعملونها .

ذكر ان سائلا منهم ساله ما تقول فى حلال خالطه الحرام أيوكل منه ؟ قال ما ترى فى جحر دخله جربوع ودخلته حية كلاهما بمرأى منك ، أتدخل فيه يدك طلبا للجربوع ؟ قال لا افعل ، مخافة الحية ، قال وكذلك ما سألت عنه ، وله معهم انواع من هذه الاجوبة .

توجهه الى قسطيلية

وبلغنا ان أبا عبد الله توجه الى قسطيلية فى جماعة من أصحابه فاجتمعت عليه جموع من الناس واشتهر ذكره حتى خاف ان يقال انما يحاول أمرا ، من قيام أو نحو ذلك ، وكان حينئذ عازما على المسير الى ناحية طرابلس فلما رأى من الامر ما يفضى الى المكروه وكان أهل الموضع على غفلة ، أمر بعض اصحابه بان يخرج البغلة من طريق ، وأمر آخر أن يخرج السرج من طريق ثم خرج هو من طريق آخر .وخرج أصحابه متوافقين من أبواب شتى وسلكوا طرقا شتى حتى اجتمعوا فى مكان تواعدوا على ان يجتمعوا فيه ، فشدوا سرج البغلة فركب الشيخ وسار ومن معه من أصحابه حتى صاروا بقرب تملوسة ، فاذا بالفقيه أبى الربيع سليمان بن يخلف ،

احتفاء اهل تملوست بابى عبد الله

ومحمد بن عيسى بن ابراهيم الهوارى قادمين من البادية ، من موضع يقال له (أضريكم) ولهما به أهل وأنعام ، وذلك فى فصل الربيع ، فلما كانا قريبا من البلد تأملا السيارة فعرفوا بغلة الشيخ ، فما كاد أن قصداه مسرعين ، فصافحاه وصافحا اصحابه ، وفيهم عيسى بن ابراهيم والد محمد بن عيسى المذكور ، فمالا بهم الى حيث اهلوهما نازلون فاحتفلا فى ضيافتهم ، فدخل اهل الحي سرور

عظيم بحلول هذه البركة فيهم ، فلما اكتفوا من الطعام ، وصلوا،أطاف التلامذة بالشيخ وأطاف بهأهل الحي يسألون عن مسائل دينهم، حتى مضى وقت من الليل وقضوا حاجتهم من السؤال والجواب ، وغلب عليهم النوم ، فتفرق مجلس الرجال واجتمعت نسوة الحي فاطفن بالشيخ يسألنه كما كان الرجال يسألونه ، والشيخ يجيب ، قيل وكان فى النسوة امرأة تسمى أم اليخت ، تنتحل قراءة الكتب وطلب مسائل الفقه ، وتجيد السؤال ، ومعها أخت لها قريب منها فى هذا المعنى فما برحتا وصاحبتاهما يسألن الشيخ ، وهو تارة يتكلم فى الفقه ، وتارة يتكلم فى المواعظ حتى طلع الفجر ، ولم يكل الشيخ عن الجواب ولا غشيه نوم . ذلك فضل الله يوتيه من يشاء ، فقالت حينئذ لابى الربيع وهى ابنة خاله لاجل هذه الفوائد طالت غيبتك عنا يا سليمان تعنى ملازمته شيخه أبا عبد الله اذ كان يقرأ عليه . ولما جاء تكتيس بن سيد سلم على الشيخ وصافحه ، فسأل الشيخ من هذا فعرف انه تكتيس وكان تكتيس حينئذ قد تحولت صفته مما كان يعرف منها الشيخ ، فقال أهو صاحبنا قبل هذا ؟ فقال وانا صاحبكم الى الآن . فقال نعم لكن أنت فى واد ونحن فى واد ، قيل ثم تقدم أبو الربيع وتكتيس الى لماية يبشرونهم بقدوم الشيخ وأصحابه فبشرهم . وتأهب المشائخ من لماية وغيرهم للمسير ليتلقوا الشيخ وأصحابه ، فساروا وفيهم الشيخان ابو محمد عبد الله بن الامير وأبو محمد وارسفلاس بن مهدى ، وكان وارسفلاس عالما كبيرا ، فكان الشيخ فى مدة اجتماعهم اذا سئل عن مسألة أحال على عبد الله بن الامير ، وكان قليل الجواب وذلك بمحضر الشيخ هيبة له،فيقول له وارسفلاس :

أجب الناس يا شيخ فليس لك عند أبي محمد جواب ، وكان الشيخ يجيب عن المسائل . ولما دخلوا جربة أسرع الشيخ حتى قدم المسجد الكبير على بني يراسن فصافحهم ، واقـام فيهم ما شاء الله ، ولم يـزل كل من هنالك بين مفـيد ومستفيد ، حتى عزم الشيخ على الرحيل ولما اراد الخروج مسافرا قربت اليـه دابته ليركب فابتدر الناس ركابـه ليمسكوه له وابتدر صالح بن أبي صالح ليمسك ركابـه ، فأبوا عليه ، وقال لهم الشيخ دعـوه فأمسك ركابه حتى ركب ، وتذكر عند ذلك أيام شبابه وخدمته حينئذ لمشائخه وبره اياهم وما كان يجد لذلك من لذة وارتياح ، فتمثـل بقول الشاعر :

للـه أيـام الشبـاب وعصـره
ولـو استعـير جديدها فيعـار

مـا كـان أقصـر ليلهـا ونهارهـا
وكذاك أيـام الشبـاب قصـار

قيل ، ولما خرج من الجزيرة وكان طريقة «بتبا جالت» اجتازوا على الشيخ عمروس فأنزلهم للضيافة ، فنزلوا ، فذبح لهم شاتين من أحسن ما يمكن ان يكون ، ولمـا حضر الطعام جعل احـد التلامذة يختـار للشيخ أطيب اللحم ، وأسمنه فنظر الشيخ الى سمن ذلك اللحم ، وقال كيف يكون قلب من يأكل هذا من ماله ؟ فكيف من مال غيره .

ثم كر راجعا الى جهة ريغ ورجع معه أصحابه وكلهـم لا يعدو موافقة قلب الشيخ . فبلغنا ان عبد الله بن الامير قال حينئذ: عجبا لهذا الشيخ وأصحابه انما مثلهم كمثل الحواريين لعيسى بن مريم ، وبلغنا ان أبا عبـد الله توجه

الى وارجلان فدخل على الشيخ ابى عبد الله محمد السدراتي الذى كان أهل وارجلان قلدوه أمورهم قبل . دخل عليه وقد كبر وتنحى عن أمورهم ، ولزم بيته ، فقال السدراتي للبكرى (I) يا محمد ألستم تقولون خير الرعاة راع ساوى بين القوية والعجفاء من غنمه ؟ فسكت عنه فقال السدراتي أو الستم تقولون ان الناس يصطحبون على المكروه لئلا يفترقوا ؟ فقال له ففيم ، أفي امور الدنيا أم في أمور الدين ، أم مطلقا ؟ فقال له السدراتي الى هاهنا انتهى علمي ، وليس عندى زيادة ، فما عندك انت ؟ قال انما ذلك في أمور الدنيا كنزول المسافرين ورحيلهم ، وحسن المعاشرة وسيئها ، وصغائر الهفوات ، وأما في أمور الدين فلا ، ولو كان يسع ذلك في أمور الدين لما فارق السلف ولاتهم ، ان فارقوهم في الدين حتى اسرعوا بانفسهم الى الموت ، فماتوا في مواطن شتى ، كاصحاب ابن وهب وأصحاب ابى بلال ، وعبد الله بن يحيى الكندى والمختار بن عوف وغيرهم ، انما ماتوا اذ لم يروا المقام والصبر على يأتون وهم يأبونه ، رحمة الله عليهم أجمعين ، ثم قال له الشيخ لا تركن الى كثير ممن يدخل عليك فانهم يقولون عليك ما لا تقول ، فقال له من أتاني زائرا فاجره على الله ، ومن قال على ما لم اقل فحسابه على الله . قلت انما اوردت هذه الحكاية في هذا الموضع لما ذكر فيها الشيخ أبو عبد الله رحمه الله في الصبر والمعاشرة على المكروه ، وما تبين فيها من الفرق بين المكروهين وقوله انما ذلك في أمور الدنيا واما أمور الدين فلا ، لا أقول انه الآن قال مطلقا ، بل على حسب الاستطاعة ومصداق

لايسع السكوت عن الباطل خوفا من التفرقة

(I) يعنى ابا عبد الله محمد بن بكر .

قولى قد مضى برهانـــه فيما تقدم من اخبار الشيخين ابى خزر وأبى نوح فى هذا الكتاب لما لم تبلغ بهما الاستطاعة الى أكثر من بذلهما الطاعة لمن يدينان بالبراءة منه لينالا المعافاة فى أنفسهما ، وينالاها من وراءهما ، فوجدناهما قد عاشرا الشيعة وصبرا على المكروه فى الدين تقية ، ثم معاذ الله ان أجعل هذا التشبيه تزييفا لقول الشيخ رحمه الله ولا انه جهـل هذا او اغفله ولعله أومأ اليه حينئذ فنسيه الحاكى عنه ، أو ضرب عنه .

ورع الشيخ واخلاقه الكريمة

ومما يذكر من نزاهته ما بلغنا انه ولد له مولود فسر الناس بذلك قريبا وبعيدا ، وهمـــوا باهداء الهـــدايا والاحتفال بالولائم ، فمنعهم عن ذلك ونهاهم عنه ، فانتهوا مراقبة له . فقالت امرأة أبى القاسم يونس بـــن ويزكن . أو نحن أيضا يا شيخ تمنعنا عمـــا منعت الناس وتقيسنا بغيرنا ؟ وتكلمت كلام مدل بالاخوة مات بالصداقة القديمة فقال : والله لا أجد يدى هى العليا فأردها هى الســفلى . يريد قوله صلى الله عليه وسلم : (اليد العليا خير من السفلى) أى المعطى والمعطى وهو مفسر في الحديث. ونحو ذلك ما ذكر محبوب بن أبى عبد الله السدراتى ان الشيخ ابا عبد الله وصل ايفران من قرى وارجلان ومعه أصحابه ، فاهتبلوا بتضييفهم ، فلما حضر الطعام وقربت الموائد نظر الشيخ فرأى على المائدة التى قدمت اليه زيادة اختص بها ايثـــارا فحدثته نفسه ان غيره ممن حضر على تلـــك الاطعمة ربما قصر فى حقه عن ذلك ، وكانت الجفنة التى قربت للشيخ عليها ورك شاة ، فقال الشيخ لبعض من يليه تأمل الجفان لترى هل هى كهذه أم لا ، فتأمل فاعلمه انها دونها وليس فيها مثلها ، ولا قريب منها ، فنهض الشيخ عن الطعـــام

وانصرف ولم يأكله ، ونحو ذلك ما بلغنا انه قدم (تين ابى مطوس) فاهديت له لفائف وجمار ، فرد اللفائف وقال ما نحن والهدايا ، فرجع ذلك الى مهديه ، واما الجمار فأكلـه ومن ذلك انه وجه محبوبا وابا بكر بن محمد من (تـين يسلى) الى وارجلان حرسها الله ليشتريا له آمة فلما ساماها من بائعها وعلم انها للشيخ ابى عبد الله حط عنهما مـن الثمن خمسة دنانير ، فقدما بالآمة الى الشيخ فاعلماه بما كان من بائعها فلم يأخذها ، وأمر بردها تحرجا وعفـة . وأخبار ما يؤثر من كراماته سيأتي ذكرها فى المناقب ان شاء الله فذلك موضعها ، فلذلك لم اضعها هنا والله أعلم.

(ذكر شيء من اخبار نجباء تلامذته)

زكـرياء ويـونس ابنـا ابـى زكريـاء فصيل

وان كانوا كلهم نجباء فضلاء أخيارا ما منهم الا مـن عمت عليه بركته ، وأينعت فى العلوم ثمرته ، ولكن نذكر هنا من حاز قصب السبق وكان عليه الاعتماد فى الفتـق والرتـق ، وكان له الاثـر الكريم ، واستحقاق درجـة التقديم ، فمنهم زكرياء ويونس ابنا الشيخ ابى زكريـاء رحمهم الله كان زكرياء ويونس من أفضـل أهل زمانهما علما وورعا وخلقا وكرما ، وكانا قد قرءا على الشيخ أبى عبد الله حتى برعا فلهما اخبار مأثورة فى كل فن ، نذكر منها ما تيسر .

ومنها ما بلغنا انهما توجها الى الحج ، فلما كانا ببعض الطريق وقد أضربهما السير ولواهما السفر نام زكرياء فتخلف عن الرفقة ، فلما انتبه من نومه وجد نفسـه فى بيداء منقطعا عن الركب ، فدعا الله سبحانه وتعالى بهـذا الدعاء. فقال : (اللهم يا صاحب كل غريب. ويا مؤنس كل

وحيد . ويا قريبا غير بعيد . اجعل لى من سفرى هذا فرجا ومخرجا) . ثم رفع رأسه فنظر ، فاذا عمود من نور ساطع فى الهواء فيتممه فسار نحوه حتى أدرك الركب فوجد اصحابه متحيرة خواطرهم ، ذاهلة قلوبهم ، ذاهبة عقولهم من اجله ، فذهب عنهم ما كانوا فيه من القلق ، ونام يونس مرة أخرى فى طريقهما ذلك فما استيقظ الا وقد فاته اصحابه فسار فى اثر الركب فمر بجماعة من أهل الركب قد كانوا غشيهم النوم وتخلفوا ، فوجد فى نفسه قوة ونشاطا لم يجده فيهم فخلفهم ، فسار مجدا فلم يزل يخلف أواخر الركب ناسا بعد ناس حتى مر برجل قد أدركه العياء فتخلف عن أصحابه ، وقد ورمت قدماه وانتفخت رجلاه ، واشرف على الهلاك وقنط من الحياة ، ومعه صرة فيها دنانير فنظر الى يونس فتوسم به الخير، فقال له انه قد أصابنى ما ترى ، ومعى هذه الصرة فخذها . فانت أولى بها من غيرك ، فتناولها من يده وسار حتى لحق باصحابه ، ثم ان أهل الركب نزلوا فلم يزل صاحب الصرة يتبع الاثر يمشى ساعة ويستريح أخرى حتى لحق بالركب فبات ، فلما ارتحل الركب وارتحل الرجل ووجد فى نفسه قوة تذكر صرته فجعل يتأمل الناس ويردد بصره فى وجوههم ، ويكشف عن خبر صرته ، ويبحث فنظر اليه يونس فعرفه ، واذا هو قد ضمر وتغير لونه وتحول جسمه فقال له ما بالك ؟ فقال له من قصتي كيت وكيت ، فقال له يونس : أعطيته اياها هبة أم أخذها منك غصبا ؟ فقال بل اعطيته اياها هبة ، قال أتعرفه ؟ قال لا الا انه جسيم طويل مثلك فقال له أتعرف الصرة اذا رأيتها ؟ قال نعم ، فاخرج اليه

الصرة فدفعها اليه وجعل يرفع صوته يقول : والله ما هو الا مسلم ، يكررها ، وباتا ليلة فى طريقهما تلك وقد اشتمل زكرياء على سيوفهما فغشيتهم السلابة فانتهبوا فصاح يونس بأخيه ان تناولنى السيف ، فناداه مرارا فلم يجبه فوضع يونس يده بين رجلى زكرياء فامكنه الله من قائم السيف فسله وقام يدافع عن نفسه وماله فضرب الذى قابله من السلابة بالسيف وقده نصفين فلم يتجرىء عليه احد منهم ، وبلغنا ان الشيخ ابا القاسم يونس هذا قد كان عود نفسه القيام بالليل للتجهد فى المسجد الكبير، وكان منزله بعيدا من المسجد ، فخرج من منزله ذات ليلة يريد المسجد فمر على مقبرة فى طريقه فأحس خلفه حسا ، فالتفت فاذا صورة لا يعرفها فاقشعر جلده ، ثم مضى ولم يكترث فلما قرب من المقبرة ناداه ذلك الشخص يا ابا القاسم الى متى ننتظرك ، ولم تاتنا ، فمضى الى المسجد الكبير باكيا حازنا ولما وصل المسجد أخذ فى الصلاة ، كما كان يفعل قبل ذلك ، الى ان طلع الفجر فصلى الصبح وتقدم الى الحلقة ، فلما اخذوا فى القراءة أخذ يقرأ معهم والدموع تسيل على خديه ، وعلى لحيته ، حتى طلعت الشمس ، فلما ختموا سأله بعض من معه فى الحلقة فاخبرهم بالقصة وقال لهم ما اظن اجلى الا قد اقترب . فأخذ فى تنفيذ وصيته ووداع اخوانه ولم يعش الا اياما يسيرة رحمة الله عليه .

ابو الربيع سليمان بن يخلف

«ومنهم أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتى رحمه الله»

كان ابو الربيع قد قرأ على الشيخ ابى على ، واتقن عليه علم الاصول ، والنظر ، وبلغ فى ذلك مبلغا عظيما ، ثم انتقل الى جربة ليقرأ بها علم الفروع على فقهاء بنى يراسن

أبى محمد ويسلان بن ابى صالح وابى زكرياء وزكريـاء ويونس ، وأبو بكر بن يحيى فوافاهم فى وقت اشتغالهم باسباب لا يجدون بدا من مباشرتها ، ثم قالوا فيما بينهم لا ينبغى لنا ان ندع مثل هذا وحده ، عاطلا من القراءة وقد علمنا انه قاصد الينا ، وعلمنا فيما قصد لكن نقعد له يوما بعد يوم . فـلا هـو يتعطل ، ولا أشغالنـا ، فاذا تفرغت اشغالنا تفرغنا لصاحبنا . فصار يقرأ عليهم يوما يوما فكان على خير ، واستفاد حتى تفرغـوا . واجتمـع التلامذة وقصدوا ابا محمد ويسلان ورغبوا اليه فى ان يجلس لهم ليقرأوا عليه الفروع ، وسألوه ان يرتبوا عليه الحلقة ، فاجاب ، وجلس لهم ، وكانوا يقرأون عليه الفقه فلما ترتبت الحلقة كثرت الطلبة ، وجلهم ممن تقدمت له قراءة علم الاصول والنظر على الشيخ ابى عبد الله محمد ابن بكر. وانما انتجعوا جربة لقراءة الفروع كأبى الربيع المذكور ويعقوب بن يعدل ومصالة بن يحيى وغيرهـم ، واجتمع أيضا تلامذة من بلاد شتى يريدون علم الكلام ، وكانوا يأخذون الدرس على ابن الشيخ ابى زكرياء ، وعلى ابى بكر بن يحيى ، وكان طلبة علم الكلام ناحية عن طلبة علم الفقه ، وتسامع الناس فى الجهات بجلوس حلقتين ، فجاءوا من كل مكان رغبة فى العلم فكثر طلبة علم الكلام فرغب مشائخ بنى يراسن الى تلامذة أبى عبد الله المذكورين أبى الربيع وأصحابه فى الجلوس لاقراء طلبة علم الكلام، فقالوا لهم انما جئنا لنتعلم الفروع ، فكيف نعلم غـيرنا الاصـول ؟ .

اعتناء ابى الربيع بطلبته

وكان ابو الربيع تنصل من مخالفة الشيوخ فلما رجع الجواب بهذا الى الشيوخ قالوا للطلبة جدوا واجتهدوا والله

معينكم ، ويمثل لهم بقول القائل : ان لم يخفروني فسيخفروني ، فأخذوا في الاجتهاد فلم يعدموا من شيوخ بني يراسن معونة على طلب العلم بالافادة ورفع الكلف والمؤونة . وكان جلوس هاتين الحلقتين بالموضع المعروف «يأتيجان» من الجزيرة وهناك شجرتان من الخروب عظيمتان فكان جلوس طلبة الفقه عند الشجرة القبلية منهما وطلبة الاصول عند الجوفية ، فاقاموا على هذا مدة ، ثم انتقلوا بجملتهم الى المسجد الكبير ، لما كثر طلبة علم الكلام ، فلما رأى أبو محمد ويسلان قلة عدد التلامذة الذين يقرأون عليه الفروع انتقل بهم الى بيته قبالة المسجد الكبير ، فكانوا يأخذون الدرس هناك، ثم انتقل ابو الربيع بتلاميذه الذين يقرأون علم الكلام الى موضعه « بتمولسة » وكانوا هناك في عريش عملوه عند عيون تمولسة ، فكثروا واجتهدوا وحسنت احوالهم ، وكانت زنزفة ، ولماية ، ومزاتة ، ومما حولهم من القبائل يبذلون الجهد في معونة الطلبة بالهدايا ، والتحف ، والعطاء واللطف ، فكانوا في أبر حال الا انهم لحقهم خوف من العرب ، فان الموضع الذي هم به هو ممر لاعراب اذا رحلوا من طرابلس الى افريقية أو متى رجعوا . والطلبة بهذا في حذر ، فبلغ الشيخ أبا القاسم يونس بن زكرياء ما هم فيه من الخوف ، فقال نحن في أمان وسليمان واصحابه في خوف ؟ فوجه اليهم رسولا يعلمهم بانه يحجر عليهم المقام بذلك الموضع فلم يسعه المقام مع نهي الشيخ ، فتفرقوا في بلاد لماية وزنزفة ، ثم اجتمعوا على شيخهم بعد ذلك ، فقصد بهم جبل زنزفة ويعرف بقلعة أبي علي ، وكان اجتماعهم للدرس في غار هناك ، ثم كثر الطلبة فضاق عليهم الغار ،

ابو الربيع سليمان يؤلف كتابا في الاصول

فانتقلت منهم جماعة الى غار آخر ، فكان الشيخ ليلة عند هؤلاء وليلة عند هؤلاء ، حتى استفادوا خيرا كثيرا ، والذى صح من اخبار أبى الربيع انه لم يتصدر حتى تبصر فى الفقه ، فحينئذ جلس للحلقة ، قيل ثم ان ابا الربيع وتلامذته ومن هناك من المشائخ أرادوا زيارة أهل الدعوة ليفيدوا ويستفيدوا ، وسيأتى ذكر الزيارة بعد هذا مستقصيا ان شاء الله تعالى ، وكانت سنة الزيارة سنة 449 تسع واربعين واربعمائة فلما رجعوا الى جبل زنزفة ، ولم يبق مع ابى الربيع الا تلامذته انتقل بهم الى تمولسة ثم انتقلوا الى الجبل ، فكانوا فى اجتهاد عظيم .

ثم ان التلامذة رغبوا الى ابى الربيع ان يؤلف لهم كتابا فى علم الاصول ليرووه عنه ، فامتنع كل الامتناع وكرروا الرغبة حتى اجاب على كره ، وذكر ان ابراهيم بن ابراهيم وكان أحد تلامذته رأى فى منامه انه واصحابه نظروا بطن ابى الربيع واستخرجوا منه قطعتين مملوءتين عسلا ، فهاله ما رأى وخاف ان يكون ذلك مكروها ينال منهم شيخهم ، فدخل مدينة قابس فسأل عن منامه رجلا مشهورا بانه يعبر الرؤياء فقال ان كان الرجل ذا مال فمال يؤخذ منه كرها ، قال ليس بذى مال ، فان كان عالما فعلم يؤخذ منه كرها ، قال هو . فاعلم التلامذة بذلك فسروا سرورا عظيما فشرع فى التأليف فكان يملى على التلامذة كل يوم بابا فبابا ، فكانوا يعلقون ذلك عنه فى ألواح حتى تمم التأليف ثم عرض الالواح على ترتيبها ، فاثبت وأسقط ، وزاد ونقص ، وصحح وبدل ، حتى لم يبق فيها اشكال وحتى صحت عنده كلها فاستنسخها وجعلها ديوانا فى مجلدين ، الاول والثانى وعرضهما بعد ذلك على أبى عبد الله محمد

بن سودرين فلم يزد فيهما الا حرفين ، ومكث الشيخ بتمولسة ما شاء الله ، ثم انتقل الى موضع بالجبل يعرف « بتونين » ، ورتب فيه الحلقة فصار مأوى للعزابة وموضعا للدرس معروفا بالبركة ، مخصوصا هو وأهله بالخير ، والصلاح ، واليمن ، الى يومنا هذا . فلقد سمعت من غير واحد من المشائخ ان قراءة شهر بحلقة تونين تقوم فى تحصيل الفائدة قيام أشهر فى غيرها فهو منبر من منابر الدعوة ، فى الافاق مذكور ، وبالعلم والدين مشهور ، لم تخل قط من جماعة مجتهدين ، فى تحصيل علوم الدين وجماعة موفقين ، بحفظ طرق المتقين ، وجماعة من وراءهم موهلين بخدمة الحلقة بالمال والنفوس والاهلين ، أيد الله الجميع وقواهم وآتاهم تقواهم .

« كمل بحمد الله ما يقابل الجزء الاول من كتاب الشيخ أبى زكرياء رحمه الله ، والحمد لله رب العالمين . ويتلوه ذكر الطبقات وسيرهم ومناقبهم ان شاء الله تعالى والله ولى التوفيق » .

كمل الجزء الاول من كتاب الطبقات

ويتلوه الجزء الثانى

وهو جزء التراجم

فهـرس العنـاوين والمـوضوعات
الـواردة في الجـزء الاول

فهرس الاماكـن الواردة فى الكتـاب

فهــرس الاعــلام واسمــاء القبائــل

مطبعــــة البعــث
قسنطينة ـ الجزائـر

كتاب

طبقات المشائخ بالمغرب

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني رحمه الله
المتوفى حوالي 670 هـ

الجزء الثاني

حققه وقام بطبعه

إبراهيم طلاي

2?-11071/8P

كتاب

طبقات المشائخ بالمغرب

تأليف

الشيخ أبي العبّاس أحمد بن سعيد الدرجيني رحمه الله
المتوفى حوالى 670 هـ

OK

الجزء الثاني

حققه وقام بطبعه

إبراهيم طلّاي

[illegible]

[illegible]

تأليف

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]



ذكر طبقات المشائخ
جيلا بعد جيل وسيرهم ومناقبهم رحمهم الله

الطبقة الأولى

قد قدمنا فى الجزء الاول ان الطبقة الاولى هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وان فضيلتهم أشهر ، ومزاياهم واسماءهم أظهر من أن تحتاج الى تسميتهم ، فاقول الآن : ان الصحابة رضوان الله عليهم تحصل من سيرهم واخبارهم فى الدواوين ، ومن آثارهم محفوظا فى صدور الراوين ، ما أغنى عن تكلف تصنيف وانتحال تأليف ، وحسبهم ان قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يشقى من رآني » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « افضل امتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» ، وأحاديث كثيرة من فضائلهم ، فاذا ثبت هذا فاعلم ان من الصحابة من لا يخالفنا فى تقدمهم مخالف ، فقد امتلأت بذكر فضائلهم الصحائف ، ومنهم من لم ينل حظا من الانصاف ، عند كثير من أهل الخلاف ، وهم معدودون عندنا فى جملة أخيار الاسلاف ، فلنذكر منهم من امكن ذكره ، ووجب علينا وان عاب الغير شكره .

عبد الله بن وهب الراسبى

فمنهم عبد الله بن وهب الراسيبى الازدى العمانى

رحمه الله ، لما كان من أمر الحكمين ما كان ، ونجاة من نجى من تلك المحن والافتتان ، وانحياز من انحاز من الفريقين ، وتبين الاعتدال والعدل ، عن كلا الطريقين ، ارادوا تولية رجل منهم يعتمدون عليه فى أمورهم،ويطبق على طاعته رأى جمهورهم ، فعزموا على تولية عبد الله بن وهب ، فتكره ذلك وأباه ، فلم يريدوا غيره ولم يرضوا سواه ، فلما رأى ذلك منهم قال : يا قوم استبيتوا الرأي ـ أي دعوه يغيب ، وتأتى عليه ليلة ، فندبر عواقبه ، وكان يقول نعوذ بالله من الرأى الدبرى . فبايعوه وكان ذا رأي وحزم ، ودين وعلم . وقع به الائتلاف وارتفع فى ايامه الاختلاف ، فلم يزل يقول بالحق ، ويحكم بالعدل ، ويلطف بالرعية ويقسم بالسوية ، حتى قبض رحمة الله عليه .

حرقوص بن زهير السعدى

ومنهم حرقوص بن زهير السعدى . كان حرقوص من أهل النسك والعبادة والتقشف والزهادة ، وكان ذا نجدة وبأس وشدة ، وكان أحد أمراء الاجناد فى أيام عمر رضى الله عنه ، وهو الذى فتح الاهواز فى أيام عمر ، وكان له هناك آراء سديدة وآثار حميدة ، وشكره عمر رحمه الله واستحسن ما كان منه حينئذ فانه صبر وصابر ، حتى أظفره الله تعالى ، واطلب ذلك فى اخبار فتوح العراق تجده ، وكان حرقوص ممن شهد صفين ، وابى تحكم الحكمين،وكان فى اصحابه حتى قتل رحمه الله. وحرقوص هذا هو الذى ينتحل (١) احاديث لا يبعد ان تكون مصنوعة فان فيها ما يدل على سقمها لتناقض مثبوتها ، ولكن أكثرها منتحل، ورواها على طرق ، فمنها ما نسب اليه انه قال

الاحاديث المنتحلة فيه . والرد عليها

---

(١) كذا فى النسخ لعل الصواب : هو الذى ينتحل غيرنا فيه أحاديث .

لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم غنائم خيبر (ما عدلت منذ اليوم) فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : ألا اقتله يا رسول الله ؟ فقال انه يكون لهذا أو لاصحابه نبأ ، ومنها ما نسب اليه انه لما قال ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ويحك فمن يعدل ان لم اعدل ؟ . ثم قال لاصحابه واحدا بعد واحد : أيكم يقتله ؟ فقال له الاول وجدته راكعا وقال الثاني وجدته ساجدا ، وقال الثالث لم أجده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قتل هذا ما اختلف في الله اثنان ، ومنها انه قال وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مالا ورد عليه بين أربعة من المؤلفة قلوبهم ، فزعموا انه قال : لقد رأيت قسمة لا أريد بها وجه الله ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورد خداه ، ثم قال : أمنني الله على أهل الارض ولا تأمنني ؟ ! ! فقام عليه عمر رحمه الله ، فقال : ألا اقتله يا رسول الله ؟ فقال سيكون من ضئضىء (١) هذا أقوام تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم يمرقون من الدين ــ الى قوله ــ وتتمارى في الفوق . ففي هذه الاخبار دلائل على سقمها من أوجه كثيرة ، أحدها انه لو صح عنه انه غير عدل اذ قال ما عدلت منذ اليوم ما آمن ولا اقام على دينه ولا صلى الى قبلته ، الثاني لو صح عنه صلى الله عليه وسلم انه خاض بالطعن في النبوءة لما اهمله ، ولكان هو المبتدر الى قتله ولم يكله الى غيره ، الثالث انه لو صح ذلك عند عمر رضى الله عنه وانه من المأمورين بقتله . واعلمه انه مارق من الدين فكيف يستعين به على الجهاد ، وهو اعظم

(١) ضئضىء الشيء أصله ، ومعدنه ، ونسله الكثير .

اركان الدين ، فيجعله اميرا على جنوده المؤمنين ، وظهيرا على قتال الكافرين ، الرابع انه لو صح عند اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ذلك وانهم مأمورون بقتله لم يتراخوا فى قتله ، بل يجعلونه أوكد فرائضهم ، فكيف تسامحوا حتى خرج ثم لم يكترثوا به ، الخامس انه صلى الله عليه وسلم منزه عن ان ينتسب الى كلامه الغلو والمجازفة ، حتى يقول لو قتل هذا ما اختلف فى الله اثنان فيلزم على هذا ان تكون حياة حرقوص سببا لكفر اليهود والنصارى ، والصابين والمجوس، وعبدة الاوثان، والمعطلة والزنادقة وغيرهم،وهذا من المحال الذى ينكره الحسويأباه العقل ويقوى الدليل على بطلانه ، اذ لو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا ، وحرقوص حيا ولو شاء لضلوا جميعا قبل وجود حرقوص وبعد موته ، لكنهم « لا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » فقد اتفقوا واختلفوا ، وبينهم من هو خير من حرقوص وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما اتفقوا واختلفوا وفيهم شر منه وهو ابو جهل ، لعنه الله ، فهذا يبعد ان يكون من كلام من لا ينطق عن الهوى ، السادس انه قد شهد من ضئضه من حرق القرآن قلبه ، وصدع كبده فضلا عن مجاوزة الحنجرة وشوهد من مخاليفهم من لا يصل لسانه فضلا عن الحنجرة ، أعنى فى العمل به والامتثال لاوامره ، والانتهاء عن مناهيه ، السابع ، ذكر المروق . فرأيك أعلم بالمارق . وباللص السارق ، وقد حقق كثير منهم ممن عامل بالانصاف ان القوم انما قاتلوا هروبا من اتباع الهوى واطراحا لزهرة الحياة الدنيا ورغبة فيما يرجونه عند الله فى الدار الآخرة ، وفيها أدلة كثيرة غير ما ذكرناه ، فحرقوص مبرأ مما قالوه ، ومما اليه نسبوا .

« الطبقة الثانية » 50 ــ 100 هـ

جابـــر بن زيـــد الازدى

منهم جابر بن زيد الازدى رحمه الله . بحر العلـــــوم العجاج (1) ، وسراج التقوى ، ناهيك به من سراج ، أصل المذهب وأسّه الذى قام عليه نظامه ، ومنار الدين ومـــــن انتصبت به أعلامه ، صاحب ابن عباس رضى الله عنــه ، وكان امهر من صحبه ، وقرأ عليه ، والمقدم ممن يشار فى الفتيى اليه ، ذكر ابو طالب المكى فى كتاب قوت القلوب ، قال ابن عباس رحمه الله : اسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه ، وعن اياس بن معاوية قال : لقد رأيت البصرة وما بها مفت غير جابر بن زيـــد وعن الحصي بن حيال انه قال : لما مات جابر بن زيد بلـــغ موته انس بن مالك فقال : مات اعلم من على ظهر الارض أو قال مات خير أهل الارض ، وعن ابن عباس أيضا انه قال : جابر بن زيد اعلم الناس،وعنه انه كان يقول عجبا لاهل العراق كيف يحتاجون الينا وعندهم جابر بن زيـــد ، لو قصدوا نحوه لوسعهم علمه ، وله آثار كثيرة مذكورة ، وكرامات ، ومقامات فى العلم تعلـــو المقامات سيأتى ما امكن . ان شاء الله .

(1) البحر او النهر العجاج بالمبالغة الذى تسمع له عجيجاً أى دويا عظيما .

جابر بن زيد يدعو الناس للاعتبار

فمن ذلك ما ذكر ابو سفيان (1) قال : أصاب الناس على عهد جابر بن زيد ظلمة وريح ، ورعد ، ففزعوا الى المساجد ، قال فخرج ابو الشعثاء الى بعض المساجد فجلس فيه يذكر الله ، والناس في تضرع وضجة ، قال فلما انجلت تلك الريح وتلك الظلمة أخذ الناس ينصرفون الى اسواقهم ومنازلهم ، قال فدعا قوما كانوا قريبا منه فقال لهم ما كنتم تظنون هذا الامر ؟ قالوا خفنا ان تكون القيامة قد قامت قال انما خفتم طي الدنيا والافضاء الى الآخرة ، قالوا نعم قال لقد خفتم امرا عظيما فحق عليكم ان تخافوه ، ثم قال اين تذهبون الآن ؟ قالوا الى منازلنا قال لقد خفتم امرا عظيما ففزعتم الى الدعاء ، ولو جاء ما خفتم لم يغن عنكم ما كنتم فيه شيئا ، فالآن اذ رد الله عليكم دنياكم فاعملوا حين قبول العمل واما ما كنتم فيه فلو كان الامر ما خفتموه لم يغن عنكم دعاؤكم من الله شيئا .

وذكر أبو سفيان : ان جابر بن زيد دخل المسجد الحرام فاذا برجل من الحجاج يصلي على ظهر الكعبة ، قال ، فقال جابر بن زيد من المصلي ؟ لا قبلة له ، قال ، وكان ابن عباس في ناحية المسجد ، فسمع قوله أو اخبر به ، فقال ان كان جابر في شيء من البلد فهذا القول منه ، قال ، فنظر فاذا هو جابر بن زيد .

جابر بن زيد يسأل عائشة ويستفيتها

وقال ابو سفيان ان جابر بن زيد وابا بلال دخلا على عائشة رضي الله عنها ، فعاتباها على ما كان منها يوم الجمل قال فاستغفرت الله تعالى ، وتابت مما كانت قد دخلت فيه ، وقال ابو سفيان دخل جابر بن زيد على عائشة رضي الله عنها فاقبل يسألها مسائل لم يسألها أحد عنها حتى سألها عن

جماع النبيء صلى الله عليه وسلم ، كيف كان يفعل ، وان جبينه يتصبب عرقا ، وهي تقول سل يا بني ، ثـم قالت له ممن انت؟قال من أهل المشرق من عمان ، قال ابو سفيان فذكرت شيئا له لم احفظه الا اني اظنها قالت : النبيء صلى الله عليه وسلم ، قال : ليكثرن وراد حوضي من أهل عمان. أو شبه هذا .

جابر يتمنى لقاء الحسن البصري قبل ان يموت

ولما حضرت جابر بن زيد الوفاة اتـاه ثابـت البناني وقال يا ابا الشعثاء ، هل تشتهي شيئا ؟ قال اني لا اشتهي الا ان ألقى الحسن قبل ان أموت ، قال فخرج ثابت البناني فدخل على الحسن فأعلمه بقول جابر بن زيد قـال وكان الحسن اذ ذاك مستخفيا ، فقال : كيف لي بذلك ؟ قال اركب بغلتي على السرج وأنا اردف خلفك ، وأعطيك طيلساني وارجو ان لا يعرض لنا . قال ففعل ، ودخـل عـلى أبي الشعثاء وهـو مضطجع فانكب عليه الحسن وهـو يقول : يا ابا الشعثاء قل لا اله الا الله فرفع جابر عينيه ، فقال : أعوذ بالله من غدو ورواح الى النار ، فقال له الحسـن يا ابا الشعثاء ، قل لا اله الا الله . قال : فقال أعوذ بالله من غدو ورواح الى النار ، ثم قال يا ابا سعيد « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت مـن قبل أو كسبت في ايمانها خيرا » قال فقال الحسن هـذا والله الفقيه العالم ، ثم قال يا ابا سعيد حدثني بحديث ترويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في المؤمن اذا حضرته الوفاة . قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم « ان المؤمن اذا حضرته الوفاة وجد على كبده بردا » فقال جابر الله اكبر ، والله اني لأجد بردا على كبدي .

يحبس لكى لا يذهب الى الحج

قال وكان جابر بن زيد يحج كل سنة ، فلما كان ذات سنة بعث اليه والى البصرة ان لا يبرح العام فان الناس اليه محتاجون ، فقال لا افعل : فحبسه ، فلما كان غرة ذى الحجة جاءه الناس ، فقالوا اصلحك الله قد هل هلال ذى الحجة ، فأرسل اليه واخرجه من السجن . قال فأتى الى داره وله ناقة قد اعدها للخروج فأخذ يشد عليها الرحل ، ويقول : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . ثم قال : يا آمنة(1) عندك شيء ؟ قالت نعم ، قال فاجعليه في جرابى ، قال فهيئت له زاده، ثم قال من سألك فلا تخبريه بمسيرى يومى هذا ، قال فخرج من ليلته ، قال فانتهى الى عرفات والناس بالموقف ، قال فضربت بجرانها الارض ، وتجلجلت فقال الناس : ذكها يا ابا الشعثاء ، فقال حقيق لناقة رأت هلال ذى الحجة بالبصرة ان تفعل هذا، ثم سلمها الله، قال وكان قد سافر عليها اربعا وعشرين سفرة ، فى حجة وعمرة .

جابر يحاجج المستحلين لدماء من خالفهم

وقد بلغنا عن جابر بن زيد ان امرأة كانت له جارية فقالت له يا ابا الشعثاء ان فلانا يخطب الي جاريتى فما ترى ؟ قال : لا تزوجيه ، فانطلقت فعاد اليها الرجل فعادت الى جابر ، وقال لا تزوجيه فانطلقت فعاد اليها الرجل فقال ان لم تزوجيها وقعتها حراما ، فأتت جابرا ، فأعلمته بالذى كان من قول الرجل ، فقال زوجيها الآن فهذا خوف العنت .

وقال : حدث ضمام ان جابر بن زيد كان يلقى الخوارج

(1) فى نسخ تذكر باسم : أمينة

فيقول : اليس قد احل الله دماء أهل الحرب بدين بعد تحريمها بدين ؟ قال فيقولون بلى . قال : ويقولوا وحرم ولايتهم بدين بعد الامر بها بدين ؟ قال فيقولون بلى . فهل احل ما عدا هذا بدين ؟ قال فيسكتون ولا يجيبونه بشيء . قلت وهؤلاء اصحاب نافع بن الازرق ومن قال بقولهم ، فى استحلال اموال المسلمين بدين .

حكم عطاء الجبابرة

وقال : تكلمت نساء من المسلمين بعد جابر في المال الذى تجمعه الجبابرة فقلن انه حرام ، قال ثم افشينه حتى لقين رجلا يقال له ابو الوزير ، فأجابهن الى ذلك ، فقال صدقتن قال وهممن ان يرفعن ذلك الى ضمام وابى عبيدة ، قال فلم يزل بهن حتى لقين أبا حمزة الاشعث فكلمنه فى ذلك فقال لهن أبو حمزة ومن وافقكن على ما تقلن ؟ ، قلن أبو الوزير، فقال أبو حمزة أو قد بلغ من ضعف أبى الوزير ما أرى ؟ قال ، ثم نهاهن واعظم ذاك عليهن ، فقال أما اذ زعمتن ذلك فانكن تتقدمن على جابر بن زيد وأبى بلال واصحابه ، فانهم ماتوا وهم يأخذون اعطيتهم ، قال وبلغ ذلك ضماما فاشتد فى ذلك واعظم قولهن قال فرجعن واستغفرن الله ، ولم يعدن الى ذكر شيء من ذلك .

قال ولما مات جابر بن زيد أتى قتادة وهو اذ ذاك قد عمي وقال ادنونى من قبره قال فادنوه حتى وضع يده على قبره ثم قال اليوم مات عالم العرب، وقال : لقي جابر امرأة من أهل الدعوة فوقف ساعة يكلمها وتكلمه قال فلما أرادا ان يفترقا قال لها انى احبك ثم افترقا فانطلق غير بعيد ، ففكر فى قوله لها انى احبك ، فانصرف اليها وقال فى الله قال فقالت له وما تظن انى حملت ذلك على غير الحب فى الله ؟ أي والله فى الله .

لا تكافيء الاساءة بمثلها

وقال خرجت آمنة زوج جابر الى مكة ذات سنة ، فاقام جابر تلك السنة قال فلما رجعت سألها عن كريها (١) فذكرت منه سوء الصحبة ، ولم تثن عليه بخير ، قال فخرج اليه جابر فادخله الدار فأمر باشتراء لابله علفا ، وعولج له طعام فلما تغدى خرج به الى السوق ، فاشترى له ثوبين فكساهما أياه ، ودفع اليه ما كان مع آمنة من قربة واداة وغير ذلك من آلات السفر، قال فقالت له آمنة اخبرتك بسوء الصحبة ، ففعلت معه ما أرى قال أفنكافيه بمثل فعله فنكون مثله ؟ لا بل نكافيه بسوء خيرا ، وبالاساءة احسانا .

رأي جابر في الهرم العاجز عن الصوم

وقال أبو سفيان كانت جدة أبي يقال لها أم الرحيل . والرحيل أبي وبه يسمى ، واسم جدي العنبر وكانت أم الرحيل قد كبرت حتى لم تطق الصيام، قال فأتى بها ابناها الرحيل والعنبر الى جابر ، فقالا يا ابا الشعثاء ، ان أم الرحيل قد كبرت فلا تطيق الصيام ، قال : وانها لحية بعد ، قالا نعم ، قال : فصوما عنها قال فتنافسا في ذلك قال وكان الرحيل أكبر من العنبر ، فصام عنها الرحيل ، فلما كان في العام الثاني أتياه فأعلماه أيضا بحالها ، فقال ما كنت امرتكم به في العام الاول قال امرتنا ان نصوم عنها ، قال فأطعما عنها فأطعم عنها العنبر .

وقال جاء أبو الحرالى أبي عبيدة ذات سنة قال يا أبا عبيدة اقم للناس بعد الموسم خمسة أيام فامتنع وقال لابي الحر عليك بضمام بن السائب فانه يفعل، قال أو عنده من العلوم ما يكتفي الناس به ؟ قال نعم ، واكثر من ذلك ، قال فأتاه فاقام للناس فاجتمع اليه من حضر الموسم ، فجعلوا يسألونه

---

(١) الكري بشد الياء المكاري

عن اشياء كثيرة من مسائل دينهم ، قال فكـــان جوابه ان يقول سألت جابرا ، أو سئل جابر أو سمع جابرا ، أو قال جابر ، قال ابو سفيان وكان ضمام قد حفظ عن جابر ما لم يحفظه عنه ابو عبيدة ولا ابو نوح ولا احد من تلاميذه وقال بعثت هندة بنت المهلب الى جابر جزورا في رمضان فنحرها وعالج جابر للناس طعاما ، فلما غـــابت الشمس أتانا بالجفان في المجلس فوضعت للناس وكان مؤذنه يقال له أبو هارون وكان فاضلا ، وقال له يا أبا هارون أرى ان تهبط فتأكل معهم ولا تعجلهم الاقامة ، حتى يتفرغوا من طعامهم .

وقال : اطلع ابو الشعثاء يوما فاذا برجل من الاكارين يبكي ، ويصيح . فقال مالك ويحك ؟ فقـــال ان فتيـــان دربكم هذا نزعوا مني قنويِ نخلٍ جئت بهما الى صــــاحب الارض ، فأخاف ان لا يصدقني ، قال فبعث جابر الى رجل من اصحابه له نخل ، فأخذ قنوين فدفعهما اليه .

جابر يتهرب مـــن القضـــاء

ووفد جابر بن زيد فيما كان يفد فيه الى يزيد بن ابي مسلم كاتب الحجاج ، وكان به خاصا ، قال فأدخله ابـــو مسلم على الحجاج فكان فيما كان يسائله ان قال له : أتقرأ ؟ قال نعم ، قال أتفرض ؟ قال نعم ، فعجب الحجاج ، ثم قال ما ينبغي لنا ان نؤثر بك احدا بل نجعلك قاضيا بــــين المسلمين ، قال فقال جابر اني اضعف من ذلك ، قال وما مبلغ ضعفك ؟ قال يقع بين المرأة وخادمها شر فلا احســـن ان اصلح بينهما ، قال ان هذا لهو الضعف ، ثم قال فهل لك من حاجة؟ قال نعم وما هي؟ قال تعطيني عطائي وترفع عني المكروه ، فقال الحجاج هذا امر لا يستقيم ان اعطيك من بيت مال المسلمين، ولا نستعملك لهم، فقال له يزيد بن

ابى مسلم اصلحك الله ان هاهنا خصلة تخف على الشيخ وفيها عون للمسلمين ، قال وما هي ؟ قال تجعله في اعوان صاحب ديوان البصرة ، قال وذلك، قال فلما خرج من عنده قال له جابر : يا هذا ما صنعت شيئا أترانى ان أكون عونا لصاحب الديوان ؟ قال له يزيد اكتب الى صاحب الديوان ان لا يكلفك مؤونة ، ويعطيك عطاءك كاملا ، قيل وكان عطاؤه سبعمائة أو ستمائة درهم قيل وكان فى ديوان المعاملة .

رأي جابر فى القدر

وقال وقع فى نفس الحجاج شيء من أمر القدر ، فدعا كاتبه يزيد بن ابى مسلم قال ويحك يا يزيد وقع فى نفسى شيء من القدر ، فهل عندك من فرج ؟ قال سأكتب لك الى رجل بالبصرة عنده من ذلك علم ، قال فكتب الى جابر بن زيد ، اما بعد ، فان الامير وقع فى نفسه شيء من أمر القدر فاكتب اليه بما تفرج به عنه ، قال قل للامير يكثر ترديد خطبته فان فيها بيانا لما سأل عنه ، قال فأعلمه بذلك يزيد ، قال فردها مرارا كل ذلك لا ينتبه منها بشيء حتى اذا كان بعد ذلك انتبه ، فقال من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، فقال يا يزيد ويحك ما اعلم صاحبك !

مما يؤثر عن جابر

وقال خرج جابر بن زيد وهو يريد الجمعة فلما أتى المسجد تلقاه الناس متفرقين ، قال فشق ذلك عليه مشقة عظيمة شديدة وقال اللهم لك علي ان لا اعود ، وقال : استأذن عمارة بن حيان على جابر بن زيد فقال له ارجع ، فلما ذهب قال ردوه فردوه فقال اراك وجدت فى نفسك اما انه ازكى لك اذ رجعت ، وقال دخل العنبر على جابر فى

ليلة صافية مظلمة وآمنة قاعدة الى جانبه فى الدار ، وقال فأخذت عليها صلاتها فحدثها جابر ، وقال : ان الله جعل الليل لباسا ، قال : يقول ان الخمار والمقنعة بالليل يجزيان عن رداء .

وقال قال جابر بن زيد ليس للعالم ان يقول للجاهل أعلم مثل علمى والا قطعت عذرك وليس للجاهل ان يقول للعالم اجهل مثل جهلى والا قطعت عذرك ، فاذا قال العالم ذلك للجاهل قطع الله عذر العالم واذا قال الجاهل ذلك للعالم قطع عذر الجاهل .

وقال مر رجلان من أهل الدعوة على ابى الشعثاء وهو قاعد فى سقيفة باب داره ولم يرياه وهما يتذاكران رجلا فقالا عليه لعنة الله ، فقال أبو الشعثاء لعن الله من لعنتما ، قال فانصرفا حين سمعا كلامه ، فقالا ما رأيناك ولا علمنا بمكانك ثم قالا : يا ابا الشعثاء اتلعن رجلا ولم يثبت عندك أمره ؟ قال وأي شيء اثبت منكما وقد اجمعتما على لعنه ؟ وعن الربيع بن حبيب عن شيخ من أهل البصرة . انه قال دخل جابر على عائشة رحمهما الله فسألها عن مسائل ثم انصرف فقالت عائشة لقد سألني عن مسائل لم يسألني عنها مخلوق قط ، تعنى جابرا . وعن الربيع بن حبيب عن بعضهم قال اتيت جابر بن زيد فى بعض الفتيى مما يبتلى به الناس فما أعلم انى كلمت فقيها ولا عالما ولا أميرا قط أعلم منه ، ولا أعقل منه .

جابر تمنى على الله ثلاثا فحققها لـه

وعن الحصين عن جابر بن زيد أنه قال : سألت ربى عن ثلاث فأعطانيهن سألت زوجة مؤمنة ، وراحلة صالحة ورزقا حلالا كفافا يوما بيوم ،وقال لاصحابه ليس منكم رجل أغنى

منى ، ليس عندى درهم ولا علي دين ، وعن قتادة ان الحجاج أرسل الى جابر بن زيد يسأله عن الخنثى كيف يورث ؟ فقال تحبسوننى وتستفتوننى ! ثم قال يورث من قبل مباله قلت وعلى ذلك العمل .

عبد الله بن أباض

ومنهم عبد الله بن أباض المرى التميمى رحمه الله : كان عبد الله بن أباض امام أهل الطريق وجامع الكلمة لما وقع التفريق ، فهو العمدة فى الاعتقادات ، والمبين لطرق الاستدلالات والاعتمادات ، والمؤسس لابنية هى مستندات الاسلاف ، والمهدم لما اعتمده أهل الخلاف ، وكان رأس العقد،ورئيس من بالبصرة وغيرها من الامصار والمتقدم فى حلبة الفضل بين أولئك الاخيار ، قعد عن اللحاق فاشتراه من غير انكار ، وقنع بالخمول من غير قصور ولا اقصار ، وقلى ما اعتقده ابن الازرق فى المحمدية (I) ، وعدل عن طريقي البيهسية . والنجدية ، وسلك محجة العدل ، وكان قدوة لاهل الفضل ، فأليه النسبة اليوم فى العقائد ، معدولا بها عن اسم الولد الى اسم الوالد ، طلبا للتخفيف واختصاص الاشهر ، وذلك فى أللغة معروف لا ينكر ، ولابن أباض فضائل مشهورة فى الآفاق ، وآثار حميدة مخلدة فى بطون الاوراق .

أبو بلال وعروة

ابو بلال وعروة الشاريان

ومنهم ابو بلال مرداس وعروة ابنا أدية رحمهما الله بلغا فى الورع والديانة ، والعلم والصيانة الامد الاقصى

(I) يعنى امة محمد عليه السلام من تحلة دمائهم واموالهم مما يراه غلاة الخوارج ، كالفرق التى ذكرها بعد .

ولكل منهما فضائل لا تحصى ، يعجز عن وصفها كل قائل فلا تكاد تحصى ، ولكل منهما أيام الخروج ، وايام القعود كل موطن مرضي، وكل مقام محمود، من أمر بالطاعة ونهى عن المحارم لا تأخذه لومة لائم ، واما التشمير والتصميم في الدين ، والانفة عن طريق المهادنين ، فذلك عليهما وقف ، لا وهن ولا ضعف يدركهما(2) .

ابو بلال يحذر غيلان الضبى

ثبت عندنا من طريق صحيح ان ابا بلال رحمه الله كان في المسجد الجامع فسمع زيادا يقول على المنبر . والله لآخذن المحسن منكم بالمسيء والحاضر بالغائب والصحيح بالسقيم ، فقام رحمه الله اليه فقال : قد سمعنا ما قلت أيها الانسان وما هكذا ذكر الله عن نبيئه ابراهيم عليه السلام ، اذ يقول (وابراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزيه الجزاء الاوفى) وانك تزعم أنك تأخذ المطيع بالعاصى، قيل وفي عقب ذلك اليوم كان خروجه رحمة الله عليه . وروى ان غيلان بن خوشت الضبى سمر ذات ليلة عند ابن زياد ومعه جماعة فذكر أمر أبى بلال وأصحابه فأحنى عليهم غيلان ثم انصرف بعد الليل الى منزله فلقيه ابو بلال فقال له يا غيلان ، قد بلغنى ما كان منك الليلة عند الفاسق من ذكر هؤلاء القوم الذين يشرون انفسهم ، ابتاعوا آخرتهم بدنياهم ، ما يؤمنك ان يلقاك رجل أحرص والله على الموت منك على الحياة فينفذ حصنك برمحه ، فقال غيلان لن يبلغك أنى ذكرتهم بعد الليلة .

اول سيف سل لعروة

وعن غير واحد من اصحاب التواريخ ان أول سيف سل للمحكمة سيف عروة بن أدية وذلك ان الاشعث بن قيس

---

(2) راجع بعض اخبارهما فى كامل المبدر ، ص 190 ج الثالث تحقيق أحمد محمد شاكر .

لما جاء بصحيفة دعوة أهل الشام فى صفين الى الحكمين جعل الاشعث يطوف بها فى منازل أهل عسكر العراق من منزل الى منزل ، حتى أتى بنى تميم فسل عروة سيفه وأقبل على الاشعث ، فقال : ما هذه الدنية يا اشعث ؟ وما هذا التحكم ؟ أشرط أوثق من شرط الله ؟ ثم ضربه بالسيف والاشعث مولى فأصاب بالسيف عجز البغلة ، فشبت البغلة فنفرت اليمانية ، وكانوا جل أهل العسكر ، فلما رأى ذلك الاحنف قصد هو وحارثة بن قدامة ومسعود بن فدكيك(1) وشيبة ين ربعى الى الاشعث ، فسألوه الصفح ففعل .

صراحة عروة وتقواه

وذكر المبرد أن عروة لم يزل باقيا مدة من أيام معاوية حتى أتى به زياد ، ومع عروة مولى له فسأل زياد عروة عن أحوال الخلفاء والولاة حتى سأله عن نفسه ، فقال : أولك لزنى وآخرك لدعوى ، وانت بعد عاص لربك ، ثم أمر به فضربت عنقه ، ثم دعا مولاه فقال صف لى أموره فقال أأطنب أم اختصر ؟ فقال : اختصر ، فقال ما أتيته بطعام نهارا قط ولا فرشت له فراشا بليل قط ، ومن كامل المبرد قال : وكان مرداس بن حدير أبو بلال (2) أحد بنى ربيعة بن حنظلة يعظمه الخوارج وكان مجتهدا كثير الصواب فى لفظه ، فلقيه غيلان بن خوشت الظبى فقال يا ابا بلال : انى سمعت البارحة الامير عبد الله بن زياد يذكر البلجاء وأحسبها ستوخذ ، فمضى اليها ابو بلال فقال لها ان الله قد وسع عن المومنين فى التقية فاستترى فان هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك فقالت ان يأخذنى فهى

---

(1) كذا بالنسخ ، وذكره فى الكامل باسم مسعود بن فدكى بن عبد وذكر من بعده باسم : شبث بن الربعى الرياحى راجع الكامل ج الثالث ص 909

(2) هو اسم أبيه وأما اضافتها وهو واخوه الى أدية فهى جدتهما ، كما ذكر ذلك المبرد وتجد نسبهما كاملا عنده .

أشقى به ، فأما انا فما احب أن يعنت انسان بسببى فوجه اليها عبيد الله بن زياد فاوتى بها فقطع يديها ورجليها ورمى بها فى السوق فمر بها ابو بلال والناس مجتمعون وقال ما هذا فقالوا البلجاء فعرج اليها ثم عض لحيته ، فقال لنفسه : لهذا أطيب نفسا على بقية الدنيا منها يا مرداس ؟ (1)

مرداس ينجو من الموت فيعود اليه

قال ثم ان عبيد الله اتبع ابا بلال وأصحابه يحبسهم ، فحبس مرداسا فرأى صاحب السجن شدة اجتهاده وحلاوة منطقه ، فقال انى أرى مذهبا حسنا وانى لأحب ان أوليك معروفا أفرأيت ان تركتك تنصرف الى بيتك ليلا اتروح إلي ؟ قال نعم فكان يفعل ذلك فلج عبد الله فى قتلهم وحبسهم . فكلم فى بعضهم فابى ، وقال اقمعهم قبل ان ينجموا كلام هؤلاء اسرع الى القلوب من النار الى اليراع (2) . قال : فلما كان ذات يوم قتل رجل منهم رجلا من الشرط فقال ابن زياد ما ادرى ما أصنع بهؤلاء كلما امرت رجلا يقتل رجلا منهم فتك بقاتله ، لا قتلن من فى حبسى منهم ، وقد أخرج السجان مرداسا الى منزله كما كان يفعل ، واتى مرداسا الخبر ، فلما كان السحر تهيأ للرجوع فقال له اهله اتق الله فى نفسك ، فانك ان رجعت قتلت . فقال ما كنت لالقى الله غادرا ، فرجع الى السجان فقال : انى علمت ما عزم عليه صاحبك فقال أو علمت ورجعت ؟ !

قال ويروى ان مرداسا مر باعرابى هنأ بعيرا فهرج البعير فسقط مرداس مغشيا عليه ، فظن الأعرابي انه

(1) عبارة الكامل : لهذه اطيب نفسا عن بقية الدنيا منك يا مرداس .

(2) اليراع القصب .

صرع ، فقرأ في اذنه ، فلما افاق قال له الاعرابى انى قد قرأت فى اذنك ، فقال مرداس ليس في ما خفته علي ، ولكن رأيت بعيرك هرج من القطران ، فذكرت به قطران جهنم ، فأصابنى ما رأيت ، فقال له لا جرم ، والله ما فارقتك .

رأي الشراة فى السكوت عن الظلمة وخروجهم عنهم

قال فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى جده في طلب الشراة عزم على الخروج ، فقال لاصحابه انه والله لا يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين تجرى علينا احكامهم مجانفين للعدل ، مفارقين للفضل ، والله ان الصبر على هذا لعظيم ، وان تجريد السيف واخافة السبيل لعظيم ، ولكنا نشذ عنهم ، ولا نجرد سيفا ، ولا نقاتل الا من قاتلنا . فاجتمع اليه اصحابه زهاء ثلاثين رجلا منهم حريث بن حجل السدسى ، وكهمس بن طلق الصريمى ، فارادوا أن يولوا أمرهم حريثا فأبى ، فولوا أمرهم مرداسا ، فلما مضى باصحابه لقيه عبد الله بن زياد الانصارى (I) ، وكان له صديقا ، فقال له يا أخي أين تريد ؟ فقال أريد ان أهرب بديني وأديان أصحابى من أحكام هؤلاء الجورة ، فقال أعلم بكم أحد ؟ قال لا ، قال : فارجع ، قال أتخاف علي مكروها ؟ قال نعم ، وأن يؤتى بك قال : فلا تخف ، فانى لا أجرد سيفا ولا اخيف احدا ولا أقاتل الا من قاتلنى ، ثم مضى حتى نزل آسك وهو ما بين «رام هرمز» و «أرَّجلان» ، فمر به مال يحمل الى ابن زياد وقد قارب أصحابه أربعين فحط ذلك المال، فأخذ منه عطاءه ، ورد الباقى على الرسل . وقال لهم : قولوا

(I) حققه الشيخ أحمد محمد شاكر فى الكامل بعبد الله بن رباح الانصارى قال : ه من الثقاة مات 90 هجرية

لصاحبكم انما قبضنا اعطياتنا ، فقال بعض أصحابه فعلام تدع لهم الباقى وهو فىء ؟ فقال لهم انما يقسمون الفىء كما يقيمون الصلاة . أفنقاقتلهم على الصلاة ؟

ولابى بلال اشعار فى الخروج اخترنا منها قوله :

ابعد ابن وهب فى الوفاء وفى التقى
ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا

احب لقاء أو أرجى سلامة
وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا

فيا رب سلم نيتى وبصيرتى
وزدنى التقى حتى ألاقى أولئكا (2)

قال : ويروى ان رجلا من أصحاب ابن زياد قال خرجنا فى جيش نريد خراسان ، فمررنا "بآسك"، فاذا نحن بهم ستة وثلاثين رجلا ، فصاح بنا ابو بلال : اقاصدين لقتالنا انتم ؟ وكنت انا واخى ، فدخلنا زربا ، فوقف اخى ببابه فقال السلام عليكم فقال مراس وعليكم السلام ، فقال لاخى أجئتم لقتالنا ؟ قلنا لا انما نريد خراسان ، قال : فابلغوا من لقيكم انا لم نخرج لنفسد فى الارض ، ولا لنروع احدا ، ولكن هربا من الظلم ، ولسنا نقاتل الا من يقاتلنا ، ولا تأخذ من الفىء الا اعطياتنا ، ثم قال أندب الينا أحد ؟ قلنا نعم اسلم بن زرعة الكلابى ، قال فمتى ترون يصل الينا ؟ قلنا يوم كذا وكذا . فقال ابو بلال : حسبنا الله ونعم الوكيل . وجهز عبيد الله بن زرعة فى اسرع وقت ، ووجهه اليهم فى الفين ، وقد تتام أصحاب

(2) رواية المبرد فيها بعض خلاف فراجعها ان اردت .

مرداس اربعين رجلا : فلما صار اليهم ابن زرعة صاح به ابو بلال : اتق الله يا مسلم فانا لا نريد قتالا ولا نحتجن فيئا ، فما الذى تريد ؟ قال أريد ان اردكم الى ابن زياد ، قال مرداس اذا يقتلنا ، قال وان قتلكم ! قـال تشرك فى دمائنا ، قال أذن الله بانه محق وانتم مبطلون ، فصاح به حريث بن حجل : هو ممن يطيع الفجرة ، وهو احدهم ويقتل بالظنة ، ويخص بالفيء ، ويجور فى الحكم اما علمت انه قتل بابن سعادة اربعة براء ، وانا أحد قتلته ؟ ولقد وضعت فى بطنه دراهم كانت معه (1) . ثم حملوا عليه حملة رجل واحد ، فانهزم هو وأصحابه بغير قتال ، قال وكان معبد أحد الشراة قد كاد أن يأخذه ، فلما ورد على ابن زياد غضب عليه غضبا شديدا ، وقال ويحك اتمضى فى ألفين وتهزم لحملة من أربعين رجلا ؟ وكان مسلم يقول لان يذمنى ابن زياد وانا حي أحب الي من ان يمدحنى وانا ميت . وكان اذا خرج الى السوق ومر

بصبيان صاحوا به ابو بلال وراءك ، وربما صاحوا به يا ابا سعيد (2) خذه ، فشكى ذلك الى ابن زياد ، فأمر الشرط ان يكف الناس عنه ، ففى ذلك يقول عيسى بن فاتك التميمى من بنى تيم اللات بن تغلبة فى كلمة له :

فلما اصبحوا ، صلوا وقاموا
الى الجود العتاق مسومينا

فلما استجمعوا حملوا عليهم
فظل ذوو الجفال يقاتلونا

(1) هكذا فى النسخ التى بأيدينا

(2) عبارة المبرد : يا معبد خذه .

بقيـــــة يـــومهـــم حتـــى اتـــاهـــم
سـواد الليـل فيـه يـراوغـونا

يقـــول بصـــيرهـم لمـا أتـــاهـم
بـأن القـوم ولـوا هاربينـا

أألفـــا مؤمنـين فيمـا زعمتـم
ويهـزمهـم زهـاء اربـعينـا؟

كذبتـم ليـس ذاك كمـا زعمتـم
ولكـن الخـوارج مـومنـونـا

هـم الفئـة القليلـة غـير شـك
عـلى الفئـة الكثـيرة ينصـرونـا

قال ثم ندب ابن زياد لهم الناس فاختار عباد بن اخضر فوجهه فى اربعة آلاف فنهد لهم، ويزعم أهل العلم : ان القوم قد كانوا تنحوا عن دار «بجرد» بأرض فارس فصار اليهم عباد وكان التقاؤهم فى يوم الجمعة ، فناداهم ابـو بلال ، اخرج الي يا عباد ، فانى أريد ان أحاورك ، فخرج اليه (فقال له أبو بلال) ما الذىتبغى؟ قال ان آخذ بأقفائكم ونردكم الى الامير عبد الله بن زياد ، قال او غير ذلك ؟ قال وما هو ؟ قال ان ترجع ، فانا لا نخيف سبيلا ، ولا نذعـر مسلما ، ولا نحارب الامن حاربنا ، ولا نجبى الا ما حمينا . فقال له عباد الامر ما قلت لك ، فقال له حريث بن حجـل اتحاول ان ترد فئة من المسلمين الى جبار عنيد ؟ فقال لهم انتم اولى بالضلال منه، وما من ذلك بد. قال وقدم القعقاع بن عطية الباهلى من خراسان يريد الحج ، فلما رأى الجمعين قال ما هذا ؟ قيل له الشراة ، فحمل عليهم ونشبت الحـرب فأخـذ القعقاع أسيرا ، فاوتى به أبا بـلال ، فقال لـه

من انت ؟ قال لست من اعدائك وانما قدمت للحج فجهلت وغررت ، فاطلقه فرجع الى عباد ، فاصلح من شأنه ثم رجع فحمل عليهم ثانية وهو يقول :

اقاتلهم وليس على عتب
نشاطا ليس هذا بالشطاط

اكر على الحروريين مهرى
لاحملهم على وضح الصراط

فحمل عليه حريث وكهمس فأسراه فقتلاه، ولم ياتيا به أبا بلال .

يقتلون غدرا لاجل محافظتهم على الصلاة

فلم يزل القوم يتجلدون الى وقت الصلاة صلاة يوم الجمعة، فناداهم أبو بلال يا قوم هذا وقت الصلاة ، فدعونا حتى نصلى وتصلوا صلاة الجمعة ، قالوا لك ذلك ، فرسى القوم اجمعين باسلحتهم ، وعمدوا للصلاة ، فاسرع عباد ومن معه ، وأبو بلال وأصحابه بين راكع وساجد وقائم فى الصلاة وقاعد ، حتى مال عليهم عباد ومن معه فقتلوهم جميعا ، واتى براس ابى بلال وكان فى القوم كهمس وكان ابر الناس بأمه فقال يا أماه لولا مكانك لخرجت ، فقالت يا بنى قد وهبتك لله ففى ذلك يقول عيسى بن فاتك

ألا فى الله لا فى الناس شالت
بداوود واخوته الجذوع

مضوا قتلا ، وتشريحا ، وصلبا
تحوم عليهم طير ، وقوع

اذا ما الليل أظلم كابدوه
فيسفر عنهم وهم ركوع

اطـــار الخـــوف نومهـــم فقـــامـــوا
وأهـــل الأمـــن فى الدنيـــا هجـــوع

وقال عمران بن حطان :

يا عـــين أبكـــى لمـــرداس ومصـــرعـــه
يا رب مـــرداس اجعلـــنى كمـــرداس

تركتـــنى هائمـــا ابكـــى لمـــرزئتى
فى منـــزل موحش مـــن بعـــد ايناس

انكـــرت بعـــدك ما قـــد كنت أعـــرفه
يا رب مـــرداس اجعلـــنى كمـــرداس (1)

بقية الشراة تقتص من عباد

قال ، ثم ان عبادا لبث فى المصر محمودا لما كان منه ، حتى ائتمر به جماعة من الشراة ، ان يفتكوا به ، وذمـــر بعضهم بعضا على ذلك ، فجلسوا له فى جمعة ، وقد اقبـــل على بغلة له ، وابنه رديفه ، فقام اليه رجل منهم ، فقـــال اسألك عن مسألة ؟ قال ، قل ، قال أرأيت رجلا قتل رجلا بغير حق ، والقاتل ذوجاه وقدر ، وناحية ، عند السلطان، ألولى ذلك المقتول ان يفتك به ان قدر عليه ؟ قال ، بـــل يرفعه الى السلطان ، قال : ان السلطان لا يعدى عليه لمكانه منه ، قال اخاف عليه من ان يقتله به ، قال : دع ما تخافه من ناحية السلطان . أيلحقه من الله اثم ؟ قال ، لا . فحكّم هو واصحابه ، وخبطوه باسيافهم ، فرمى عباد بابنـــه فنجا ، وتنادى الناس ، قتل عباد ، فأخذوا أفواه الطـــرق ، وكان مقتل عباد سكة بنى مازن فحارب بنو مازن قتلـــة عباد حتى قتلوهم .

(1) أنظر تتمة المقطوعة فى الكامل .

قيل ، وكان ذلك سببا لجد ابن زياد فى تتبعه الشراة حتى بعث الى خليفته بالبصرة ، أن وجه الي بعروة بن أديه فلم يزل يطلبه حتى دل عليـــه فى سرب العــلا بن سوية المنقرى . فكتب بذلك الى عبيد الله بن زياد فقرىء عليه الكتاب : انا اصبناه فى شرب (1) ، فتهانف به عبيد الله ، فقال له صفحت ولؤمت ، اذ هو فى سرب العلا بــن سوية ، ولوددت انه كان . انه ما كان ممن يشرب النبيذ قلــت ، وهذا الخبر قد تقدم معناه ، وفى الرواية بعض المخالفـــة للخبر المتقدم من ذكر عروة .

الحوار الذى دار بين ابن زياد وعروة

قيل ، فلما أقيم عروة بين يديه أخذ يحاوره ، وقـــد اختلف فى خبره واصحه عندنا انه قال له : اجهزت أخاك علي ؟ فقال والله لقد كنت به ضنينا ، وكان لى عــرى (2) ولقد اردت له ما أريد لنفسى ، فعــزم عزما فمضى عليه ، وما أحب لنفسى الا المقام وترك الخروج ، قال له فانت على رايه ، قال كنا نعبد ربا واحدا قال أما والله لامثلن بك . اختر لنفسك من القصاص ما شئت فامر به فقطعوا يديــه ورجليه ثم قال لـــه كـــيف تـــرى ؟ قال افسدت علي دنياي وافسدت عليك آخرتك ، ثم أمر به فقتل ثم صلب عـــلى باب داره ، ثم دعا مولاه فسأله عنه ، فاجابه بجواب قـــد مضى ذكره ، وقال ابو سفيان لما قطع الفاسق عبيد اللـــه بن زياد يدىعروة ورجليه ، جاءه اعرابى ، فقال من هذا ؟ قالوا رجل اراد الامير عذابه ، قال هلم الى بسيف فأعطـــاه سيفا فضرب عنقه ، قال فاجتمع لذلك نفر مـــن الشراة ، فأتوا الى امرأة منهم فقالوا لها : قاتل عروة دلينا عـــلى

(1) تهانف : ضحك وتبسم .
(2) فى نسخة كان لى عزا .

موضعه ، فقالت اقتلوه في بيتي وعلى أن آتيكم به ، فعمدوا الى موضع فى البيت فحفروا فيه حفرة ، ثم القوا عليها شيئا ثم ذهبت اليه فعرضت عليه شيئا يشتريه أو اشترت منه شيئا، وأقبلت فادخلته الدار عليها ، فالقوه فى الحفرة فردوا عليه الحجارة والتراب ثم غيبوه . والحقه الله الى النار وبئس المصير .

اذا كنت في مجلس فاحسن حمل راسك

وقال أبو سفيان مر ابو بلال يوما بجماعة من قومه فى ناديهم على فرس له ، فوقف فسلم ، قال فقال شاب منهم يا ابا بلال فرسك حرورى ، فقال أبو بلال وددت والله أنى أوطأته بطنك فى سبيل الله ، قال فمضى أبو بلال وقد وقع فى نفس الفتى قولة أبى بلال قال فقال لاصحابه انى مقتول ، قالوا لا تخف ، قال دعونى انى مقتول ، قال فمشت اليه جماعة منهم بالفتى ، فقالوا : يا ابا بلال زلة كانت ، فاصفح عنها . قال : فعلت ، ولكن يا فتى اذا كنت فى مجلس فأحسن حملان راسك .

خشية ابى بلال وخوفه من الله

وقال خرج ابو بلال مع صاحب له فبينما هو يسير فى الطريق اذ مر بحدادين فنظر اليهم ، فغشي عليه ، ولم يزل به الرجل يرش على وجهه الماء حتى أفاق ، ثم سار ، فبينما هما يسيران استقبلتهما امرأة جسيمة بهية ، عليها من الكسوة والهيئة ما الله به عالم ، فلما نظر اليها غشي عليه ، ولم يزل يرش على وجهه الماء حتى أفاق ثم سار حتى استقبلهما رجل على برذون فى نزهة وهيئة عجيبة وخلفه غلمان ، فلما نظر اليه غشي عليه ، فلم يزل يرش على وجهه الماء حتى أفاق ، فقال يا ابا بلال رحمك الله ما هذا ؟ قال اما المرة الاولى فقد علمت انك عاينت النار فحدثنى عنك حين رأيت المرأة والرجل فقال اما المرأة

فأني لما رأيت عظمها وحسنها وما هى فيه من الهيئة ذكرت تقلبها فى النار فكان ما رأيت، واما الرجل فانى كنت أراه كثيرا يشهد مجالس المسلمين فذكرت سوابق الشقـــاء . فنسأل الله العافية ، وذكر ابو سفيان لما رفع أهل الشام المصاحف قال عروة رحمه الله :

أيحـــرم أهـــل الشـــام منـا بشبهـــة
وليس علينـــــا قتلهـــــم بمحـــــرم؟

وقالـــوا كتـــاب اللـــه يحكـــم بيننـــا
فقلنا كتـــاب اللـــه خـــير محكــــــم

قبلنــــاه منكـــم ، والحـــوادث جمـــة
رضينـــا بـــه في حرمـــة المـــال والدم

فـــان تقبلـــوه فالهـــدى فى أكفنـــا ،
وَالا اجتلـــدنـــا بالصفيـــــح المصمـــم

بضرب يـــزيـــل الهام عـــن مستقـــره
وشيكـــا ، وطعـــن بالوشيـــج المقـــوم

فـــلا شيء أدنى مـــن شفاعـــة ربنـــا
والا ففينـــا مـــن بقيـــة جـرهـــم

عمـــران بن حطـــان

ومنهم عمران بن حطان الشارى رحمه الله ورضى عنه هو النهاية فى الورع والصلاح واطراح الدنيا كل الاطراح لما خصه الله عز وجل من فنون العلم والنزاهة والحلـــم وشهامة الجنان ، وفصاحة اللسان ، ان خطب ابلغ وأطنب أو أوجز ، وان نظم سحر ببيانه وأعجز ، فمن ذلك ما حكى المبرد قال لما قتل ابو بلال رحمه الله قال عمران بن حطان :

لقـــــد زادالحيـــــاة الـــي بغضـــا
وحبـــا للخـــروج ابـــو بـــــلال

احـــاذر ان امـــــوت عـــلى فـــراشى
وأرجـــو المـــــوت تحـــت ذرى العوالى

فمـــــن يـــك همـــه الـدنيـا فـانـى
لهـــا واللـــــه رب العـــــرش قـالى

وقال يرثيه فى أبيات قد تقدمت ، وأولها (يا عين ابكى لمرداس ومصرعه) وقالها ابو بلال قبل الخروج ، وقـــد نسبت لغيره ، قيل والصحيح انها له ، ذكرها ابن السيكت وغيره وهى قوله :

لقـــــد زاد الحيـــاة الى حبـــــا
بنات انهـــن مـــــن الضعـــــاف

احـــاذر ان يريـــن الفقـــر بعـــدى
وان يشربـــن رنقا بعـــــد صـــاف

وان يعـــــرين ان كسى الجـــوارى
فتنبو العـــين عـــن كـــرم عجـاف

ولولا ذاك قـــــد سومت مهـــرى
وفى الرحمـــــان للضعفـــــاء كاف

أبانا مـــــن لنـــا ان غبـــت عنـــا
وصار الحى بعــــدك فى اختـــلاف

ومن هاهنا أخذ عمران قوله لقد زاد الحياة الى بغضا . قال المبرد كان عمران رأس العقد وخطيبهم وشاعرهـــم ، قال وكان من حديثه انه لما طرده الحجاج كان ينتقـــل فى

القبائل ، فكان اذا نزل في حي انتسب نسبا يقرب منه . وفي ذلك يقول :

نزلنا في بني سعد بن زيد
وفي عاد وعامر عوثبان

وفي لخم وفي أدد ابن عمر
وفي بكر وحي بني العدان

تنقل عمران في احياء العرب مختفيا

ثم خرج حتى نزل عند روح بن زنباع الخدامي ، وكان روح يقرى الاضياف وكان مسامرا لعبد الملك بن مروان اثيرا عنده ، وانتمى له من الازد ؛ وفي غير هذا الحديث ان عبد الملك ذكره وقال ما اعطي احد ما اعطى ابو زرعة اعطي فقه اهل الحجاز ودهاء أهل العراق ، وطاعة أهل الشام ، قال وكان روح بن زنباع لا يسمع شعرا نادرا ، ولا حديثا غريبا عند عبد الملك فيسأل عنه عمران ابن حطان الا عرفه وزاد فيه ، وذكر ذلك لعبد الملك بن مروان ، وقال ان لي جارا من الازد ما اسمع من امير المؤمنين خبرا ولا شعرا الا عرفه وزاد فيه ، وقال : أخبرني ببعض اخباره فخبره وانشده ؛ فقال ان اللغة عدنانية ، واني لاحسب ضيفك عمران بن حطان ، حتى تذاكر الليلة بيتين من الشعر ، فلم يدر عبد الملك لمن هما ، فرجع روح فسأل عمران عنهما ، فقال هما لعمران بن حطان فرجع روح الى عبد الملك فاخبره فقال ضيفك عمران بن حطان اذهب فجئني به فرجع اليه فقال ان امير المؤمنين قد احب ان يراك ، فقال عمران قد أردت ان أسألك ذلك فاستحيت منك ، فامض فاني بالاثر ، فرجع روح الى عبد الملك ، فأخبره فقال عبد الملك : اما انك سترجع فلا تجده فرجع وعمران قد ارتحل وخلف رقعة فيها :

يا روح كم مـــن أخي مثوى نزلت به
قد ظن ظنـــك مـــن لخم وغســـــان

حتى اذا خفتــه فارقت منــــزله ،
من بعد ما قيل عمـــــران بن حطان

قد كنت جارك حـــــولا لا تروعنى
فيه روائـــــع من انس ومن جـــان

حتى أردت بى العظـــــمى فادركنى
ما ادرك الناس من خوف ابن مروان

فاعذر اخاك ابن زنباع فان لـــــــه
فى النائبات خطوبا ذات ألـــوان

يوما يمـــــان اذا لاقيت ذا يمـــــن
وان لقيـــــت معـــديا فعـــدنانى

لو كنت مستغفـــرا يومـــــا لطاغية
كنت المقدم فى ســـــرى واعـــلانى

لكـــن أبت لي آيـــــات مطهـــــــرة
عند الولايـــة فى طــه وعمـــــران

ثم ارتحل حتى نزل بزفر بن الحارث الكلابى احد بنى عمرو بن كلاب فانتسب له أوزاعيا فكان عمران ممن يطيل الصلاة ، وكان غلمان بنى عمرو يضحكون منه فأتاه رجل يوما ، ممن رآه عند روح بن زنباع ، فسلم عليه فدعـــاه زفر ، فقال من هذا ؟ قال رجل من الازد ، رأيته ضيفـــــا لروح بن زنباع ، فقال له زفر : ما هذا ، أزديا مــــــرة وأوزاعيا أخرى ؟ ان كنت خائفا أمناك وان كنت فقيرا جبرناك . فلما أمسى خلف فيمنزله رقعة ـ وهرب ـ فيها :

ان التى اصبحت يعنى بــه زفــر
اعيت عياء على روح بن زنبـــاع

ما زال يسألنى حــولا لأخبـــره
والناس من بين مخدوع وخــداع

حتى اذا انقطعت عنى مســائلـه
كفّ الســؤال ولم يولع باهلاعى

فاكفف لسانك عــن لومى وأسئلتى
مــاذا تريــد الى شيــخ لأوزاعى

اما الصلاة فانى لســت تاركهــا
كل امــرئ بالذى يعنى بــه ســاع

اكرم بروح بــن زنبــاع واسرتــه
قـــوم دعا أوليهــم للعــلا داع

جاورتهــم سنـــة فيما أسر بـــه
عرضى صحيح ونـــومى غير تهجاع

فاعمــل فانك منعيّ بواحـــــدة
حسب اللبيب بهــذا الشيب من ناع

ثم ارتحل ، حتى اتى عمان ، فوجدهم يعظمون أمر ابى بلال ويظهرونه فاظهر أمره فيهم فبلغ ذلك الحجاج فكتب الى عمان فيه ، فهرب عمران حتى اتى قوما من الازد فلم يزل فيهم حتى مات رحمه الله . وهو يقول :

نزلنا بقـــوم يجمع اللــه شملهــم
وليس لهم عود ســوى المجد يعتصر

نزلنا بحمد الله فى خـــير منــــزل
نسر بما فيــه مـــن الانس والخفر

من الازد ان الازد أكـــرم معشـــر
يمانيـــة طابـــوا اذا انتسب البشر

فاصبحت فيهـــم آمنـــا لا كمعشـــر
اتونى فقالوا مـــن ربيعة أو مضر

أم الحي قحطان ، فتلكم سفـــاهـــة
كما قاله روح ، وصاحبـــه زفـــر

ومـــا منهمـــا الا يسر بنسبـــــة
تقربنى منـــه وان كان ذا نفـــر

فنحن بنو الاسلام ، واللـــه واحـــد
وأولى عبـــاد اللـــه باللـــه مّن شكر

ومر عمران بالفرزدق على باب بعض الملوك الطائيين ينشد شعرا يمدحه به فسمعه قد تجاوز النهاية فى المدح وغلا غلوا عظيما فقال عمران :

ايهـــا الســـائل العبـــاد ليعطى
ان للـــه مـــا بايـــدى العبـــاد

فاسـأل اللـــه ما رجـــوت لديهـــم
وارج فضـــل المهيمـــن العـــواد

لا تقل فى الجـــواد ما ليس فيـــه
وتسمى البخيـــل باسم الجـــواد

وذكر غير واحد من اهل التواريخ انه لما أوتى الحجاج بعمران بن حطان اسيرا قال يا حربى أضرب عنق ابـــن

الزانية ، فقال له عمران : « بئس مـا ادبك به أهلك يا حجاج : ابعد الموت منزلة اصانعك عليها ؟ ما كان يؤمنك ان ألقاك بمثلها » ؟ ! فاستحى الحجاج ، فأطلقه ، وذكـر ان اصحابه اجتمعوا اليه فقالوا انما أطلقك الله لما رأى فى رجوعك الينا هلم الى محاربة الحجاج ، فقال هيهـات غل يدأ مطلقها ، واسترق رقبة معتقها ، والله لا احاربه أبدا ، فجعل ينتقل فى الاحياء مختفيا كما تقدم .

جعفر بن السماك

ومنهم جعفر بن السماك رحمه الله . شيـخ الصيانة والنزاهة ، وركن الديانة والفقاهة (1) ، المحافظ عـلى طريق الصديقين ، والمطرح فى حرمة الخالق حرمة المخلوقين الآتى بيت الصلاح من بابه ، الا فيما ليس باللائق باضرابه له الكعب العالى فى أهل زمانه ، والتقدم فى فضله ومكانه.

وفوده مع جماعة على عمر بن عبد العزيز

قال ابو سفيان وفد جعفر بن السماك العبدى وكـان شيخ ابى عبيدة ، وكان ماحفظ عنه ابو عبيدة اكثـر مما حفظ عن جابر قال فخرج جعفر بن السماك ، والخباب بن كليب ، وسالم الهلالى فى جماعة من اخوانهم الى عمر بـن عبد العزيز حين ولي الخلافة ، قال فدخلوا عليه فكلموه ، فقال لهم : هل تنكرون من أمر الاحكام شيئا ؟ قالوا : لا . قال ، فكلما كلموه يفـزع الى الاحكام . قـال فبايعـوه وذكروا أمر الولاة قبله فأخـذ يعتـذر عنهم ، يريد ان ينصرفوا عنـه قال فقال الخبـاب ، فضربت على ركبتـه وقلت أو انك لهاهنا تعذر الظلمة ؟ وتفـعل ؟ فقال عمر يا عبد الله امسك عليك يدك فانى لوامرت قال وكان جعفر

---

(1) مصدر فقه يفقه فقها وفقاهة كان الفقه سجية فيه .

ألطفهم به قال فقال ما فيكم أرفق من الاشج وكان جعفر مشجوجا فى جبهته . قــال ، فاجابهم عــبد الملك بن عمر وقبل ما دعوه اليه. قيل، وسئل جعفر واصحابه حين رجعوا من عند عمر عن عمر ، فقال : هو مثل الحسن يقدم رجلا ، ويؤخر أخرى ، وذكر أبو سفيان عن الحسن انه كان يقول انهم وان قرنت بهم براذينهم ، فان ذل المعاصى فى رقابهم ابى الله الا ان يذل من عصاه . (1)

صحار العبـدى

ومنهم صحار العبدى رحمه الله - ذو المآثر الأثـيرة ، ومن كان يدعو الى الله على بصيرة ، حمل فقها جـزيلا ، وكان باعه فى العقائد طويلا ، وكان احد الزهاد ، واحد الزاهدين عن معتقد فاسدى الاعتقاد ، قال ابو سفيان كان ابو عبيدة يضعف امر القدر ، ويقول : والله ما فيه نكاح ذات بعل ، ولا انتحال هجرة ، ولا حكم بغير ما انزل الله ، انما هو رأى احدثه الناس فيما بينهم ، فمن أقر بان الله علم الاشياء قبل ان تكون فقد أقر بالقدر ، قال ابو سفيان وذلك ان صحارا يقول : كلمهم فى العلم فان اقروا بـــه نقضوا أقوالهم وان انكروه كفروا .

رأي ابى عبيـده فى القـدر

قريب بن مالك وزحاف

ومنهم قريب (و) زحاف ابنا مالك رحمهما الله ، كانا بالفضل بمكان ، وبمن يعد فى تلك الامكان ، متبتلـــين للعبادة ، وكانت عنهما هفــوة كفرتها الشهادة ، حــدث ابو سفيان قال لما الح ابن زياد فى أخذ الشراة اخذ جماعة منهم فمنهم العرب والموالى ، قال فامـــر الموالى بضرب

(1) يعنى الحسن . بهذا بنى امية

أعناق العرب فابوا ، وقالوا لا نقتل أهل ولايتنا وأهـــل نعمتنا ، قال وامر العرب بضرب اعناق الموالى ، فضربـوا اعناقهم فلما فعلوا ذلك خلى سبيلهم ، قال فلما خرجـــوا من عنده قالوا ما صنعنا ! قتلنا اخواننا وأولياءنا ، قـال فأتوا الى أوليائهم وقالوا استقيدوا منا ، قالوا تالله لا نفعل عمدتم الى أوليائكم فقتلتموهم وقد دعوا الى مثل ما دعيتم اليه فأبوا ستلقونهم غدا عند الله. قال وكان فيهم قريب وزحاف وآخر يسمى كعبا ، وغيرهم . فندموا أشد الندامة قال وكان أحـدهم اذا تيمم مجلسا مـن مجالس المسلمين يستأذن فلا يؤذن له ، ويخاطب بأقبح الخطاب ، فيقف يبكى ما شاء الله ، ثم ينصرف . قال فاما كعب فانه لم يذكر ذلك الموقف قط الا صعق ، قال فخرج ذات مرة من البصرة الى مكة مع ابى عبيدة ، قال وكان ذات ليلة فى مضجعـه اذ انتبه ، فتذكر ، فصعق ووقع عن الجمل ، فأتاه أبو عبيدة فنزل اليه وجعل يرفع رأسه ، ويقول : انى لارجو ان لا يعذب الله كعبا ، فكان هذا ما سمع فيه من ابى عبيـدة ، واما قريب وزحاف فانهما لما اعياهما الامر خرجـــا فى سبيل الله ، فقاتلا ، حتى قتلا وكان فيما يزعمون يقـول احدهما كلما ضرب عضو منه اللهـم عضو بعضو ، حتى قتلا ، وحدث عن حاجب بن مسلم ، عن جابر ، والاسـود ابن قيس بـن أبى وقاص « أو أبى فقعس » انهمـا كانا يلقيان ابن عباس فى الموسم ، فجاء جابر وحده ، فقال له ابن عباس ، اين صاحبك ؟ قال اخذه عبيد الله بن زيـاد فقال ابن عباس وانه لمنهم ، فقال له جابر نعم . أو ما انت

يكفرون عن خطئهم بالخروج للجهاد

منهم ؟ قال اللهم لا ، وذكروا ان « اشجع بن قرة » كان واليا عليهم بعد عبد الله بن حوش ، حتى قتلوا جميعا ، وقد كانوا هزموا عدوهم مرتين .

الناس يومئذ ثلاثه اصناف

حدثت أم نافع بن خليفة : ان الناس يومئذ على ثلاثة اصناف ، صنف جبابرة ، واتباعهم، وصنف فساق يشربون النبيذ ، ويضيعون الصلاة ، ويعملون بالفواحش ، وليس هنالك يومئذ صفرية ولا أزارقة ولا شكاك ، وانما الذى يسمون : القراء يدينون بقتال الجبابرة وبالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقمع الفساق عما يصنعون ، فلما رأى ذلك زياد جعل يتخذ الادلاء عليهم ، ويأخذهم فيقتلهم فلما رأوا ذلك منه خشوا ان يقتلهم على فرشهم . فحدثنى من لا اتهم ان أول من خرج عليهم قريب وزحاف ابنا مالك وكان خال حصين بن عدى بن حاتم ، فحدث حصين بن همام الكندى عن يسرة أبى يسار ، وكانت فاضلة قالت : لقد قالا شاعرا بنى دهل يومئذ تعنى قريبا وزحاف :

وقالوا لنا خلوا لنا عن طريقنا
فقلنا لهم لا ، والحليم الكريم

الى أن نُجَرِّى فيكم بسيوفنا
ونقطع فى الهامات كل قويم

يجرون بالارسان من وسط دورنا
الى موقف للظالمين لئيم

الاحنف بن قيس

ومنهم الاحنف بن قيس ، تضرب به الامثال فى الحلم ، واكثر صفات الكمال ، فسل عن انبائه من لقيت من

الركاب ، أو فاطلع على ما امكنك فى هذا الفن من ديوان تجـــده المشار اليه فى كرم الشمائل ، والمعتمد عليه فى كثير من الفضائل .

اياس بن معاويــة

ومنهم اياس بن معاويـــة ، وتضرب بــه الامثــال فى الذكاء ، وتحرى الصواب فى القضاء ، أو ما سمعت قول ابى تمام :

اقدام عمـــرو فى سماحـــــة حاتــــم
فى حلـــــم احنف ، فى ذكـــاء ايــاس

يتهرب مـــن تولى القضاء تحرجا وورعا

ومن طريف ما يوثر عنه ، ما حكى أبو الحسن على بن عبد الحسن التنوخى . انه لما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب الى والى البصرة ان يحضر اياس بن معاوية المدونى ، والقاسم بن ربيعة الحونى ، ولينظر ايهما أنفذ فى الحكم يقلده اياه فلما وقف على الكتاب احضرهما ، فقرأه عليهما فقال اياس اسأل عنى وعنه فقيهي المصر الحسن ، وابــن سيرين ، واسمع منى ومنه ، قال : قل ، فقال بالله الذى لا اله الا هو ــ وحلف يمينا مستوفية جامعة لمعانى الحلف ــ ان اياس بن معاوية اصلح للحكم منى وأنفذ فيه،فان كنت عندك صادقا فقلده ، وان كنت كاذبا فما يحل لك ان تقلد الحكم بين المسلمين من يبارز الله بمثل هذا اليمين كاذبا ، فقال اياس : لا تسمع منه ايها الامير فانك حيث جئت به الى شفير جهنم فافتدى نفسه بيمين حلف بها كاذبــا ، ان

يقع فيها يكفر عنها ويستغفر الله وينجو ، فقال الامـير
أوليس قد فطن بها ؟ انت لهاياياس، وقلده الحكم بين الناس
ولكل من سميناه فى طبقتهم مآثر ، قد عمر بها صـدور
الرجال وسطور الدفاتر ، ولكلهم في اعلى الدرجات منابر،
وان غيبت اشخاصهم المقابر .

الطبقة الثالثة 100 ـ 150 هـ

أبـو عبيدة مسلم

منهم ابو عبيدة مسلم بن ابى كريمة رحمه الله ، كبير تلامذة جابر ، وممن حسنت اخبار، والمخابر ، تعلم العلوم وعلمها ، ورتب الاحاديث واحكمها ، وحافظ فى خفية على الدين حتى ظهر على يد الخمسة الميامين ، حسب ما تقدم من ذكـــر دراستهم ، وحملهم العلـوم ، وما شفى الله بــه وبهم من الكلوم ، وكان عالما مـــع الزهد فى الدنيـــا ، والتواضع مع نيل الدرجات العليا، والاعتراف بضيـــق الباع على ما عليه من الاتساع .

فمن ذلك ما حدث ابو سفيان قال كان ابو عبيـــــدة يضعف أمر الشفعة ويقول لا تحبس على اليتيم حتى يكبر ولا على غائب ، قال فابتلي بها رجل من أصحابه فجاءه يسأله فقال اذهب الى اشياخ البصرة فاسأل هل فيها لجابر اثر ؟ فجاء الى منزل المحصر (1) ، فاخبر ان جـابرا كان يراها ويوجبها فامرهم ان يأخذوا بمقول جابر .

(1) كذا فى النســخ .

ابو عبيده ثقة لا يشك فيه

قال ابو سفيان شهد رجلان على شهادة ابى عبيدة عند قاضى البصرة قال فقال المشهود عليه اصلحك الله ان الذين شهدا انما شهدا عندك على شهادة فلان ، قال ويحك انى به عارف ولو جاز لى ان احكم برجل واحد لحكمت بشهادته .

ابو عبيده يتسم بالتشدد

قال وكان رجل من المسلمين يقال له حيان بن سالم ، من أهل عمان ، من طي ، وكان فاضلا ، وكان يقول لابى عبيدة اذا جاوزت نهر البصرة فانا أفقه منك ، ولو كنت انت نبيئا ما اجابك احد لما ترى من تشديد على الناس ، فضحك أبو عبيدة من قوله وقال يالها موتة كموتة حيان(I) ! وحكى المليح قال : دخلت انا وعبد الملك الطويل على ابى عبيدة وقلنا : يا ابا عبيدة ، ما تقول فى رجل دخل على امرأة فادخل يده من تحت ثيابها فنهضت المرأة فانكرت ذلك انكار الحرة أله ان يتزوجها ؟ قال لا ، قال فبينما نحن عنده اذ دخل أبو نوح صالح الدهان فقلنا من يسأله قال الفضل بن جندب انا أسأله ، قال فسأله الفضل ، فقال : نعم له ان يتزوجها ويعطيها ماله ان شاء ، فقال له ابو عبيدة انها الفروج يا ابا نوح ، قال : صدقت ، ثم قال ابو نوح يا معشر الفتيان ، ألم انهكم أو قال انى انهاكم ان تسألونى اذا كان ابو عبيدة حاضرا .

حد الغبن فى البيع كما يراه ابو عبيده

وقال خرج ابو عبيدة ذات مرة الى مكة ، ومعه سابق العطار وكان سابق من خيار من ادركت ، قال فبينما هم نازلون فى بعض المنازل اذ وقفت عليهم اعرابية معها لبن وسمن وجدى . فاشترى منها سابق اللبن والسمن والجدى

(I) لعله يعنى ان حيانا كانت تنقصه حرارة القلب والاندفاع الى التمسك الشديد بالشرع ، فشبه ذلك بالموت ، فقال قولته .

بقارورة خلوف وقلادة قال ثم جاء باللبن الى ابى عبيدة ، قال ، فقال : أخر عنا لبنك يا سابق قال لم يا ابا عبيدة ؟ قال ويحك يا سابق كم ثمن القلادة ؟ قال دانق أو نحوه ، قال فكم ثمن القارورة ؟ قال دانق أو نحوه ، قال ويحك يا سابق ، انما الغبن ان تكون العشرة باثنين أو العشرة بالخمسة أو الدرهم بالدرهم ، واما مثل هذا فلا . فأرسل سابق الى الاعرابية فجاءت ، فقال لها ابو عبيدة : كم ثمن اللبن عندكم ؟ فقالت : لا ثمن له عندنا ، قال وبكم ثمن السمن قالتدرهمان، قال بكم ثمن الجدى ؟ قالت : درهمان قال فاخرج سابق اربعة دراهم فدفعها اليها ، قال ، فقال ابو عبيدة هلم لبنك الينا يا سابق .

وقال كان أصحابنا من أكثر الناس حجا ، وكان لغير واحد نجائب يحمل عليها الى مكة ، قال وكان جد سلامة يدعى بأبى سالم ، وكان من خيار المسلمين وفضلائهم وكان فيمن حبسه الحجاج مع أبى عبيدة وضمام في السجن وقال كان أبو سالم يذكر ذلك ، قال قرمنا الى اللحم ، قال وكان رجل يدخل علينا فسألناه ان يشترى لنا دجاجة ويشويها لنا ، ويأتينا بأربعة أرغفة ، قال وكان ابو سالم موسرا كثير المال ، قال ، فقال للرجل : صانع فيها حتى توصله الينا ، قال فصانع صاحب الحبس ، فارسلها اليه ، قال ، فلما جاءنا بها قسمناها على أربعة اجزاء ، قال فاذا نحن بجلبة نحو البيت الذى نحن فيه ، قال فخفنا ان يكون فطن بنا ، فرمينا بالدجاجة والارغفة فى الكنيف ، قال ولم يكن فطن بنا ، قال وكان طرحنا اياها فى الكنيف بعدما عايناها اشد من قرم اللحم ، ولما آمنوا استدركوا خطاياهم .

قال وجاء رجل من المسلمين الى ابى عبيدة فقال يا ابا عبيدة انهم يتعرضون لنا فى المجالس ، قال ابو عبيدة هل سموا أحدا ؟ قال لا ، قال فمن يعلم ما تقول ؟ فاشار الى شيخ يقال له ابو محفوظ ، وكان من خيار من ادركته ، قال فما تقول يا أبا محفوظ ؟ قال صدق،فهل سموا أحدا ؟ قال لا ، قال ابو عبيدة وان القرآن يتعرض للناس ، فمن عرف من نفسه شيئا فابعده الله من ابعده .

حجة ابى عبيده فى القدر ورأيه فيه

اجتمع ابن الشيخ البصرى وابو عبيدة بمنى ، فقال ابن الشيخ له : يا ابا عبيدة هل جبر الله احدا على طاعته أو معصيته ؟ قال ما اعلم ان الله جبر العباد على طاعته أو معصيته ، ولو كنت قائلا ان الله جبر احدا لقلت جبر أهل التقوى على التقوى لعظم تخويفه لهم وشدة ترغيبهم به اياه ، قال يا ابا عبيدة ، فالعلم (1) هو الذى قاد العباد الى ما عملوا قال لا ، ولكن سولت لهم انفسهم وزين لهم الشيطان اعمالهم ، وكان منهم ما علم الله ، وقال كان حمزة الكوفى يقول بشىء من القدر ، فهجره ابو عبيدة وأمر بهجرانه ، فقال يوما عجبا بأبى عبيدة يأمر بهجرانى وهؤلاء الفتيان يقول : اراد وشاء ، واحب ، ورضى ، وهو يدنيهم . ولا يقول بمثل قولهم ! قال فبلغ قوله ابا عبيدة فقال قبح الله رأيه ، ان هؤلاء أرادوا أثبات القدر فقالوا فيه وحمزة يريد ازالته وليس مثبته كمزيله .

وقال قيل لابى عبيدة لا يستطيع الكافر الايمان ، فقال لا اقول ان من يستطيع ان يأتى بحزمة حطب من حل الى حرم لا يستطيع أن يصلى ركعتين ، ولا اقول انه يستطيع ذلك الا أن يوفقه الله تعالى .

(1) يعنى علم الله بالقدر وما سبق فى الازل .

وقال دخل سهل بن صالح وعبد الله بن زريق الهداوى وجماعة من الفتيان على ابى عبيدة فقالوا يا ابا عبيدة ما تقول فى غربة من الارض (وفيها رجل) على دين عيسى عليه السلام ولم تأته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : مسلم ما لم تأته الحجة فيدفعها ، قال فقالوا له : فما ترى ان هو دعا رجلا من المجوس الى دينه فأجاب ؟ قال هو مسلم ، فقالوا له : انظر فى هذا ، قال فما تقولون أنتم ؟ قالوا نقول : الرجل مسلم ، والمستجيب كافر ، قال فقال لهم الشيخ ألستم تزعمون ان الرجل مسلم على دين الله وطاعته ؟ قالوا بلى ، قال فكيف يكون ويحكم الداعى الى دين الله وطاعته مسلما ويكون المستجيب لدين الله وطاعته كافرا ! ! قال فرادوه الكلام ، قال فغضب عليهم وبرىء منهم ، فقال : أخرجوا عنى . فخرجوا عنه ، منكسرين ، فأتوا حاجبا ، فقالوا له : اغثنا ، فانه عجل علينا بالبراءة انما اردنا أن نستفهمه ، قال فركب اليه حاجب فأعلمه انهم تائبون ، قال فقال له اخرجهم فليأتوا الربيع وعبد السلام بن عبد القدوس فليعلموهما بتوبتهم قال ففعلوا . قال الربيع فأتونى وانا لا اعرف قصتهم فتابوا فاتينا أبا عبيدة فأعلمناه ، قال فقبل منهم ، وأمر بهم فدخلوا المجالس .

اختلاف ابى عبيدة مع بعض اصحابه فى الرأى احيانا

وقال وائل كنا بمنى فى خباء ابى عبيدة ، وحاجب حاضر ، ومحمد بن سلامة المدنى ، ومحمد بن خليفة المدنى ، وكان محمد بن حبيب من العباد الاخيار ، قال : ولم ير أبا عبيدة قام يسلم على أحد الا على محمد بن سلامة ، ومحمد بن حبيب ، فانه اذا رآهما قام اليهما واعتنقهما ، قال وائل وفي الخباء مشائخ من أهل حضرموت

فتيى أبى عبيدة فى ضمان المكترى

فقهاء علماء ، قال فسألتهم عن رجل اكترى دابة الى موضع معلوم ، فجاوز الموضع ، فعطبت الدابة ، قال فأجمعوا كلهم انه ضامن للدابة ، قال فقلت لهم فما ترون فى الكراء ؟ قالوا لا نرى عليه كراء ، انما ضمناه الدابة ، قال وكان ابو عبيدة غائبا أو نائما فاستيقظ فقال حاجب يا حضرمى اسأل الشيخ عن مسألتك ، قال فسألته ، قال : يضمن ثمن الدابة والكراء ، قال فقال له محمد بن سلامة من اين يا ابا عبيدة ؟ قال من حيث لا تعلم .

وقال ابو سفيان جاء رجل من الأزد يقال له النظر أبو محمد الى أبى عبيدة يسأله عن مسألة ، فوجده فى شكاة فاجابه بجواب ، ثم قال اذهب الى الربيع فائت به ، قال : فجاء الربيع ودخل على ابى عبيدة وهو مستلق وعلى صدره صحفة فيها فتات خبز يأكل منه ، قال ، فقال اسأل الربيع عن مسألتك ، قال فسألته فأجاب بغير جواب أبى عبيدة ، قال فقال له ابو عبيدة أليس المقوم فيها كذا وكذا يعنى الجواب الذى اجاب به الرجل أولا ، فقال له الربيع اما الذى حفظت عنك فغير هذا . قال : أو قد حفظت عنى قال نعم ، قال ، فقال للرجل فخذ به ، فانه قد حفظ عنى قال أبو سفيان كأن الشيخ احس من نفسه لاجل تشاكيه أنه وهم فيها .

امره بهجران حمزة الكوفى لرايه فى القدر

وقال ابو سفيان جاء حمزة الكوفى الى ابى عبيدة فى منزله ، فقال من جاء بك الي ؟ فقال : والى من اذهب يا أبا عبيدة ! انى اريد ان اذكرك بعض هذا الامر ، قال فعليك بمنزل حاجب قال : وما أصنع به ولست حاضرا ؟ قال فانى آتيك هناك ، قال فخرجا حتى أتيا منزل حاجب قال فدخلا

البيت فتكلما كلاما كثيرا ، فكان آخر ما سمع من ابى عبيدة ان قال يا حمزة على هذا القول فارقت غيلان ، قال فخرج ابو عبيدة ثم كلمه حاجب قال فكان هيبته من حاجب أعظم من هيبته من ابى عبيدة ، قال فقال حمزة انما أخذت هذا الكلام من عند المسلمين ، قال ، فقال له حاجب لم تدرك أحدا الا وقد ادركته ولقيته الا جابرا . فعن من أخذت هذا القول ؟ قال منك أخذته ، قال ، فقال له حاجب فاني ارجع عنه ، فارجع عنه كما رجعت ، قال ، فقال ارفق بى يا ابا مودود وأقبل منى ما أقول لك . قال : هات قال اقول : « ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك » ، فالحسنات من الله والسيئات من العباد واقول « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » ، قال فقال له حاجب اما من غيرك فمقبول منه هذه الجملة ، وأما منك فانا اعرف مذهبك فيه أولا ، قال فخرج حمزة من عنده . قال فسئل عنه حاجب فقال ارفقوا بحمزة ، ولا تقولوا فيه الا خيرا ، قال فمكث بذلك ما شاء الله ثم بلغهم انه مشى الى النساء فكلمهن فى ذلك والى الضعفاء ، قال فلما بلغ ذلك ابا عبيدة وحاجبا أمر أبو عبيدة حاجبا ان يجمع له الناس فمشى اليهم وأعلمهم و وعدهم ، فاجتمعوا ولا يعلمون ما يريد ابو عبيدة وحاجب قال فتكلم المتكلمون وحاجب ساكت لا يتكلم قال فلما فرغوا تكلم حاجب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال ان حمزة وعطية والحارث احدثوا علينا احداثا فمن آواهم أو جالسهم فهو عندنا الخائن المتهم ، قال ، فتفرق الناس وطردوهم من المجالس ولم يقرب بهم أحد .

بعض ما يؤثر عن ابى عبيدة

قال ابو سفيان قال المعتمر بن عمارة ، قلت لابى عبيدة انك لأحب الى من ابى ، قال فذلك ينبغى لك يا معتمر أن تكون لانك بذلك بذلت لى ما تبذل له، يعنى الولاية، وقال خبرنى بعض بنى يسر ، قال قدم الينا ابو عبيدة مرة حاجا ، ومعه امرأة من المهلبيات ، قال وهى جدة «سعيدة» أو عمتها ، قال فلما فرغوا من حجهم ، قالت : يا ابا عبيدة انى أريد المقام بمكة ، قال لا تقيمى ، الخروج أفضل لك ، قال ابن مسروق ، فقلت : وانا اخرج معكم يا ابا عبيدة ، قال ، فقال : أما انت فأقم ، قال فقلت تأمر هذه بالخروج معك وتأمرنى بالقيام ؟ قال لانك انت قريب من مكة ، ونحن بعيد منها ، قال ومسكنهم اذ ذاك بزرة (1) ، قال ابو سفيان يعنى بقوله انتم قريب منها يعنى الطواف وبعيد من شر أهلها كانه يكثر المقام بها للتجارة .

ابو عبيدة يوصى الربيع لينوب عنه فى الموسم

وقال لما بعث ابو عبيدة الربيع للناس أيام مرضه قال له الربيع : يا ابا عبيدة ، قد كنت تحضر أنت ، وحاجب ، وحافظ الوائلى ، فما تكاد ولا تقومون لما يرد عليكم فكيف بى ؟ فقال له ابو عبيدة ، يا ربيع انه ليس بينى وبين الناس سوط ولا سيف ، من جاءك موافقا لك يقول بقولك فبها ونعمت ، ومن أتاك مخالفا عليك فأبعد الله من أبعده وقل بما تعرف ودع الناس لما هم فيه . وقال جاء المختار ابن عوف الى منزلنا فخرج اليه أخ لى صغير كان أكثر من « مجبر » فأخذه وقبله ، فقال له الصبى : يا عمى زوجنى ابنتك ، قال قد فعلت يا بني ، وابنته يومئذ صغيرة ، فلما خرج ابو حمزة وقع فى قلبه مما قال الفتى شىء ، فمضى حتى دخل على ابى عبيدة ، فقص عليه القصة فقال يا ابا

(1) اسم قرية وفى نسخ برزة

(2) كذا فى النسخ ، وتعليق ابى سفيان يشير الى ان هناك جملة لم يثبتها النساخ.

حمزة هما على نكاحهما ، حتى يبلغا ، فيعلمان الخبر فان رضيا كان نكاحهما جائزا ، وان كرها فلا شيء ، قال أبو حمزة يا ابا عبيدة فكيف القول في الصداق ، قال ما قال الغـلام ، قال وكان أبـو حمزة قد قال للغلام يا بني فما تعطيها ؟ قال من سرير جدي الى الباب دراهم ، قال ابـو عبيدة فهو كما قال ، ان قال درهم الى درهم الى الباب ، وان قال مرة واحدة أو هكذا لك ، فالقول ما قال ، قلت وهذا كله فيه نظر غير ان ابا عبيدة لا يترك القول سدى .

ابو عبيدة يفحم واصل بن عطاء

وحكى بعض اصحابنا ان واصل بن عطـاء المعتزلي صاحب عمرو بن عبيد كان يتمنى لقاء ابي عبيدة، ويقول : لو قطعته قطعت الاباضية ، قال فبينما هو في المسجد الحرام ومعه اصحابه ، اذ أقبل ابو عبيدة ومعه اصحابه ، فقيل لواصل هذا ابو عبيدة في الطواف ، قال فقام اليه واصل فلقيه ، وقال انت ابو عبيدة ، قال نعم ، قال : انت الذي بلغني انك تقول : ان الله يعذب على القدر ، فقال ابـو عبيدة : ما هكذا قلت ، لكن قلت ان الله يعذب على المقدور فقال ابو عبيدة ، وانت واصل بن عطاء ، قال : نعم ، قال انت الذي بلغني عنك انك تقول ان الله يعصى بالاستكراه قال فنكس واصل رأسه فلم يجب بشيء . ومضى ابو عبيدة وأقبل اصحاب واصل على واصل يلومونه يقولون كنـت تتمنى لقاء ابي عبيدة ، فسألته فخرج وسألك فلم تجب ! فقال واصل : ويحكم بنيت بناء منذ أربعين سنة فهدمـه وانا قائم ، فلم اقعد ولم ابرح مكاني .

ضمام بن السائـب

ومنهم ضمام بن السائب رحمه الله كهف اليتـامى والارامل ، المفزوع اليه في النوازل ، فطال ما أوصى عليه

أبو عبيدة في الفتاوى والمعضلات ، فانكشفت باجوبته ظلم المشكلات ، وكان ذا رفق وتلطف ، واجتهاد وتقشف ، حكى أبو سفيان قال : اشتكى ضمام بن السائب شكاة ، فدخل عليه الربيع يعوده ، فوجد رجلا من المسلمين يسمى « عمران » وهو يقول يا ابا عبد الله ان فى نفسى لشيئا وانى لأظيق عنه : ان يكون الله أمر العباد بأمر ثم يحول بينهم وبينه ! قال ، فقال له الربيع يا عمران اخبرنى هل توفيق الله وتسديده واحسانه ومنه ، وفضله على ابى بكر وعمر كتوفيق الله وتسديده واحسانه ومنه وفضله على ابى جهل ؟ قال : لا ، والله ، قال فقال ضمام اشدد يدك يا ربيع يعنى قم بالحجة عليه ، قال ، ثم قال ضمام : ما هو الا ما ترى .

تفنن الحجاج فى تعذيب المساجين

وقال بلغنا عن ضمام حين سجنه الحجاج هو وابو عبيدة قال ادخلنا فى سجن قال فلم يكن يوصل الينا ، ولا يدخل علينا حديدة ولا جلم ، قال وانما كنا نقص شواربنا باسناننا ، وان كان الرجل منا لينفض لحيته فيتساقط منها القمل ، قال وانما كان يطعمنا خبز الشعير والملح الجرش قال ويعمد الى مراكن عظام فيسكب فيها الماء ثم يؤتى بملح فيلقى فى تلك المراكن ثم يضرب حتى تخرج رغوته ثم يقال : يا اهل السجن خذوا ماءكم ، قال فمن أخذ من أوله كان امثل قليلا ، واما من أخذ من اسفله فهو العذاب قال فكان ضمام ربما ضاق فيقول له ابو عبيدة ويلك ما هناك على من تضيق وعلى من تدل ؟ قال فلم يخرجوا من سجنه حتى مات الفاسق .

قال وعمد الى ثلاثة رجال من رؤساء الخوارج فبنى عليهم بيتا من قصب وطلى داخله وخارجه بالعذرة ثم

ادخلهم فيه ، قال فقاموا ثلاثة ايام فماتوا ، ثم وقع الموت في أهل السجن فبلغ ذلك الحجاج فأرسل الى طبيب له مجوسى فقال له : ويحك ان أهل السجن وقع فيهم الموت وانى لأحب تعذيبهم . قال ، اجعل طعامهم الزيت والكراث قال ابو سفيان ، قال ضمام : لما جاءنا بالزيت والكراث قوينا عليه وسمنا ، قال فيقال للمجوسى ، ويحك ماذا اردت بهذا لو تركتهم فماتوا لكان أروح لهم ، قال وأى راحة لهم في الموت ؟ ولعل هذا ان يموت فيخرجوا ، ومن مات فلا مطمع فيه .

وكان رجل من أهل خراسان من المسلمين وكان بمنزلة عظيمة بأبى عبيدة وضمام والمشائخ ، وله قدر فى أهل بلده ، اتاه يوما ضمام فذكر رجلا من المسلمين فتنقصه ، فقال ضمام : مه ، لا تفعل فعاد فنهره ، قال فقال تبرأ الله منه قال بل يتبرأ منك ، قال ، فقال أتبرأ منى يا ضمام ؟ قال انت احللت لى ما ترى ، والجاتنى اليه ، اترى انك تتبرأ من رجل نتولاه فأتولاك ؟ بئس ما ظننت ، قال ، فانى استغفر الله واتوب اليه ، قال غفر الله لك .

حاجب الطائى

ومنهم ابو مودود حاجب الطائى رحمه الله ، كان بالاجتهاد موصوفا ، وبالزهد والورع معروفا ، وفى ماله حق للسائل والمحروم ، على انه ليس بالأعلى فى تحصيل العلوم ، بيد أنه فى الافاضل معدود ، ورسمه فى أكثر آثارهم موجود .

حكى ابو سفيان قال ، قال المليح : بلغنا ذات ليلة ان في منزل حاجب مجلسا للذكر قال أبو سفيان وكان المشائخ

لا يحضرون معهم بالليل الفتيان ، قال المليح ، فقلت لرجل من أهل عمان انطلق بنا الى منزل حاجب فلعلهم يأذنون لنا ، قال فسرنا حتى جئنا المنزل ، فأذن لنا ، فوجدنا عنده المختار بن عوف ورجلين أو ثلاثة من المشائخ ، قال ، فقال لى حاجب : يا مليح اذهب انت وهذا العمانى الى بلج بن عقبة فأخبراه بمكاننا ، وقولا له يأتينا . قال ، فسرنا اليه فاعلمناه ، فجاء . قال المليح فصلينا العتمة ثم أخذنا فى المذاكرة ، قال ربما قام أحدهم قائما فيتكلم ما شاء الله ثم يجلس ، فيقوم الآخر كذلك حتى اضاء الصبح ، قال المليح فما رأيت أحدا بعد تلك الليلة ، ولا رأيت قبلها متكلما قائما فى مجلس ، قال وكان شعيب بن عمر من افاضل الفتيان يومئذ ، وكانت اخته تحت حاجب ، قال فجاءه تلك الليلة فاخبر به حاجب ، فقال ، ردوه . قالوا له : يا ابا مودود سبحان الله جاء من السماح فى هذه الساعة وترده ! فقال ، ردوه ، فردوه . قال وكان بين منزله ومنزل حاجب نحو ثلاثة أميال ، قال ، وبلغ حاجبا ان فى منزل عبد الملك الطويل مجلسا بالليل تكثر فيه الجماعة ، ويكون لهم كلام يسمعه الجيران ، قال فبعث اليهم ، وقال : يا عبد الملك ، ارفع عن نفسك ، ما هذا الذى بلغنا انكم تفعلونه ؟ قال انا لنفعل ، فان امرتنا بتركه تركناه . قال فانكب طويلا ، ثم قال والله لان تكونوا تخافون فتعمرون خيرا من ان لا تخافوا وتخربون ، اعمروا مجالسكم فان الله يحفظكم قال فما بلغنا انه ظفر بهم فى مجلس قط . الا انهم كانوا ذات مرة فى عهد زياد أو ابنه اتاهم الخبر بان الخيل تريدهم ، قال فخرجوا مسرعين ، وتركوا نعالهم على باب البيت الذى كانوا فيه ، قال فجاء الشرط فنظروا الى

النعال ، فقالوا لعجوز صاحبة البيت : ما هذه النعال ؟ قالت مكاتب لنا يسأل الناس فيعطى النعال وغيرها ، قالوا تالله ما ذلك كما ذكرته وان بهذا الموضع ريبة ، قال فقال بعضهم ويحكم قد ذكرت العجوز ما ذكرت فلا تعرضوها للبلاء ، فلعلها ان تكون صادقة ، قال فعافاها الله منهم ، قال ولقد بلغنى انهم كانوا يأتون المجالس أيام زياد وابنه فى هيئة النساء فى النقاب ، وغير ذلك ، يتشبهون بالنساء قال وان كان احدهم ليحمل على ظهره جرة بماء ، أو يحمل جملة متاع كأنه بياع حتى يدخل المجالس لا يدعونها لشيء .

اخوانه يتحملون عنه دينه بعد موته

قال أبو سفيان مات حاجب وعليه دين مائتان وخمسون ألفا أو اكثر ، قال فدخل قرة بن عمر وجماعة من المسلمين ليغسلوه قال فقال لهم قرة : يا قوم ، ما تقولون فى دين هذا الرجل ؟ قال فابتدر ثلاثة رجال وقرة رابعهم وضمنوا دينه ، قال ، ودخل الفضل بن جندب وكان من خيار المسلمين وكان موسرا ، فاخبره ، قال فقال لهم الفضل : دينه علي دونكم ، حتى اعجز عنه ولا يبقى لى مال . فقالوا له شأنك ، فمات الفضل قبل ان يؤدى عن حاجب ، وأوصى الى ابى عبيدة عبد الله بن القاسم ، والى امرأته أم الصلت ، والى حبيب ابن سابور ، والى ابى سنان البنانى ، وكان الفضل لا يولد له ولد ، ولم يدع وارثا ، وكان مولى للازد فلم يقبل حبيب بن سابور ولا ابو سنان الوصية ، قال ومات ابو عبيدة ورد الوصية الى أم الصلت ، وقال فباعت داره بالبصرة ، وداره بعمان ، حتى اوفت ما كان ضمن الفضل من دين حاجب رحمه الله .

وكان للفضل بن جندب على رجال مال ، فوقع ماله عند قاضي البصرة عبيد الله بن الحسن بن أخي أبي الحر ، قال فاردنا ان يثبت عنده ان أم الصلت وصي زوجها الفضل ابن جندب فلم يشهد شهودا الا شهودا يشهدون انه اوصى اليها،والى ابى عبيدة،والى حبيب بن سابور،والى ابى سنان البناني ، قال وكان حبيب وابى سنان لم يقبلا الوصية قال فلما لم يقبلا الوصية خفنا ان يدخل القاضى من عنده رجلين فى الوصية مكان هذين اللذين لم يقبلاها ، فيفسد علينا الامر قال فجئنا الى البيع بن حبيب فسألناه هل يجوز للشهود ان يشهدوا ان الفضل أوصى الى امرأته أم الصلت ولا يذكرون ابا عبيدة ولا صاحبيه ؟ قال ، نعم ، انها لوصي زوجها ، ولا عليهم ان لم يذكروا غيرها الا ان سئلوا فلا بد لهم حينئذ ان يأتوا بالشهادة كما استشهدوا . وان لم يسئلوا فلا بأس عليهم وان لم يسموا غيرها ، قال واما عبد الله بن القاسم فضاق من ذلك وقال لا يجوز ان يشهدوا الا كما استشهدوا ، قال وقال وائل انما الفقيه الذى يعلم للناس ما يتسع الناس فيه مما سئل عنه ، وأما من يضيق عليهم فكل من شاء أخذ بالاحتياط .

انما الفقيه من يذكر للناس ما يسعهم ، لا الذى يضيق عليهم

وحكى ابو سفيان عن وائل ، قال : قد قدم حاجب مكة فى العام الذى وقع فيه بين أهل حضرموت ما وقع فى أمر عبد الله بن سعيد ، قال وكانوا قد انكروا عليه أشياء حتى شدوه فى الحديد ، وبايعوا رجلا يقال له حسن ، قال وخالفتهم طائفة يكرهون ما فعل بعبد الله بن سعيد ، الا ان ذلك موافقة من جماعتهم ، قال فبعث هؤلاء رجالا ، وبعث هؤلاء رجالا ، قال وائل وكنت فيمن خرج يومئذ ، قال فوافقنا حاجبا تلك السنة قد قدم ، قال ، فدخلنا عليه

الخروج على الظلمة لا يجب الا على من تطوع له

وهو ارمد قال ، فقال لقد خرجت من البصرة فما ابصر سهلا ولا جبلا ولا أخرجني بعد ما ارجو من قضاء نسكي الا أمركم يا أهل حضرموت ، فانكم قد غلبتمونا ، قال وائل ؛ فقلت رحمك الله يا ابا مودود لا تفعل ، فانا لا نخرج عن رأيك ، قال فقال لى اسكت فوالله ما اريدك ولا أصحابك ، قال ثم تكلم الفريقان ، قال فقال الذين انكروا على عبد الله بن سعيد وبايعوا « حسنا » على الشراء : يا ابا مودود ،من أحق بالقيام المدافع ام الشارى ؟ قال بل الشارى احق ، قال فقال أصحاب ابن سعيد : يا ابا مودود أما اذا شروا فليخرجوا عنا فانا لا طاقة لنا بالحرب ، ولا بما يجرون علينا منها ، قال فقال صدقوا اخرجوا عنهم ، قال فقالوا يوجلوننا شهرا ، قال ، فقال لهم حاجب لا والله ولا ثلاثة أيام الا برضاهم ، قال ابو سفيان وكان حاجب هو القائم بأمور المسلمين فى مثل هذه الاشياء من أمر الدين والفتاوى .

يتأخر عن رفقته ليشهد الجمعة

وقال : حبس حاجب ذات سنة فلم يخرج حتى بقى للموسم ثمانية أيام ، فاراد الخروج هو وجماعة معه ، قال وكانوا على نجائب لهم ووافق خروجهم يوم الجمعة ، فأتاه أصحابه فقالوا له : اخرج بنا يا ابا مودود ، قال فى نفسى من الجمعة لشيء قالوا سبحان الله ! انما بقي للموسم ما تعلم ، قال اخرجوا أنتم وانا ألحقكم ، قال ، فخرج القوم وتخلف حاجب حتى صلى الجمعة ثم ركب فلحقهم على مسيرة ليلتين من البصرة ، قال وكان حاجب يقول لعبد الملك الطويل فيما يؤدبه فيه : « يا عبد الملك اذا كان احد يعيب عليه المسلمون أشياء تكون بينه وبين الله تعالى فتشاوروا فى أمره وعظوه ، وأحضروه مجالسكم ، وارفقوا به جهدكم

ارفق بمن يخطىء فيما بينه وبين الله تعالى

عسى الله أن يتوب عليه،واذا كان أحد يعيب عليه المسلمون في خلافهم في الدين ، وارادته ان يشغب عليهم ويفتق بينهم فتقا ، فأبدوا عورته ، واهجروه ، ولا تحضروه مجالسكم واعلموا الناس به ليكونوا منه على حذر أو يتوب » .

أبو عبيدة عبد الله بن القاسم

ومنهم أبو عبيدة عبد الله بن القاسم رحمه الله ، أحد فضلاء من اقام بالامصار ، وفقهاء تلك الاعصار،والمستعين على اقامة الدين من أولئك الانصار ، لا مقصر ان بدا من احد الاقصار ، وكان ممن طبع على القصد والاقتصار ، قال ابو سفيان : اقام عبدالله بن القاسم بمكة زمانا وليست له امرأة ، قال فقال له اصحابه يا ابا عبيدة لو تزوجت ؟ قال ما اريد ذلك ، قال فلم يزالوا به حتى فعل ، قال وكانت امرأة من المسلمين موسرة كثيرة المال ، فقالوا له ، تزوجها فانها تكفيك لا تكلفك مؤونة ، قال اما اذا ابيتم الا ذلك فابلغوا مهرها مهر جيلها (١)ولا تنتقصوها شيئا قال ففعلوا قال فتزوجها فلما دخلت عليه طابت له نفسها على الصداق كله وتركته له ، قال وكان يأتي منزل بن جندب ومعه قرصان من خبز وملح ، قال وكان الفضل يطيب الطعام ويكثره ، قال فيقول سبحان الله يا ابا عبيدة تفعل بي مثل هذا قال دعني منك والا لم ادخل عليك منزلا ، قال فتركه ولم يلح عليه بعد .

يترك نصيبه في الربح من المال المراب

قال ابو سفيان وكان ابو عبيدة عبد الله بن القاسم تاجرا خرج الى الصين ثم رجع فكان في بعض ما يتجر به

(١) يعني من هن في مكانتها

اشترى قوم عودا ، قال فسألهم ان يشتركوه ، ففعلوا ، قال فاقبلوا يعيبون العود عند صاحبه حتى استنقصوه ، عما كانوا قد اشتروا به ، فظن ابو عبيدة انهم صادقون فيما قالوا ، قال فلما خرجوا من عنده وكان نقدوا الثمن ، ونقد أبو عبيدة معهم عشرين دينارا ، فأقبلوا يمدحون العود ، ويقولون ما رأينا مثله ، قال ، فقال لهم ابو عبيدة سبحان الله ! تعيبون عود الرجل بلا عيب فيه ، ردوا علي رأس مالي ولا حاجة لي في مشاركتكم ، قال ، فاغتنموا منه فردوا عليه ماله .

يدعو عليه بكثرة المال لانه يراه شرا

وقال غضب عبد الله بن القاسم بن سابور في أمر وصية الفضل بن جندب وكان سلفا للفضل ، قال فقال له ابو عبيدة لأدعون الله عليك ، ثم قال اللهم أدخل بيته قناطر الذهب والفضة ، قال فقال يا ابا عبيدة انك انما دعوت له ! قال لا والله ، ولكنني دعوت عليه ، وأي شر أشد عليه من ان يدخل بيته قناطر الذهب والفضة ؟

وقال سمعت وائلا يقول : لما مات ابو جعفر اخذ الناس في البيعة واخذ عليهم ابواب المسجد الحرام، قال وكان عبد الله بن القاسم والفضل بن جندب وعلي الحضرمي ووائل في المسجد فلطف الله بهم فنجوا وخرجوا من المسجد ، قال وائل ، فقلت يا ابا عبيدة لو اخذت ما تراك صانعا ؟ قال تذهب والله نفسي دون أن أعطيهم هذه البيعة .

أبو نوح صالح الدهان

ومنهم ابو نوح صالح الدهان رحمه الله ، شيخ التحقيق واستاذ أهل الطريق ، وناهج طرق الصالحين ، وناقض

دعاوى الزائغين الجانحين ، أخذ عنه الحديث والفروع ، وكان ذا خشية لله وخضوع .

عاتكة بنت ابى صفرة تستفتى جابرا

ابو سفيان قال دخل ابو نوح على عاتكة بنت ابى صفرة وكانت من المسلمات ، فوجدها فى البيت ، فقال كانى أرى مجلس رجل قالت ، نعم الآن خرج من عندى « الاحو ل » تعني جابرا ، قال وكان جابر يغمز باحدى عينيه من غير علة ، قال فهل ظفرت منه بشيء ؟ قالت نعم سألته عن ثلاثة اشياء كن فى نفسى سألته عن لباس الخفين ، قال ان كنت تلبسينها من حر الارض وبردها وخشونتها فلا بأس، وان تلبسيها لا تبالين ان تنكشفى ، فلا . وسألته عن حلي عندى ليتيمة يقوم بمال فيستعار منى ، قال ان اعرته فانك ضامنة ، وعن عبد كان من أنفس مال عندى وأوثقت فى نفسى أن اعتقته لوجه الله ثم استخلفته عن ضيعتى ، قال اخرجيه ولا تدخليه فى شيء من منافعك ، قلت : هذه وان كانت لمناقب جابر صولا فانما اثبتها هاهنا لتعلم حرص أبى نوح على تحصيل الفوائد من كل من يثق به ، لا يانف عن التقاطها حيث وجدها والبحث عليها فى مغانيها .

أبو روح ومازن

ومنهم أبو روح ومازن ابني كنانة رحمهما الله ، كانا مطبوعين على الصلاح ، وحب سلوك مسالك النجاح، وخدمة الاشياخ ، وملازمتهم فى الغدو والرواح ، وانهما وان سبقتهما السوابق ، فكلاهما من غير فتور ، مدرك لاحق .

اجتهادها فى التقوى والعبادة

روى ابو سفيان عن يسار صاحب البكر ، قال ابو سفيان وكان من خيار من ادركته انه اخبره عن والدته ،

قال وهي يومئذ ابنة ثمانين سنة ، أنها قالت : « ادركت اخوين من بني راسب يقال لاحدهما يبرح (1) والآخر مازن ابنا كنانة ، وكانا من خيار من مضى من أهل الدعوة وكانا من نظيرى أبى بلال وعروة ، في زمانهما ، قال واما يبرح فكأن رجلا عابدا مصليا لا يفتر عن العبادة حتى دبرت ركبتاه ويداه ورجلاه وجبهته كركبة البعير ، قال وكان قد اتخذ سربا في الارض يعبد الله فيه ، قال ابو سفيان قال يسار ادركت سربه ذلك ، وكنا نلعب فيه ، قال فحضرت الوفاة يبرح فقعد مازن عند رأسه ، قال فرآه يجود بنفسه ثم أفاق ، قال : أى اخي اين تراها تعمد ؟ - يعني النفس - قال الذى كانت تعبد،قال وأما مازن فانه لما حضرته الوفاة أقبل يجود بنفسه فصاحت بناته قال ، فافاق افاقة ، وقال يا بناتي لا تبكين فان اباكن من ساعة هو الباكي ، أو الضاحك . قال يسار اخبرتني أمي قالت كنت في بعض المجالس وهم يذكرون الله اذ ذاك دخل رجل مقنع بثوبه فهوى ، وجلس ناحية من المجلس ، وهم لا يعرفونه ، قال فلما تفرغ المتكلم قام فنزع ثوبه عن رأسه فاذا هو مازن بن كنانة ، قالت فقام قائما فقال : اني لا اخبركم الا بما رأت عيني ، أو سمعت أذني ، أو عن خبر من رأى وسمع ، قالت ، ثم اقتص الفتن المتقدمة واحدة بعد أخرى ، ونبه على من انجاه الله منها ، قالت فما رأيت متكلما مثله ، قلت ويبرح هو المكنى أبو روح فيما زعم لى بعض اصحابنا .

(1) لعلهم يحرفون اسمه الى يبرح فنطقت به كما جرت به السنتهم كما سينبه الشيخ الى ذلك .

أبو محمد النهدى

ومنهم ابو محمد النهدى رحمه الله ، المظاهر ، المعالن المجاهد غير المداهن الحافظ للتقى، المفارق للادناس المباين، بصر الله بصيرته الباصرة ، فلم تكن عن هذه قاصرة، ففاز بالصفقة الرابحة ، ووقي الصفقة الخاسرة .

حكى ابو سفيان قال كان رجل من المسلمين يقال له ابو محمد قال كان قد ابصر الاسلام من قبل نفسه ، قال وكان بدأ ذلك انه كان يخرج الى المغازى فنظر الى ما يعمل الناس من الغلول والجور ، فقال ما هذا بفعل أولياء الله وأهل الايمان ، ثم نظر الى صلواتهم وقيامهم بالتوحيد والاقرار بالنبوءة قال وما هذا بفعل المشركين ، فانصرف الى البصرة وكان له مسجد يجلس فيه ويحدث ويقص ويذكر . قال وكان يصف الاسلام ، ويقول : ان أهل الاحداث من القبلة كفار ليسوا بمشركين ولا مؤمنين ، قال فبلغ أمره جماعة من المسلمين فقال بعضهم لبعض : « هذا الرجل قد ترونه وما يصف ، فهلموا بنا اليه لنواصفه هذا الامر ، فلعله يقبل » ، اتته منهم جماعة فواصفوه الامر ، ووصفوا له ما هم عليه ، قال ، فقال هذا هو الحق ومازلت على هذا منذ دهر ، ولم اجد احدا يوافقنى عليه وما ظننت اذا ان أحدا يقول بهذا القول ، قالوا بلى ، والله ان لك اعوانا على هذا واخوانا . قال فكان ابو محمد من افاضل المسلمين ، قال وكان يظهر هذا الشأن ويبرح به ، وكان يدعو فى مسجده على خالد بن عبد الله ، وعلى هاشم بن عبد الملك ، قال وكان على البصرة بلال بن ابى بردة بن

ان لك على طريقتك اخوانا انت لا تدرى

ابى موسى ، قال وكان طريق بلال على مسجد ابى محمد قال فارسل اليه يأمره بالكف عن ذكرهما فلم يفعل ، قال فقال له يا ابا محمد اذا رأيتني مقبلا فكف حتى أمضى عنك فلم يكن يلتفت الى قوله ولا يدع ما هو عليه .

قال ابو سفيان قال ابو محمد النهدى : لا تذكروا الحسن في شيء من القدر فاني عاتبته فيه ، فقال معاذ الله ان أقول ذلك ، انما أفسد علي قلبى واصل بن عطاء أيام كنت عنده مستخفيا ، فاما ان اقول بالقدر فمعاذ الله ، قال وكان ابو محمد يقول هو أبعد الناس من القدر .

ابو يزيد الخوارزمى

ومنهم ابو يزيد الخوارزمى رحمه الله احد النبهاء الحاذقين والموصوفين بالفضل جملة على الاطلاق ، والمشار اليه فى مشيخة العراق ، والواقع على اماتة الاصفاق ، وعلى الرضى برأيه ودينه الاتفاق ، ذكر عن ابى يزيد : انه قيل له ما تقول لو ان رجلا لقي عالما يقول له ان الامر الذى انت عليه وانت فيه حرام ، فقال له الرجل ، فانا اترك هذا الحرام ، ولكن لا آخذ ذلك عنك حتى اسأل من هو اعلم منك ، فلم يسأل الرجل حتى مات ؟ قال ابو يزيد مات هذا مسلما ، اذا كان فى طلب السؤال تائبا فمات على ذلك .

عبد الله طالب الحق وابو حمزة الشارى

ومنهم طالب الحق عبد الله بن يحيى واصحابه الشراة كأبى حمزة ومن معه من أولئك الشراة رحمهم الله : اما

ابن يحيى فنعم الامام ، الداعى الى نصرة دعوة الاسلام غير ما كان حدث من الجور ، حتى عاد به العدل الى الكور بعد الحور ، فانمحت به ظلم الظلم ، فلم يبق حوله الا داع الى الاسلام أو السلم ، كان اسدا فى نجدة وشجاعة فى دين الله ، وخشية لله وطاعة ، والبحر جودا وعلما ، والطود سموا وصيانة وحلما ، واما ابو حمزة فأشد فى الحرب ، المستعد للطعن والضرب، ليث فى الهيجاء ان ركب، وغيث في الآراء اذا وهب، وبحر عجاج اذا وعظ واختطب، الحصر يعدوه قصر أو أسهب ، ذو رفق ولين لاولياء الله المتقين ، وذو غلظة على المشاقين ، وجميع اخوانهما على هذه الطرائق، متخلقون بمحمود الخلائق، ليس من الكل الا جاهد أو مجاهد، مخالف الارق، ساهد ، قاطع ليله فى الهجود ، بالركوع والسجود ، وتلاوة القرآن والضراعة الى الرحمان والحراسة فى سبيل الله ، وكف اعداء الله ، منفد ايام العمر فى احياء العلوم ، وانجاد المظلوم ، ومحو ما ارتسم للباطل من الرسوم ، هاجروا فى سبيل الله الاوطان والمال ، وربوا بانفسهم على اتخاذ النشب والمال وآثروا أولياء الله ، وقاتلوا أولياء الشيطان ، وشرفوا انفسهم ابتغاء الرضوان ، فلم يلتفتوا الى زهرة الحياة الدنيا ، حتى فارقوا ثوب المحيى ، فودع كل منهم حميدا واقل بعيدا (1) ، وسأثبت ما بلغنى من اخبارهم على انها نبذ من بعض آثارهم .

نحن احوج الى العمل لا الى الوصف والقول

روى ابو سفيان ان ابا عبيدة كان فى مجلس يذكر فيه فذكر النار وما اعد لاهلها ، وخوف بها ، ثم ذكر الجنة وما اعد فيها لاهلها ورغب فيها ، قال وكان ذلك ايام

(1) كذا بالنسخ التى بأيدينا

عبد الله بن على ، والمختار بن عوف قال وكان رجل من المسلمين يقال له ابو الوزير قاعدا فى المجلس فلما سكت ابو عبيدة وفرغ من كلامه ، وثب اليه ابو الوزير فقال : يا ابا عبيدة لو اردنا الجلوس الى ما كنت فيه لجلسنا الى من هو اوصف لما كنت فيه منك من قومنا، ألا ترى أمر اصحابك وتحض على نصرتهم والعون لهم ؟ فنحن الى ذلك احوج منا الى ما كنت فيه ، يعنى عبد الله بن يحيى ، وابا حمزة المختار ، قال فقال ابو عبيدة يا ابا الوزير انما يتكلم الرجل بقدر ويسكت الى أجل .

اخبار ثورة طالب الحق واصحابه على بنى امية

وروى عن وائل قال لما قدم عطية بن عبد الملك حضرموت وكان مروان بن محمد قد بعثه الى ابى حمزة المختار بن عوف حين ظهر على مكة والمدينة ، قال فلقى بنجا بوادى القرى فقتله ، وكان الفاسق فى عسكر فيه ستة آلاف فيما ذكر ، فتنحى ابو حمزة الى مكة . فلحقه بها فقاتله حتى استشهد ابو حمزة ومن استشهد معه من المسلمين رحمهم الله .

قال ثم خرج القاسم يريد اليمن فليقيه الامام عبد الله بن يحيى بموضع يقال له «حرش» وقاتله حتى استشهد رحمه الله ومن استشهد معه .

قال ابو سفيان وكان بها رجل من بنى كلاب يقال له نافع فجاء الى عطية بن عبد الملك فسأله ان يعطيه جثة عبد الله بن يحيى ليصلبه على بابه ، قال ، ففعل وكان عطية جسيما قال فخرج نافع من بيته فنظر الى الجثة فاذا عليها نور ساطع فلما عاين ذلك أنزله وكفنه ودفنه ، ثم

يتعظ به ميتا فيتوب

ذهب من «حرش» حتى وقع الى الحجاز بقرية يقال لهـــا «القوع» فسكنها ووافق بها قوما من الصفرية فاجابهم الى الصفرية ، قال وكان الشقي يرى انهم على مثل ما مات عليه ابن يحيى ، قال وكان لنافع ابن يقال له محمد وهو الـــذى يحدثنا بهذا الحديث عن ابيه وكان محمد قد ابصر ـ ذلك ـ

قال ابو سفيان ، قال وائل فقدم الفاسق عطية بن عبد الملك الى حضرموت ، قال وائل فقاتلناه فتحصن فى قرية حصينة ، فاقمنا عليه اربعا وعشرين ليلة نحاصره ، فلما طال به الحصار وخاف على نفسه سأل الصلح فصالحناه على انَ يرد كل ما كان فى عسكره مما اصابه اصحابه مـــن أموال المسلمين ، قال فدخل المسلمون عسكره فاخذوا كل ما كان لهم ، ويأتيه كتاب مروان بن محمد ان دع ما انت عليه والحق الموسم فصل بالناس ، وأمره بالعجل ، قال وتـــم الصلح بيننا وبينه قال فخرج منفردا فى ستة نفر فبادر الموسم وعسكره على أثره ، فنزل قرية من قرى اليمـــن ، فوافق فيها رجلين اخوين من المسلمين ، يقال لهما « ابنا جمانة » فشعرا بمكانه وقالا والله ما جاء هذا الفاسق الا منهزما ، فمشيا اليه فى نفر معهما ، فلم يشعر بهم حتى دخلوا عليه وقتلوه ، وقتلوا من معه ، وحزوا رؤوسهـــم ، وانطلقوا يريدون عسكر المسلمين ، ولا يشكون ان عسكره قد مزق ، وقتل أهله ، فبينما هم سائرون اذ لقوا عسكـــر عطية والرؤوس معهم ، قال فسألهم أهل العسكر عن عطية فقالوا قد تقدم ، فسلمهم الله منهم ، ولقد كان احدهـــم قاعدا فى الجواليق الذى كان فيه رأس عطيـــة ورؤوس أصحابه .

أبو مدود حاجب يتجند لجمع الاموال مددا للثورة

وقال ابو سفيان لما خرج الامام عبد اللـه بن يحيى ووجه ابا حمزة المختار بن عوف أقام حاجب فجمع له أموالا كثيرة ليعينه بها ، قال فكتب على كل موسر من المسلمين قدر ما يرى قال فما امتنع عليه أحد قال ودعا ابا طاهر وكان شيخا فاضلا قال عليك بالنساء . وأوسط فانا نكره ان نكتب عليهم ما لا يحملون ، قال فانطلق ابو طاهر فيمن انطلق معه من المسلمين قال فلم يأتوا يومئذ امرأة ولا رجلا الا وجدوه مسرعا فيما سألوه ، قال وكان رجل من المسلمين لم يكن احد يرى انه صاحب مال فدفع اليهم ثلاثة آلاف درهم ، قال فقال له ابو طاهر أي اخي العيال فقال اللـه لهم ، والله ما رأيت منذ كنت وجها مثل هذا انفق فيه ، فاذا وجدته أفأدعه ؟ ولا يرجع الي منها شيء ولكن يا عبد الله لا تخبروا باسمي ما بقيت ، قالوا ففعلوا فلم تمس الليلة الا وجمع ابو طاهر عشرة آلاف درهم ، قال فأتوا حاجبا فاخبروه فسر بذلك ، وقال ان فى الناس لبقية بعد ، قال فاشترى بتلك الاموال سلاحا ووجهه ووجه ما بقي الى ابى حمزة رحمه الله .

لا تكون للرجل منهم مكانة ان لم يرغب فى الشراء

وقال سمعت عبد الملك الطويل يحدث عن ابى حمزة المختار بن عوف الكندى قال ادركت المسلمين ان كان الرجل منهم ما يستزاء فى صلاة ولا فى صيام ولا فى حج ولا فى عمرة ولا فى وجه من الوجوه ، ان عرف منه انه ليس بشديد الحرص فى الشراء سقط من اعينهم ونقصت منزلته عندهم .

وقوع ابى الحر فى الاسر

وقال ابو سفيان ادركت عيسى بن عمر وهو شيخ كبير يحدثنا ان مروان بن محمد بعث الى ابى الحر اذ كان بمكة فأخذ فشد فى الحديد ، واخذ رجل من الرافضية ، يقال

له اصفر فشد فى الحديد ثم ساروا بهما نحو مروان قال عيسى فخرجنا فى اربعة عشر رجلا من المسلمين نتبعه قال فلما مشينا اياما أرسلنا اليه انا ناتيكم الليلة قال فقال لا تفعلوا، مكة منكم قريبة والطلب سريع،فسرنا على طريق الساحل وغلامه يأتينا بخبره ويأتيه بخبرنا ، فمازلنا نطلب اليه ونسأله يدعنا حتى نخلصه من ايديهم ، قال فكان يأبى ذلك علينا حتى جاوزنا المدينة بمراحل ، فأرسلنا اليه انا قد قربنا من الشام وقراها فدعنا نأتيهم الليلة ، قال فأبى قال : فأرسلنا اليه انا نأتيكم على كل حال ، فتباطأ فى وضوئك حتى لا تعجل الرحيل لنقعد مقاعدنا ، قال ففعل فتقدمنا فنزلنا عن رواحنا وعقلناها بعيدا من الطريق ، ثم جئنا امامه الى الطريق فجثمنا عليه فلما دنوا منا ثرنا فى وجوههم بالتحكيم والسيوف فى ايدينا مصلتة ، فألقوا بأيديهم وقالوا الامان ، الامان،قال فبادر رجل منا فاعطاهم الامان فشق ذلك على ابى الحر،قال أما اذا فعلتم فلا تختلجوا ولا تهيبوا منهم احدا ، قال فأسرناهم فأخرجنا بهم الطريق حتى أبعدناهم ، خلينا سبيلهم ، واحتملنا صاحبنا وفككنا عنه جامعته ، وفككنا عن الرافضى ، ثم اقبلنا حتى دخلنا مكة ونحن مستخفون ، قال وكان ذلك فى أيام الحج ، قال فخرجنا مع أبى الحر الى منى ، ولم نحرم ثم صرنا الى عرفة ونحن غير محرمين ، قال وكنا اذ ذاك ننتظر أبا حمزة يقدم علينا ، قال ولما كان فى وقت الرواح الى الموقف اذا نحن بنواصى خيل ابى حمزة وقد اطلعت ، قال فلما رءاه ابو الحر أمرنا ان نغتسل ونحرم ، قال ففعلنا ، ثم خرجنا حتى دخلنا عليهم فى عسكرهم ، قال وكان على الموسم اذ ذاك

اجتماع ابى حمزة بوفود الحجيج فى الموسم

رجل من بنى مخزوم يقال له عبد الواحد ، قال فأرسل الخطباء الى ابى حمزة من قريش وغيرهم ومنهم عبد الله بن الحسن ، قال فأتونا فى جماعة قال فخرج اليهم ابو حمزة وعمامته خضراء وازار متأزر به منتكب قوسه ومتقلد سيفه ، قال فتكلم أولئك الخطباء فعظموا من أبى حمزة الحج ويوم عرفة ما قدروا عليه واطنبوا فى الكلام قال فلما فرغوا من كلامهم ، تكلم ابو حمزة ، فحمد الله واثنى عليه وصلى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أما ما ذكرتم من تعظيم هذا اليوم فانكم لم تبلغوا كنه ذلك ثم ذكر جور بنى مروان وما هم عليه من الظلم والفسق والاعتداء قال فافحم القوم ، وسمعوا كلاما لا يعرفونه ، قال فرجعوا الى عبد الواحد فاعلموه بقوله وقالوا خصمنا الرجل ، وما قدرنا على اجابته وليس عندنا ما نجيبه به ، قال فارجعوا اليه واسألوا الموادعة فى هذه الايام على ان لا نعرض له ولا يعرض لنا ، قال فرجعوا الينا فاعطيناهم ذلك،قال ووقفنا مع الناس حتىامضينا الى جمع ثم الى منى فنزلنا مؤخر منى فى عسكرنا ، قال وكانت حليمة المهلبية اذ ذاك قد حضرت الموسم ، وكانت من خيار المسلمات وفضلاهن وهى أم سعيدة ، فعالجت لهم طعاما فبعثت به مع أبى وافد وابنه وكانا فاضلين،قال واخذهم الحرس،فقالوا معكم السلاح،ففتشوهما فلم يجدوا معهما سلاحا ، قال وكان طعاما كثيرا قال فحبسوهما حتى أصبح فلما اصبح ابو حمزة ارسل الى الوالى فقال له ، قد كان نقض من قبلك فان شئت ناقضناك وان شئت نوف بعهدك ، قال فارسلهما وتم العهد حتى فرغ الناس من مناسكهم ، وساروا الى مكة قال فخرج عبد الواحد ودخل مكة ، قال ابو سفيان وكان

بلج بن عقبة يأتى لرمي الجمار فى الخيل والسلاح ، قال وكان ابو حمزة يقول رحمك الله وما يدعوك الى هـــذا لو جئت متنكرا حتى ترمى، قال فكان يقول لا ، لا افعل ولا آمن غدرهم بنا و نقضهم علينا ، فان فعلوا كنا قد استعددنا لهـــم .

يتجه ابو حمزة ومن معه الى الشام فيعترضهم اهل المدينة

قال فأقام ابو حمزة بذى طوى قال وكان يدخل فيجمع ثم يرجع الى ذى طوى ، قال فاجتمع اليه من نواحى مكــة رجال من خزاعة مسلحون في نحو أربعمائة رجل ، قـــال وخرجوا معهم الى المدينة وكان الذين قدموا من اليمـــن نحو ستمائة رجل ، قال ثم خرج نحو المدينة يريد الشـــام ولم يكن يريد ان يعرض لاهل المدينة قال فخرجوا اليــه فقاتلوه بقديد ، قال فمما يراجعهم فيه من الكلام ان يقول انا ندعوكم الى الله والى كتابه فالى من تدعوننا انتم ، قال فيقولون ندعوكم الى طاعة مروان فيقول يا سبحان الله ؟! ندعوكم الى طاعة الله وتدعوننا الى طاعة الفاسق مروان ، قال فاقتتلوا فقتل منهم أربعة آلاف قال واصيب مع ابى حمزة يوم مكة ابو عمر وابنه وكانا من افاضل المسلمين . قلـــت وقد وقفت فى سيرة عبد الله بن يحيى على الخطبتين اللتين خطبهما بمكة والمدينة متطاولتين بابلغ ما يأتى به خطيب ثم وقفت عليهما أوجز من ذلك قليلا فيما صححته عن بعض خطب من أهل الخلاف ، فآثرت ان اثبتها هنا على نحـــو ما صححته عنهم لان شهادة خصمك لك أصح من شهادة اخيك لـــك .

خطبة أبي حمزة بمكة

روى رواتهم قال خطب ابو حمزة الشارى بمكة حرسها الله فصعد المنبر متنكبا قوسا عربية ، فخطب خطبة طويلة . فقال :

يا أهل مكة تعيروننى بأصحابى وتزعمون انهم شباب ، وهل كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا شبابا ؟ نعم ، شباب ، مكتهلون عمية عن الشر اعينهم ناكبة عن الباطل أرجلهم انضاء (1) عبادة ، واطلاح سهر من نظر الله اليهم في جوف الليل مثنية اصلابهم بمثانى القرآن ، اذا مر احدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى تشوقا اليها ، واذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة ، كأن زفير جهنم فى أذنه وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم ، انضاء عبادة ، قد اكلت الارض جباههم ، وايديهم ، وركبهم ، مصفرة الوانهم ، ناحلة أجسامهم من طول القيام ، وكثرة صيامهم ، يستقلون ذلك فى جنب الله ، موفون بعهده ، منجزون لوعده، اذا رأوا سهام العدو قد فوقت، (2) ورماحهم قد اشرعت وسيوفهم قد انصلتت وأبرقت الكتيبة وارعدت بصواعق الموت ، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، فمضى الشباب منهم قدما حتى تخلف رجلاه عن عنق فرسه ، وقد رمت (3) محاسن وجهه الدماء وعفر جبينه التراب ، اسرعت اليه سباع الارض وانخطف اليه سباع الطير، فكم من عين فى منقار طائر طالما بكى صاحبها من خشية الله !

---

(1) جمع نضو وهو الضعيف الرقيق الجسم ، واطلاح جمع طلح من خلا جوفه عن الطعام

(2) من أفاق اسهم وفوقه وضع فوقه فى الوتر ليرمى به

(3) ابلت وغيرت محاسن وجهه

وكم من كف بانت من معصمها ، طالما اعتمد عليها صاحبها في ركوعه وسجوده ! وكم من خد عتيق رقيق قد فلق بعمد الحديد ! رحمة الله على تلك الابدان وادخلهم بفضله فى الجنان ـ ثم قال ـ الناس منا ونحن منهم ، الا عابد وثـن وكفرة الكتاب، وامام جائر . قلت وقد حذف راويها منها كثيرا مما خاطب به أهل مكة من انواع التقريع بما اقـام عليهم الحجة وقطع العذر فاثبتت ما اثبته بحسبه .

خطبـة أبى حمـزة بالمدينـة

روي عن مالك بن انس قال خطبنا ابو حمزة بالمدينة خطبة شككت المبصر وردت المرتاب ، قلت وهذه الفاظ فيها جفاء ، وكان ينبغى ان اسقطها ، لكننى حكيتها على ما هي عليه ، للسبب الذى قدمته ، قال فحمد الله واثنى عليـه وصلى على نبيئنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثـم قال : أوصيكم بتقوى الله وطاعته والعمل بكتابه وسنة نبيئـه محمد صلى الله عليه وسلم ، وصلة الرحـم وتعظيـم ما صغرت الجبابرة من حق الله عز وجل ، وتصغير ما عظمت من الباطل واماتة ما احيوا من الجور ، واحياء ما اماتوا من الحقوق ، وان يطاع الله ، ويعصى العبـاد فى طاعتـه ، والطاعة لله عز وجل ولاهل طاعته ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ندعوكـم الى كتاب اللـه وسنـة نبيئه ، والقسم بالسوية ، والعدل فى الرعية ، ووضع الاخماس مواضعها التى أمر الله بها .

انما خرجنا بغيـة اقامة الحق

انا والله ما خرجنا اشرا ولا بطرا ، ولا لهوا ولا لعبا ، ولا لدولة ملك نريد ان نخوض فيها ، ولا لثأر قد نيل ولكن لما رأينا الارض قد أظلمت ، ومعالم الجور قد ظهرت ، وكثر

الادعاء في الدين ، وعمل بالهوى ، وعطلت الاحكام ، وقتل القائم بالقسط ، وعنف القائم بالحق ، سمعنا مناديا ينادى الى الحق والى طريق مستقيم ، فأجبنا الداعي الى الله « ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه أولياء أولئك في ظلال مبين » فأقبلنا من قبائل شتى قليلين مستضعفين ، فآوانا الله وأيدنا بالنصرة فاصبحنا بنعمة الله اخوانا وعلى الدين اعوانا .

يا أهل المدينة أولكم خير أول وآخركم شر آخر ، انكم اطعتم فقهاءكم وقراءكم فأحالوكم على كتاب الله عز وجل غير ذى عوج بتأويل الجاهلين ، وانتحال المبطلين فأصبحتم عن الحق ناكثين ، أموات غير احياء ، وما يشعرون .

يا أهل المدينة ، يا ابناء المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ، ما أصلح أصلكم وأفسد فرعكم ! كان آباؤكم أهل اليقين ، وأهل المعرفة بالدين ، والبصائر بالدين ، والبصائر النافذة ، والقلوب الواعية ، وانتم أهل الضلالة والجهالة ، استعبدتكم الدنيا فأذلتكم ، وغرتكم الاماني فأضلتكم ، فتح الله لكم بابا في الدين فسددتموه وأغلق عليكم باب الدنيا ففتحتموه ، سراعا الى الفتنة ، بطاء عن السنة عمي عن البرهان ، صم عن القرآن ، عبيد الطمع ، حلفاء الجزع ، نعم ما أورثتكم آباؤكم لو حفظتموه وبئس ما تورثون ابناءكم ان تمسكوا به ، وأخذوه ، نصر الله آباءكم على الحق ، وخذلكم على الباطل ، كان عدد آبائكم قليلا طيبا ، وعددكم كثيرا خبيثا ، اتبعتم الهوى فأرداكم ، واللهو فالهاكم ، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزدجرون ، وتعبركم فلا تعتبرون .

انحراف الولاة وسوء اعمالهم دعانا الى الخروج

سألناكم عن ولاتكم هؤلاء فقلتم فهم الذين تعلمونه ونعلمه ، اخذوا المال من حله فوضعوه فى غير حقه ، فجاروا فى الحكم فحكموا بغير ما انزل الله عز وجل واستأثروا بالفيء فجعلوه دولة بين الاغنياء منهم، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النساء، وفروج الاماء ، وقلنالكم تعالوا الى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم ، وجاروا في الحكم وحكموا بغير ما انزل الله ، فقلتم لا نقوى على ذلك وددنا انا أصبنا من يكفينا ، فقلنا : والله نحن نكفيكم ثم والله لئن ظفرنا لنعطين كل ذى حق حقه فجئنا ، واتقينا الرماح بصدورنا ، والسيوف بوجوهنا ، فعرضتم لنا دونهم فقاتلتمونا فأبعدكم الله عز وجل ، فوالله لو قلتم لا نعرف الذى تقولون ، ولا نعلمه ، لكان أعذر لكم ، على انه لا عذر فى الجهل ، ولكن أبى الله الا ان ينطق بالحق على ألستنكم، ويأخذكم به فى الآخرة ، ثم قال : الناس منا ونحن منهم الا ثلاثة حاكم بغير ما انزل الله ، ومتبع له وراض بعمله . ثم نزل .

فالله يتولى السرائر من عباده ، ويجازى عليها ، فهذا كلام لا مطعن فيه لطاعن ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . الى هاهنا انتهى ما رواه » .

ابو الحر وطريقته الحكيمة فى استصلاح الاحداث

وحكى عن عيسى بن علقمة المصرى قال كان ابو الحر بمكة وكان له غلة تأتيه من البصرة وكان موسرا، قال فكان يأمرهم ان يجعلوا تلك الغلة نقرة واحدة ذهبا ، قال فأوتى بها فقسمها نصفين ففرق نصفها فى فقراء المسلمين وربعها فى نفسه ، وربعا يحبسه لنوائبه ، ولمن يمر به من اخوانه المسلمين ، وفى معونتهم ، قال فكان شاب قد لازم أبا الحر حتى كان هو صاحب أمره ، والذى يلى حوائجه ، قال فأوتى

بغلة تلك السنة ، كما يؤتى بها ، فقسمها نصفين فاعطى الفقراء نصفا وبقي النصف عنده أياما ، ثم انه احتاج الى ثمنه فدعا الشاب فقال يا فلان اذهب بهذه القطعة فبعها قال فخرج الفتى بها فلما خلا به الشيطان ، قال لو قلت لابى الحر انها ضاعت ما سألنى عنها ، قال فأبطأ عنه ثم أتاه ، فقال : ما حبسك ؟ قال إلا ان القطعة نشلت وذهبت قال ابو الحر : ففى الله الخلف ، قال ، ولم يسأله عن شيء ، ولم يعاتبه ، قال فخرج ابو الحر يوما الى السوق ، فمر بالصائغ فاذا القطعة بين يديه موضوعة فاستأذن الصائغ فى النظر اليها ، قال فنظر فعرفها ، ثم وضعها ، ثم قال من أين هذه القطعة ؟ قال ناس من بنى مخزوم دفعوها إلي لأصوغ منها حليا ، قال فانطلق ابو الحر الى المسجد ، ثم مر بالصائغ مرة أخرى ، فقال له الصائغ : يا ابا الحر انى سألت القوم عن القطعة فاخبرونى ان فلانا - يعني الشاب الذى يخدم ابا الحر - هو الذى باعها لهم ، قال فبعث ابو الحر للمخزوميين فسألهم ، فأخبروه أن الفتى باعها لهم ، قال فانصرف ابو الحر وكان له مجلس يجلس فيه للذكر يوم الاثنين ويوم الخميس ، قال : فدعا الشيخ الشاب فقال له : يا فلان اذهب الى فلان وفلان عدة من مشائخ المسلمين فأمرهم ان يحضروا فى مجلسنا ، قال : ففعل ، فلما توافى القوم ، قال لهم ابو الحر لا يكون اكثر كلامكم ، الا فى تعظيم الامانة لما عظمها الله ، فان صاحبا لكم قد ابتلي ، قال ففعلوا وعظموا من أمر الامانة حتى انتهى الكلام الى ابى الحر ، فعظم من ذلك ما شاء الله قال والفتى **جالس قد** غمره العرق ، ودخله من ذلك ما شاء الله ، قال ثم خرج القوم ولم يبق فى البيت الا ابو الحر

والفتى فوثب اليه الفتى ، فقال يا ابا الحر انى بالله ثم بك ، قد والله هلكت انا أخذت القطعة ، قال فقال ابو الحر الله أكبر، هذا الذى اردت هي لله ولك ولا حاجة لى فيها ، قال فاستغفر الله الفتى ، واقام مع ابى الحر على احسن ما كان ، وحسنت حاله حتى مات .

قال واخبرنى على بن علقمة ان شابا كان يأتى ابا الحر ويلزم مجلسه ، ثم فقده ، فأتى الى والدته ، فسألها عنه ، فقالت يا ابا الحر قد والله أخذ فى السفه والبطالة ، وما يأتينا الا من الليل الى الليل ، ونصف النهار ، وقد والله ذهب ما فى يده ، ولم يستتر بشيء ، قال فقال لها ابو الحر اذا انا جئت وهو هنا فأذنى لى ولا تحبسينى على الباب ، قال فلما كان نصف النهار اتى ابو الحر ومعه ستة اثواب وثلاثمائة درهم حتى وقف على الباب فاستأذن فأذنت له العجوز ، فدخل فاذا بالفتى فى ناحية من البيت فى خلق له ، قال وأقبل عليه ابو الحر ، ثم قال له : ما أرى منعك عن ان تأتينا الا العري ونحن اسأنا فى أمرك ، فاعلم انا لا نعود الى مثلها ، فخذ هذه الاثواب فاكتس منها بثوبين ، ولوالدتك ثوبين ، ولاختك ثوبين ، وهذه الدراهم فانفقها على نفسك ، ثم خرج ابو الحر ، قال فرجع الفتى الى احسن ما كان وحسنت حاله ، فلم يزل مع ابى الحر حتى قتل معه يوم مكة .

وعن أبى سفيان ان ابا الحر اهدى له من البصرة بساطا قال فوجد فيه تصاوير ، قال فباعه قال فقال له وائل هذا مما يوطأ أو يتمهد ، فلا بأس به ، فلم يعتبر كلامه حتى باعه، ومن أحسن الاجوبة ما اجاب به ابو الحر فيما ذكر أبو سفيان قال كان لابى الحر بمكة مجلس ، قال فقال له

بعض اصحابه يا ابا الحر انا لنخاف ان يظهر علينا ، قال : ويحك اما سمعت الله يقول : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) والله يحفظكم .

الاخوة فى الدين اقوى من الاخوة فى النسب

وذكر ابو سفيان ان ابا الحر كان فى المسجد جالسا فى حلقة فقدم أخوه الحسن من العراق ، قال فاقبل يريده حتى جاء الى الحلقة ظن انه يقوم اليه ، فلم يقم اليه وأخذ أخاه بيده ، وهو جالس ، قال ولم يكن يراه منذ زمان ، قال فبينما هم كذلك اذ طلع اليه رجل من أهل عمان فلما نظر اليه ابو الحر قام قائما وخرج من الحلقة فتلقاه ، فاعتنقه وقبل صفحتى عنقه ، ورحب به ، قال فسقط فى يد اخيه فقال له مودة هذا على غير مودتك لان مودة هذا على الدين وأنت على النسب .

الطبقـــة الرابعـــة 150 ــ 200

الربيـــع بن حبيب

منهم الربيع بن حبيب رحمه الله طود المذهب الاشم ، وعلم العلوم الذى اليه الملجأ فى معظمات الخطب الاصم ، ومن تشد اليه حبال الرواحل وتزم، صحب ابا عبيدة فاغترف من بحره الزاخر ، ولزم مجلسه فكان الاول والآخر ، روى عنه « المسند » المشهور ، المتعارف البركة على مر الدهور ، وله فى الفروع كل قول ومذهب ، اجوبته من المتعمدة فى المذهب ، باين من خالف من محاضريه أهل العدل والصّواب ووقف فى الامامة والولاية والبراءة عند موافقة السنـــة والكتاب ، والصواب عندنا فى كل ذلك جوابه ، فان سمعت بأصحابه فنحن ــ والحمد لله ــ اصحابه .

يتحرج من معونة تقدم اليه بشرط

قال ابـــو سفيان اجتمع وائل بن ايوب ، والمعتمر بن عمارة ، وجماعة الى الربيع ، فسألوه ان يخرج الى الموسم قال فقال ، لا اقدر وما عندى ما اتحمل به ، فمشوا الى رجل من المسلمين يقال له النظر بن ميمون ، وكان رجلا موسرا من تجار الصين ، اعلموه بقوله ، قال فأتاه بأربعين دينارا فقال حج بها فلم يقبلها منه ، وكان به خاصا ، قال فجاءه وائل والمعتمر فقالا له : سبحان الله يا ابا عمرو تعلم حاجة

الناس اليك ، وكنت اعتللت بانك لا تجد ما تحمل عليه ، فلما جاءك الله بما تتمتع به أبيت ان تقبل ! قال : انه قال لى خذها على انك تحج بها ، ولست اقبلها ، على شرط ، قال فأتوا الى النظر فاعلموه بما كره من قوله فاعتذر ، فقال والله ما علمت انه يكره ذلك ، والآن فخذوها انتم فادفعوها اليه ، قال فأبى ان يقبلها بعد ذلك .

قال ابو سفيان كان ابو عبيدة عبد الله بن القاسم ربما سئل عن مسألة فيقول : عليكم بوائل فانه اقرب عهدا بالربيع .

اليمين انما تنعقد على العلم ، والاحوط اسلم

قال ابو سفيان اخذ ابو جعفر رجلا من المسلمين من أهل الموصل فاستحلفه بالطلاق ان ماله علم برجل اتهم انه عنده ولا له عنده مال ، قال فحلف الرجل ماله عنده قليل ولا كثير فخلى سبيله قال فرجع الرجل الى منزله ، فوجد نعلا للرجل فكتب بالمسألة الى الربيع فقال لا اجيبه فيها حتى يأتى الرجل بنفسه ، قال فقدم عليه فأمر الربيع ان يجمع أصحابه قال فجمعهم فحضر شعيب بن المعروف ، وابن عبد العزيز ، وجماعة ممن حضره يومئذ ، قال فقص الرجل يمينه ، قال فقالوا له الملوك لا يستحلفون على النعال ولا على ما يشبهها ، انما حاجاتهم الاموال العين ، قال واجمعوا على انه لا شيء عليه ، قال والربيع ساكت لا يتكلم ، قال ، فقال له الرجل ما تقول يا ابا عمرو؟ قال أرى فراقها . قال شعيب يا ابا عمرو وانما الملوك لا يستحلفون على النعال ، قال صدقت ولكن صاحبنا حلف ماله عنده قليل ولا كثير ، وهل تخلو النعال من ان تكون من القليل أو من الكثير ؟ وفى هذه القضية وجوه منها انه استحضر محاضريه المذكورين وشاورهم فى الفتى وذلك لوجهين احدهما لعله ان يكون

ذلك قبل ان يبرا منهما ، فأراد الاشمات بهما ، أو انـــه استحضرهما بعد ان وقعا فيما وقعا فيه فأراد استعجازهما وعندى ان الربيع رحمه الله شدد في جوابـــه ، لان فى الجواب الذى اصاب صاحبه مخرجا من ذلك الضيق ، فان يمينه انعقدت على علمه ، ولا علم له بالنعل ، وأيضا فان لفظه عندى ما يلزمه منها الا ما لزمه من ذلك ، فان فيهـا تخصيصا لا يقتضيه قصر الحلف لكن لعل اخذه بالاحوط أسلم .

رأي حيان فى صلاة الجمعة ورد الربيع عليه

وقال ابو سفيان اجتمعت يوما انا وحيان بن حاجـب عند الربيع بن حبيب ، فقلت يا حيان أخبرنى ما الـذى فرض الله على محمد والمسلمين يوم الخميس ان يصـلي للظهر ؟ قال أربعا ، قال ، فقلت له وما فرض الله عليه يوم الجمعة ان يصلي ؟ قال فرض الله عليه ان يقيم العدل ويصلى فى وقته ركعتين ، قال قلت له ولم ؟ أو لم يفرض عليه فى يوم الخميس ان يقيم العدل ويصلى أربعا ؟ قال فلم يجبنى بشيء قال فقال لى الربيع اشدد يدك يا محبوب .

مات ولم يوص فاخرج عنه وصية لانه يدين بها

قال ابو سفيان مات جدى من الرضاعـة وكان يسمى المليح ، وكان من المسلمين فأتانا الربيع وكان المليح لـم يوص فأرسلنى الى بنات له ، فقال اقراهن السلام وعزهن عنى فى أبيهن وقل لهن : ان المليح كان عندنا ممن يديـن بالوصية ، ويراها حقا عليه واجبا ، وانه قد مات وعليه الامر ولم يوص ، وانى أرى لكن ان تخرجن عنه ألـف دينار فى قراباته ووكرا من بر فى كفارات أيمانه ، قال ابو سفيان وكنا نرى تركته تبلغ ثلاثين ألف .

قال ابو سفيان ، قال ابو الربيع ، جاءتنى امـرأة فى مسألة لم اسمعها من احد ، فقالت ، ما تقول فى مسجـد

عليه سلّم هل للحائض ان ترقى على السلم الذى على المسجد ؟ قال فقال الربيع لا يمسح ذلك ، قال وكان الربيع يقول ليس لها ان تصل المسجد بيدها ، ولا شيء من جسدها ، وان ارادت ان تأخذ منه ثوبا فلتأخذه بعود ، وبما شاءت غير جسدها .

ابو عبيدة يقول : فى الربيع كفاية عمن سواه

وقال لما اصاب ابا عبيدة الفالج وحضر خروج الناس الى الموسم ومضى حاجب الى ابى عبيدة وعبد الله بن عبد العزيز ليبعثه مع الربيع الى الموسم ، قال فابى ابو عبيدة وقال لا افعل ، فقيل له : فالمثنى بن المعرف ، قال نعم فبعث الى المثنى فى ذلك قال ما كنت لأفعل ، أخرج مع الربيع ، والربيع حاله فى فضله وسنه ومعرفته على ما تعلمون ! فما اشير عليكم ان تبعثوا غلاما حدثا مثلى مع الربيع ، فيقال : لم نجد من نبعث الى الموسم الا هذا الغلام وفى الربيع كفاية عمن سواه ، قال فبلغ قوله ابا عبيدة فازداد فى نفسه له محبة ، وازداد عندهم بذلك رضى ، قال ابو عبيدة صدق المثنى ، قال ، فتوجه الربيع للناس يومئذ ، قلت لابى سفيان وكيف لم يخرج حاجب ؟ قال لم يكن صاحب فقه ، قال ابو سفيان ، وسمعت ابا طاهر ذكر الربيع عند ابى عبيدة فقال فقيهنا وامامنا وتقينا ، قال وكان الربيع اذا سئل عن مسألة فقيل ، يا ابا عمرو ممن سمعت هذه المسألة ؟ فيقول : انما حفظت الفقه عن ثلاثة ، عن ابى عبيدة ، وابى نوح وضمام ، هذا قول احدهم . لم يكن يكاد يخفى عليه قول واحد منهم الا انه ربما اشتبه عليه قول من المسألة ، قال ، وقلّ ذلك .

وقال قدم أبرهة بن عطية من الجزيرة الى البصرة ، فنزل فى جوار الربيع « بالحرسة » فدخل عليه وسلم ، فقال

يا ابا عمرو رجل من اخوانك . فقال من أى بلاد انت ؟ قال من أهل الشام ، فلم يفتش الربيع ، قال وكان يختلف اليه ويسأله عن الفقه ولا يحرك شيئا من أمر القدر ، فلبث بذلك أياما حتى دخل على الربيع بعض المسافرين ، وقال له الربيع : سلم على اخينا هذا فسلم عليه ، ثم قال ممن انت يا فتى ؟ قال من أهل الشام قال ما بالشام احد من أهل هذه الدعوة ، فمن أي الشام انت ؟ قال من أهل الجزيرة ، قال لعلك ابن عطية ، قال نعم ، قال يا ابا عمرو هذا ابن عطية الذى أهلك أهل نجران هو وابوه من قبله (1) ، فلا يدخلن عليك ولا تنعمه علينا ، قال فقال له الربيع اسرعت على الرجل،قال فقال ابن عطية يا ابا عمرو ما سألتك قط عن أمر تنكره ، انما اريد ان أسألك عما يحتاج اليه الناس من الفقه من الحلال والحرام ، قال فخرج الرجل واتى (وائل) والمعتمر ، وعبد الملك ، وجماعة من اصحابنا فاعلمهم بحال الرجل ، قال فمشوا الى الربيع مغتضبين ، فدخلوا عليه فقالوا انزلت ابن عطية وقربته ، قال فقال لهم لا يجمل بمثلى ان ارد من يأتينى مع ان الرجل لم يسألنى عن شىء اكرهه ، ولم اكن علمت به ، قالوا فلا يدخل عليك ولا تفته فى مسألة واحدة ، قال فلما غلبوا عليه حمل نفسه على رده ، قال ابو سفيان فاتاه ابرهة كما كان يأتيه فلم يأذن له ، قال ، فبكى وقال ، ما كنت اظن ان الربيع فى فضله وورعه وحاله يرد مثلى ، وانما أسأله عما ينتفع به الناس من أمر دينهم ، قال فارتحل من « الحرسة » الى داخل البصرة .

انما اريد أن اسألك عما يحتاج اليه الناس

(1) أورد القصة صاحب السير ، رحمه الله ، الا أنه ذكر أهل خراسان عوض أهل نجران ، وهو أنسب للموضوع وابن عطية هذا ممن خالف أهل الدعوة «الاباضية» فى مسألة القضاء والقدر ومال فيهما الى رأى المعتزلة ، وكان من تلامذة أبى عبيدة

وائـل بن أيوب الحضرمى

ومنهم وائل بن ايوب الحضرمي رحمه الله . صنو الربيع وتلوه . ومن له فى حلبة الفضائل مثواه ، فانهما رضيعا لبن التفقه فى العلوم ، وفيما ـ هو ـ خير ميراث ، فما منهما الا له فيه مقام معلوم ، وان كان لابى عمرو فضل وزيادة ، وشهرة فى الافادة ، والاستفادة ، فان لوائل انواعا من حميد الصفات ، أحيى الله بها على يده أعظم الدين الرفات ، من طيب شيم ، وخلق كريم ، واهتبال بالتعلم والتعليم ، فكم من ضال هداه الله به الى صراط مستقيم وسافل أعاده الى احسن تقويم ، فبركته شاملة فى حياته ، وبعد الموت ، وآثاره المتقفات بالعراق ، والمغرب ، وعمان ، وحضرموت ، فله الحظ الاوفر فى طريقة المتفقهين ، وله فى مسالك الصلحاء رتبة وقوانين قد تقدم ما رويناه عن وائل من قوله : انما الفقيه الذى يعلم الناس ما يسع الناس فيه مما سألوه عنه ، واما من يضيق عليهم فكل من شاء اخذ بالاحتياط ، قال ابو سفيان كان عبد الله بن القاسم ربما سئل عن مسألة فيقول عليكم بوائل فانه أقرب عهدا بالربيع رحمه الله .

محبوب بن الرحيل

ومنهم محبوب بن الرحيل العبدى رحمه الله ، احد الاخيار الانجار ، وممن سبق الى تخليد سير السلف الاخيار (I) ، واللف مما يحصل عنده عنهم من الآثار ، وجمع ذلك فى سلك واحد بين غرائب الفقه ، وعجائب

(I) يعنى بهذا سيرته التى كتبها فى التابعين ومن بعدهم من أيمة الاباضية رحمهم الله ، وقد اعتمدها صاحب الطبقات ، ونقل عنه كثيرا وهو المعنى بابى سفيان

الاخبار ، وذكر مناقب المجتهدين من مجاهدين في سبيل الله وأنصاره ، ونبه على مثالب من بدا منه اقصار ، والمشعرين التدابر ، والمولين الادبار ، واعتذر عمن قام عذره واستحق قبول الاعتذار ، هذا وهو ممن صحت عليه الفتاوى وانتفع به مصاحبه من مرحل وثاوى ، وجملة الامر ان مناقب ابى سفيان ، مغنية شهرتها عن المشاهرة ، فقد قامت مقام العيان ، وانه لو لم يؤثر عنه الا عهده الذى جمع فيه المواعظ والحكم والآداب وجعل فيه تنبيها وذكرى لاولى العقول والالباب ، لكان بذلك ما تؤدى النفس من المراقى والمناط ولكان كافيا فى معناه ، عما عداه (1) ، فكتب به الى عبد الله بن يحيى ، وعالج به القلوب الميتة فأحيى . ونصه :

عهد محبوب بن الرحيل الى طالب الحق

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً . أما بعد : فان الله تبارك وتعالى جعل من طاعته طاعة ، من عمل بها كانت له درجة ونافلة ، وزيادة خير ، ومن لم يعمل بها لم يزله عن اسلامه ولا يضره شيء ولم يكفر بها . وعليه حقوق يسئل بلاغها ، وجعل مما نهى عنه زواجر من انتهك حرمتها لم يقبل الله له صنيعا حتى ينتقل عنها . ومن زواجره زواجر من اصاب منها شيئا لم يحبط عمله ولم يكن كافرا ، ولم يحق عليه ما حق على راكب الكبائر الموبقات ، المهلكات ، ما لم يتخذها دينا ، فيذكرها فيصر عليها ، ولا يتوب منها ، وجعل وظيفة طاعته ايمانا بالله واليوم الآخر والملائكة

ليست الطاعة فى مستوى واحد من الاجر والمكانة

(1) هكذا العبارة فى جميع النسخ ، فتأملها

الى آخر الآية (١) وصيام رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا ، والوفاء بالعهود ، واداء الامانة ، وملازمة أهل الحق وفراق أهل الباطل ، فهــذه عرى الاسلام ، ووظائف الدين ، واصل الايمان فمن رغبت عنه نفسه ويتبع غيره يكن من الخاسرين ، فهذه العزائم من الطاعة ، وجعل مــن طاعته الحج بعد الفريضة ، والعمرة، والصدقة ، والصيام بعد رمضان ، وقيام الليل والانصات عند قراءة القرآن فمن بلغه الله هذه كانت له الفضيلة ومن لم يستطعها كان مسلما ، ما استمسك بوظائف ما كان يعرف قبل ذلك من الحق ، وهذا التطوع من طاعته ، وجعل مما نهى عنــه أن لا تشركوا به شيئا ، ولا تعبدوا الا ايـــاه ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحـــق ، ولا تنكحوا ما نكــح آباؤكم من النساء ، والزنا ، وقذف المحصنات ، واكـــل مال اليتيم ، فهذا كله موجب موبق بمن انتهك منه شيئا حتى يتوب الى الله متابا ، وكل معصية اصابها مما نهــى الله عنه وأوجب الله فيها عذابا فى الآخـرة ونكالا فى الدنيا فانه يصير بها كافرا ، لا يقبل الله منه عملا حتى يتوب الى الله متابا . ومما نهى عنه أن الله تبارك وتعالى قال : «يايها الذين ءامنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى» الآية ، وقال «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها» «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض» . «ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله » ، فهذا عيب ودنس مــن اصاب منه شيئا لم يبلغ الكفر ولم يزله عن اسلامه ، ولم تخلع ولايته» ما اجتنب الكبار من المعاصى . وقال : «ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم» ، وقال «اولئك الذين يتقبل عنهم احسن ما عملوا ويتجاوز عن

(١) يعنى آية البر من سورة البقرة

سيئاتهم » . وقال « يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » ، فهذا اللمم من الذنوب من اصابه وهو مسلم يغفره الله ، وقال : «ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» . ما لم يتخذها دينا يدعو الناس اليها ، ويستتاب حين يصيبها فان ابى واخذته العزة بالاثم وحمية الجاهلية واصر على هذا فعند ذلك تخلع ولايته .

فاتقوا الله ولا تجعلوا كل من نزل به بلاء من الله كافرا فليتب من انزله تلك المنزلة فانه يصير على ما ترك من طاعة الله فاسقا كافرا ، فان العامل للمعصية كالتارك للطاعة . فأذكركم الله العظيم لانفسكم لما اعتقدتم ذلك ، فان لكل منزلة سيرة ، ولكل شهادة حكما ، ولكل حد عقوبة وقد بلغنا ان الرجل يكون فيكم زمانا لا ترون منه الا ما يعجبكم من الرأى ، والاجتهاد ، والنسك . ثم انه يصيب ذنبا فتخلعونه وتحقرونه من غير ان يعلم انكم قد برئتم منه ، ويرى انكم عنه راضون ثم ينكر منكم اشياء لم يكن يراها قبل منكم فياتيكم فينشدكم الله ويسألكم النصيحة وان تبينوا له ما يريبكم ولا يعجبكم،وان ترضوا عنه ، فتكتمون عنه ، ولا تنصحون له ولا ترضون عنه ، وأذكركم الله لم لم تفعلوا ذلك ؟ فانه نقص لكم شديد وعيب فى دين الله ، ولم يكن ذلك فى دين المسلمين قط ، وان كان مابكم من اجل الذى اصاب فان الله يغفر عند التوبة فاذكروا ما تصيبون من الذنوب فان لكم فى ذلك عبرة ان تعتبروا . وتقولون انا ان استتبناه متى يتب فانه يعود ، وما يدريكم ما يحدث الله بين الليل والنهار وما يحدث فى القلوب ؟ فياتيكم تائبا فتردونه كما أتاكم

بينوا للمذنب ذنبه قبل التبرىء منه وابعاده

ولا تتولون عند توبته فاذكركم الله العظيم ألا تشرعوا شيئا لم ياذن الله به،وأن لا تبتدعوا شيئا لم يكن فى دين الله ، ولا سنة رسوله عليه السلام ، ولا من بعده ، وقد اكمل الله الدين ورفع التنزيل ، وكمل الكتاب ولم تجدوا لذلك برهانا ، لا آية محكمة ، ولا سنة ماضية ، أن تردوا على تائب توبته . فاتقوا الله فان ذلك ليس بايديكم منه شيء ، ولا تملكونه ، وقال الله عز وجل : «قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لأمسكتم خشية الانفاق»، فان كان ما بكم تقولون يعنى اذا استتبناه من أمر عاد فيه ، فما يضركم من ضل اذا انتم مهتدون بولايتهم حين يتوبون واظهروا لكم المعروف تضلونهم حين عادوا الى ما نهوا عنه ، وتابوا منه ؟ قال الله تبارك وتعالى : «من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما انت عليهم بوكيل» «فان تابوا واقاموا الصلاة وآتووا الزكاة فاخوانكم فى الدين» ، وقال : «فان تابوا واقاموا الصلاة وآتووا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم» . وان كان ما بكم انكم تردون توبتهم فان تقولوا انهم يخدعوننا فاتقوا الله فان من يخدع بالله يخدع، ومن يخادع الله فهو المخدوع وتخرج ضغنته لوليه ، ولا تأخذوا بالظن فى ذلك . وتتركوا اليقين الذى ظهر لكم ، ولا يكذبن ظنكم يقينكم .

البشر لا يخلون من عيب ونقص

وان كان بكم ان لا تتولوا إلاّ كل مجتهد حريص لا يفتر عن صيام وقيام ولا ترون فيه عيبا فان المرسلين والنبيئين لم يزل بعضهم افضل من بعض ، ولم يكن الناس قط فيما مضى ولا فيما غبر اجتهادهم سواء ولا اعمالهم سواء ، وقد قال الله تعالى : « الذين اصطفينا

من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » وقال «ويؤت كل فضل فضله» وقال : «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات » ، وقال : «ولكل درجات مما عملوا» فاعتبروا من الناس على عهد نبيكم عليه السلام والخلفاء من بعده كل الناس كانوا مسلمين وولايتهم واحدة منهم الضعيف والقصير النظر ، وهم الذين تكرهون ولايتهم ، هم أعلم بالسنة وادرس للقرآن ، واشد اجتهادا من هؤلاء الا ما شاء الله ، ولا تجعلوا هؤلاء الذين كانوا منكم زمانا من أجل ذنب يصيبونه فمن لم يكن منكم[1] غير انه كبر ذنبا واعظم جرما من الذين كانوا منكم ثم تركتموهم ، فلا يعرف دينكم أحد ولا تجالسونه ابدا وان جاءكم مستجيبا فمتى تفعلوا . هذا الذى اخر بدينكم الذى انتحلتموه لا يستجيب له احد، فكل دين لا يستجاب له فهو دين الضلالة ، ان لم تصح مؤاخاتكم فى الله ولا فراقكم ، فاذكركم الله العظيم لا تضيقوا ما وسع الله تبارك وتعالى فانه «يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ويعلم ما يفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد » . فدين الله واسع يجب ان يدخل فيه ويدعو الله (2) ، فاحبوا ما احب الله ، وارضوا بما رضي الله ، واهتدوا بهدى من هدي قبلكم ، ولا تشدوا من الامور عليكم فتكون لكم فيه هلكة وقد عاب الله تبارك وتعالى أقواما جعل

(1) لعل الصواب كمن لم يكن منكم

(2) لعل الصواب وأن يدعى اليه بالبناء للمجهول

صدورهم ضيقة حرجة كانما يصعد فى السماء الى آخر الآية ؟ . (1)

اما بعد فان خير الاخوان الناصحون حين يتناصحون ، وافضل الاخلاء من عطف عن التقوى ، وافضل الاخوان الراشدون فى المضلات ، المذكرون فى الغفلات ، وهذا يوم تناصح الاحباء ، ان الاموات فى سكراتهم يعمهون ، حين عاد الدين غريبا مفقودا ، وعاد أهله غرباء منفيين ، وقد استحوذ ابليس على العباد فهم له جند محضرون ، وقد نبذوا الكتاب جملة من شدة البلاء ، وقد توارثوا نبذه عن الآباء ، حين مالت بهم الاهواء وجعلوا مكانه تحريفا لكاتبه كذبا وتكذيبا ، باعوه بالبخس ، وكانوا فيه من الزاهدين ، فقد أصح البلاء فى زماننا على الاتقياء ، فى الخاصة والعامة ، فسموا بصدقهم كاذبين ، وبايمانهم كافرين ، وبهداهم ضالين ، فقد بقوا وبقي الكتاب اليوم وأهله غريبين طريديين منفيين نافيين مستغنيين مع ذلك عمن استغنى عنهما ، فيا حبذا ذلك الغريبان الطريدان النافيان المنفيان . والناس اليوم قد اجتمعوا على الفرقة ، وتفرقوا عن الجماعة،فصار أمر سلطانهم بينهم بعد ان كان شورى بينهم وفيئهم بعد قسم الرب دولة وغنيمة ، ليس يلون أمر دينهم الرضى ولا عن رضى اهل الرضى اليهم فى فعلهم امام الكتاب ، وليس الكتاب له بامام ، يدخل الداخل بينهم لما سمع من حكم القرآن فما يطمئن جالسا حتى يخرج من الدين ، لانه يوضع فى يده خلاف القرآن اذا عمل به خرج من الدين ، فينتقل من ولاية ملك الى ولاية ملك ،

محبوب يشكو أهل زمانه

(1) يعنى آية سورة الانعام عدد 125 « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون »

(2) هكذا العبارة فى النسخ

ومن سلطان ملك الى سلطان ملك ، فليس له امام يسوسه ولا على أمر الله يطيعه ، فيبقى متحيرا واشتبهت عليه الامور كما قال : لا بصر أهتدى به ولا بصير يقودنى ، فان احتاج الى العلماء والقراء وجدهم يدينون بطاعة الجبابرة، وآخر استحكم حكم القرآن مثل ما عليه الصديقون فاظهر أمر الله ، فصار عند علماء أهل زمانه ضالا اذ لم يوافقهم على خلافهم لله ، وهو كاليتيم المفرد يستذله من لا يتق الله .

فالناس اليوم على ثلاثة : فرقة تميت الحق وهم علماء السوء طلبا للدنيا وعلوا فيها ، فافتوا بغير الحق ، ودعوا الى أنفسهم فنسبوا أهل سنة وجماعة ، وهم أهل بدعة وضلالة ، وقد قال الله عز وجل : « ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب اولئك يلعنهم الله ، ويلعنهم اللاعنون » . واما الفرقة الثانية فهو كما قال فيهم الحكيم الصادق : ان لله عبادا رسخ عظم جلال الله فى قلوبهم ، وركدت شفقة هيبته فى صدورهم ، وتمكن الحياء منه فى ضمائرهم ، ووطنت الفكرة افئدتهم ، وتمثلت العبرة بين أعينهم ، وجرت ينابيع الحكمة من دقائق سرائر اخلاص صدقهم على اطراف ترجمة ألسنتهم ، فأنار بهم الدين ، وانحسرت بهم ظلم البدعة ، وبادت بهم سواد الضلال ، وارتعد بهم موارق الجهال ، وابت عليهم دعاة العمى ، وازدادت بهم هدىً نصرة الهدى ، اولئك الذين كفوا عن الدين تأويل الزائغين ، وتحريف الملحدين ، وشكوك المرتابين ، واغلاء المعتدين ، وحيرة المتحيرين بالدين ، الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، احيانا بمصرع الدنيا ، والشراب بكأس

أبنائها ، ودخولا وايغلا فى شعاب هلكاتها ، واتيان فى سياسة غدراتها ، وتسليم الدين خشية آفاتها .

ؤلاء اولى بالاقتداء بهم

فاتبع الذين صدقت أقاويلهم افعالهم ــ أو قال اعمالهم ــ وانقطعت من الدنيا آمالهم وكانما سمعوا بآذانهم الى صراخ أهل النار فيها أو تشنيش غليان جماجم أهلها ، فهم محزونون وان ابتسموا الى اخوانهم ، وهم المنعمون(I) بسرور الدنيا وان خالطوا أهلها فيها فاولئك الذين لا تعتريهم سآمة ، ولا تجترىهم رغبة ، ولا ينظرون الى الدنيا بعين نقية ، ولا يعقدون لها على مودة ، ولا يفرحون فيها على زينة ، بل ضربوا فى السهم الاوفر ، ولزموا الطريق الاقصد ، وسلكوا السبيل الا رشد ، وهم ائمة التقى ونجوم الهدى ، وامام الدين ، ومنار الاسلام، كلامهم حكمة ، وسكوتهم حجة ، ومباينتهم حسرة ، ومخالطتهم غنيمة ، والاستنان بهم حياة ، والاقتداء بهم نجاة ، فعليك ايها الزائغ عن طريقهم ، والراغب عن سبيلهم، بالاتباع ، فانه ليس الاتباع كالابتداع ، وعليك بطريق من كان بالله اعلم وبحلاله وحرامه منك ابصر ، ومن طائفتك الشاذة وعصابتك المناكثة التى ليست بهادية ولا مهتدية بل ضالة مضلة ، زائغة عن سبيل الرحمن ، سالكة لسبيل الشيطان .

الشىء يعرف بضده

اعلم يا قارىء القرآن انك لن تتلو القرآن حق تلاوته حتى تعرف الذى حرفه ، ولم تعرف الكتاب حتى تعرف الذى نقضه ، ولم تعرف الهدى حتى تعرف الضلال ، ولم تعرف التقى حتى تعرف البدعة ، فاذا عرفت البدعة فى

(I)/ كذا فى النسخ لعل الصواب وهم المتنعون عن سرور الدنيا

الدين والتكييف ، عرفت الفرقة والتحريف وان من هوى كيف هوى وان علم القرآن ليس يعلمه الا سـين يخافه ، فابصر به من عمى ، وسمع به من صمم ، واحيي به بعد اذ مات ونجا به من السيئات .

واعلم يا قارئ القرآن ان العهد بالرسول قد طال ، ولم يبق من القرآن الا رسمه ، ولا من الاسلام الا اسمه ، وان الله لم يجعل ما قسم بيننا نهبا ، ولا ليغلب قوينا ضعيفنا ، ولا كثيرنا قليلنا، بل قسم علينا برحمته بالاقسام وبالعطايا بالعدل والاحسان ، فمن اجترأ على الله ممن زعم أن له اقساما بين العباد سوى ما حكم به الكتاب ، فبيننا وبينه الحكم ، والعدل ، والشاهد الذى لا تكذب شهادته ولا تبطل عدالته ، فلو كانت الاحكام كما حكم به أهل الجور والآثام لما كان بيننا خصام ، ولا تداعينا الى حاكم كما لا يستأذن بعضنا بعضا فى اللحا والالوان ، وتمام الخلق والنقصان ، وقديما اتخذت الجبابرة عباد الله خولا ، ودينه دغلا ، وماله دولا ، واستحلوا الخمر بالنبيذ، والمكس بالزكاة والسحت بالهدية ، يأخذونها من غضب الله وينفقونها فى معصية الله .

الحكام الجورة لا يقفون عند حدود الله

واتخذوا على ذلك من خونة العلم اعوانا ، ومن الوراع اعوانا ، ومن الصناع اخوانا ، ووجدوا على ذلك من المستأكلين اعوانا ، فهؤلاء الاعوان خطبة أهل الجور على المنابر وبهؤلاء الاعوان قامت راية الفسق فى العساكر وبهؤلاء الاعوان اخيف العالم فلا ينطق ولا يفطن بذلك الجاهل فيسئل ، وبهؤلاء الاعوان مشى المؤمن فى اطراف الارض بالتقية والكتمان ، فهو كاليتيم المفرد يستذله من لا يتق الله، واعلم بانك فى زمان وجد فيه من لا يوجب

الميعاد ، قد رفعت لهم الجبابرة اعلام التكاثر فتنافسوا فيها وتشاحنوا عليها حتى محلتهم الفتن بعبارات القرآن ، فتلك معالم الطغيان وأذنتـهم تلك المحلة بالمداوة والهجران . (I)

واعلم ان فى معاينتهم مشبة اشتعال النار ، واحكامهم الحرص والتحضيض على الشهوات وفى معاشرتهم ذم للقناعة وتصغير للنعم ، وهو كما جاء فيهم الحديث مساجدهم فى ذلك الزمان عامرة وانه قد بدل على ما كان فيها من الهدى ، سكانها وعمارها اجابت الى الخطيئة فى مساجدهم فهى اظهر منها فى الريبة لان أهل الريبة اذا رأوا من لا يريد ما عندهم اختفوا بالخطيئة ، فهؤلاء قد بارزوا بالمحاربة ، وكذبوا على الله فى العلانية ، فواحدنا يقول سمعت وما اكذب ، ونطقت وما اكذب ، وذلك انى لم ادرك من الاسلام الا رسما عافيا ، وعلما منقطعا باليا ، فصرت ميتا بين الاموات ، وحيرانا بين المتحيرين، فلو أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر لم اكن للظالمين ظهيرا ، ولا لمن يدين بطاعتهم مواليا ، ولا كنت كالمستعطى بكفه حتى يظهر حكم ربى .

جملة ما يدين به اهل الدعوة ويدعون اليه

الحمد لله الذى جعل فى كل زمان وأوان اقواما يذبون عن دينه ، عارفين بحكمه تابعين لسنة نبيئه أحمد صلى الله عليه وسلم ، اخذ من الدنيا قوته كفافا ، ولم ينازع أهله فيها عفافا ، وقال يدعو الى الله والى كتابه والى سنة نبيئه محمد صلى الله عليه وسلم ، ونجيب من دعانا اليها : الله ربنا، ومحمد عليه السلام نبيئنا، والقرآن امامنا، والكعبة

(I) لعلك تلاحظ ايها القارىء الكريم شيئا من الغموض فى الفقرات الاخيرة ، وهذا هو ما وجدنا فى النسخ التى اعتمدناها جميعا . وما يوجد بين مطتين زيادة منا لتستقيم العبارة .

قبلتنا ، رضينا بحلاله حلالا ، وبحرامه حراما، لا نبتغي به بدلا ، ولا عنه حولا ، وندعو الى فرائض مثبتات، وآيات محكمات ، وانا فى آثارها مقتدون بها ، ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم ، ان الذى ندين لله به الدعاء الى سبيل المقتدين قبلنا ، والاخذ منه بسبيلهم ، والاعتراف فيه لهم بفضلهم الذى فضلهم الله به من سابقتهم ، وفراق الناس جميعا على المعصية وانزالهم حيث أنزلوا أنفسهم ، والسيرة فيهم على قدر منازلهم ، والامر بالمعروف والمعروف طاعة ، والنهى عن المنكر ، والمنكر معصية الله ، وفراق أهله كله مع شهادة ان لا اله الا الله فردا واحدا ليس كمثلـه شيء ومعرفة الموت ، والبعث ، والحساب ، والجنة ، والنـار والايمان بما انزل الله من كتاب وبما ارسل من رسول ، ونتولى الله ورسوله والذين آمنوا ونخلع ما سواهم ، ونقر له بجميع ما أمر به وجميع ما نهى عنـه بحـق السمـع والطاعة » .

وعنه أنه قال : كان رجل من «ضنو» هو ابن عم المسيب ابن زهير ، وكان صفريا ، وكان من اصحاب شبيب ، وكان الحجاج بن يوسف طلبه فهرب الى البصرة ، فنزل عندنا فى دربنا فى الازد واكتتم عندنا ، قال فدعاه المسلمـون الى الاسلام ، فاجابهم وكان يسمى مصقلة ، ويسمى بعد ذلك بسطاما ، أبا النظر ، فغلب عليه بسطاما ، قال ، فكـان يقول لهم الى من تدعوننى ؟ فقالوا له : انا ندعوك الى ولاية من علمته انه يقول الحق ويعمل به ، وندعوك الى البراءة ممن علمت انه يقول بخلاف الحق ويعمل به ، وندعوك الى الوقوف عمن لا تعلم حتى تعلم . قال ابو النظر ؟ فلمـا سمعت هذا من كلامهم علمت انه دين الله الذى ارتضاه .

قال ، فقبل الاسلام وكان خيرا فاضلا ، وله فضل في المسلمين وشرف . قال ويحضر المجالس فأول من يتكلم هو ، وقد قال الامام افلح رضى الله عنه : عليكم بدراسة كتب أهل الدعوة لا سيما كتب ابى سفيان .

ابو غسان مخلد

ومنهم ابو غسان مخلد بن المعرد رحمه الله احد علماء علم الفروع والكلام ، والمناضلين عن كلمة أهل دعوة الاسلام ، وممن نجب من اصحاب ابى عبيدة ، وضح يده في العلوم وأيده ، ان افتى فالشمس مشرقة الشعاع ، وان ناظر فالقمر مقتد فى البقاع ، وهو احد من أفاد واستفيد منه ، ورويت الاحاديث والفتاوى عنه .

قال ابو سفيان جاء رجل الى مخلد بن المعرد فقال له : يا ابا غسان ، ان عبد الله بن عبد العزيز وجماعة معه يقولون من أفتى الناس بما لا يعلمونه حقا ، فان لهم ان يقفوا عنه ، فقال له أبو سفيان : انت سمعته ؟ قال : نعم قال فارجع اليه وقل له : يا ابن عبد العزيز ، ما تقول فيما افتيتنا به من أمر حجتنا ، فانا لا نعلم ما تقول حقا ألسنا يجب لنا ان نقف ؟ قال ، ففعل الرجل فقال له ابن عبد العزيز : انت رجل شغب ، ولم يجب بشيء ، فانصرف الرجل الى ابى غسان فاعلمه بذلك ، فقال ابو غسان : ان الذى قال لا يجوز فى الدين ولا يسع نقض ولاية أهل الدين الا بما يسع مفارقتهم .

ومن هذه الطبقة حملة العلم الخمسة وقد تقدم من ذكر مناقبهم ، وسيرهم واحوالهم ، فى اثناء ما بسط من الانباء للدولة الرستمية ، ما فيه كفاية ، رحمة الله عليهم اجمعين

الطبقـــة الخامســـة 200 ـ 250 هـ

منهم الامام افلح بن عبد الوهاب رحمه الله هو ومن ولي من ذريته ، قد تقدم أيضا من اخبارهم في مواضعهـا ما اغنى عن اعادته .

ابو عبيدة عبد الحميد الجناوني

ومنهم ابو عبيدة عبد الحميد الجناوني رحمه الله . قد ذكرنا من نفوذه في الامور وامضائه وقيامه بالمدافعة عـن نفوسة وضيائه ، واداثه الامانة ووفائه احوالا مستحسنة المواقع ، مستحلات في المسامع ، الى ما طبع عليه من الورع واطراح الحرص في الدنيا وترك الطمع ، وهو احد علماء نفوسة ، الموصوفين بالاخلاق النفيسة .

ابو زكرياء التكوتي

ومنهم ابو زكرياء التكوتي ؛ وابو مرداس مهـاصر رحمهما الله ، بلغا في العلوم النهاية ، وجريا في أمـــر الصلاح الى اقصى غاية ، الا ان ابا مرداس ممن هرب،وقنع بالخمول ، واعتمد على ان ما عدا أمر المعاد فضول . وامـا أبو زكرياء ، فكان علما لكل الفضائل ، ومعلما لكل ناهل

وذكر ان ابا مرداس كان يصلي في المسجد اذ سمع قائلا يقول : من يعطيني شيئا الليلة ينجيني ، وكان ذلك في مجاعة عظيمة فلما قضى ابو مرداس صلاته ، قال : ما يقول هذا ؟ فاخبروه ، فقال لهم بادروه فقد اقام عليكم الحجة فابتدروا اليه فوجدوه خلف جدار المسجد ميتا ففرضوا ديته ، فأدى أبو مرداس ما ينوبه منها ، وذكر ابو الربيع عن شيوخه ان ابا مرداس كان اذا اراد زيارة اخوانه بتاهرت يجمع ما بالجبل من أموال الوصايا مما كان فيها من فضل عما عينت له فيحمله معه الى تاهرت ليقوى به بيت مال المسلمين ، ويتوخى في ذلك انتفاع أصحاب الوصايا .

ابو مرداس مهاصر يتحرج من اراقه دماء الموحدين

وذكر ان الامام عبد الوهاب رضي الله عنه قال ، ذاكرت ابا مرداس في الوجوه التي يحل بها أو باحدها اراقة دماء الموحدين ، فذكرت احدها فتنكر وكره ، فأمسكت عن باقيها ثم ذكر الامام أربعين وجها ، وقيل سبعين وجها يحل بها دم من فعل شيئا فكيف ولو سمعها ابو مرداس كلها على تحرجه .

وعن ابي مرداس انه رأى خطأ من غير قصد امرأة مكشوفة الرأس فصام سنة ، كفارة على ذلك لكثرة اجتهاده ، وكان ذلك في ايام الربيع وقد خرج الناس ولم يبق في البلد الا ابو مرداس فنظرت المرأة في البلد فقالت ما بقي في البلد غير أبي مرداس ومثله لا أتحفظ عنه فرقت الدرج ، فرآها ، وذكر ان ابا مرداس فرغ ماء وضوئه فخرج يطلب الماء فطلبه من سبعة أبيات من جيرانه فلما لم يجد رأى أن قام عذره فعدل الى التيمم ، وعنه انه قال قد كفرت جارتنا اليوم مرارا ، وذلك انه سمع صوتها

من خيمة الى خيمة ، وبينهما سبع قامات ، ولعل الـــذى نسب اليها من الكفر انما هو الفاظ لم يقصد بها الكفر ، وربما كانت ممن لا ينبغى مخاطبتها بالتعليم والارشاد ، فقال هذا القول منه ليسمعه من كان ينهاها ويعلمها، وذكر عنه انه كان اذا قدم تاهرت فحصد الناس زروعهم ، ولقط اللقاطون السنابل التى تبقى بعـد اللقاطـين ورعـي المواشى تعقبهم ابو مرداس فيلقط ما يقوم بقوت عـــام ، فيعتقد ان الذى بقي بعد اللقاطين ورعي المواشى انما هو متروك .

ستشملنا اللعنة اذا سكتنا عن المنـــكر

وذكر عنه انه كان بتاهرت ذات مرة فسمع رجلا يدعو رجلا آخر الى الحق ، فلم يجب دعوته وأعرض عنه فـجاء ابو مرداس الى دار الامام فجعــل يضرب فيهــا بالحجــارة ويقول : بهلة (I) الله اليوم على من سكن هذه البلدة فقال رجل للامام كيف نحن وهذه التى يذكر أبو مرداس ، فقال نحن فى وسطها اذا لم نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، والامام حينئذ مشتغل بغسل يوم الجمعة، وكان ابو مرداس اذا نزلت عنده نازلة من مسائل الدماء كتب بها الى عبـد الخالق الفزانى يستفتيه ، فيكون العمل بما يجاوبه بــه ، وذلك لكونه يرى عبد الخالق اعلــم أهل زمانــه بالدمــاء واحكامها .

وبلغنا ان رجلا من اصحابنا من أهل المشرق أقبل مـــن بلاده يريد زيارة أهل الدعوة بالمغرب ، فاجتاز بجبــــل نفوسة فتصفح احوال اهل الجبل واختبر كل من يأويه اليه منهم ، ثم توجه الى الامام بتاهرت ، ولمــا وصلها تصفــح احوالها واحوال من بها فسأله أهل تاهرت عن جبل نفوسة

(I) البهلة : اللعنة ، والطرد

فقال لهم الجبل هو أبو زكرياء ، وأبو زكرياء هو الجبل .
واما ابو مرداس فكالغزال ، نفسى ، نفسى ، واما ابو العباس ففتى مقرعي ـ يصفه بالشدة والنجدة ـ فلما رجع المشرقى الى الجبل سألته نفوسة عن أهل تاهرت ، فقال ليس بها احد غير الامام ووزيره مزور بن عمران .

ابو مرداس كالغزال يفر بنفسه

وبلغنا ان ابا مرداس كلف بأمر آخرته فاضاع أمر دنياه وكان مقترا عليه، يذكر انه شاور بعض اخوانه في التزوج وسأله ان يخطب عليه امرأة تصلح به ، فطاف بالجبل فلم يجد أيما الا واحدة مجنونة فاخبرها أن ابا مرداس ارسله ليخطب عليه امرأة ، فقالت له فانا اجبت خطبته ، قال فأتى الرجل الى ابى مرداس فاعلمه بما كان من جواب المرأة ، وعرفه بحالها ، فقال ابو مرداس اما اذا اختارتني فانا اتزوجها. فتزوجها ابو مرداس ومكث معها دهرا وكانت من افضل نساء نفوسة واحسنهن وارفعهن ذكرا وذلك ببركة الشيخ ، وموافقته ، قلت لعل الذى ذكر فى وصفها بالجنون انما هو الوسوسة وشراسة الاخلاق ، أو ممن يجن ويفيق ، والا فكيف ينعقد النكاح على مجنونة لا تفيق ؟ ، وأما ما أذهب الله عنها فلا ينكر . وهى أيضا من الكرامات نحو ما تقدم من امثال ذلك فى هذا الكتاب .

ابو ميمون الجطالى

ومنهم ابو ميمون من أهل ايجطال من نفوسة الجبل رحمه الله ، ممن له فى الآخرة رغبة وترغيب ، ولم يكن له فى دنياه أكثر نصيب ، وكان ذا جد في العلم ، والاجتهاد وسعي فى العبادة . ومنافع العباد ، وكان ممن يعد فى الشيوخ ، وممن قدمه فى العلم ذا رسوخ ، وكان ذا تفقد

لمواضع المعروف وذا ايثار ، على ما كان عليه من الاتلال والاقتار .

ابو ميمون تصدق فيه فراسة امه

ذكر جماعة من الشيوخ انه كان بجبل نفوسة بايجطال امرأتان ولكل واحدة منهما ابن صغير ، فسألت كل واحدة منهما الاخرى ما ظنك بابنك وما ترين فيه ؟ فقالت احداهما اراه ان يكون عالما ، وقالت الاخرى اراه ان يكون عابدا ، فسألت كل واحدة منهما صاحبتها بماذا استدللت على ما قلت ؟ فقالت أم العابد أرى ذلك لانى اذا كنت فى الصلاة سكن وترك البكاء والتنغص ، فاذا خرجت من الصلاة واشتغلت بغيرها اكثر البكاء والتنغص ، وقالت الاخرى أرى ذلك لانى اذا شهدت مجالس الذكر والعلم سكن واطمأن قلبه لذلك ، ولم يتحرك ، واذا كنت فى غيره أكثر البكاء والقلق ، فصدقت فراسة كل واحدة منهما فكان العالم منهما ابو ميمون المذكور . قيل ، وكانت حلقة تجتمع على ابى ميمون يدرسون العلم ويأخذون السير اذ خطر ببال ابى ميمون ان ينظر فى التزويج من بلد غير بلده ، فمضى ومضى معه تلامذته وهم متمادون على دراستهم واجتهادهم ، ولم يفتروا فى مقام ، ولا فى رحيل فتزوج ابو ميمون وابتنى بامرأته فكان التلامذة مواظبين على درسهم ، عاكفين على عزمهم .

وذكر ان زوج الشيخ قالت : لما رأيتهم اقبلوا أبصرته أقصرهم قامة ، فلما حلقوا عليه وأقبل كل واحد منهم يسأل والشيخ يجيب ، رأيت حينئذ الشيخ أطولهم وأعظمهم .

وذكر ابو الربيع عن ابى محمد عبد الله بن محمد وسمعته من غير واحد ، أنه قال : استودع رجل عند ابى

ميمون وديعة دنانير ، وسافر عن جبل نفوسة وطالت غيبته ، فوقعت في جبل نفوسة مجاعة عظيمة ، واشتدت عليهم الشدة ، حتى اضطروا الى أكل الميتة ، ثم ان صاحب الوديعة قدم ، فقصد دار الشيخ أبي ميمون ، فسلم عليه ورحب به ، فوجد قدرا يفور باللحم ، فسأله الرجل عن الوديعة فقال له : هي حيث دفنتها ، فاحفر عنها وارفع وديعتك . فحفر في الموضع الذي دفنها فيه ، قال المخبر وفي اثناء ذلك وقع في قلب صاحب الوديعة شيء مما يقع في القلوب من التغيير ، وساء ظن نفسه بالشيخ ، لما لم يعرض عليه المقام لتناول الطعام ، وهو قادم بعد طول المغيب ، وبعد عهد بالمزار ، مع ما تعهده في الشيخ من الايثار ، فلم يتمالك ان تكلم بما في قلبه ، ولم يكف عن غربه (1) في عتبه ، حتى اذا استوفى ما عنده ، قال له الشيخ ، احمل وديعتك ، وعد عما سواها ، فان الذي في البرمة مباح لنا وليس لك بمباح ، قال وما هو ؟ قال : الميتة ، اضطرنا اليها الجوع والقرم ، ولست انت بمعدم فقال معاذ الله ان أكون واجدا وتكونوا معدمين حتى تستوجبوا أكل الميتة ، فدفع له عشرين دينارا ، فقبلها منه وأمر بانكفاء القدر ، وعالج من العشرين دينارا ما أكلوا وأطعموا ضيفهم .

معاذ الله ان اكون واجدا وتكونوا معدمين

ابو المنيب محمد بن يانس

ومنهم ابو المنيب محمد بن يانس رحمه الله . المجالد لنفسه ، المتصف بالمآثر في أهل جنسه ، ذو الدعوات المجابات ، والخشوع والانابة ، وكرامات تضاهي المعجزات

(1) الغرب الشدة والحدة ومنه غرب الشباب أي نشاطه وحدته

يخل بالدنيا ، ويفرغ لاعمال الطاعات ، قد تقدم من وصف احواله وما كان عليه من المجاهدة ، والقيام والصيام ، وخدمة اصحابه الذينوفدتهم نفوسة مددا للامام، ما يدلك انه أهل لاجابة الدعاء ، لاتسد دونه ابواب السماء ، وهو ممن سمع العلم وسمع منه ، وأخذه عن أهله وأخذ عنه ، لدعائه المستجاب ، وكراماته التي هي العجب العجاب ، وسنذكر من ذلك ما امكن ، وان أسره فقد ابى الله الا ان يعلن ، ذكر عن ابي زكرياء التكوتي ان محمدا بن يانس كانت له غنيمة لا راعي لها ، فكان اذا اصبح واراد ان يرسلها الى المراعي يقول لها : انهاك ان تضري احدا ، وانهي ان يضرك احد ، أمضي في حفظ الله . قال فتسرح فتمر في أوساط الزرع فلا تضر شيئا ، ولا تأكل غير الحشيش والمباح الذي لا حق فيه للناس ، حتى تروح على ربها سالمة ، لا يطمع فيها سارق ، ولا يضرها ذئب ، ولا ضبع ولا سبع .

محمد بن يانس يتفرغ للحسبة

قيل وكان دأبه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يتفقد المزارع والجنات والطرقات محتسبا ثواب الله ، فمتى وجد أحدا أهم بافساد شيء من ذلك أو بادخال ضر على أحد من المسلمين صرفه عن ذلك ، وحال بينه وبينه ، وكان لا تمسه غفلة عن هذا الشأن ، ومع كثرة عبادته فقد جعل هذا من أوكدها . قيل فلما كان ذات يوم وجد ثلاثة اخوة وقد عزموا على ضرر ، قد قصدوا به غيرهم ، وقد اخذوا في عمله ، فنهاهم عن ذلك فقاموا اليه ونالوا منه وعاملوه اقبح معاملة ، فسمعت قبيلته وأهل منزله بالذي ناله من القوم ، وارادوهم بشر ، فنهاهم محمد عن ذلك ، وقال ما نالوا مني شيئا الا وقد نلت منهم أكثر واعظم ،

فسار احد الاخوة الثلاثة فطلع الى كبار رآها متعلقة بالجبل فوقع ، فلم يصل الى الارض وقد تمزقته جروف الجبـــل ، فلم يجمع لحمه الا بالابرة فيما ذكر ، ومضى الثانى الى بئر يسقى منها، فسقط فى البئر فوجدوا رأسه موشوقا كرأس بصلة بين الصخور ، ودخل الثالث داره فبلاه الله بالانتفاخ فانتفخ حتى انشق بطنه ، وكل ذلك فى يومهم الذى كـــان فيه ما كان منهم الى الشيخ ، نعوذ بالله من العقوق .

كرامة يظهرها الشيخ لرفيقـــه

وذكر عنه أيضا انه كان له سبعة مساجـــد بعضهـــا فى الجبل و بعضها فى السهل فكان لا تفوته الصلاة في كل مسجد منها كل ليلة و هو شيخ كبير .

وذكر عنه رافق رجلين لا ادرى الى الحج ام الى تاهرت ، فلما كانوا ببعض الطريق قال احدهما اتمنى الآن مـــاء عين كذا ــ يعنى عينا ببلده ــ وقال الآخر : أتمنى هاهنا لبنا ، فقال لهما محمد ان كتمتما مـــا تريانـــه يحضر مـــا تمنيتماه ، فحل فم سقاء فصب منه لبنا على الصفة الـــتى تمناها صاحبه ، ثم صب للآخر ماء لا يشكون أنه ماء العين المذكورة التى تمنى ماءها ، وكلاهما من سقاء واحد لـــم يتقدم فيه غير ماء من مياه المكان الذى كانوا فيه ، وذلك بقدرة الله عز وجل واكرامه وعرفه وخدمته .

قيل ودخلوا فى توجههم هذه مدينة من المدن فمرت بهم امرأة فى ايدى الشرط يغلونها ، وهى تصيح : أغيثونى معاشر المسلمين ، فاغاثها محمد بن يانس ، وسل سكينـــه ودافعهم حتى خلصها منهم ، فحملوه الى السلطان وقـــد هرب أصحابه ، فقال ما حملك على انتزاع المرأة من ايدى خدامى ؟ قال سمعتها تصيح بالله وبالمسلمين ، فلم اتمالك ولم أر فى دينى ان اسلمها ، فأمعن النظر فيه طويلا ، ثم

قال : تركناها لله واجلالا لحقك ، يا حاج ، فرجع الى اصحابه فوجدهم مستخفين ، فقال لهم ما حملكم على هذا ؟ قالوا خفنا من سوء عاقبة ما اجترأت عليه ، فقال انما كان نيامى فى الله وهو اعلم ، فليس بمضيعى ولا خاذلنى ، ولم اغضب لله قط الا ونصرنى ونجانى ثم تلا : « وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » وفى هذه الحكاية ما يدل على انهم انما كانوا فى طريق الحج والله اعلم .

يقول الشيخ لم يغضب لله قط الا ونصره

وذكر عنه انه كان اذا مضى الى غار يتعبد فيه يعد زادا قليلا فليبث فى الغار المذكور المدة الطويلة التى يفنى فى بعضها أضعاف ذلك الزاد ، فكانت هذه حالته حتى ساء ظن امرأته وحسبت انه قد تزوج غيرها ، وان التى تزوج هى التى تقوم بطعامه المدة التي يفنى فيها زاده فتوجهت امرأته الى الغار ، فدخلته فى خفية على حين غفلة ، وكمنت بحيث لا يشعر بها بعلها وراقبت الى وقت افطاره ، فلما صلى ما شاء الله كما كان يصلى قبل تلك الليلة تحول الى شجرة رتم أو تمام فأخذ منها فافطر عليه ، وأكل منه ما اقتات به ، حتى اكتفى فلما وجدت الامر على خلاف ما حسبت ، وعاينت ما عاينت . قالت له أو دأبك على هذا ؟ فقال لها كلى يا امة الله ، فأكلت طعاما نهاية فى الحلاوة ، ثم حملت ما قدرت عليه من ذلك الطعام واتت به الى البلد ، واخبرت أهل البلد بما شاهدت وناولتهم وقالت لهم كلوا فلما ذاقوه وجدوه مرا مضرا .

يقتصر على القليل من الزاد اثناء تفرغه للعبادة

ابو خليل اليدركلى

ومنهم ابو خليل من أهل ايدركل رحمه الله ، شيخ الجماعة النفوسية الاخيار ، وأول من اخذ عن الخمسة

الحملة العلم الاخيار . ومن اثبتت اخباره في مشهور الاخبار ورويت عنه السير والآثار ، ذكر ابو الربيع ان ابا خليل رحمه الله يقول : والله ما انتم الا على الجادة ، ولاتركتكم الا على الواضحة المنيرة ، وما بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غير ثلاثة لم ارهم ، وذلك لانه أخذ عن ابن عباس وعن غيره من الصحابة رضى الله عنهم وروايتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

شهادة المشائخ له عند احتضاره

وذكر شيوخ من اصحابنا ان ابا خليل لما حضرته الوفاة اجتمعت عليه الشيوخ فقال لهم : كيف حالى عندكم ؟ فقالوا له : خير حال عبدت ربك العمر الطويل ، وتعلمت العلم وعلمته وعلمت السير والاخلاق،فقال لهم : أبهذا تشهدون لى عند الله ؟ قالوا نعم ، قال : اكتبوها هاهنا ، فكتبوها في رقعة ، فقال لهم : اذا مت فاجعلوا الرقعة فيما يلى جسدى تحت الكفن ، فتوفي رحمه الله على مائة وعشرين سنة وعقله محفوظ ، فلما جهزوه جعلوا الرقعة بين جسده وكفنه ، فلما أصلحوا القبر وألحدوه ورمسوه ، وقفوا وخطوا عليه الحريم ، فاذا كتابهم الذى فيه شهادتهم ملقى فوق تراب القبر ، فرفعوه فاذا فيه غير خطهم الذى كتبوه فقرأوه فوجدوا فيه : هو عندنا كما هو عندكم .

وذكر ابو الربيع ان ولدا لابى خليل قتل وترك يتامى فأخذ الشيوخ قاتله ، فقادوه لابى خليل ، ثم سألوه ان يعفو عنه ، فقال لهم دعونى الليلة ادبر رأيي ، فمضوا وتركوه عنده ، فأمر بالجانى فأضجع وذبح ، فلما اصبح غدوا اليه فوجدوا القاتل مذبوحا ، فاستعظموا ذلك وأنبوه عليه . فكان مما خاطبوه به أن قالوا اجتمعت فى قصتك هذه ثلاثة اشياء : ائتمناك عليه ، وسألناك العفو ، واستعنت

يقتل الجاني خوفا على اولاده ان يكونوا جناة

عليه بغيرك ! فقال لهم : أما قولكم امانة فمحال ، والا فما تقولون في رجل اتى الى رجل بمال ، فقال : هـــذا مالك امانة عندك ، هل يأكله ام لا ؟ واما سؤالكم العفو وهـــو خير ، فصحيح ، ولكنى خفت على أولادى ان يكونوا جناة بأن يقتلوا غير القاتل أو يقتلوه ، وليس ذلك لهم ، وامـــا قولكم استعنت عليه بغيرى فما تقولون في شأن الضحيـــة هل على من استعان عليها بغيره من جناح .

قلت لعل اليتامى الذى خلف ابنه اناثا لا ذكر معهن ، ولو كان معهن ذكر لكان أولى بالـــدم مـــن أب المقتول ، ولا يصح غير هذا ، اذ لا ينسب الى أبى خليل هذه السقطة على جلالته، وصلاح حالته ، ومكانه في العلم والدين أن يتعمد قتل من لا سبيل له عليه .

يحث اولاده عـــلى ملازمة مجلس العلـم والبحث عنه

وروى ان ابا خليل كان يقول للتلاميذ سيروا الى الحلقة واقصدوها حيثما كانت يا كسالى ، فان رجلا قد سار مـــن الجبل الى فزان والى غدامس ، والى الساحل ، رغبـــة في الحلقة ، وفيما يستفيده ، فلقيه في الطريق قطاع ، فدافع عن نفسه حتى جرح سبعة عشر جرحا ، فظنوا انه قد مات فتركوه فوجد في نفسه النهوض فنهض ، ودخـــل موضعا يقال له وعمان ، ومكث فيه اربعين ليلة بلا طعام ولا شراب غير انه يرى في نومه من يطعمه ويسقيه ، وخرج مـــن الموضع وهو أصح شيء ، وكأنه لم يصبه ألم ، وذلك بفضل الله وحسن نية الرجل وجميل قصده .

ابان بن وسيـم

ومنهم ابو ذر أبان بن وسيم النفوسى ، رحمه اللـــه ، طـــود العلم الشامخ وحصـــن الـــورع البـــاذخ ، ودع

أهل الدنيا بعد حين ، ورجع الى الله فهو فى حلبة المفلحين وأحيى السنة من البلى وذلك ببركة الصالحين وكان ذا سعة فى المال والعلم وممن وسع أهل زمانه ما لديه من المعروف والحلم ، فكان أمضى من الحسام متى أفتى ، جامعا من المحامد لمعان شتى ، وقد أوتى من كرامات الاولياء ما أوتى أمثاله ، لم تزل ملازمة الصلاح أحواله ، مصدقة اقوال افعاله .

كان الشيخ يجل ويحترم من يتعلم العلم لله

كان ابان ممن قرأ على ابى خليل وكان معه طالب آخر يعرف بابن مؤنسة ، يقرآن جميعا على ابى خليل ، فكان أبان متى دخل على الشيخ فوجده مضطجعا أو متكئا أو مستغشيا ثيابه انحفز واستوفز (1) ، وجلس مستويا ، فاخرج رأسه من ثيابه احتفالا به ، واهتبالا لشأنه ، واذا دخل عليه ابن مؤنسة فوجده على أى حال كان ، بقي عليه لم يتحرك ، ولم يتحول استخفافا به ، فكانوا على هذه الحالة الموصوفة مع كل واحد منهما ، حتى قال حفيد الشيخ أو ابن اخت له هل علمت يا شيخ ان قد تكلم فيما تقابل به كل واحد من تلاميذك ؟ قال له الشيخ بالبربرية «يا مبتلى» أفطنت لهذا يا بنى ان ابانا يتعلم العلم لله ، وابن مؤنسة انما يتعلم العلم ليؤذى به ، ويؤذى. فكانا كما تفرس فيهما الشيخ رحمه الله . وذكر ان ابانا تزوج امرأة فلما انعقد عليها نكاحها زارها فى بيتها ، ورام ارخاء الستر عليها هنالك ، فلما وصل بيتها استأذن عليها . ففتحت الباب فقالت من هذا فقال انا ابان قد زوجنيك وليك ، فأغلقت الباب فى وجهه ، وقالت انك وان كنت أمينا لمحتاج الى أمناء . قلت ولعمرك ان هذه لمن زلات العلماء ، وان المرأة

(1) جلس مستويا متهيئا للقيام

لأولى بالصواب منه لوجوه كثيرة ولم نذكر هذه الحكايــــة لتطلع منها (على) عورة الشيخ بل لتعلم انها نظرت بمرآته واستضاءت بنوره ، وشملتها بركتـــه ، وكـــان الاولى أن يعلمها بذلك وليها ، وشهود عقد النكاح ، وحينئذ يحاول فى أهله ما شاء ، ولئن فعل فانه لم يأت اثما ولا حاب حوبا.

ومما شكره عليه الشيوخ بجبل نفوسة انه رخص للناس فى ثلاث مسائل : افتى فيها وشهد له فيها كلهم بالصواب، الاولى ان النساء قد كن فى رمضان متى كن فى انتظـــار أيام الحيض اذا اقبل الليل يوقدن النار الليل كله خشيـــة ان يفاجئهن الامر ولا علم عندهن ، فكان ذلك اشـــد شيء عليهن تعبا ونصبا ، فقال لهـــن ابان ايما امرأة منكـــن احست شيئا من ذلك فلتجعل علما فكل ما رأت على علمهـــا بعد الصبح فاستدلت به ، حكمت بذلـــك ، ويجزيهــــا . الثانية ان نساءهن المرضعات كن يرين ان وضوءهن منتقض بأفواه أولادهن فمتى ارضعن اعدن الوضوء فى كل وقت صلاة لاجل افواه الرضع ، فقال لهن ايما امرأة حفظت فم ولدها ومسحته فارضعت وهى متوضية فلاينتقض وضوؤها. الثالثة انهن اذا عملن غزلا قد صبغها اليهودي ، فمستـــه رأين ان وضوءهن قد انتقض لمسه ، لان اليهودى نجس ، فقال لهن ايما امرأة مست صباغ اليهودى فليس عليهـــا الا غسل يديها ، وليس عليها اعادة وضوء .

ابـان سهل للنـاس فى ثلاث مسائل شددوا فيها

ذكر غير واحد ان بدأ أمر ابان بن وسيم ، ورجوعه الى الله وتركه ما كان فيه من الخوض فى غمرات الدنيا ، انه كان هو واخ له اسمه سعيد يكنى ابا محمد مريضين ، وكان أخوه أسن منه ، وكان متقدم التوبة فاضطجعا فى غـــار واحد ، وكان مضطجع أبى محمد داخل الغار ، وابان مما

مكانـة اخيه تحفـزه عـلى التعلم والاجتهاد رغم الكبر

يلي باب الغار ، وكان الشيوخ والعواد يدخلون لعيادة ابى محمد فيدخلون ، ويتجاوزون أبان ، وينتهون الى سعيد ، فيجلسون اليه ، ويؤنسونه ، ويحفون به ويختلفون اليه ويسألونه عن حاله ، وعما يشتهى، فاذا كان عند انصرافهم دعوا الله ان يشفيه ، ثم يتجاوزون على أبان لا يختلفون وغايتهم ان يقولوا كيف حالك يا ابان ؟ يا ضعيف ؟ وربما دعوا له بالشفاء . فكان ذلك لما اراد الله به من الخير والصلاح زجرا له عما كان عليه ، وردعا ، فاذا سألوه هذا السؤال قال : فان فرج الله على أبان سيريكم ما يصنع وتقفون على خبره ، ان شاء الله . وفرج الله عليه فوفى بما اعتقد ، وتاب ورجع الى الله تعالى ، فكان فى حلقة أبى خليل مواظبا للدراسة ، عاكفا على القراءة ، والمطالعة ، حتى بلغ الغاية بالعلم والورع والاجتهاد فى العبادة .

لكل زمان نذير وانت نذير زمانك

فبلغنا ان شيخه ابا خليل قال له يوما وقد اعجبه ما هو عليه واستسر بما انتهى اليه ، اعلم ان لكل زمان نذيرا ، وانت نذير زمانك ، يا ابان افت الناس بما لا بأس به من الرخص يكون ذلك لهم عذرا ،عند مولاهم ، فسأله رجل عمن أكل يوما يحسب انه أكل ليلا وهو صائم فاذا هو أكل بعد الصبح ، فتجهم له واغلظ عليه ، وشدد حتى بدا فى لسانه تلجلج والتواء ، وقال يحمل احدكم الشره والنهم حتى يأكل صباحا ، ثم يطلب المخلص ، ثم افتى له بأن صومه لا ينهدم ، وأمره ان يقضى يوما مكانه .

تحفظ من المطر لطاعتها لزوجها

وذكر ان ابنة لابان جاءته زائرة فصب مطر غزير يمنع من التصرف ، فقال لها بيتى الليلة عندنا ، فقالت لم يأذن لى فى المبيت ، انما اذن لى فى الزيارة فقط ، تعنى بعلها ، قال فتمادى المطر يهطل وأقبل الليل ، فعلم الشيخ

ان الذى قالته هو الواجب ، وان امتناعها من اجابته هو الصواب ، فقال لها اذا فسيرى فى حفظ الله وستره ، فمضت الى زوجها ومنزله بعيد فأدركته والمطر يضرب ولم تقطر قطرة مطر ، ولا وقعت على ثيابها ، فمرت بناس فى سباط المنزل قد حبسهم المطر ، وجمعهم هناك ، فلما رأوها وكيف حفظها الله عز وجل بدعوة والدها ، جعلوا يتعجبون ويذكرون الله عز وجل ولطفه بعباده الصالحين .

كيف كان الناس وكيف اصبحوا

ومما حفظ من كلامه فى ذم الزمان واهله ، انه قال : (قد ادركنا الناس الذين هم الناس محادثتهم ذكر الله تعالى ، وزيارتهم فى الله تعالى ، ومعانقتهم فى الله تعالى ، ومحبتهم في الله تعالى ، وبقينا حتى ادركنا ناسا محادثتهم ذكر الدنيا ، وزيارتهم لتقاضى الحوائج ومعانقتهم نطاح) (1) ومن كراماته ان ذئبا اذاه فى بستانه فدعا عليه ، فوجده من الغد منتفخا ، وذكر ان ابانا قال يوما لابى عبيدة عبد الحميد علينا ولاية الاشخاص فأبى له ابو عبيدة ، فلما رآه ابان كذلك دخل بيته وأخذ سلاحه وخرج ، وقال له لتعتقدن هذا وتدين به . قال فلما رأى أبو عبيدة صريمته وعزيمته، قال من أين أخذتها يا أخى ؟ قال : أخذتها من الذى أوجب علينا طاعتك يعنى الامام عبد الوهاب ، فقبل ابو عبيدة الحق وتبين له .

ابو مهاصر موسى بن جعفر

ومنهم ابو مهاصر موسى بن جعفر رحمه الله . شيخ النسك والتبتل ، والمكرم بالدعاء المستجاب ، المتقبل ،

(1) يعنى انهم يتعانقون بابدانهم ، ومشاربهم وأفكارهم مختلفة ، فعناقهم كانه نطاح لا لمحبة وأخوة

رفض شهوات النفس وباعدها ، فبـان بأسنى المنـازل ، واستوجب الرقي في درجات الافاضل ، ازدرى أهل الدنيا وهم يرون أن قد ازدروه ، وباع حظه منها حين بذلوا فيها نفائسهم واشتروه ، وتحقق ان من اشترى الدنيا غبـن ، وجاء عليه الدرك ، فمن عرف ما طلب هان عليه ما ترك ، وما هو فى تحصيل العلوم بذى تقصير ، ولا باعه فيهـا بقصير ، الا ان النسك اغلب عليه ، والمجاهدة أقـوى يقينـه .

يـذم البـادية لانـه لا يتمكـن فيها مـن الطهارة

حدث جماعة من المشائخ ان ابا مهاصر خرج سنة مـن السنين الى البادية فى أوان الربيع ، هو ، وعمروس بـن فتح رحمهما الله ، فلبثا اياما على غير ماء فى برية مـن الارض، لا يجدون ما يتوضأون به، انما كانوا اذا حضرت الصلاة تيمموا وصلوا ، وتكدر خاطر ابى مهاصر لذلك ، حتى قال ذاما لهذه الحال : قلوب تربو عليها الشحوم ممـا سمنت ، ووجوه تعلوها الغبرة ، قلت سلامة الدين مع أهل الوبر ، انما الدين فى المدر ، والله لا يجمل بنا ان نترك الدين لاتباع شهواتنا ، وانى لاخاف ان أكون ممن عـاب الله عز وجل ، فقال فيهم : « أضاعوا الصلاة واتبعـوا الشهوات فسوف يلقون غيا » . فرد عليه عمروس بان قال له : ليس فى ذلك ما تخافه ، فقد اباح الله التيمم عنـد الضرورة ، فابان ذلك فى كتابه وعلى لسان نبيئه صلى الله عليه وسلم ، وذلك فى ابتغاء الفضل ، وقطـع الفيافى المجاهل من الارض، وقال : «ابتغوا من فضل الله» وقال : «عابرى سبيل» وقال «فلم تجدوا ماء» فلم يقنع ذلك جميعا ابا مهاصر بل ارتحل راجعا الى منزله ، قيل وانه استصحب معه من الزبد وغيره ما يتحف به أهل منزله ، فلما وصل

جعل يهدى الى كل دار من ديار قريته ما امكن ، حتى لم يبق بقريته احد الا وقد قات من ذلك ما قدر له ، حتى يهودى ضعيف كان معهم ساكنا ، فأناله من ذلك ، وقال اليهودى : وانا أيضا لم ينسنى اللهم لا تنسه من رحمتك برحمتك ، فقال عند ذلك ، وهذا ما اردته منك يا يهودى يعنى الدعاء ، قلت ولعله اراد ما يمطفه ويلين ، فيدخل الاسلام ، والا فمثل ابى مهاصر لا يجهل قوله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » قيل وجمع ابو مهاصر من الصبيان فاعطاهم حتى هرة كانت معهم ، وقد قيل جروة فدعا له الصبيان ربهم ، ولقد شوهدت الهرة عند اختلافهم وهم فى الدعاء شائلة يدها معهم كهيئة الداعى الى الله تعالى فيما ذكروه . فقال من شاهد ما شاهد : ان الله خلق الرأفة والرحمة واسكنها قلوب المومنين ، وخلق القسوة والجفوة وأسكنها قلوب الكافرين،وجواب أبى مهاصر قد حكي مثله عن ابى مسعود رضى الله عنه .

لم تضحكون من اتاني وقد اقامت عليكم الحجة ؟

وحدث الشيخ أبو نوح عن غير واحد ان ابا مهاصر كانت له أتان حج عليها سبع مرات ، وعادته اذا خرج متوجها الى الحج ، سار حتى اذا وصل مصلى له كان يتعود الركوع فيه ، فيقف هناك يدعو الله ، فتنهق الاتان هناك نهقة ، فنهيقها يعرفه اهل قريته بانفصاله ، ثم لا تنهق حتى يعود ، فاذا عاد ووقف بذلك المصلى يصلى ، فيدعو فتنهق ايضا ، فيعرف اهل قريته انه قد رجع ، فيضحك عوامهم وجهالهم ، ويقولون اتسمعون اتانه نهقت ؟ فيقول لهم ابو مهاصر : لم تضحكون بها وقد اقامت عليكم الحجة ، وانقطع عذركم فى استطاعة السبيل ؟ وذكر ان أبا مهاصر

خرج ذات مرة فى بعض شؤونه فمر بغزالة ترضع طلاها ، فلما راته ذعرت ، وفرت ، وعزلت طلاها ، فقال لها انا ابو مهاصر ، ارجعى الى ولدك ، فرجعت. وذكر انه سمع نقنقة ضفدعة فنــزل اليها فوجد علقة متعلقة بعينها فنزعها ، وقال آذتك يا ضعيفة ؟ فأومت برأسها : اى نعم .

أبو عثمان المزاتى

ومنهم ابــو عثمــان المزاتى الدكمى ، رحمــه اللــه . ذو الايثار والسخاء ، وكرامات الاولياء ، المفــزع اليــه لاستجابة الدعاء ، المقصود فى الشدة والرخاء ، سلك فى النسك والزهد أنهج المسالك ، وتحرى جهده فيما يبعــده عن المهالك ، واما العلم فليس هو هنالك . وابو عثمان هذا ممن سكن بجبل نفوسة ، وليس الجبل قديما له بدار ، لكنه نزله فاستقر خير استقرار ، ووسعه ما وسعه فى الايسار والاعسار ، ولمصيره كاحدهم غلب على اسمه ما غلب عــلى ذلك اللسان ، فكان اسمه مشهورا باللغــة النفوسية ، فاذا ذكروه قالوا (باثمان) .

باثمان يتعظ بالحيوان الذى يسعى ولا يــدخر

فمن كرامته ما ذكر ان مجاعة وقعت بجبل نفوسة،فكان عند باثمان غرفة موسوقة شعيرا ، فخــرج يوما يستقى ، فلم يجد على البئر أحدا يستعين به ، فنظر فاذا ذئب فقال له باثمان بلسان البربرية كلاما ترجمته بالعربية ، لم نجد اليوم على الماء سواك ، فهلم فامسك لى فم السقاه يا آفــة الغنم ، فانطق الله الذئب فاجابه باللسان ايضا بما ترجمته انا ساع فى تحصيل معيشتى ، اذ لست مثلــك يا باثمان ، تدخر الشعير الحولى، فذكر ان الذئب اقبل حتى ادخل رأسه بين علاقة السقاء ، وأمسك بفمه فم السقاء ، فملأ باثمان

سقاءه، وسار الذئب وانقلب باثمان الى البلد ، فألهم ان ذلك تنبيه من الله عز وجل ، وعناية به ، فعمد الى الغرفة فتصدق بجميع ما فيها .

باثمان يدعو الله فيستجيب له

وذكر ان الجبل اقحط سنة من السنين ، ولباثمان بستان فجفت اغصانه وتساقطت اوراقه ، فقالت امراة باثمان لابن له ، سر الى ابيك ، فقل له يدعو الله ان يسقي بستاننا فقد هلك ، وسار الصبى حتى قدم على ابيه فلما رآه قال أبعثتك امك لاستقى لكم البستان؟ من غير ان يعلمه الصبى بشيء ، فقال له نعم ، فدعا باثمان ربه فارسل الله سحابة فحامت على بستان الشيخ فسقته ، حتى فاضت جسوره ، وسكوره (I) ، فأصبح مهتزا ، مخضرا ، ولم تجاوز السحابة بستان الشيخ ، فاجتاز به شخص كثير الاصابة بالعين ، فنظر الى اخضراره، فقال عجبا لهذا البستان كانه فى النيل ولم يلبث ان جف وذبلت اشجاره ، فبلغ الشيخ ذلك فدعا على العائن بان يميته الله فريدا بلا وصية ، فيل فخرج من منزله فغدا الى الحصادين فوجد فى طريقه ميتا ، فريدا، وقد كتب وصيته فنسفتها الريح ، وقيل بل دخل فى سرب يحفر طفلا ، فانهدم عليه ، ومات . وعلى كلا الخبرين قد علم ذلك من نفسه متقدما فلم يغض طرفه ، ولم يكف لسانه ، والا فاى ذنب على من نظر مستحسنا خلق الله ، أو تكلم متعجبا من صنع الله .

نساء يتمنين التفانى فى خدمة الغير رجاء ما عند الله

وذكر الشيوخ ان ثلاث نسوة صالحات مجتهدات اجتمعن يوما بجبل نفوسة، وتحدثن فامضى بهن التحدث الى الامانى حتى قالت احدا هن : أتمنى لو ان الله ساقنى الى قوم جهال

(I) جمع يسكر بالكسر ما سد به النهر ، أو ساقية الماء .

فأعلمهم ما يحتاجون اليه ، من امور دينهم ، فيرحمنى الله بما اعلمهم، من فضل العلم والتعليم. وقالت الثانية اتمنى ان لوآوى الي نفر من المسلمين فى ليلة ذات مطر وبرد وقد بللهم المطر ، وتمكن منهم البرد والجوع ، فانهض فاعالج لهم ما يذهب عنهم البرد والجوع ، فيرحمنى الله بهم ، لفضل الصدقة وحرمة الصالحين . وقالت الثالثة اتمنى لو تزوجنى رجل ذو غلظة وفضاضة فيحملنى ما يعجز عنه مثلى ، ويكلفنى من خدمة فوق طاقتى ، ويؤذنى بانواع من سوء العشرة ، فاصبر على ذلك واطيعه ، فانال بذلك خيرا فيرحمنى الله لفضل حسن التبعل ، والصبر على الاذى قيل ، فقضى الله عز وجل امنية كل واحدة منهن .

نزو بنت باثمان وامنيتها المتعبة

وكانت المتمنية البعل السوء العشرة ، منزو بنت باثمان فانكح باثمان بنته رجلا من قومه مزاتيا ، فلما تزوجها ركب على جمل له ومضى ، حتى مر بنساء على ماء ، فقال ان كانت منزو فيكن فانى لا آذن لها في المقام بعدى، وكانت فيهن فقامت فاخذت رداءها فارتدت وسارت فى اثر بعلها، حافية ، راجلة، فمشت حتى وجيت (I) ، فصارت اذا رفعت قدما اذ الدم فى موضع القدم ، الى ان ينزلا ، فاذا نزلا قامت وابتدرته بردائها فوسدته ، فكان ذلك حاله ، وحالها حتى وصلا وطنه ، فبنى لها بيتابنبذة عن الناس ، فكان يسيء اليها ، وتحسن، ثم تزوج عليها أمراة ، فكان ما تلقاه ابنة الشيخ من سوء العشرة فى زيادة ، وكان الذى يبدو منها من الاحسان والصبر فى زيادة ، فلما كان ذات يوم اذا قافلة لاهل جادوا قد سرت بها ، فتكلمت بكلام له وزن فى غناء البربر ، وترجمته (ألا احد يزورنى فى الله

(I) رقت قدمها وأذاها المشى حافية

فيذهب غم النفوس ، ويزيل الوحشة ؟) فوقع كلامها في مسامع بعض أهل القافلة فحدوا بها جمالهم ، حتى وصلوا جادوا ، وتذاكروا كلامها ، ففطن بذلك ابو زكريا يحيى ابن يونس السدراتي ، فعلم انه كلام بنت الشيخ ، فمشوا في جماعة من المشائخ يندبهم الى زيارتها ، حتى تيسر له مراده من ذلك ، فخرج اليها المشائخ ، ومعهم باثمان ، حتى وصلوا اليها فوجدوها منفصلة في قميص تصلح خيمتها ، خارجا من الخيمة ، فقال لها ابو زكرياء اني لأختار ان اجد جنازتك خارجا ولا اراك على هذا الحال واستتابها ، فتابت مما كان منها ، ومكثوا عندها ثلاثا فارادوا الانصراف ، فرغبت اليهم في اقامة ثلاثة أيام أخرى ، ففعلوا فلما مضت ست ليال ، وأرادوا الانفصال واجتمعوا لوداعها قالت لابي زكرياء : انصب لي هاهنا قدمك لاذكركم بها ، وتذهب عني الوحشة ، ففعل ، فاكفأت عليها قدحا ، فقالت له ازلت عني الوحشة ، وعلمتني العلم يا سدراتي ، لا عطشت يوم المرورات ، فقال لها : لا تقولي يوم المرورات بل قولي يوم الشدائد ، لان المرورات المفاوز في الدنيا ، ـ والشدائد ـ ما يكون في الآخرة ، ثم قال باثمان يا بنتي سبق القضاء بان انكحتك من لا احبه ولا تحبينه ، فعاملك بما أرى فلا تجزعي ، ولكن اصبري فاني ارجو الله ان لا تنصرم عشرة أيام الا ويموت من يموت ، ويفرج الله عليك ، وينقطع عنك النصب ، وهذا القول بكلام بربري موزون أيضا ، قال فودعوها ومضوا ، قيل : فلما كان العاشر من يوم وداعها أورد بعلها ابله على بئر لهم ، فجعلوا يمتحون ويسقون حتى انقطع الرشاء وسقط الدلو في البئر ، فهم

احد عبيده بالنزول الى الدلو ، فابى الا ان يكون هو الذى ينزل ، وذلك لما سبق فى علم الله ، فنزل وشدها ، ثم قال لهم:ارفعونى فرفعوه الى ان حادى بحفير فى البئر ، فاذا حنش عظيم قد رصد له ، فاغرفاه ، بيض عيناه ، فناداهم : أنزلونى ، فانزلوه ، فرجع الحنش فى غاره ، ثم قال لهم ارفعونى فرفعوه فلما حادى أيضا موضع الحنش اذ هو قد رصد له ، فقال أيضا : أنزلونى فأنزلوه، فلم يزل حاله : انزلونى ، أرفعونى حتى أيقن بالهلاك وقال لهم : ارفعونى ، فلما قابل مكان الحنش اخذه وجذبه الى غاره ، فما سمعوا الا تضعضع عظامه ، وكفى الله المؤمنين القتال .

وقد ذكر الشيخ ابو نوح : انه حين جلبها يسيران نهارهما ، فاذا نزلا قامت من حينها فعالجت العشاء بنفسها وأصلحت جميع شؤونها ، ثم قامت الى التهجد فلا تزال راكعة ساجدة الى طلوع الفجر ، فتصلى الصبح ، فكان هذا دأبها الى أن وصلت منزل بعلها .

سوء تصرف العجائز

وذكر المشائخ ان باثمان صحب ابا مهاصر موسى بن جعفر ، يريدان التوجه الى الحج وابو مهاصر يتوهم انه خرج معه مودعا له ، حتى وصلا مصلى أبى مهاصر ، فوقفت به اتانه ، فدعا الله ، فقال له : اِبق فى حفظ الله يا باثمان فقال له باثمان : أو تقول ذلك يا موسى بن جعفر ؟ أو ترى انى اقيم بعدك ؟ لعلنا نرعى الابل والغنم فقال أبو مهاصر فاذا عزمت فتوكل على الله ، فاصطحبا ومؤونة باثمان على ابى مهاصر، حتى قال له رجل ممن سار معهما الى الحج ، أترك باثمان الي لأقوم به ، ففعلوا ، ومضوا ، وباثمان يمونه الرجل المتكلف بمؤونته . حتى

وصلـوا أرض الحجاز ، فقالت عجوز للمتكلف بباثمان : دع هذا ، فالى متى تحمله ؟ فاخذ بقولها ، وخلى باثمان ، فعاد الى أبى مهاصر ، كمـــا كان أولا ، فبقيت فى نفس باثمان مضاضة من كلام العجوز، فتكلم بما معناه : وصلنا أرض الحجـاز ، وموضع كرب النفوس ، فذهبت المـرأة وثبت الدين لمن كان عليها فياسيل اياك ، اياك الرجال ، ودونك العجائز ــ لا تدع منهن من يعبر . أو كمـا قال ، قيل فارسل الله سيلا فهلك فيه ثلاثمائة عجوز ، ولم يضر أحدا من الرجال ، قيل ، وقد حفظ من كـلام عمر رضى الله عنه فى العجائز ما ينبغى معه الحذر منهن ، روي عنه انه قال : لان اجد فى بيتى سبعين سارقا ، احب الي مـن أن أجد فيها عجوزا واحدة ، وان كان هذا من غير هـذا المعنى .

روى ان باثمان زارتـه ابنته « تكفـا » فلما أرادت الرجوع صحبها أبوها ليبلغها الى منزل بعلها ، وقد قيـل ان ذلك انما كان فى وقت اهدائها لبعلها ، فاصابها مطر وكانت على اتان ، فقالت يا والدى انى اخاف على ثيابى البلل ، وانت تعلم حال العروس ، واحتياجها الى الثياب الجديدة ، ومـا ينبغى لمثلها من النظافـة والنقاء ، فمـا الحيلة ؟ قيل فدعا الله ان يحوطها ويسترها ، ولم يبتل شيء من ثيابها ، وابتل باثمان وأتانه وما ركبت عليه ، قلت وما ذلك على الله بعزيز .

مهـدى النفـوسى

ومنهم مهدى النفوسى رحمه الله . قوم الجدال. ومدره النضال . المقدم فى علم البرهان والاستدلال ، المحتج على

امكان الممكن ، واستحالة المحال ، وعلى الفرق بين الحلال والحرام ، ولنعم حشو الدرع اذا دعيت نزال ، الرادع لقيام أهل البدع والضلال ، قد مضى من ذكر انبائه في وفوده على الامام ، وما كان من ادحاضه حجج الملحدين ، فى ذلك المقام ، ما هو مشهور فى الآفاق ، ومغن عن زيادة اعلام .

وذكر مشائخ ان مهديا هو أحد من صد من مكائد نفاث ، وقمع أن يشيع فى نواحيه تلك الاحداث ، حتى ضرب بعضهم الامثال ، فيما شوهد من تلك الاحوال ، واستحسنت احوالهم وسارت مسير الشمس وان كان فى وضعها والفاظها بعض اليسير ، فانا اعتذرنا عنها . انما وضعها واضعها باللسان البربرى ليتناقلها البربر ، فكالهم بصاعهم لم يطغف ولم يبخس ولم يعد من الالفاظ ما يفهمونه ، ولا اعرب ولا اغرب بحيث يتوهمونه ، ذكروا عن ابى مهاصر بن جعفر رحمه الله وكان شديد الغضب فى الله وان كان فى العلم ليس بمنتهاه ، انه ضرب مثلا فى نفسه فى نفاث ، وقال تنبح جروة ابى مهاصر لئلا يأكل الذئب الغنم ، وقد كاد يأكلها حتى اتت سلائق «ويغو» فهرب الذئب وأمنت الغنم ، يعنى الجروة نفسه لضعفه فى العلم ، ويعنى بالذئب نفاث بن نصر ، ويعنى بالغنم نفوسة، ويعنى بالسلائق مهديا ، وعمروسا ، وهما من منزل يقال له : ويغو ، يعنى باكل الذئب الغنم ، استحواذ نفاث على اهل الجبل ، واستفزازه اياهم بان يدعوهم الى ما احدث من التبديل ، واعتقد من الاضاليل.
فصادفت الفحلين ، فجعل الله بهما كيده فى تضليل وأرسل الله من بيانهما طيرا ترميه بحجارة من سجيل .

ابو مسور يصنيتن

ومنهم ابو مسور يصنيتن النفوسى رحمه الله . احد الشيوخ المجتهدين فى أفعال البر ، المخلصين فى العلانية والسر ، أكل الدهر عليه وشرب ، وعمرت معانى قلبه ، وان كان بنيان جسمه قد خرب ، أفنى العمائم الثلاث ، وليس بغير محاسبة نفسه اكثراث ، ولئن كان دون غيره فى درجة العلم ، فقد فاق فى الورع ، والحلم .

الشيخ عمر حتى صار غريبا فى غير جيله

كان مما حفظ من اقواله : اذا وقعت الفتن امسكنا ايدينا ، واموالنا ، والسنتنا ، وعيوننا ، وارجلنا ، ووكلنا امر قلوبنا الى الله عز وجل ، وفوضنا امرنا اليه، قيل وكان هذا الشيخ قد عمر حتى بلغ الغاية فى السن والهرم ، وكان يقول عشت حتى لم اجد فى الايام ما أريده ، ولا فى نفسى ، ولا فى الاخوان ، ولا فى الاولاد ، ولا فى القبيلة ، فأدعو الله ان يريحنى مما انا فيه ، وقال : الشيخ أبو نوح لم يقل هكذا ، وانما كان فى زمان الامام عبد الوهاب رحمه الله وعاش بعده زمانا فلعله لما ضعف جسمه وقل ما بيده وقصر عما كان يبدى من الصلات وفقد ما ادرك فى ريعان الشباب ، من مرضي الحالات ، لامه اولئك الاقارب ووخزوه بشبات ألسنة كاذناب العقارب ، وانكروا ما عرفوا من معرفته وعرفانه لما عدموا مع العدم ما كانوا وجدوه حين الجدة من احسانه وتغير الزمان بتقلب الحدثان ، وكتم ما اصابه احتسابا ، واعتقد ان يدخر بكتمانه ثوابا ، فغايته أن قال : لم أجد من نفسى ما أحب . ولما سمع المشائخ هذا الاعتذار استحسنوه ، وحفظوه عنه ، واتقنوه ، وتحققوا صوابه ، وايقنوه ، لان الشيخ فى غير جيله غريب ، مخطىء ولو

انــه مصيب . وكذلك أنــا لمــا استحسنتها واستصوبتها اعطيتها حقها من الترتيب ، وهذبتها .

ابنة الشيخ وآراؤها المصيبة

وذكر ان ابنتا له سألته عن مسألة من مسائل الحيض ، ووصفت له امارات من ذلك ، ثم قالت له أترانى ان اصلى بهذا أم لا ؟ فقال لها : الا تستحي منى يا ابنتى ؟ فقالت اخشى ان استحيت فى أمور دينى ان يمقتنى الله تعالى يوم القيامة ، فاستيقظ الشيخ فقال لا يمقتك الله يوم القيامة يا ابنتى ، قيل وكانت ابنته هذه عظيمة القدر فى أهــل زمانها ، وممن يروى عنها الفــوائد الكثيرة ، فمما روي عنها مع ابيها أيضا انها جلست معه ذات يوم ، حتى قال المسلمون افضل من اقوالهم ، فقالت هى : أقوالهم افضل ، لان المسلمين يموتون وتبقى اقوالهم ، ينتفع بها بعدهم ، الا ان كنت تريد فضل الاجسام على الاعراض،والا أفعالهم والدين افضل المخلوقات . قيل وجلسا يوما يتحدثان وقد غسلا ثيابهما ونشراها للشمس ، فنظر الشيخ الى صفاء الثياب فقال تمنيت ان الله عــز وجل طهر قلبى كطهارة هذه الثياب ، فقالت : تمنيت ان يكون بيدى تطهير قلبى فاطهره كهذه الثياب ، وارسله الى مولاه ، فقال لها : انك لأبلغ منى حتى فى الامانى .

ابو محمد عبد الله بن الخير

ومنهم أبو محمد عبد الله بن الخير رحمه اللــه . شيخ التقى والاخلاص ، والمتحرى مسالك الخلاص ، المعمر فى الطاعة ، الذى لم يخل من العبادة يوما ولا ساعة . وكــان عالما كبيرا ، فاضلا أثيرا ، كانت الامثال تضرب به ، فمنها انهم كانوا يقولون : من ضيع كتابا كمن ضيع خمســة عشر عالما مثل عبد الله بن الخير .

ذكر انه ذات مرة اصابه سعال فأمر ان يتداوى باصطباحة حليب ناقة ، وكانت عند افلح بن العباس ناقة فكان يجيئه كل صباح بحلبها ، فجاء يوما فرأى زيتا يسيل على ساق زيتونة ، فقال ما هذا ؟ فقال حضر غدائى فقدم ملثوثا بزيت فى اناء مشغوب مرئب بالحديد ، فاصابت يدى حديدة فرفعت يدى فاذا دم فاكفأت الاناء بما فيه على الزيتونة ، فقال له : أخطأت ولعل دمك لم يسل الا بعد ان رفعت يدك ، لان العلماء يقولون اذا النجس يتوجه من تسعة وتسعين وجها ، والطهارة من وجه واحد ، غلبت الطهارة ، فما جعل الله علينا فى الدين من حرج . وكان اماما لمسجد موضعه وكان ثقيل السمع فجعل يجهر فى صلاة السر ، حتى يسمع من خلفه قراءته وقال له يحيى بن يونس ما يسعنا فى الصلاة خلفك وانت لم تكلف الا ما تسمع ؟ فقال لم اكلف سماعك يا ابن يونس ، وتمادى على ذلك ، فلما أسن وضعف صار يجلس جلوس قومنا ، فقال له ما حال صلاتنا خلفك وانت لم تكلف الاطاقتك ؟ فلما سمع ذلك منه تاخر فلم يؤم بعدها رحمه الله .

الطهارة تغلب النجاسة مهما وجدت لها وجها

ابو زكرياء يحيى بن يونس

ومنهم أبو زكرياء يحيى بن يونس رحمه الله . كان من أهل الورع والزهد ، وممن اخذ نفسه بالمعهود والجهد ساعيا فى الصلاح ، داعيا الى طرق الفلاح ، هاديا الى الرشاد . مغيرا للفساد ، متحيز القطريات اين تصوب ، ليس لمناهل بره غورولا نضوب .

ذكر ان أبا زكرياء كان من عادته اذا صلى صلاة المغرب وصل بينهما وبين صلاة العشاء بالركوع والسجود حتى

صلاة الشيخ وتبتله ليلا

يصلي العشاء ثم ينفل ما اعتاد التنفل به ، ثم يوتر ، ثم يحتاط لجميع الصلوات ، فكان هذا دأبه رحمه الله . وقد ذكر مثل هذا عن أبى زكرياء بن أبي مسور اليراسنى رحمه الله .

الشحيح محروم من خير الدنيا والآخرة

وذكر ان يحيى بن يونس زار عجوزا تدعى أم زكار ، وكانت صالحة مجتهدة ، فوجدها هالكة جوعا ليس فيها الارمقا ، وذلك فى سنة مجاعة وبؤس ، فسمع من قولها : أشتهى لبنا ، قيل ، فمضى أبو زكرياء الى شيخ يقال له باكبت ، فاستدعى منه لبنا واعلمه بمحتاج أم زكار اليه وشهوتها فيه . وكان باكبت المذكور رجلا مكثرا ، ممسكا ، بخيلا ، فقال : والله لا نبيض لها به مصرانا ، وعنده اذ ذاك وضبان عظيمان مملوءان لبنا . لا يمخضها الا امتان تمسك كل واحدة منهما بعروة من عرى الوضب لعظمهما ، فلما ايس أبو زكرياء من خير باكبت رجع وعالج للعجوز حيسا وجاءها به وقد وجدها قد اختلفت اسنانها من الجوع ، وجعل يحتال فى تحصيل الحساء فى فيها بعود شيئا فشيئا حتى عادت نفسها وقوي رمقها ، فقالت من هذا الذى أنتذ عظامى من الجوع ؟ أنقذ الله عظامه من النار فاستوت جالسة ثم ابتدرت الانتقال لصلاتها وطاعة الله ربها ، فأنت ترى ما نسب الى أبى زكرياء فى هذه الحكاية من الفضائل فانها اشتملت على فصول من الصفات المحمودة . ذلك لتعلم ان الرجل ونظراءه انما كان همهم أمر آخرتهم ، لا يعوقهم عنه عائق ولا يطرقهم من الاغترار بزهرة الحياة الدنيا طارق.

الطبقـة السادسـة 250 ـ 300 هـ

وهم الذين تجرعوا افاوق الغصص رغمـا ، وتبدلوا بعـد راحـة الانفس غمـا ، وصاروا بعـد صفـو العيش الى كدره ، وكل ذلك بقضاء الله وقدره ، فانهـم ادركوا عصر الظهور وهو احسن الاعصار ، وبدلوا بـه وسلبوه ذلا فى آخر الاعصار ، وفيهم من قبض وشمس الامامة عند الطفل ، وبعضهم لم يافل الا وبدرها قد أفل، كانوا فى ظل عدل الامامة ، فصاروا يغتبطون لسـاعة يجدون فيها السلامة ، ومع ذلك فلم يضرهم ما هم فيه ، على الاجتهاد فى سخط ما أسخط الرب ، وبذل الاجهـاد فيما يرضيه ، فمنهم الامامان محمد ويوسف رضي الله عنهما وقد نبهت على ان مناقبهما جمة خطيرة ، وقد تقدم ذلك ، مع ذكر اسلافهما عند التاريخ والسيرة ، وهاهنـا ندبت تعيين ايراد ما في فضائل افلح ومحمد وعبد الوهاب، فانها على انفرادهما فى اصل الكتاب .

الامامان محمد بن إفلح وابنه

ذكر أن محمدا رضي الله عنه لم يال الامامة الا بعـد أن الف تأليفا مشتملا على اربعين جـزءا فى الاستطاعة ،

الائمة الثلاثة يجمعون بين العلم والصلاح

وان اباه رضى الله عنه لم يلها حسب ما تقدم الا وقد جلس لثلاث حلق فى ثلاثة انواع من العلم ، وقام فى الامامة تسعة واربعين سنة ، وماأعاد خطبة قط . وانه قد كان اراد السفر الى (جوجو) فسأله أبوه رضى الله عنه عن مسائل الربا ، فتوقف فى مسألة واحدة لم يجب عنها ولم يعرفها ، فأمره أبوه بالرجوع من السفر ، فقال له أقم لئلا تدخل علينا الربا . فرجع ، بعد ان تجهز وأبرز رحله ، وهذا على ما هو عليه من التناهى فى العلم خشي أبوه ان يرتطم فى الشبهات وفى ذلك كله ما يشعرك بفضيلة كل واحد منهم رضي الله عنهم .

عمروس بن فتح

ومنهم عمروس بن فتح رضى الله عنه ، بحر العلوم الزاخر . المبرز أول السباق وهو الآخر . الضابط الحافظ المحتاط المحافظ ، لم تشغله المجاهدة فى الله عن دراسة العلوم، ولم يلهه التبحر فيالعلم عما تعين عليه من مصادفة تلك الهموم ، فكابد وكابر ، وصادر وصابر ، لازم الدرس والاجتهاد ، ثم رابط على الجهاد ، يتلقى السيوف بالصدر والمنحر ، يقيم هامته مقام المغفر ، حتى انتظم فى سلك من (تحسبهم أمواتا وهم احياء عند ربهم يرزقون) « لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون » فلحق بالنعيم المقيم ، بعد ان خلف شيعه واتباعه منتهجين الصراط المستقيم ، وهو الذى لولاه لدثر معلم المذهب وانطمس ، وعفر اثره واندرس ، لتمسكه ببقية الحوائج العظائم وتصحيحه ما قيد عن الخراسانى ابى غانم (I) ، وله مصنفات فى الفروع والعقائد ، تولت

(I) يشير الى ما قام به من نسخ مدونة ابى غانم الحرسانى بمعونة أخته وسيأتى خبر ذلك

فوائدها الصدور والقلائد ولم تزل الامثال مضروبة به ، بعلومه وآدابه ، وحبال ذوى الآمال متعلقة باهدابه ، اذ كان علم الدين يقتدى به ، وذكر ابو الربيع سليمان بن عبد السلام عن اشياخه ان عمروسا كان اعلم أهل زمانه .

عزم على تاليف كتاب فى الفقه يـرد كـل مسألة الى احد الاصـول الثلاثة

بلغنا انه هم ان يعلق تأليفا فى الفقه لـــم يسبق فى طريقته عزم ان يفرق العلم على ثلاثة اوجه : التنزيـــل . والسنة . والرأي . وما يتعلق بكل واحد منها من المسائل فيرتب كل باب من ابوابه ويبنيه على القواعد الثلاثـــة ، وصرف الى ذلك وجه العناية والاكتراث ، حتى يكـــون تأليفه طرازا لما صنف فى علوم شرائع الاسلام ، فلم يقدر الله بذلك بل قضى له باعجال الحمام ، ونرجو به ان يكون له ثواب ما نواه ، فجزاه على الكمال والاتمام .

وذكر عنه انه كان ذات يوم جالسا فى مجلس الحكم ايام أن ولاه القضاء ابو منصور الياس،اذ حضر مجلسه خصمان فطلب احدهما الآخر فى حق تعلق به عليه ، فلمـــا ادلى بحجته سكت المطلوب . فقال : للمطلوب اجبه فلم يجب ، فكرر عليه ثلاثا ، فلما رآه لا يجيب وتبين له لدده قام اليه فركضه برجله ، فقال له جلساؤه عجلت يا عمروس فجمع عمروس اصابع يده ثم اطلقها ، وقال لهم كم هذه ؟ فقالوا خمس ، قال : هذه منكم عجلة اذ اجبتم قبل ان تعدوها ، ثم قال لالياس ان لم تأذن لى بقتل ثلاثة فخذ خاتمك ، قتل مانع الحق ، والطاعن فى دين الله ، والدال عـــلى عورات المسلمين .

وذكروا ان جماعة قطاع اغاروا على رفقة فاستباحوها جميعا وخلوا سبيل اصحابها ، ثم صحبوهم الى جبل نفوسة

فلما انتهوا جميعا الى الجبل ، وابو منصور اذ ذاك وال . قال ، وعمروس قاض ، فتشاجر أصحاب الرفقة والقطاع وترافعوا الى ابى منصور ، فكلهم يدعى الرفقة ، وينسبها الى نفسه ، فحار فى امرهم ورفعهم الى عمروس ، فقال احكم بينهم ، فعزل عمروس أهل الرفقة ناحية وجعل يسألهم واحدا واحدا ، عن رحله ، وجملته ، وعدده ، وصفته ، وعلامة متاعه ، وقيد مقالة كل واحد منهم بشهادة ، ثم استحضر القطاع ، فسألهم كما سأل الاولين وقيد مقالة كل واحد منهم أيضا بشهادة ، ثم أمر بحل الحمولة واستخراج ما فيها ، فوجدوا وفق ما قال اصحاب الرفقة ، ووجدوا قول القطاع مختلفا مخالفا ، متناقضا ، فقال عمروس لالياس هؤلاء اصحاب الرفقة ، واولئك اضيافك ، فانزلهم . يعنى بذلك عن حبسهم ، وتنكيلهم فحكم بحمولة الرفقة لاربابها ، فردها عليهم .

وجلس معه ذات مرة داود بن ياجرين ، وماطوس بن هارون رحمهم الله ، فتحدثوا حتى جرى بينهم ذكر أهل الصدق ، وأهل الكذب ، وذكروا أهل شروس ، فقال الشيخان ان أهل شروس لا يكذبون فاظهر عمروس اجازة شهادة كل شروسي فعاتباه على ذلك فقال لهما انما حكمت بشهادتكما ، اذ زكيتما جميع أهل شروس ، فقالا : ما اردنا ذلك ، فوقف عن الحكم بشهادة غير المعدلين ، قلت وعمروس أجل من ان يتجاوز الى هذا القدر أو ينسب اليه هذا التهاور ، ولعل الشيخين لما قالا فى أهل شروس ما قالاه ظهر له ان فى ذلك القول مجازفة ، اذ برءا من الكذب جميع أهل شروس جملة من غير تعديل ، وتأدب ان يواجههما بالمناقضة فسلك بهما طريقا يرجعان به الى الصواب من

غير تخطئه ولا توبيخ ، وهذه احدى فضائله ، لا ينسب اليه غير هذا .

استنساخ عمروس لمدونة أبي غانم

وذكروا ان ابا غانم بشر بن غانم الخراساني خرج من المشرق متوجها الى المغرب ليفد على الامام عبد الوهاب رضي الله عنه ، ومعه مدونته المشهورة التي رواها عن تلاميذة ابي عبيدة رحمه الله ، وقيد سماعها عنهم ، فاجتاز على جبل نفوسة فاستودع عمروس الكتاب المذكور ، وتمادى لى تاهرت بعد ان استأذنه عمروس في انتساخ الكتاب المذكور فلم يأذن له،وعمروس حينئذ حدث فحسن عمروس الظن وحمله الحرص في العلم على انتساخه،فواضبه وعكف على النسخ واخته تملى عليه ، وكان اذا جلس للنسخ في موضع لازمه حتى تدركه الشمس،فينتقل الى الظل والاصل في يدى اخته، وعينه في الكتاب لا يتحول حرصا في احياء العلم ، فما رجع ابو غانم من تاهرت الا وقد أكمل عمروس انتساخ الكتاب ، ورده في المكان الذى وضعه فيه . فلما تناول الكتاب، رأى في احد اجزاءه نقطة حبر فقال أاسترقت هذه ؟ قال نعم ، سماني سارق علم ، اخبارا لا أمرا وكان الكتاب في اثني عشر جزءا ، وفي اثر هذا كان ما كان من تلف ديوان تاهرت غصبا وحرقا ، ولولا تمسك عمروس بهذا الكتاب لم يبق لاهل المذهب بجهات المغرب ديوان يعتمد عليه ، وذلك بحسن نية عمروس ، وبركته ، ويمنه .

اجتماع عمروس بالشيخ ابن محبوب في مكة

وذكروا ان عمروسا كتب وصيته في كتاب ، ودفعها لاولاده وورثته ، فقال لهم : هذا كتاب وصيتي فاعملوا بمضمونه ، وانا خصمكم بين يدى الله . وذلك ــ والله

اعلم ــ عندما كان مرهقا الى الخروج للقاء العدو يوم وقعة قصر «مانو» ، وفيها استشهد ، حسب ما تقدم ذكره ، فلم يعقب من ورائه الا خيرا ، وانتقم الله من اعدائه الاغالبة ومزقوا كل ممزق قتلا ، وغرقا ، وكان مصرع البغي مرتع وخيـــم . (I)

وذكروا ان عمروسا واصحابه توجهوا الى بلاد المشرق حجاجا فلما نزلوا مكة وجدوا بها محمد بن محبوب رحمه الله ، فدخلوا عليه في مجلس فوجدوه مع اصحابه، فسلموا عليه ، فهش بهم وقربهم اجــلالا للجنس ، دون معرفـــة الاشخاص . فلما تبوأوا مقاعد المذاكرة ، سأل عمروس ابا عبد الله عن مسألة ، فقال : ابن محبوب ان كان ابو حفص فى شىء من هذه البلاد فلا يصدر هذا السؤال الا عنه ولا يرد الا منه ، فقالوا له : انه هو السائل ، فرفع ابـــن محبوب مجلس عمروس لما عرفه ، وزاد دنوه من مجلسه ، ثم جعل عمروس يسأل فى مسائل الدماء عن مسألة بعـــد مسألة ، حتى قال له ابن محبوب : هذا من مكنون العلــم لا يعلن به فى قوم جهال . فعند ذلك قال عمروس لاصحابه احفظوا السؤال واحفظ لكم الجواب ، حتى نقدم عـــلى اخواننا فنخبرهم بما حفظنا ، ففعلوا ، فلما قدموا بلادهم قال لهم عمروس : هلم ما تكلفتم به ، فقالوا له : لم نحفظ شيئا سوى قولك احفظوا المسائل لنردبها على اخواننا . ثم ان عمروسا اعادها مسألة ، فمسألة ، عن آخرها .

ام عمـروس توكلـه على وصيتهـا وهو صغـير

وذكر ان ام عمروس حضرتها الوفاة وعمروس رضيع فاوصت بوصايا وأشهدت بها شهود الوصية ، فقالوا لها الى من تفوضين تنفيذ هذه الوصية ؟ قالت الى ذلك الــذى فى

(I) لعل فى النسخ تحريف ، والمؤلف يشير الى قول المتنبى : والغي مرتع مبتغيه وخيم

مهدى ، فاشارت الى عمروس ، فكان خليفتها على الوصية قيل فلما كبر عمروس وبلغ مبلغ الرجال شرع فى وضع الوصايا مواضعها ، وتنفيذها فى وجهها ، حتى لم يبق منها شىء ، قيل وانه لما وجد فى الوصية الحج توقف عنه، واشكل عليه الامر وجعل يسأل فى جهات نفوسة عن احوال والدته فلم يجد من يعرف حالها وتولاها غير امرأة واحدة، فتولاها لذلك وحج عنها ، اخذ فى ذلك بقول من قال ان الحجة تقوم فى ولاية الدين بشهادة النساء والعبيد اذا كانوا ممن يقبل قوله ، وتقوم به الحجة ، ولم يستجز ان يحج عنها اخذا بقول من يقول بان من يحج عن غير متولى فانه غير مرضي الفعل ، ولا مشكور الحال ، فهذا الذى اوجب توقفه لا انه استصعب الحج ، ولا استعظمه ، والا فالامر يسير .

ذكر الاشياخ ان أهل جبل نفوسة كانوا فى ذلك الزمان اكثر الناس حجا فكانوا يحجون بنسائهم وذراريهم حتى انهم ولد لهم فى ركب واحد ثلاثمائة مولود ذكر ، فما ظنك بعدد من لم يولد له ذكر ، ومن لم يولد له اصلا ومن ليس معهم .

الشيخ ابو معروف ويدران بن جواد

ومنهم أبو معروف ويدران (1) بن جواد رحمه الله . ناهيك بابى معروف ذى الآثار والمعروف ، الموصوف بدراسة العلوم والمطروف ، الراقى ذراها البواذخ ، المتقن لما اخذ عن ابى خليل وغيره من المشائخ ، المنتفع بما تعلم

(1) اثبته صاحب السير باسم ابو معروف ويار بن جواد

وعلم ، المصيب متى رقم أو تكلـــم ، ولـــه فى النوازل والاسئلة المعضلات اجوبــة بديهــة ، كاشفــة اشكـــال المشكلات ، وكان متى قصده آمل فاز بالامل لانه جمـــع ما بين العلم والعمل .

لغـز فى مسالة ارث

ذكر ابو الربيع ان ابا معروف دخل عليه رجل يسأله عن مسألة معضلة ، فوجده مريضا مرضه المتصل بوفاتــه رحمه الله ، فسأله الرجل عن المسألة وهى : ثلاثة رجــال ونساؤهم ثلاث دخلوا بستتهم على مريض فقالوا له : أوص فى مالك ، فقال بما ذا أوصى ؟ ومالى يصير بينكم بالميراث اسداسا ، لكل واحد منهم سدسه ، فقال ابو معروف ذلك رجل ترك اما واختين لام وثلاثة بنى عم له ، وقد تزوج احدهم الام وتزوج الآخران الاختين .

يصـون مال اليتيـم بحيلة

وعنه رحمه الله ان صبيا يتيما جاءه كالمستغيث ، فقال له : يا عمى رأيت سيف ابى فى يـدي دلال فى الســوق ليبيعه ، وانما ناوله اياه بعل اختى وحقى فى السيف باق فاستحضر ابو معروف الدلال فقال له : أشهر نصيب الابنة دون نصيب أخيها . ففعل ، فلم يجد من يسومه بقليل ولا كثير ، فكان ذلك سببا لصونه على اليتيم .

وروي ان المعز امير القيروان اهدى سيفا لمشائخ الجبل يريد تشتيت أمرهم ، واختلافهم ، لا التحافهم والطافهـم فلما وردت عليهم هدية عدو الله ، اختلفوا . فقال بعضهم ردوه ، فهو أولى به لان صاحب الريبة احق بالوقوع فيها ، وقال بعضهم : لا تفعلوا ، فان ذلك عون له على ما هو عليه من الباطل والجور ، وقال : آخرون اكسروه وادفنـــوه . فهؤلاء كلهم رأيهم مقصور علىالتحرج والورع والخمود على

الوقوف دون الشبهات لان ذلك شأنهم وما رابوا عليه لا يزيغون عنه . قيل : وقال آخرون امسكوه ، فان عطايا الملوك جائزة لمن يأخذها ما لم يلامس أمورهم الفاسدة . فهو المشهور عند جمهور الامة ، قيل ، واصيب من ادلى بهذا الرأي في بصره لما جاءهم من الفتيا بما لم يعهدوا العمل به ، فقال ابن ماطوس الحمد لله الذى جازاه فى ان جعل له عقبوبة ذلك فى بدنه ، وما يختص بدنياه.، ولم يجعل له عقوبة فى آخرته ، قيل والمصاب ببصره هو أبو معروف .

ابو معروف يفقد بصره

قيل ولما أصيب ابو معروف ببصره وجه كتابا الى الشيخ عبد الحميد الفزانى ، وكان عالما كبيرا من أهل الدعوة ، وكان قاطنا ببلد السودان ــ يستمد منه دواء العين ، فلما ورد عليه كتابه قال عجبا لهذا الشيخ اعطأه الله دواء لداء الذنوب وهو يسأل ما يزيله عنه . فبلغ قوله ابا معروف فقال : اترى الفزانى يهزأ بى ويعدنى صبيا يرضع ابهامه ؟ .

فعبد الحميد انما يعنى اجر المصيبة والسلامة مما يكتسب بالعين من الآثام ، وابو معروف يرى انه حرم بفقد البصر انواعا من الخير ، كالاعتبار ، والتعجب بصنع الله عز وجل ، ومطالعة كتب العلم ، والمشي الى بيوت مجالس الذكر . وكلاهما ذهب مذهبا حسنا ورأى رأيا مصيبا.قلت اما كونهم اعتقدوا ان الذى اصابه عقوبة على فتياه مع علمهم انه لم يخرج عن اقوال العلماء غير انه مال الى الاسهل وترك الاحوط فانهم عدلوا الى ما قاله قبل المشائخ فى امثالهم ، وحفظ من أقوالهم ، حسنات الابرار سيئات المقربين، فكونه تكلم بالعلم حسنة بالنسبة الى من لا يلتفت

للعلم ، وكونه ترك الاحوط سيئة بالنسبة الى احوال من اعتاد محاسبة نفسه ، والا فحاشهم ان يعدوا كلام العلماء سيئة على الاطلاق .

وذكر غير واحد من اصحابنا ان ابا معروف كان تاجرا حينا من الدهر جالسا فى دكان دأبه ايما وزن لاحد من الناس زاده من نفسه خروبة ، واذا اراد ان يأخذ لنفسه من احد نقص خروبة ، فلما حضرته الوفاة أوصى بعشرين دينارا احتياطا من تباعة الميزان . وذكر ان ام ابى معروف مرضت فدخل عليها لتوصى فاستفتت شهود الوصية فى وصيتها ، أى الوجوه أولى ان يصرف فيه اكثرها ؟ فقالوا : كفارات الايمان ، قيل : فاوصت بثلاثمائة كفارة ، فانفذ أبو معروف جميعها .

يحسم النزاع والتهور بحسن تصرفه

وذكر ان رجلا رمى طائرا بحجر على غصن زيتونة ، فتطاير بعض الحجر فاصاب رجلا فقتله ، وذكر فى زمان ابى معروف فترافع اليه أولياء القاتل والمقتول فأخذ أبو معروف القاتل اليه ، فقال أولياؤه يا شيخ ان صاحبنا لم يتعمد ، انما رمى الطائر ، فقال لهم أبو معروف : امسكوا ، واصبروا لئلا ادفعه بمرئ منكم ولا قدرة لكم على رده ، قيل وكان اولياء المقتول يقولون ادفع الينا

يا شيخ قاتل ولينا فانه قتل مظلوما ، فيقول لهم : امسكوا واصبروا ، والا دفعته الى اخوانه ولا تقدرون على رده ، ثم حكم بالدية ، فكان الذى خاطب به كل فريق من الخصماء قطعا للتشاجر والاختلاف ، وكان توقفه لما علم فى المسألة من الخلاف حتى حكم بينهم بما رآه أسد الاقوال، وتفرقوا على ايسر الاحوال .

يلوم شيخه لانه رآه على صورة غير لائقة

ومما يذكر من تواضعه وبرائه من الكبر ، ومحافظته على السير ، وانصافه من نفسه ، ما حكي ان ابا مسور اليراسنى فى مدة قراءته على شيخه ابى معروف ، تيممه يوما فوجده فى بستان له يعمل فيه بيده ، وهو محتزم سراويل ليس على بدنه غيره ، فانه لما أخذ فى العمل خلع عنه ثيابه ، فحين عاين التلميذ شيخه على هذه الحالة لم يرضها له ، فاخرجه الخطة (1) فجعل الشيخ يتوب ويستغفر معترفا بالخطا اعترافا استوجب به الرجوع ، ثم ان ابا مسور أراد لومه ، فقال له : قد كان اللوم متوجها قبلى قبل التوبة واما بعدها فقد إرتفع اللوم .

ابو منصور الياس

ومنهم ابو منصور الياس رحمه الله ، الملاين المتخاشن الجامع اطراف المحاسن ، جمع الانفة والسيادة ، والتواضع والزهادة فهو لأولياء الله اطوع من النعل وأخضع واحلى من العسل وانفع ، وعلى اعدائه اشد من الجبل وامنع ، وأمر من الموت وافضع ، وفى منازل الشرف اسنى من النجم وأرفع ، وفى بحر العلم والجود افيض من اليم وأوسع ، ان قام فى الله فالرئبال حول الاشبال ، وان دافع فالحمام للحمام (2)، وولى فعدل ، وقال ففصل، يرعى حقوق الله حفظا ، ولا يرى فى ذات الله لذى حظ حظا .

وكانت له كرامة فى أهل مذهبه ، فقد جعلها الله باقية فى عقبه ، ذكر المشائخ انه لم ينقطع من بيت ابى منصور وذريته ثلاثة اشياء ، ولم تتبدل منذ فارقوا النصرانية ،

(1) يبدو ان فى العبارة سقطا ، فهى هكذا : فأخرجه الى الخطة ، أو فألزمه الخطة
(2) الحمام بالضم : السيد الشريف

ثلاث مكارم لم يخل منها آل ابى منصور

ورجعوا فى دين الاسلام الى الوقت الذى وقع فيه ذكرهم بذلك ، وهى : الصلاحية ، وزريعة القمح ، وتناسل الغنم الاولى بدعوة سابقة ، والثانية والثالثة بالورع والتحرج وذلك كله بمساعدة وتوفيق من الله عز وجل .

وذكر ان رجلا تاجرا مات بغتة فى أيام ولاية الياس ، فلم تمكنه الوصية ، وكان معروفا بودائع الناس ، قيل ، فطلب الناس ودائعهم ، ورفعوا أمرهم الى ابى منصور الياس ، فسأل طريقا يتوصل به الى معرفة ما يدعيه كل مودع منهم ، فاشتدت عليهم طريق الشهادة ، واستقبح ان يحكم بغير بينة ، واستقبح ان يمنع المدعين ، فطلب بتلطف رأيه وسياسته طريقا الى الحكم بدون الشهادة، فقال : هاتوا رحله وأرزمته فاحضروها ، فكل من وجد له اسما على شيء حكم له به ، والا منعه ، قلت وأراه انما حكم فى القضية بهذا الحكم لانه لما تعذر عليه اقامة البينة ، رجع الى الحكم بالوجهين وفى احدهما ضعف فى المذهب ، لكنه رجع اليه عند الضرورة وهما العادة والشهادة على الخط .

الام اولى بالحضانة واحق

ومما يذكر من اطراحه حقوق الآدميين ، واسقاطه حظوظ ذوى الحظوظ رعيا لحقوق الله تعالى ، ما يذكر ان امرأة عم لابى معروف رفعت ابا معروف الى مجلس ابى منصور طالبة نفقة ابنة لها هى ابنة عم ابى معروف يتيمة فتخاصما ، فقال : ابو معروف لابى منصور : وانما أضم الي ابنة عمى ، انها بعد كبيرة . فقال له ابو منصور : لئن فعلت لانكلن بك حتى تكون هزوءة لفتيان أهل ويغوى ، قلت وهذا على ظاهره ليس بالمرضي فى جانب ابى معروف فانه اجل واورع من ان ينسب الى ان يعامله والى الامام بمثل هذه المعاملة ، وهذا عندى اذا صح فانه محتمل اما

ان يكون وصيا على ابنة عمه ، أو اتهم الكافلـــة بانها لا تحسن تربية اليتيمة ، ولا تحفظ عليها نفقتها ، ولا هي أهل لحظانتها . فهو أولى بكفالتها بالقرابة والايلاء وانه قد ثبت ذلك بالبينة فكان أبو منصور أراد تنزيه ابى معروف عن هذه القبيحة ورأى الستر على الحرائر اجمل . واما ان يكون ابو معروف اراد بذلك ان ينكحها نفسه ورآها ابو منصور صغيرة مع يتمها ، وفى نكاحها خلاف ، فأراد ابو معروف ارتكاب اضعف ما قيل ، وتحرى ابو منصور الاخذ بالاحوط . فكلاهما قصد مقصدا جميلاوقد تقدم منوصف احواله السنية عند ذكر الدولة الرستمية ، ما يدلك عـلى علو شأنه ومكانته فى الفضائل ومكانه .

الشيخ يعقوب بن سهلون

ومنهم ابو يوسف يعقوب بنيوسف بنسهلون السدراتى المعروف بـالطرفى رحمه الله . العالم الفقيه ، الفطـــن النبيه ، اليقظان الذكي ، الورع الزكي ، ذو الجهاديـن الاكبر والاصغر ، والاجتهادين المصلى والدفتر ، كـــان يلقب شيخ الرأى الناصح ، وكانت قراءته على الائمـــة بتاهرت قبل انطفاء تلك المصابح . وهو الذى استشاره الشيخ عيسى بنيرزكشن فى نزوله بتالا ، وهى اذ ذاك عامرة ، فقال تصلح للناس والعبادة ، ولا يخلو مـن ذى حافر الى اريغ ، والى وارجلان ، فنزلها وبلغ فيها مبلغـا عظيما ، وذريته بعده .

ولما حضرت الوفاة أبا يوسف قال له ابنه أوصني قال له :لاأراك تقبل الوصية يا ابن الرديئة فتردد فى ذلـك ثلاثة أيام فلما رأى جده قال له : لا يكن ندبك الناس الى

وصية الشيخ لابنه

الخير أوكد من ندبك نفسك اليه ، ولا يكن غيرك اسبق الى الحرث منك ، وكن للناس كالميزاب وكالسيل للادران وكالسمار للماء .

وقصده رجل من دمر فى مجاعة يسأله ما يتبلغ به ، فقال له عرفنى بارخص ما فى السوق ، فاعلمه برخص الجمال ، وكانت بيده اربعة وعشرون دينارا وديعة ، فقال له : اشتر بها جمالا ، فاشترى بها ثلاثة جمال ، وأمره ان يعزبها فى أرض مزرعة مربية بين وارجلان واندرار موضع يقال له : « ايفدانن طوم » وزوده ، ففى أيام قليلة صلحت احوال الجمال ، فوافق ذلك قدوم رب الوديعة فقال له سق أحد الجمال فسومه، فبلغت قيمته أربعة وعشرين دينارا ، فباعه ودفعها لصاحب الوديعة ، وقال للدمرى بع احد الجمال واشتر بثمنه ما تحمل على الآخر الى اهلك ، وبادر أهلك ، وسر فى حفظ الله . قلت ومن شأن العزابة وأهل المذهب قديما اذا وضع عند احد منهم وديعة ان يستأذن ربها فى التصرف فيها فى المصالح بغير تعد فيها ، فاذا أذن تصرف . وفعل ابى يوسف من هذا النوع .

وذكر انه كان فى مدة قضائه كان يقضى بين الناس وهو يعمل اشغال داره لا يلهيه شيء عن شيء ، وذلك لذكائه وقلة كبره ، وكان منتهى الفتيا بوارجلان ، وله مصلى معروف بوارجلان لاستجابة الدعاء . هو بين تينمصيون ، وتينماطوس بمقربة من بئر الاجر .

ابو محمد ملي

ومنهم ابو محمد ملي الايدرفى ، رحمه الله . ممن يعزى الى الورع والصلاح ، لا ممن ضرب فى المدارسة

بقداح ، أو اديرت عليه من راح المذاكرة اقداح ، الا ان التقوى اظهر حاله ، « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

يابى ان ياكل طعامه لانه يحمل له شهادة

ذكر ان ابا محمد ملى كان يحفظ شهادة بحق رجل نفوسي ، فلما اراد منه ان يؤديها عمل طعاما واستدعاه اليه ، فلما وضع بين يديه ، ذكر له الشهادة واعلمه انه يريد اداءها . فلما ذكره فيها وعلم ان الطعام انما كان بسبب الشهادة المذكورة ، قال له : ارفع طعامك فان عندى لك شهادة ، فقال له كل يا شيخ ، فابى عليه ، فقال له كل واشهد انى تركت لغريمى مالى عليه من حق شهادتك فانصرف ، فاحضر ابو محمد قمحا صالحا واستدعى الرجل المذكور . فقال له خذ هذا الطعام فاصرفه فيمن تراه محتاجا والقمح انما احتاط به لما اتلف من الطعام بسببه ، فحمل القمح مساعدة للشيخ وصنع منه طعاما ، وحمل ابو محمد معه زيتا وكسى به الطعام، وقال للرجل كل انت، وعيالك، ومن عندك .

وكان ابو محمد احد المستجابين دعاءهم، الكثير اجتهادهم ورفعتهم فى درج الكرامات ، وسنائها . فمن ذلك ما ذكر انه كانت له بقرة يحلبها وعادتها اذا اصبح قامت امرأته فتناولت القدح فتحلبها ساكنة لا تتحرك ، ولا تنفر ، فلما كان ذات يوم قامت اليها لتحلبها على حسب العادة، فركضتها برجلها ، فانكب القدح ، وتبدد اللبن ، فقامت المرأة فذكرت ذلك لبعلها ، فقال ما هذا الا لنازلة سوء شنيعة نزلت بالجبل ، فأخذ عكازه ، وخرج مبادرا ، فأتى جمع أهل الجبل ، فوجدهم محتفلين على رجل ينكل ويجلد ، فسألهم عن شأنه . فقالوا له : جاء فيه كتاب من الوالى . فقال أبسواد فى بياض تهرق الدماء يا نفوسة ؟ أو قال

تغير النعم من سوء تصرف الناس

يا معشر المسلمين ، فقالوا لعمروس جاوبه ، فقال اذا قيل الحق بطل الجواب ، قال ثم سألوا فوجدوا الرجل المكتوب فيه غير هذا المظلوم ، فلما علموا انهم قد تعدوا وانه برىء قوموا جنايتهم عليه ، وغرموها .

يتحرج من اخذ غلة ارض حرثها بدون رضى صاحبها

وذكروا انه حرث ذات سنة أرضا فلما حصد الزرع ودرسه وصير الحب فى التلاليس اذا برجل قد وقف على الشيخ ، ومعه ولده ، فقال له الرجل : اللهم انك تعلم انى لم أذن فى حرث أرضى ، ولا بعت ولا وهبت ، وانها لارضى لم تخرج عن ملكى ، فقال الشيخ لابنه افرغ الطعام لربه ففعل ومضى الشيخ وابنه راضيين بسلامة دينهما .

الشيخ سعد بن ابى يوسف

ومنهم سعد بن ابى يوسف رحمه الله ، ذو الاخلاق الحميدة ، والآراء السديدة ، والاجتهاد فى طلب العلوم لا يعتاقه (1) عنها الا ما ليس فيه بملوم ، قرأ على الامام افلح وتخدم فاستفاد وافلح ، وحافظ على طريق امامه ، وتساوى حاله فى زمن رحيله عنه ومقامه ، وفى بواجب البيعة لما نكث الناكث ، ولم تمل به عن الطاعة علائق الشهوات ، وقد مضى فى السيرة الرستمية من ذكر صفته واخلاقه ، ما يدلك على طيب شيمه وكرم اعراقه ، ومن تمسكه بعصم الدين واسبابه ، ما تعرف به سبقه فى ضروب من الفضائل على كثير من اضرابه ، وتقدم له من المناقب ، ما هو أضوى من النجم الثاقب .

الشيخ ياكرين وداود بن ياكرين

ومنهم الشيخ ياكرين وداود بن ياكرين رحمهما الله ، شيخا نسك وزهد ، واجتهاد فى العبادة وجد .

(1) هكذا فى النسخ ، ولعل الصواب لا يعوقه عنها

وقد ذكر انهما خرجا ذات سنة من السنين الى البادية في فصل الربيع ، فكانا متوافقين ، فلما عزما على الافتراق أو قبل ان يفترقا قال ياكرين لداود ، أوصني يا أخي، قال لا تستنج بيمينك ، ولا تنزل أهلك الا في موضع الدراء والسترة ، ولا تسكن ازواجك في بيت واحد . وغيرهم كثير أخفاهم الخمول ، وحب الاختصار .

الطبقـــة السابعـــة 300 ـ 350 هـ

الشيخ ابو مسور يسجا

منهم ابو مسور يسجا بن يوجين اليراسنى ، رحمه الله الشريف المنصب الكريم المنسب ، الطالب ارفـع مطلـب، الكاسب انفع مكسب ، الناهج اوضح طريق ومذهـــب ، العاجز كنه أوصافه كل بليغ أوجز أو أطنب ، خدم الدين فخدمته الدنيا ، ورفضها فنال منها الدرجة العليا ، طلب العلوم فحوى عيونها ، وورد مناهل الخير والصلاح فحاز معانيها ، فكان موئلا للقاصد ، ومنهلا للوارد ، والقاطع سبيل الفساد ، والهادى الى طريق الرشاد ، بيته فى المذهب اكبر البيوتات ، لم تزل مذ لم يزل مخصوصا بالبركات ، ولم يزل قط منهم نقات مقتفية آثار الآباء نجباء الاعقاب وقد مضى من مناقبه، وذكر كريم مذاهبه، فى اثناء الكتاب ما هو كاف ، ولو اقتصر منه على ادنى باب ، وسنذكر فى هذا الفصل نبذا من اخباره التى هى علم فى الفضـــل ، دالة على ما كان عليه من السيادة والنبل .

الشيخ ابو مسور يعرض عن شاتميه حسما للفتنة

فمن ذلك ما يذكر انه حضر مجلسا حضره جمع وافر من أهل جزيرة جربة ، وهبيتها ونكارتها ، وكان فيمن حضر من النكار رجل يقال له : خلف بن احمد ، وهو خال لابى مسور ، فكان النكار يقعون فى ابى مسور يقولون : رجل غريب ما عسى ان يكون له من القدر ؟ فى انواع من قبح القول ، وضروب من الهمز واللمز، بحيث يسمع ، وبحيث لا يسمع ، فكان يتغافل عنهم وينزه سمعه من ان يصغي اليهم، وينزه لسانه عن مجاوبتهم، فبلغ ذلك أهل المذهب فى الاقطار ، فاستعظموا ذلك ، قيل وكان حينئذ أهل الجزيرة اذا اختلفوا كان محفلهم واحدا ، وهبيتهم ونكارهم ، فبينما هم ذات يوم مجتمعين وقد احتفل مجلسهم ، اذا بكتاب قد ورد الى ابى مسور من قبل زواغة البادية ، ومن معهم من الوهبية ، فقرأ الكتاب فاذا فيه قد سمعنا يا شيخ ان النكار يقعون فيك ويهمزون ويلمزون ، ويتحركون فى أمرك ويتحاولون اذاك فان صح ذلك فاخبرنا نلق عنا ثيابنا ونصرخك ، وليس علينا غير الازر والسلاح ، رغبة فى نصرتك ، وقرعا لمن يرومك ويحاول ضيمك ، فقال : لم اسمع بهذا أو لا لى به علم . قيل ولم يفرغ من قراءة الكتاب المذكور الا وكتاب آخر قد ورد من جهة دمر ، فقرأه أيضا فوجد فيه : يا شيخ بلغنا ان النكار يتحركون ويسيئون اليك ويلوكون امرك ، فان صح ذلك فاخبرنا نصرخك بعسكر يكون أوله عندك وآخره عندنا ، فقال ابو مسور ما لى بهذا علم ، ولم يفرغ من قراءة الكتاب الثانى الا وكتاب ثالث قد ورد من جهة جبل نفوسة ، فيه مثل ما فى الكتابين المتقدمين ، الا انهم قالوا فان صح ذلك فاخبرنا نكسر أغماد السيوف ونصلك

والسيوف مصلتة فى ايدينا ، فقال لا علم لى بذلك ولم اسمع به ، وكل ذلك فى مجلس واحد كما ذكر ، كانهم تواعدوا ، وكل ذلك لرغبتهم فى نصرة الدين والذب عنه وكثرة الحزم والتحفظ عنه ، وعن القبيلة ، قيل فكان خلف ابن احمد بعد ذلك يقول : ابن اختى امامنا اجمعين ، لحمى ودمى ، رئيس الكل ، وجعل يكرر ذلك في مجالسه ، وحيثما حضر ، وكان عميد القوم وفقيههم .

رأى العالم له جانب من الصواب

قيل اختلف ابو مسور والنكار فى مسألة وخلف غائب حينئذ عن جزيرة جربة ، فلما قدم سأله عنها أصحابه واعلموه بما قالوه فيها ، وبما قاله ابو مسوز ، فقال : اخطأتم واصاب يسجا ، فبلغ ابو مسور قوله لهم فقال لهذا أو امثاله يقول العلماء : لا يعوج قول عالم ، ولو انه مخالف .

ما ينبغى ان يقرأ على المحتضر

وسئل ابو مسور عما يقرأ عند احتضار المريض . فقال ما سألنى عنها احد منذ فارقت ابا معروف الى اليوم ثم قال : قول الله تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) .

ومن حسن اخلاقه ودهاءته ما ذكر انه وضع طعاما بين يدي التلامذة بعد ان غسلوا ايديهم ، وخرج ولم يقل لهم كلوا ، فامسكوا عن الاكل حتى دخل عليهم بعد وقت فوجد ايديهم مرسلة ، فقال ما لكم لم تأكلوا ؟ خشيتم ان اغرمكم ، كلوا وان شئنا غرمناكم . ومات له ابن فجاءه الشيوخ يعزونه ، فجلسوا يتذاكرون ويوردون ما فيه

الصبر الجميل وصفته

تسلية ، فقال لهم الشيخ : اخبرونى ما الصبر الجميل ؟ وكيف صفته ؟ فقالوا له الجواب من عندك : فقال : هو

ان لا تظهر المصيبة فى وجه صاحب المصيبة ، ولا يبين من بين جلسائه ، ثم قال هذا صعب ، فهل ايسر منه ؟ فقالوا الجواب من عندك ، فقال لهم : ما لم يتغير وجهه ويسدم ، ويوجم ، ثم قال وهذا صعب ، فهل أيسر منه ؟ فقالوا وما هو ؟ قال ما لم يصح ويدع بالويل والثبور ، لأن البكاء قد يكون بالرأفة والرحمة فى النفس .

الشيخ سحنون بن أيوب

ومنهم حسنون بن ايوب رحمه الله . فقيه أوانه ، وعمدة مكانه ، علقت عنه مسائل ، وفتاوى فى كثير من النوازل ، ورويت عنه في العلوم روايات ،وكان يعد في أهل الداريات . وله آثار محفوظة غير منسية ، بل منتشرة فى الجهات الطرابلسية ، الا انى لم احفظ له سيرة ، ولا وقفت فى تعاليق له على مسألة من مسائله صغيرة ولا كبيرة ، وليس ذلك بباخس حظه فى الفضل ، ولا قاعد به عن أولية السبق ، واولية المحصل ، فانه فى الائمة الثقات المثبتة اسماؤهم فى صدور الطبقات،وقد اذنت بل رغبت لمن يقف على هذا الكتاب من الفضلاء ، ان يثبت له فيما يحفظه عنه من طيب الانباء فليعلق فى حاشية الكتاب،وهو ان شاء الله مأجور متاب(1)

ابو الخطاب وسيل

وكذلك ابو الخطاب وسيل بن ستتن الزواغى رحمه الله (2) معدود فى هذه الطبقة ، مذكور فيمن افنى بدنه فى العبادة ، وماله فى الصدقة،موسوم بسمة الصلاح

(1) راجع سير الشيخ احمد الشماخى ص 292 ط البارونى

(2) ويثبت أيضا باسم وسيل بن سنتين كما تقدم

وتسميته ، مرسوم في ديوان علماء وقته ، لا بطيئا في السباق ، ولا قاصرا عند اللحاق ، هذا فيما أدركتهم يتداولون ، ويتعاطون من أوصافه ويتناولون ، وما يخرجني الى الخطة اذ لم احفظ عنه رواية ، فأطرز برد طبقته بما امكن عنه من ذلك ولو حكاية ، فيكفى نهلها عن العل ، ويكون لى جهد المقل . (1)

الشيخان ابو القاسم مخلد وابو خزر يغلا

ومنهم الشيخان ابو القاسم ، وابو خزر ، الوسيانيان رحمهما الله ، لا يمكن فيهما مزيد على ما قدمناه فى هذا التصنيف ولا يحتاج مع شهرتهما الى زيادة تعريف ، فانهما اماما اهل التوحيد ، وفخر من نشأ بقسطيلية وغيرها من بلاد الجريد ، ولكل واحد منهما اخبار ساردة وفضيعة ، فاطلب ذلك فيما مضى من الشيعة ، وسنذكر هاهنا مسائل وقع بينهما فيها اختلاف وكل اصاب سهمه الغرض وما ضاف ، (2) فمن هذه المسائل ما نبهنا عليه وسنذكره ، والخير لايسأم من يكرره .

لا تتسرع الى الحكم السيء ما وجدت احتمالا

فمن ذلك رجل قال : لا اله فسكت ، ولا حول ولا قوة ، ما الحكم فيه ؟ فقال : ابو خزر ، أشرك ، لأنا انما يلزمنا الحكم بالظاهر ، وقال : ابو القاسم بل فى المسألة احتمال ، لعله يعنى لا اله فى الآوثان ، واضمر فى نفسه تتميم الكلام ، ولا نظن بالمسلم الا خيرا ، ولا نخرجه الى الشرك بالأحتمال ، وهذا كما قيل عن الأمام افلح رحمه الله : أن

---

(1) النهل بالتحريك مصدر نهل شرب أول مرة والعمل والعلل : الشرب مرة ثانية ، او تباعا

(2) أخطأ وعدل عنه

من دين الله ان احدا اذاجاء بوجه يحتمل وجوها حمل على أحسنها .

الام اولى الابوين بالبر واحق

واختلفا في الأبوين ايهما اعظم حقا قال ابو خزر الأب اعظم حقا ، لانه المأخوذ بحقوق الولد ، وقال ابو القاسم بل الأم اعظم حقا لأنها اعظم مؤونة ، فقد قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما سأله عن ذلك سائل : فقال التى حملتك بين الجنبين ، وأرضعتك بالثديين ، ووسدتك الفخدين ، قلت ، وهذا انما هو مجرد حكاية ، ولا ينبغى لكل واحد منهما على مكانه في العلم وجلالة القدر ، ان ينكر ما قاله صاحبه او يعتقده خلافا ، بل لكل وجهة يصدقها ما يجرى من أحكام الميراث ، وما قاله صلى الله عليه وسلم لما سأله سائل يا رسول الله من أحق الناس منى بالصحبة ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك ، فالأول لأبى خزر ، والثانى لابى القاسم أفترىان أحدهما يجهل ما تمسك به صاحبه ؟ ؟ .

حكم من لم يجاهد نفسه ولم يحملها على الجد

وذكر أيضا أن ابا خزر قال : من جاهد نفسه من أهل الدعوة فاما نال خيرا ، واما لم ينله ، وأما من لم يجاهدها فلا ينال خيرا . فقال ابو القاسم فى الاول انه ينال خيرا على كل حال ، وفى الثانى محتمل ، قلت : وهذا أيضا غير بعيد من الاول ولكل واحد منهما تاويل يحمل عليه لفظه ، لا يمكن ان ينكره الآخر ، ولا ان يعتقد خلافه .

ابو صالح جنون بن يمريان

ومنهم ابو صالح جنون بن يمريان رحمه الله . ذو الورع والسخاء ، وبركات صالح الدعاء ، وهو احد الابدال، واصحاب الكراماتوالاحوال،واحد أقطاب الدين

وثمال اليتامى والمساكين ، ان لم يكن مقدما في العلوم فمقدم في المعارف ، وان لم يكاشف أجسام الدواوين فهو لا رواحها مكاشف ، بل ان قيس بسواه في عمله ودرايته وجد سواه يقصر دون أدنى طلقه ، فكيف بغايته . وقد مضت في هذا الكتاب جمل من أخباره ، ونكت من حميد آثاره .

حال الشيخ يوافق ما يقال عنه

وذكر ان ثلاثة من فقهاء جربة أحدهم ابو صالح بكر بن قاسم ، والثاني ابو موسى عيسى بن السمح ، والثالث ابو زكرياء فصيل بن ابى مسور ، توجهوا الى جهة ريغ ووارجلان زائرين اخوانهم وأهل دعوتهم ، قيل فوصلوا وارجلان ودخلوا على أبى صالح وصافحوه وتبركوا بمشاهدته ، ثم تساءلوا فيما بينهم عن حال أبى صالح ؟ فقال احدهم لما رأيته توليته ، وقال : الثاني لما عانقته توليته ، وقال الثالث لما تكلم توليته ، قلت وهذا مستحسن من وجه ومستقبح من وجه فوجه الاستحسان حسن التوسم من مثلهم في مثله ، ووجه الاستقباح اذا حمل على ظاهر ما رواه الراوى ، كونهم انما تولوه بعد هذه المشاهدة من رؤية وعناق واستماع كلام ، أتراهم كانوا قبل ذلك يبرأون منه ؟ ويقفون فيه ؟ بل لم يزل قبل ذلك وبعده أهلا لتوليتهم ، فان حمل اللفظ على ظاهره لم يصدق عليه المعنى ، لكنهم أرادوا – والله أعلم – انهم لما شاهدوه مع ما كان متقدما عندهم من توليته شاهدوا منه مصداق ما تقدم عندهم ، فانه تقدم على طريق السماع ، والاستفاضة ، فلما شاهدوه تحققوا ذلك عيانا ، لايحمل كلامهم على غير هذا .

وصية الشيخ ابى صالح لبنيه

قيل وأوصى بنيه بثلاث ، وكل واحدة منهن تشتمل على ثلاث ، فتلك تسع ، قال : يابنى اذا كان ابان غلتكم فولوها بأنفسكم ، ولا تولوها غيركم ، حتى توصلوها موضع حرزكم ، فان لم تكونوا أصحاب غلة ولم يكن لكم بد من شرائها فاشتروها ما دامت في أصولها ، ولا تتركوها حتى تصل الحرز فيصعب اخراجها ، فان لم تكونوا اصحاب غلة ولا قادرين على الشراء وتنزلتم الى طلبها فاطلبوها قبل دخولها الى الحرز ، يسهل اعطاؤها ، والثانية ان كنتم فى بلد فاول ما تلتمسون لأنفسكم وأموالكم المسكن . فان من سكن في غير مسكنه فاما ان يكون غنيا ، واما ان يكون فقيرا ، فان كان غنيا ووسع على نفسه سماه الناس مبذرا، وان ضيق سموه مقترا ممسكا ، وان كان فقيرا قالوا ليس وراء هذا الا الدخول والخروج ، وان كان في مسكنه يستر على غنائه وفقره ولا يعرف الناس له عيبا. والثالثة اذا اقبل الشتاء فحصلوا كسوة شتوتكم ، فان من بات مبيت سوء ليلة واحدة لايخلفها أبدا والذى تخلفونه من متجرد ثيابكم وخلقها فيه بقية ومنفعة ، فان أعين الناس وألسنتهم متسلطة على من معهم ، يتجسسون للكبيرة والصغيرة ، وهذه الوصية ليس فيها من أمور الدين شيء الا النهي عن اضاعة الحال والمال ، وفي ذلك مصالح كثيرة ، ومنافع جمة .

منابت النخل أغنى من مزراع القمح

وذكر ان ابن عم له كتب اليه كتابا من المغرب : يا ابن عمى ايتنى ، فانك قمت فى أرض الفقر ، فان عندنا أرضا كريمة ، قدر الكساء يحمل البعير وسقه حبا ، فأجابه ابو صالح : يا ابن عمى ايتنى ، فأن عندنا أرضا قعدة الرجل يحمل البعير وسقه عسلا ، وفي هذه الحكاية حسن الجواب

المسكت ، وفيها ما يدل على القناعة ، وعلى الرصانة ، وعدم الطيش .

للرجل الفقير ان ياخذ زكاة زوجته لا العكس

وذكر ان رجلا من أهل قصر بكر ، أحد قصور وارجلان كان رجلا مقلا ، وله امرأة كثيرة المال ، فسأل ابا صالح ، هل يجوز أن يأخذ زكاة امرأته ؟ فتوقف عن الجواب تحرجا ، الى ان قدر الله بوصول أبى نوح سعيد بن زنغيل الى وارجلان ، حين فراره من أبى تميم الشيعى ، فسئل عن المسألة ، فاباح ذلك ، وأعلمهم أن للرجل ان يأخذ زكاة مال امرأته، وليس للمرأة ان تأخذ زكاة بعلها . وهذه المسألة مشهورة ،ليس في هذه الحكاية ما يدل على قلة علم أبى صالح ، بل يدل على ورعه وتنزهه .

وذكر ان ابنا له ، اشترى كتابا ، فكان يقرأه على أبيه ، فكان أبو صالح يخاطب الكتاب ويقول : باعك من يعرفك واشتراك من لا يعرفك ، وهذه الحكاية تدل على ان هذا الكتاب كتاب عجيب ، وان الولد ولد غير نجيب ، ولكن خاطب ابنه بما يفهم من هذا الوجه ، ولم يقابله بقبح الزجر .

تضربه المراة فيصبر لذلك احتسابا

ومما يذكر من سعة صدره ، وقلة ضجره ، وكثرة صبره ، انه جلس ذات مرة مع امرأته وهى تعجن عجينا ، فخاطبها بكلام لم يقع منها موقع الموافقة ، فلطمته حتى ارتسمت آثار اصابعها فى خد أبى صالح ، فتكدر خاطره، فلم يمكنه الشكوى الى احد ، ولم يكن له بد من الشكوى الى شيخه أبى يوسف يعقوب الطرفى ، فجاءه شاكيا فلما بثه حاله ، قال الشيخ أترى هذه ؟ واشار الى زوجته ، فقال :

ما لها ؟ قال : ضربتنى البارحـــة بمقلى فصيرته طـوقا فى عنقى ، فقال أبو صالح انت ، انت ، يريد أنت أصبر منى ثم والله لا اشكوها بعد اليوم .

الشيخ ابو محمد جمال المدونى

ومنهم أبو محمد المدونى رحمه الله ، فقيه الاســلاف ، المتلافى فى سيرهم حين التــلافى ، الشامــل ما اشرف على الشتات ، المؤلف للجمع بعد ما صــدر الاشتات . تدارك المريض فاقامه ، وقد أراد ان ينقض فرده الى احسن حاله ، وعالجه بحسن رأيه وايالته ، فالممسك فيه به اقتدى ، وهو من السباق فى العلم والورع والندى ، ولــه فى معاملاته أمور سنية ، وأحوال مرضية .

يختلفان لاجـل كتاب فيفصل بينهما الشيخ براى مصيب

ذكر أبو الربيع ان رجلا من مزاتة قارض رجلا بمــال فكان يتجر به ، فبينما هو ذات يوم فى بعض شؤونه ، اذا بكتاب تفسير القرآن لهود بن محكم الهوارى يعرض للبيع، فاشتراه وجاء به الى رب المال ، فقال لــه انى اشتريت هذا الكتاب وهو لى دونك ، وانما لك راس المال ، فقال له رب المال : بل هو لى دونك ، وانما لك نصيبك من الربح ، ان كان فى متجرك ربح ، فتخاصما وتشاتما ، حتى قامت مع كل واحد عشيرته متعصبة ، وتآمروا على القتال ، وتواقف الفريقان وقد اشرفوا على ان يتفانوا ، فبلغ ذلك أبا محمد جمالا ، فجاء مبادرا ، فقال : ايتونى بالكتاب الذى أراكم تريدون ان تقتتلوا عليه ، فأتوه به ففتح وقصد موضعــا منه ، فاذا بين النصفين ورقتان بيضاوان ، ففصل ما بــين النصفين ، وضم الى كل نصف ورقة بيضاء ، وقطعه بسكين واعطى لكل واحد من الخصمين نصفا ، وقال من شاء منكم

الآن اكمال الكتاب فلينسخ النصف الذى فاتـه فاصطلح الفريقان ، وافترقا عـلى خـير ، وزعـم بعض الناس ان منتسخ الكتاب تفرس أو كشف ان امره يؤول الى تفرق بالحديد ، فاحتاط عليه ، وترك ورقتين غـير مكتوبتين ، وهذا الذى زعموا لا حاجة بنا اليه ، وانما المقصود مـا ذكرناه من بركة هذا الشيخ ، وحسن سياسته .

يشح على نفسه وعياله ، فيطعمه الشيخ قسرا

وذكر ان أبا محمد جمالا ، كان جواره رجل من أهـل البادية فى سنة مجاعـة ، وللرجل صرمة ، وقد أضر بـه الجوع ، وشحه المطاع مانعه ان ينحر منها ناقة ، فيطفىء سغب نفسه وعياله ، فبلغ ذلك أبا محمد فجاءه فوجده فى خيمة لا حركة له من الم الجوع ، فقام أبو محمد احتسابا فى الرجل وفى يده حربة ، فدخل فى ابله فعمد الى ناقة كوماء لم ير فى ابل الرجل احسن منها ، ولا اسمن منها ، يريد أن ينحرها ، فرآه صاحب الابل ، فقال : لعـل غيرها يا أبا محمد ؟ فأبى الا تلك التى قصـــد اليها ، فنحرها بحربته ، فلما نحـرها قال لهم : قومـوا ، وكلوا ، فلما أصبح اغارت عليهم غارة ، فاكتسحت أبل الرجل ، فلولا ان الله عز وجل لطف بهم ببركة الشيـــخ لماتوا جوعا . قيل تبلغوا بشحم الناقة ولحمها ، وسدوا فاقتهم تلك السنة الشديدة .

على العالم ان ينظر للجاهل ما يصلح به

وذكر ان عامـلا خرج على عشـيرة أبى محمد من قبل السلطان ، فكان هذا العامل يماكسهم ، ويشدد عليهـم ، فلما كان يوما من الايام قال لهم العامل : ان اعطيتمونى اليوم كذا وكذا مضيت عنكم ، وان بت الليلة ضاعفت عليكم ، وكلما بت ضاعفت ، قيل فلم يدفعوا له شيئـا ، ولم يعبأوا بقوله ، فكان يضاعف عليهم فلما رأى أبـو

محمد العامل يضاعف عليهم الغرامة كل ليلة ، ورأى قومه غير مكترثين به حماقة ، وخرقا لا قدرة وعزا ، قال للعامل وخدامه : قفوا على ترع الاحياء ، ولا تتركوا مالهم يسرح ، فلما رأى أصحاب الاموال ماشيتهم ياكل بعضها بعضا جوعا ، أدوا الى العامل ما لزمهم ، وانصرف فجعل جهالهم يطعنون فى الشيخ ، ويعيبون فعله ، حتى قال قائلهم : ما هذا الا معونة الظلمة الفجار ، على الضعفاء والمساكين . فقال لهم أبو محمد : لله على العالم ان ينظر للجاهل ويدله على ما فيه سلامة دينه ودنياه .

يقنت فى الصلاة وهو لا يرى ذلك موافقة للجماعة

وعنه انه كان يصلى بجماعة اكثرهم اهل الخلاف ممن يرى القنوت فى الصبح ، فكان أبو محمد يقنت بآي القرآن التى فيها الدعاء الذى فى آخر سورة البقرة ، وكالآية من آل عمران ، « ربنا لا تزغ قلوبنا » الآية ، وما اشبه ذلك . لعلمه ان ذلك لا يفسد الصلاة على مذهب الامتناع من القنوت ، فكانوا يشكرونه ويثنون عليه وقيل : بل الذى فعل ذلك فتوح بن أبى حاجب المزاتى ، وهو ايضا من طبقة أبى محمد فى العصر والتحصيل للعلوم . وعن فتوح رحمه الله انه سمع رجلا يطعن فى دين الوهبية من المخالفين فغضب ، واخرجه ذلك واحنقه حتى قال ما ههنا احد من أولاد المشومات ؟ فسمعه جماعة من شبان مزاتة وفتاكهم ، ممن يغضب لغضبه ، فعلموا انه عرض بفعلة تفعل بالرجل وانه رأى ان دمه مباحا ، فلما كان اليل نام الرجل فى أعلى داره فتسوروا اليه وخنقوه حتى مات ، وذلك فى بعض قرى بعض الزاب ، فلما مات رموا به فى الزقاق فلما اصبح وجده الناس لا روح فيه ، ففتشوا ليجدوا فيه اثر جرح او ضربة فلم

يجدوه ، فقالوا : والله ما قتله الا الملائكة ، قيل ثم ان الفاعلين لذلك مروا بالشيخ بعد عام فوجدوه يدرس زرعا ، فقالوا يا شيخ هل هنا أحد من أولاد المشومات ام لا ؟ يذكرونه فعلتهم ، فاثنى عليهم وشكر فعلتهم .

وذكروا ان جماعة من المشائخ توجهوا نحو طرابلس ، فركبوا البحر ، ونزلوا بجزيرة جربة ، وحضروا بها مجلسا ، قد حضرته فقهاء أهل جربة ، ومشيختهم ، كأبى مسور ، وامثاله ، فتذاكروا فى الطهارة حتى وردت بينهم مسألة فوقع فيها الاختلاف بينهم ، وهى : ما كان من نبات الارض من الثياب هل يطهره من النجس ما يطهر الارض والنبات ، لانها من جنسها ، ام لا ؟ فاجتمعوا على ان الثياب كلها حكمها فى ذلك اذا نجست حكم واحد، لا يطهرها الا الغسل بالماء ، لا يطهره سواه ، بخلاف العناصر ، فخالفهم ابو محمد جمال وحده ، فقال لهم : حكم الارض ونباتها وما يعمل منها من ثياب جميعا واحد ، يطهرها تداوم الشمس والرياح عليها ، اذا ابرزت المدة الطويلة ، ما لم تبق عين النجاسة قائمة ، قيل فنبهه بعض اصحابه واعلمه بما كان من اتفاق الجميع وان اتفاقهم هو الصواب ، فاقام ابو محمد الحجج على صحة مذهبه وقوله ، ولم يرجع عنه ، فقال لهم ابو مسور كفوا عنه فان العالم كالاجدل (1) اذا حلق ضرب .

حكم طهارة ما صنع من نبات الارض بالزمن

ما نقل عن الشيخ وقيل عنه وهو فى طريقه الى الحج

وذكر انه توجه الى المشرق للحج فصحبه الشيخ مطكداسن ، وعبد الله بن الامير ، ومع ابى محمد جمال حينئذ اثنى عشر جملا ، فاراد عند الركوبان يحملها

(1) الاجدل العقاب ، يريدان العقاب اذا حلق فى الجو ضرب فيه واوغل شبه به العالم يتوسع فى الحجج ، وذكر العلل .

فاستدعى مطكداسن ليعينه ، فقال : ليس ذلك من شأنى ، قال وما شأنك اذًا ؟ قال الدواة والقلم ، وحسبك بانى كتبت احد عشر كتابا فى عشرة ايام فاستحسن ما أجابه به ولم يكلفه شططا ، وساروا حتى نزلوا مدين فرأى رجلا يطفف الكيل فلطمه ، فقال « أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين » ، فرفع اليه رأسه وقال ، فينا والله نزلت يا مغربى ، وانما خاطبهم ابو محمد بالآية لانهم المخاطبون بها ، ولما قضوا مناسكهم ، ورجعوا الى بلادهم كان فيمن جاء لتهنئتهم عبد الله بن مانوج ، فقال لابن الامير لما رآه سالما فى ماله ونفسه لعلك يا ابا محمد ما اصبت فى سفرك هذا بشيء ؟ فقال قد سلمنى الله وعفانى من ذلك ، فقال له ابن مانوج : قد كنت اود لو احتسبت بشيء تصاب به فاصبح احد عشر جملا من جماله جيفا . وانما قصد ابن مانوج فى ذلك وجوها منها قوله صلى الله عليه وسلم : «من يرد الله به خيرا يصب منه»،ومنها خشية العين ، ولم يكن ابن مانوج ممن يتمنى العطب لاخيه فى الله تعالى ، بل أراد ما يوفر به الاجر .

سليمان بن زرقون وابن ماطوس

ومنهم سليمان بن زرقون وابن ماطوس رحمهما الله ، كانا بدرى الفراقد وكلاهما مطلب للناشد ، ومعلم للراشد ، ان تباعدت بقاعهما فقد جمعهما أصل واحد ، وعصر واحد ، ولكل منهما تأليف فى علوم الدين كم هدى الله بهما من المهتدين ، ونفى بهما من فساد المفسدين ، وقد تقدمت لابى زرقون فى هذا الكتاب اخبار وسير ، فيها مقنع لمن عليها اقتصر ، وسنذكرهاهنا من أخبار كل واحد منهما ما امكن،فكلاهما مستملح مستحسن.

التعبد بدون علم يوقع في الخطأ

ذكر ان سليمان بن زرقون رحمه الله كان مسافرا ومعه رجلان من اصحابه ، ممن ينتمي الى العلم والصلاح ، وحضر وقت صلاة من الصلوات ، فاجتازوا على غدير ماء ، وذلك في فصل يجمد فيه الماء من شدة البرد ، فلما وقف عليه ابو الربيع توقف وغلب على ظنه انه وجب عليه العدول الى التيمم ، ولا يتعمد بالقاء نفسه الى التهلكة ، ونزل احد صاحبيه الى الغدير فغسل يديه ، واقتصر على الزيادة على غسل اليدين ، لما وجد من ألم برد الماء ، ونزل الثالث وغسل في محزر فشج عصبه ، ووقع ملقى فنزلا اليه فلفاه في ثيابه ، وحملاه وقالا له : ألا تهون على نفسك التيمم لصلاة واحدة ؟ فتيمم الآن لصلوات ، فأى الاثنين الأفقه عندك ؟ واني لاراه ابا الربيع واما صاحبهمافتعبد بلا علم.

الفاهم لعلة الحكم هو الفقيه لا المتمسك بالفاظه

وذكر ان ابا صالح اليراسني وابا موسى ومن معهما من التلامذة ، ساروا الى ابى الربيع سليمان بن ماطوس ، ليقرأوا عليه ، فاقاموا يقرأون عليه ما شاء الله ، ثم انتقلوا الى موضع بافريقية يقال له « سلام ليك » فاقاموا به يدرسون الكتب زمانا ، ثم انهم رجعوا الى ابن ماطوس ليعرضوا عليه ما قرأوا في تلك المدة فلقوا بكر بن أبى بكر بنفزاوة ، وصحبهم ، فساروا الى وقت صلاة الظهر، ومعهم رجل ، فقال لهم ما الذىأصلى أقصرا أم تماما ؟ فقالوا كلهم صل صلاة المقيم ، حتى تجاوز ستة اميال . الا بكر بن أبى بكر فقال له صل صلاة المسافر اذا نويت خروج ستة أميال ، ثم مروا بامرأة تغسل صوفا نزع من شاة ميتة فقالوا لها ، لا يطهر صوف الميتة حتى يترب في سبعة امكنة بسبع أتربة ، وسبع قضبان ، ثم يغسل بعد هذا ، فقال لها بكر اغسلى صوفك كما تغسلين غيره من الصوف ، ولا

يلزمك مما قالوا شيء . وقالوا فى رجل تميم ويده منجوسة ان اليد تطهر وان التراب ينجس ، فقال بكر ان اليـــد تطهر وان التراب لا ينجس ، فقالوا له فأين ذهبت نجاسة اليد ؟ قال ذهبت بين الضربات . فساروا حتى وصلوا ابن ماطوس فاعلموه بالمسائل الثلاث ، وبجواب بكر ، فقـال لهم : الفرسطائى عالم ، ثـم أخذوا فى تصحيح ما قرأوه ونظروه على ابن ماطوس فصححوه فى ستة اشهر ، ورجعوا الى اهاليهم ، وهذا بمناقب بكر بن ابى بكر اشبه ، واولى ، وذكر ان ابن ماطوس قال لبعض من يرد عليه مـن بعض نواحى بلادهم . بلغنا عن رجال منكم انهم يأخذون الصدقات ويردون منها على من اخذوها منه ، فأزجرهم فانه ممـــا لا يرضى الله تعالى .

الشيخ أبو سـهل الفارسى

ومنهم ابو سهل الفارسى رحمه الله ، غلبت عليه هــذه العزوة الفارسية وليس بفارسي ، وانما هو نفوسي ، ولا شك ان امه رستمية من بيت الامامة ، فغلب نسبها عليــه واشتهر به ، وقيل هو رستمى ، ابا واما ، وان اباه ولد لميمون بن عبد الوهاب رحمه الله ، تمسك من العلــوم بسبب ، فليس برأس فيها ولا بذنب ، الا ان الغالب مـن أحواله ، همل الدموع ، والتلهف على فائت ليس له رجوع ، فجعل هجيراه مراثى الدين واهله ، والبكاء عليه بوابـل الدمع وطله ، حتى دونت الدواوين من كلامه ، وانتشر فى الآفاق حسن نظامه ، وقد اعجز المراثى بما اوعظ ، فلها بذلك فى النفوس احسن موقع واوفر حظ ، وجميع مـا حفظ من ذلك فانما هو بلسان البربر ، واكثره بالصواب

حدا ، فقف على دواوينه تكن عليه مترجما ، ولا ترمها اذا لم تجد لها مترجما .

الديوان الذى نظمه بالبربرية وهو فى جزائر بنى مزغنه

وعن ابى زكرياء يحيى بن ابى بكر ان رجلا من العرب من موالى لواتة قنطنار ، يسمى سعيدا ، اطلع الى البادية فانتهى الى موضع ابى سهل ، بمرسى الخزر ، وقيل بمرسى الدجاج ، وهو الصحيح ، وهو بجزائر بنى مزغنان ، قال فاكرمه وسأله عن أهل الدعوة ، فقال له أي فن يسرهم ان ادونه لهم ؟ قال انتظم لهم بلغة البربر كلاما يكون فيه وعظ وتذكير وتخويف ، وكان ابو سهل فصيحا بلغة البربر ، ولقد كان ترجمان جده الامام افلح ، وقيل بل

ترجمان خاله يوسف الامام ، قال فقيد له اثنى عشر كتابا فى المواعظ ، وفيها جمل من تواريخ أهل الدعوة ، فاختلس النكارى شطرها ، وبقى له ستة اجزاء فكان اذا أراد قراءتها ادخل رأسه فى ثيابه وقرأها على الناس حذرا عليها ، فلما كان ذات يوم قرأ منها الفاظا دلت على انه اتحف بها أهل الدعوة ، فأمر الشيوخ خلوف بن وحنين ان يخاصم ويطالب سعيدا محتسبا فى حق أهل الدعوة ، حتى يسترج لهم منه هديتهم ، ففعل فكتب منها العزابة ، ما كتبوا ، فلما أخذت قلعة بنى درجين واحرقت احرق ما وجد من هذا الكتاب ، وحينئذ تلافى ابو عبد الله ما تحصل فى صدور العزابة فقيد منها اربعة وعشرين بابا ، فلذلك قد تجد فيها قلة الاتزان والزيادة والنقصان ، وذكر ان قبر أبى سهل بالموضع المذكور ويزار حتى ان صنهاجة كانت حينئذ تزوره ، وربما قال قائلهم : انطلقوا بنا الى قبر النادب ذنبه ودينه ، وهذا مما يصحح انه بجزائر بنى مزغنان ، لانها بلاد صنهاجة .

الطبقـــة الثامنـــة 350 ــ 400 هـ

ابو نــوح سعيــد بن زنغيــل

ومنهم ابو نوح سعيد بن زنغيل ، رحمه الله ، لا مزيد له على ما تقدم فى الكتاب من المناقب ، فلكل فصل منها فى دجى العلم شهاب ثاقب ، هو فى الاوصاف الحميدة نهاية ، فاطلبها فى موضعها ففيه كفاية .

أبو صالح بكر بن قاسم

ومنهم ابو صالح بكر بن قاسم اليراسنى ، رحمه الله ، أنجب من طالع ودرس ، وأحد من احيى ما كان عفى ودرس، جبلته طلب الصلاحية والعلم ، وسمته الاعتصام بالوقار والحلم ، نوره يلتاح صامتا أو متكلما ، وبركته ظاهـــرة متعلما أو معلما ، فبهمته انتشرت الخـيرات ، وتـلاميذه المفيضون للبركات ، وكان احد من يوصف بالاجتهـــاد والتصميم ، لا فرق فى الحق عنده بين العدو والحميم .

ذكر ان ابا صالح نكل برجل من تلامذة ابى مســور ، فاقبل الرجل مستغيثا بابى مسور ، شاكيا اليه ما لقي من أبى صالح ، فقال له : الا ترى ما بى ؟ فقال له ابو مسور وطن نفسك على ما تلقى من ابى صالح وامثاله ، فـــان المسلم فى الحق كالحديدة المحماة ما أوقع عليها احرقته ، وما

الصبـــر على الحـق اولى

وقعت عليه أحرقته والحق أحق ان يتبع ، وان كان مرا . قيل : ثم تعين على الرجل المذكور حق من الحقوق مرة ثانية فعيد به الى ابى صالح ، فنكل به مرة ثانية ، فجاء الى ابى زكرياء شاكيا اليه ، كما شكى الى ابيه ، وكان من قوله : الا ترى ما فعل في وضربنى مبينا[1] ، فانتهره ابو زكرياء وتهجم فى وجهه ، وقال له : لا واخذ الله الشيخ فيما ترك قبلك من الحق ، فان اباك جاءنى شاكيا بك ، وذكر انك ، تنتف لحيته ، وما ذلك بقليل .

شدة الشيخ على الجناة

قيل وكان ابو صالح فى أول أمره بالبادية ، فى موضع يقال له « ازارق » وهو اذ ذاك شديد على العصاة ، حديد على العتاة ، ومع ذلك كان لا يضرب السراق من صنهاجة متى عثر عليهم تقية ، لا مداهنة ، وكان متى وقع عليه جان بين يديه ، وثبت عليه حق ، أخذ خشبة عظيمة ، قد اسردت فيها حلق ، وسلاسل ، فجعل رجل الجانى فى حلقة من تلك الحلق ، ثم يقلب الخشبة على رجليه لئلا يهرب ، قيل فكانوا بالليل يصيحون صياح التيوس ، من شدة الحر والبرد ، مع ما هم فيه . قيل ، فلما اشتد الحال فى البادية ، وكثرت الزلازل ، واضطرمت نيران الفتن ، انتقل الى جربة ، فعمد الى تلك الخشبة وما معها فرماها فى بئر ، فتكلم فى ذلك بعض العزابة ، وقال ، ما دعاه الى رميها فى البئر ؟ فقال لهم ولده ابو محمد انما اتخذ ذلك ليصرفه فى الوجه الذى أراده له ، واذ تخلى عن ذلك فلا ينبغى ان ينتفع بمافى غيره .

العرف له اعتباره فى المعاملات

وذكر ان رجلين اختصما اليه بجزيرة جربة ، احدهما باع للآخر سلعة بستين ولم يسم أي الجنس هى من الاثمان فقال المشترى انما اشتريت بقراريط الخندوس ، وقال

---

(1) فى نسخة مائتين

البائع انما لى عليه ذهب ، وقال المشترى لا اعرف الذهب فقال ابو صالح للبائع : خذ منه ما ذكر ، والا فخذ سلعتك لان أهل جربة انما يعرفون التبايع بالحندوس، ولا يعرفون الذهب . قلت وهذا الحكم شبيه بالصلح ، ولعله عرف ان البائع كان من بلاد جرى العرف فيها بالتبايع بالذهب ، وعرف ان المشترى لا يعرف الا الحندوس ، فاكتفى عن البينة واليمين بما عرف ، والنظر الى اشبه قوليهما .

الحق لا يختلف باختلاف الناس فى مذاهبهم

قيل وكان لرجل نكارى على رجل وهبى دينار واحد دينا ، فمات الذى عليه الدين فخلف ابنا عزابيا ، ولم يترك مالا يورث عنه ، سوى شاة واحدة ، فطلب النكارى دينه من ولد الميت فقال : ان غريمك لم يخلف الا شاة ، فبعها وخذ منها دينك ، فقال النكارى : بع انت ، وادفع لى : فقال : بينى وبينك ابو صالح ، فترافعا اليه ، فلما قربا من مجلسه قال النكارى للعزابى ، سر اليه أنت ، وحدك ، واستفته، فما أفتى به أمضيته على نفسى، ورضيته فجاء العزابى ، وعرفه ما بينه وبين صاحبه ، فقال ابو صالح صدق صاحبك ، بع وادفع اليه الثمن ، فقال بعض من حضره من العوام هذه اعانة للنكارى على الوهبى ، فقال لهم ان الحكم لا يختلف .

الحكم فيما اذا تخلى الورثة عن التركة للغرماء

فقال ابو محمد لو كان ابو صالح تتبدل فتياه لتبدلت فى هذه القضية ، واخذ بقول من قال ان الورثة اذا اخلوا بين التركة وبين الغرماء فليس عليهم غير ذلك ، قلت ، والوجه فى المسألة ان كان المديون لا مال له غير الشاة ، ان يجتهد الحاكم فى النداء ، حتى تبلغ اقصى غاية قيمة الوقت ، ولا يكل ذلك الى احد من الخصمين ، فانه أرايت ان باعها ولد المدين باقل من قيمتها ، ثم قام عليه غريم آخر ،

فحاصص الغريم الاول فيما أخذ أليس قد ضيع بذلك حق الغائب والحاضر اذا كانت فى البيع حطيطة اليهم ؟ اللهم الا ان تطوع الوارث بقضاء جميع الدين سواء كان فى التركة وفاء أو لم يكن .

وذكر ان ابا صالح سار ذات مرة فى بعض شؤونه ومعه ابنه ابو محمد ، فلما كانا ببعض الطريق وجدا شاة لا يدرى أحد منهما لمن هي والشاة على آخر رمق ، فقال أبو صالح لابنه : اذبحها ، فامتنع ، فكرر عليه ، فامتنع . وكان الشيخ راكبا فنزل عن مركوبه ، فذبح الشاة ، فتركها ، وانصرف ، فقال لابنه أبى محمد انتم أهل هذا الزمان لا تجزون على أحد صغيرة ولا كبيرة ، ثم قال لابنه : اقطع لى قضيبا اسوق به الحمار ، فقطع له قضيبا ، فاستحسنه والقى الذى فى يده ثم قال هكذا المتروك الذى يسميه العلماء متروكا .

وذكر ان أهل الحى شكوا اليه شاة تشرب من الآنية ، فقال ايتونى بها ، فاتوه بها فضربها ضربة واحدة بين أذنيها ، فصاحت صيحة منكرة ، فلم تعد بعد ذلك الى شرب اللبن .

شفقة الشيخ على الحيوان

وغاب عن أهله ذات مرة فى بعض شؤونه وخلف ناقة له وعليها الصرار ، فلم ينزعوه عنها ، فلما قدم وجد خيط الصرار قد اثر فى غارب الناقة ، حتى أحدث فيها قرحا ، فاستعظم ذلك ، واظهر غضبا ، وابتدر ليحل الخيط عن الناقة ، والصديد يقطر على كمي جبته ، فقال ابو محمد : وكنت اضم كميه لئلا يصيبهما الصديد ، فانتهرنى وقال : تنح عنى لا بأس بذلك .

يتحمل الشيخ المشاق للابقاء على السر الصالحين

وذكر ان ابا صالح سمع بالنكارة انهم استولوا على جبل دمر بحلقة كانت لهم تطوف فى الجبل فتكدر خاطره ، فتوجه اليهم بالحلقة ، ومعه ابنه ابو محمد وذلك فى سنة ممحلة ، وكان الشيخ يكابد الجوع والوعر ، وصعود الجبل كل ذلك فى الله واحياء لسيرة المسلمين ، وابقاء لذكرى الصالحين ، وفى ذلك كان ولده أبو محمد يرفده من ورامیه لما صعد الجبل ، لئلا يقع ، حتى وصل الى رئيسهم ومقدمهم « زيرى بن كملين » فعاتبه ابو صالح وقال له ما هذا الذى بلغنا عنكم يا زيرى من مرور النكار عليكم وحلقتهم بين اظهركم وانت بالحياة ؟ فقال له زيرى : ان عذرنا يا شيخ بين أما سمعت المثل السائر فى كلام البربر ؟ وخاطبه ببيت بربرى ترجمته : المرأة متى لم يزرها بعلها ابتغت السفاح ، وهذا الكلام له بالبربرية وزن ، وطلاوة ومساغ ، غير ما يظهر من تركيبه بالعربية . وقال له الشيخ منع من ذلك شجة الزمان ، وما يدركنا من الشفقة عليكم ، فقال له زيرى فترفعون ازوادكم ! فخصمه وأصاب ، لان الله اثنى على المؤمنين فقال : « ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ، ولا مخصمة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيض الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين » . ومن اعظم الجهاد الجهاد فى الدين .

الشيخ يفضل تاليف اهل المشرق (عمان)

وكان ابو محمد يقرأ على ابنه مختصر ابن محبوب فكان ابو صالح يقول ، هذا كلام محقق ، فقيه ، أصولى ، ولم يقع منه هنا الا الجزء السادس وهو سبعون جزءا . هذا منه تحريض على العلم ، وعلى تحصيل الدواوين . وذكر عنه انه كان يقرأ عليه الكتاب المعروف بالنسخ الثلاث فى

الحيض ، وكان كلما قـرأ فى النسخة الاولى ، يقول : هذا الفقيه العالم ، وفى الثانية يسكت لم يمدح ولم يذم ، وفى الثالثة يقول : خلط ، خلط ، ذلك ليعلم ان تأليف أهـل المشرق مفيدة ، دون ما سواها .(2)

ومن فضيلته ان رجلا من نفوسة يدعى ابا يخلف، وكان عندهم بجربة ، وكان هذا النفوسي متقنا لمسائل الحيض ، فمتي وردت مسألة من مسائل الحيض على أبي صالح رفعها الى ابى يخلف ، فتـكلم فيها بما عنده بعد ما يقول لا ارى نفسى اهلا لذلك ، ويسأل من ابى صالح الجواب .

وذكر انه لم تسمع منه لفظة شرقط الا مرتين، احداهما انه سئل عن بئر اذا كانت فى الجنان هل هى عيب ؟ فقـال هى شر العيوب ، (1) والاخرى ذكر له رجل وكل رجلا ان يزوج له ، فزوج له اربع نسوة ، فقال : هو شر الوكلاء ،

وذكر ان رجلا نكاريا سأل الشيخ ابا صالح هل تجـوز الصلاة بثوب واحد ؟ قال : نعم ، اذا كان ساترا ، فقـال النكارى انما عنيت الشاشية ، فقال ابو صالح انما قلـت لك اذا كان ساترا ، وسأله مبكتا ، أيجوز صـوم العيـد ؟ فقال : لا ، قال فلم تصومون يوم الجمعة وقد علمتم انـه عيد ؟ قال : أرايت ان كان فى رمضان ، فلم يجد جوابا .

الرخص الثلاث التي افتى بها

وذكر ابو صالح قال : ما افتى سليمان بن ماطوس قط فى رخصة الا فى ثلاث مسائل : احدهما ان من باع سلعة بقراريط وهو يعنى دراهم الخندوس ان ذلك جـائز ، لان القراريط فى أوزان الذهـب ، والدراهم فى الفضـــة ،

---

(1) كان وجود البئر فى الجنان عيبا لان الناس يقصدونها للسقى ، ولا يمنع المـاء عن المحتاج اليه ، فيكون ذلك البستان عرضة لافساد الدواب ، ولا يمتنع عن الايدى .

(2) هكذا العبارة فى النسخ ، فتامل

الثانية رجل تحقق فى اعضاء وضوئه نجاسة ، أو فى عضو واحد منها فتوضأ حتى انتهى الى موضع النجاسة فجعل مرور الماء على العضو النجس ازالة للنجاسة ، واداء لفريضة الوضوء ، ان ذلك يجزيه ، ولو لم يقصد . فقال له أبو محمد ، لا أعلم هذا الا ان ترجعوا الى جواب غيركم .
والثالثة رجل سأل من رجل خمسين دينارا قراضا وخمسين سلفا ، فأتاه بمائة دينار جميعا ، ودفعها له ، ولم يبين ما للقراض ولا ما للسلف ان ذلك جائز .

يجوز الرجوع الى الرضى بعد الانكار لا العكس

وقال ابو صالح فى امرأة عقد نكاحها وليها فانكرت ، ثم رضيت ، ان ذلك جائز لان لها ان ترجع الى الرضى بعد الانكار ، ولا يرجع الى الانكار بعد الرضى ، فى قول أبى عبيدة رحمه الله ، فقال له ابو محمد النكار أولى بالصواب فى هذا الجواب ، فقال له : النكار أولى من ابى عبيدة بالصواب يا هذا ؟ فقال : لا ، ولكنهم أخذوا بقول أبى نوح صالح الدهان ، وهو اظهر واصح ، فصادفه النكار فرجحوه .

وذكر ان رجلا من ولد ابى مسور متخلفا ، خرج من جربة الى بلاد أهل الدعوة ، يستجدى ويستعين ، فعظمت مصيبته على أبى صالح ، لكونه خرج فى شىء لم يخرج اليه سلفه ، فعز على ابى صالح ان يجتمع عليه فيه مصيبتان الاستجداء وان لا يعرف قدره ، فجعل يسأل كل من يرد عليه من النواحى التى توجه اليها ، ويبحث عن منزلته عندهم ، وهل عرف له حظ أم لا ؟ وهل اكرم أجلالا لآبائه ؟ فقال له ابنه ابو محمد : ان فلانا لم يبلغ قدره هذا الاهتمام الذى اهتممت له ، قال ، فقال له أبو

يهتم به تقديرا لابيه

صالح يا هذا لا تقل هذا ، فان ذلك ابن ابى مسور ، «وكان ابوهما صالحا » .

وذكر ان تلميذا من تلامذة ابى صالح كان يقرأ عليه كتابا بحضور رجل نكاري يرد عليه ، وأكثر الرد عليه فى غير موضع الرد ، ففهم أبو صالح عن النكارى انه ينتفخ بما ليس عنده ، فقال للتلميذ : ناول الكتاب من هو اجود منك قراءة ، فناوله النكارى ، فلما اخذه بقى حائرا لم يحسن القراءة ، ولو حرفا واحدا ، فبهت ، وخزي .

عادة اهل جبل دمر فى اخذ جزء من الدية واستنكار ذلك

وذكر ان رجلا يكنس مربدا بجبل دمر ، فرفع حجرا من المربد فرمى به وراء ستر ، فصادف رجلا فقتله ، فترافع اولياء القاتل مع صاحب المربد الى ابى صالح فحكم فيه بالدية ، فسر بذلك رئيسهم زيرى ، لان عادة أهل الجبل متى وجبت دية على أحد واخذها مستحقها فانه يجيزها المقدم بثلثها ، وزعم أهل جبل دمر أنهم أخذوا هذه السيرة عن الائمة ، ومعاذ الله ، فبلغ ذلك ابا صالح فانكره عليهم وغيّره ، وكره ان يتخذوه سنة ، فيشتهر ذلك عنهم فيزداد فى الشريعة ما ليس منها .

ينفق ماله احتسابا فيشتكى منه ابناؤه قلت ذوى الفضل فى آخر الزمان

وذكر ان رجلا من بنى يراسن تاب في آخر عمره ، وكان موسرا وكان يتصدق بماله فجاء بنوه الى ابى صالح شاكين بابيهم ، ذكروا له أنه اتلف المال وتركهم فقراء فيما زعموا فقال له ابو صالح مالك وبنيك ؟ زعموا انك اتلفت المال فقال له يا ابا بكر ، أفعل كفعل الذى نزلت فيه آية الكنز « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فكان ابو صالح يستحسن ذلك ويتعجب من كونه صدر من رجل عامى .

وزاره جماعة من العزابة فى مرض اصابه ، فدخلوا عليه فى عريش له ، بمقربة من موضع وضوئه فجعلوا يحفظون ثيابهم ان يصيبها شيء من ثرى موضع الوضوء فقال لهم : لا تحذروا ، فاني لم آته قط بنجاسة ، وكان من عادة ابى صالح اذا اكمل ركوع النوافل التى اعتاد ركوعها دعا من يقرأ عليه آيات سجدات القرآن ، فكلما قرأ منها آية سجد ، حتى أتى على آخرها .

قلة ذوى الفضل فى آخر الزمان

وذكروا عن ابى صالح انه قال يأتي على الناس زمان يود الرجل من يأكل طعامه فلا يجده ، ويود من يستشير فلا يجده ، ويود من يرفع اليه أمر النازلة تنزل عليه فى أمر دينه ، فلا يجده ، لا لقلة الناس ، بل لقلة الفضلاء ، فمن ادرك ذلك الزمان منكم فليتمسك بما حفظ من دين الله ، وليعض عليه النواجذ .

أبو زكرياء فصيل بن أبى مسور

ومنهم ابو زكرياء فصيل بن ابى مسور رحمه الله ، الطيب موردا ومرعى ، الكريم اصلا وفرعا ، المبارك عينا وآثارا ، المحمود خبرا واخبارا ، ورث المجد عن امجد الآباء ، وأورثه نجباء الابناء ، وأبقاه فيهم مخلدا لا يفنى الى يوم الفناء فهم شجرة الدين ، لان اصلها ثابت وفرعها فى السماء ، ان ذكرت السباق فى حلبة العلم كان المبرز ، وان ذكرت المخلصين وجدته لخصال الخير باسرها قد احرز ، قد تقدم من ذكر احواله فى التعلم والتعليم ، وماله فى طريق الصلاح من رتب حديث وقديم ، وفى كل مسموع طيب وثناء كريم ، وسنذكر ماله من المناقب ، وكريم المذاهب ، وما وهب الله على يده من المواهب ، ما

يحسن مرئيا عند الشاهد والغائب ، من فضائل مشهورة ، سائرة بها الركبان ، فلو سكت عنها لأثنت الحقائب .

تسلط ابن وانموى على الجزيرة فى زمن الشيخ

ذكر ان قائدا من قواد السلطان يعرف بابراهيم بن وانموي ، مزاتي وهو من أهل المذهب من مزاتة القيروان الا انه كان جائرا ، فاسقا ، توجه الى جزيرة جربة ، وكتب قبل وصوله اليها الى ابى زكرياء فصيل ، ان تنح باهلك وعشيرتك الى المسجد الكبير ، لئلا يدركهم من اضراره شيء أو تصيبهم من الجيش معرة ، ففعل ابو زكرياء فاستباح القائد جربة نهبا وغصبا ، ووقى شره بني يراسن فانهم فى جنب الشيخ لم يصبهم شيء مما اصاب أهل الجزيرة ، ببركته ، قيل فلما قضى ابن وانموي من أهل الجزيرة أربه ، وصل الى ابى زكرياء ، فأعلمه ان أهل جربة أفسدوا على السلطان رعيته ، ولم يودوا حق طاعته ، فلذلك نزل بهم ما نزل ، ولكن يا أبا زكرياء ما الذى تعلم من أحوال بني يراسن ؟ قال ضعفاء ، قال اما يقدرون على أدنى شيء ؟ قال يقدرون على دينارين ، قال قد قنعت بدينارين منهم ، وتقدم أبو زكرياء ، وغرم له الدينارين من ماله ، وقد تقدم له فى الكتاب نحو من هذا ، رحمه الله (I) قيل وكان ممن انضم الى الشيخ أبى زكرياء من بنى يراسن رجل يسمى ابا ملدين ، فاصيبت له جدي وعنز فاعلم بذلك ابن وانموى ، قال اما العنز فلك ، واما الجدى فلا ، فقال : بل كلاهما لى ، فقال له القائد : يطلقان جميعا فان صحب الجدى امه فلك ، والا فلا ، فاطلقا فأخذ كل واحد منهما طريقا غير طريق الآخر ، فقال له القائد

(I) للشيخ على معمر صاحب كتاب الاباضية فى موكب التاريخ كلام ونقد لموقف الشيخ أبو زكرياء ، فراجعه ان شئت ، ولعل الذى جعل الشيخ يقف هذا الموقف من القائد الظالم انه لا يستطيع ان يفعل شيئا فرضى ان ينجو بنفسه وبعائلته .

كيف ترى دعواك يا ملدين ؟ قال قد والله نالهما من رعبك ما نالنا فدهشا كما دهشنا ، فضحك حينئذ ، وسلمهما اليه وانما ذلك كله ببركة الشيخ .

يطعم الجبابرة تقية ويتبرع بمثل ذلك للفقراء

وكان ابو زكرياء ربما عامل ابن وانموي واشباهه بالاكَرام ، وقابلهم باطعام الطعام ، فاذا فعل شيئا من ذلك تبرع باطعام مثله للعزابة ، فالاولى وقاية للعرض وابقاء للحرمة ، والثانية تكفيرا عن الاولى ، على انه يقول : من حرث زرعا وحصده ، ودرسه ، وطحنه ، وعجنه ، واطعمه الجبابرة ، بمنزلة من أطعمه الاولياء ، فلكليهما حظ من الثواب ، وكلاهما يكتب عند الله صدقة ، كما روي في الخبر .

اهتمام الشيخ بالطلبة واعانتهم سرّا

وكان يقول : « منزل التلامذة كشجرة الخروب » يعنى انه لا ينبت حول الخروب نبات ، فان نبت كان ضعيفا ، لان الخروب يشتف ، وكذلك ما كان حول منزل التلامذة ، فانه يكون اهتمام أهله لما يصلح شأن التلامذة ، فجهدهم مكابرتهم ، والطافهم ، والقيام بمؤونتهم ، وكأنى به رحمة الله عليه يخاطب بذلك أهله ، وحشمه ، ليكون لهم من الاهتمام والاهتبال بأمورهم ، والقيام بحقوقهم ، ما لا يكون عند غيرهم من ذلك ، فيقتفون آثاره ، ولا يستعظمون ما ينفقون فى جانب التلامذة ، وما يخرج من مصالحهم ، وكان رحمة الله عليه يصرف الدنانير بالدراهم ، ويجعل الدراهم فى القراطيس ، والصرر ، ثم يعلقها فى الواح التلامذة ، وربما يجعلها فى أوعية دفاترهم ، وربما جعلها بين التلميذ وبين ثيابه ، وهم لا يشعرون ، وكل ذلك منه رغبة فى كتمان الصدقة ، فلما مات ابو زكرياء رحمة الله عليه انقطع عن التلامذة ما

كانوا يعتادونه من ذلك ، فعلموا انه انما كان يفعل ذلك ابو زكرياء ، وتحققوا ذلك .

وبلغه عن ابى بكر الزواغى انه كان يقول : لسنا فى دفاع ولا فى ظهور ، ولا فى كتمان ، ولا فى شراء ، ولكن زماننا سائب لتضييع الناس القيام بالحق ، ولا يعنى ان السائب وجه من الدين خامس ، فقال الشيخ ابو زكرياء لما بلغه ذلك عنه : أخبروه ان مسالك الدين أربعة : الكتمان وهو الامر السابق لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ثم الظهور كحاله بالمدينة ، ثم بعده ان امر بالجهاد ، ثم الدفاع كدفاع أهل النهروان الراضين بحكم ابن العاص وعبد الله بن قيس ، ثم الشراء ، كابى بلال رضى الله عنه (1) فلو رأيا زماننا وأهله لاستحالوا التمسك بشىء من الدين .

أبو عمرو النميلى

ومنهم أبو عمرو النميلى ، رحمه الله ، الراسخ القدم ، المؤثر موسرا وذا عدم التارك الآثام والتباعات ، المعمر فى اكتساب البر وأفعال الطاعات ، الذى كان الورع خدينه ، والعلم فى كل وجهة قرينه ، وهو أحد اقطاب الجزيرة ، وما يجرى فيها الفرض والسنة والسيرة .

ذكر أبو الربيع ان أبا محمد واسلان بن أبى صالح زار أبا عمرو النميلى ، بعد ما كبر ، وعلت سنه ، وقيل أبو عمرو لما كبر زار ابا محمد ، فقال يا واسلان يا بني ، ذاكرنى بشىء انتفع به ، فسكت عنه ابو محمد فلم يجبه ،

(1) راجع اخبار ذلك فى عروة قسم التاريخ من الكتاب ـ الجزء الاول

فقال مهلا عليك يا واسلان، مهلا عليك، ان كنت استثقلت سؤالى فانى اخفف عنك والا فعلام تركت سؤالى ، ولم تجبنى ؟ ولما رأى أبو محمد تغير أبى عمرو أقبل عليه ، يذاكره ، بما اعتقد انه ينتفع به ، فهكذا كانت احوال السلف واخلاقهم ، وتسارعهم الى الخير ، وسباقهم ، لا يضيعون الوقت ، ولا يفوتون الغائب .

جند المعز ينكلون بعدة مشائخ فى جربه

وكان ابو عمرو قد عاش مائة وعشرين سنة ، وقتل شهيدا ، قتله بنو وتران زويلة ، وذكر انهم ذبحوه وخرج من مذبحه شيء كاللبن يسيل ، وهؤلاء الذين قتلوه هم عسكر أخرجه المعز بن باديس فيما ذكر ، فقتلوا عدة من مشائخ جربة، كأبى عمرو ، وأبى صالح، وأبى موسى (I) وذكر ان رجلا خرج ليلا الى المقتلة ، يتفقد القتلى ، هل فيهم من بقيت فيه بقية نفس ، فسمع قائلا يقول باللسان البربرى يا قاتل ابى عمرو النميلى ، شتت الله شملك ، وازال عزك ، فلم يلبث الا أياما فخرج عليه يونس بن يحيى الطنبرى ومزق ملكه ، وقتل رجاله ، وخرب سلطانه ونفاهم من القيروان الى المهدية .

ابو موسى عيسى الزواغى

ومنهم أبو موسى عيسى بن السمح الزواغى رحمه الله ، شيخ أهل الاخلاص والتقوى ، المعتمد على قوله فى الفتوى ، ذو الرصانة والحلم ، والمتقدم فى فنون العلم ، جوابه عند السؤالة له رونق وبلاغة ، والفاظه حسنة

(I) كان ذلك فى الحملات الارهابية ، واعمال القمع التى قام بها امراءه ليحمل الناس على اعتناق المذهب المالكى بعد ان تمذهب به هو ، فعانت من جراء ذلك بقية الطوائف الاسلامية ، وهذه الاعمال الوحشية قام بها فى الجنوب التونسى سنة 43I

الوصف والصناعة ، وحسبك بأول من فخرت به زواغة ، فانه صــدق فى التجرد والانابة فأتاه الله مع العــلم والاجتهـاد الدعوات المستجابة .

المسائل الثلاث التي انتقدها منه المشائخ وجوابه عنها

ذكر المشائخ ان ابا موسى كان يتحرى الصواب ويتحفظ بالجواب ، لكنهم انتقدوا عليه ثلاث مسائل احداها قوله له ان الأمر والنهى مرفوعان عن أهل الكتمان لايلزمهم مــن ذلك شيء ، والثانية قوله : الرياء لايكون بين العبد والناس وانما يكون بين العبد وربه ، والثالثة انه لما أصيب قومه ايرءبان ، لازم الفراش مضطجعا ، اغتماما لما أصابهم من اخوانهم «بنى تاتيتن» ، عذروه على الأولى ، انهم قالوا انما يعنى سقوط الأمر والنهى فى أهل الخلاف ، فهذا لا بأس به ، وهو قريب من جواب أبى محمد جمال ،وهو قوله كل ما أجازه أهل الخلاف فى مذهبهم ، ولم يجز فى مذهبك ، فليس عليك انكاره ، ولا يسمى هــذا تضييــع الأمــر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجمهور من أصحابنا يأبون ذلك ، ويوجبون النهى عن جميع المناكر ، ما لم يمنع من ذلك ضعف أو خوف ، فيسقطه عند ذلك ، وعن الثانية ان قول من يقول لايكون فى الفرائض وانما يكون فى النوافل وعن الثالثة اعتذر عن نفسه وذلك انه لما سمع به الشيوخ جاءوه معاتبين ، فقالوا : حججت ، وتصدقت ، واعتقــت وانفقت ، وانفدت وصيتك بيدك ، ومع ذلك فان الوهبية غير راضين أحوالك ، لكلفك بقومك حتى بلغ بك الى هذا الحال ، وأظــن المتكلم منهم أبــو صالح بكر بن قاسم ، فاجابهم بان قال يا أبا بكر ألستم تقولون ان من اذا نــال خيرا نلته معه ، وان ناله شر نالك معه ، فانه مهما أصابه مكروه فتوجهت وتوجعت شفقة عليه ان ذلك ليس بحمية ؟

فقال لهم أبو صالح : اسألوا من صاحبكم المحاللة ، فـانه قد أجابكم بمخ العلم .

تركناهم وطلبنا العلم فرجعنا ولم يفتنا شيء

وذكر عنه انه قال : خرجنا من هؤلاء ـ يعنى قومـه وأهله ـ وتركناهم أصحاب شياه وبقرات ، وقرأنا العلم ورجعنا وجمعنا مثل ما جمعوا من شياه وبقرات ، لا أقول ان أبا موسى رحمه الله قال هذا القول فخرا وافتخارا ، بل تحريضا على طلب العلم والاجتهـاد فى الخيـر والصلاح ، واعلاما بان طلب الدنيا مدرك لا يفوت ، وان المتعين طلب العلم والدين .

ابو نوح سعيد بن يخلف

ومنهم أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتى رحمـه الله ، ممن سلك مسالك الاخيـار ، وحافظ عـلى احياء السيـر والآثار ، وأخذ نفسه بما تلقى عن ذلك الأبرار ، وكان ذا سعة فى العلم والمال ، رحيب الصدر فيهما عند السؤال، ولا يضجر من المسائل، ولا ينبو عنأجوبة السائل، والورع فى كل ذلك دليله ، والرفق خليله .

ذكروا أن أبا نوح كـان له أربعـون فرسا ، وكـان يصطفى منها فرسا عتيقا ، كان تبذل فيه الأثمان الجليلة، والاموال الجزيلة ، فيضن به ، ولا يسمح بخروجه عـن ملكه لما خبر من صبره وشدة أسره ، وكان يعده للشدائد والمرامى البعـائد ، حتى وصل به الى بلاد المشرق ، فقضى عليه فريضة الحج ، وعليه سافر الى (تادمكـت) ، ولعـل كثرة ما اقتنى من الخيل لكثرة ما يأمله من الخير فى نصرة الدين ، ومدافعة المعتدين .

وذكر ان أبا نوح لم يصل صلاة بالتيمم على كثرة سكناه بالبادية ، ولم يلبس الثياب المعدة للصلاة الى غيرها قط ، بل اذا قضى الصلاة طواها واوعاها فى الخرج ، ولم تفته ركعات الضحى قط ، ولم يفته نوم القائلة ، فهذه خلال اعتادها لايقطعها عنه مايقوم به من الاسفار ولا يتركها بعذر من الأعذار ، فكان اذا سافر وحان وقت المقيل نزل عن فرسه ثم نام ، ثم يقف غلامه عند رأسه ممسكا له الفرس، حتى ينتبه فيصلى ثم يركب فيدرك الناس ، لم يفوتوه ، وكذلك يفعل فى جميع الصلوات ، فرضها ونفلها .

وكان كثير المال كثير الأضياف لا يرد بابه دون أحد ، وكان له أربع زوجات وكل واحدة منهن فى خيمة ، فاذا نظرت الى خيامه رأيت جلود الشياه منشورة ، وعليها لفائف قطن ، لكثرة ما يغشاه من الأضياف ، فيكثر الذبائح .

رايه فى التصرف فى مال الغير جلبا للمصلحة

وكان يقول كلما تصرفت فى أموال الناس فى وجوه المصالح لتدخل عليهم بذلك نفعا ، أو تكف ضررا ، فليس عليك فى ذلك تباعة ، ذكرانه رأى بقر الناس فى زرع فأخرج البقر وطرده عن الزرع ، وهو على فرس أنثى يتبعها مهر ، فلم ير على نفسه حرجا فى دخول فرسه ومهره فى الزرع ، لما أنه انما قصد بذلك ازالة الضرر .

وكان رحمه الله مطرحا حظوظ النفس ، لا يقف عند مراعاة الظواهر ، انما كان عنده القصد والاخلاص ، فذكر عنه انه كان عند اهله فى ناحية من نواحى طرابلس فى عام الابراج وهو العام الذى وقع فيه الحرب بين زناتة وصنهاجة فهزمت صنهاجة ، وكان بنواحى افريقية زلازل

عظيمة ، وأحوال شديدة ، فتشمر حينئذ من كان بنواحي افريقية من مزاتة فصاروا بجهات اخوانهم بنواحي بلاد طرابلس ، فنزل اليه أبو نوح سعيد بن زنغيل، وكان عنده ضيفا ، فلم يجد عنده غير الشعير واللبن ، قيل ، فكان اذا قدم اليه شيئا من ذلك قال له : كل يا شيخ فاني لا اعتذر لمن أدعو له بالجنة ، وأرجو ان يكون من أهلها ، الا ترى حسن هذه العبارة ولطافة هذه الاشارة ؟ رحمة الله عليهما .

لا اعتذر لمن ادعو له بالجنة

قيل وفي هذه السنة انضم عبد السلام بن أبي وزجون فيمن انضم من مزاتة الى جهة طرابلس ، وفيها سئل عن السخط والرضى وعن تلك المسائل ، فقال ، انها صفات الله ، فعيب هذا الجواب ، وطرد ، وسافر الى المشرق للحج ، قلت : ولعل الجماعة رضوا عنه ، وحينئذ توجه الى الحج ، والا فلا يمكنه ان يقصد الى الحج وهو في وحشة الهجران ، بل بعد ان يتوب وتقبل توبته .

ابو محمد واسلان بن يعقوب المزاتي

ومنهم أبو محمد واسلان بن يعقوب المزاتي رحمه الله لم يقصر عن مدى أصحابه ، وان كان غير منتفع بشبابه ، وذلك أنه قضى أيام الشباب في لا شيء ، ثم توجه الى الله ، فبدل الرشاد بعد الغي ، فسعى وحفد ، وجد واجتهد، حتى فتح الله عليه في مدة يسيرة ، بما ناله غيره في الأعوام الكبيرة فكان بالمجاهدة مذكورا، وبالعلم والورع مشهورا .

ذكروا ان أبا محمد واسلان كان راعي غنم ، فاتي عليه حين من العمر وهو لم يدر ما الصلاح ، ولا أهله ، وكان عادته اذا خرج في رعاية ان تجتمع الرعاة ، فيغني لهم ، وكان حسن الغناء ، فاذا كان آخر النهار ختم غناءه

ينتقل من رعي الغنم الى طلب العلم

اجتهاده في طلب العلم ، واخباره في ذلك

بكلمات ، فيذكر الله فيها ويدعوه ، فكانوا اذا سألوه ان يغنى لهم بعد فراغه من الدعاء يقول لهم : اما بعد إذ ختمت فلا ، ويمتنع فلا يعود الى الغناء على كل حال ، وكانت له هذه خيرة ، فهداه الله الى الطريق المرضي ، فتاب ورجع الى الله ، ولحق بتلامذة القرءان في ايام أبي القاسم يزيد بن مخلد ، فابتدأ في قراءة القرءان على تكلف شأن التعلم على الكبر كما في كريم علمك وكان جهير الصوت فمر به رجل فوجده يعالج من ذلك ما يعالجه المبتدىء فقال له : يا واسلان هلا رجعت الى أهلك فلازمت الصلاح واصطناع المعروف ؟ فان ذلك أنفع لك وأجزى عنك ، وكأنه أيأسه من التعلم ، فساءه ذلك ، فخرج من المسجد ولوحه في يده ، وعبرته تخنقه ، بل دموعه تسيل ، فوجده رجل آخر على هذا الحال فقال له ما شانك يا وسلان ؟ فاخبره بما قال له الرجل ، واياسه اياه من روح الله ، فقال له الرجل هات لوحك ، وكان قد رماه ، فقال له اقرأ فقرأ فقال له اي عالم يخرج منك يا وسلان ! فارتاح لقوله ، ورجع الى تعلم القرآن ، حتى حفظه ، ثم تعلم علم الكلام وحصل الاصول على شيخه أبي القاسم رحمه الله .

فذكر انه كان في أيام قراءته على أبي القاسم حضر يوما الى منزله ، فوجده راقدا فطفق يتناظر هو وزوج الشيخ في مسألة من علم الكلام ، قال فلما افاق قال له : هل سمعت ما نحن فيه ! قال نعم سمعتكما تترامیان بالخزف ، يريد ضعف حجتهما في المناظرة ، فلما قضى واسلان من هذا الفن وطره شاقت نفسه الى تعلم الفروع فاستاذن امه في السفر ، والغز عليها في الاستيذان ، فقال لها اتاذنين لي في الطلوع الى الجبل ، فقالت نعم ،

فذهبت هي الى جبل بمقربة من منزلهم ، وذهب هو الى جبل نفوسة ، فجعل يقرأ العلم حتى حفظ فى الفقه كتبا كثيرة ، وكان فى اثناء هذه المدة اذا وصله كتاب من تلقاء اهله رمى به فى الكوة لا يقرأه ، حتى قضى وطره من علم الفروع وعقد النية على الرجوع الى أهله ، فقرأ الكتب فوجد فى الاول التعزية بامه ووجد فى كل كتاب مالو اطلع عليه لكان شاغلا عما قصد اليه من الخير ، قيل ولما خرج مسافرا عن جبل نفوسة شيعه المشائخ مودعين ، فلما اراد الانفصال قال لهم : اخبرونى يا معشر نفوسة عن رجل حلف بالله ثم حنث ما يجب عليه ؟ قالوا العتق أو الاطعام أو الكسوة هو مخير فى الثلاثة ان كان مستطيعا، فقال لهم هو مخير ؟ قالوا نعم فقال : هذا ما كنت احاول ان اسمعه منكم ، وقد ظفرت به منكم ، فانى متى سألنى سائل عن مذهب أهل جبل نفوسة ، قلت : التخيير فقالوا له : الى هذا كان قصدك . !!

قيل : وكانت اقامته فيهم سبع سنين ، فحصل ديوانا عظيما فكان يقرأ فيه ويدرس عند أهله، وكانوا اذا رأوه يقرأه فى الشتاء ، قالوا له ، يبتل كتابك ببلل أندية الشتاء ، ويقول لهم : سيأتى الصيف ويجف ، فان كان الصيف قالوا ، يحترق كتابك ويتقبض بحر الشمس ، ويقول لهم : سيأتى الشتاء ، وينبسط . وكان رحمه الله لا يفتر عن القراءة فى كل زمان .

يتعجبون من حمله فيمتحنونه

ومما يذكر عنه من رحب الصدر وكثرة الصبر ، ما حكاه جماعة من أصحابنا ان قوما من أهل القيروان ذكروا أبا محمد واسلان وما وهب الله له من العقل والفضل ، والعلم والحلم ، وسعة الصدر ، فتعجبوا ، وقالوا : أيكون

هذا من اخلاق بربرى ؟ قال : احدهم انا امتحنه لكم اليوم فقعد له في طريقه حتى مر فرفع احـــدى رجليه ليخطو فجذب رجله الاخرى فصرعه ، ثم قام ومسح التراب عن وجهه ، ثم قال : الحمد لله ، ولم يكترث بذلك .

ابو صالح الياجرانى

ومنهم أبو صالح الياجرانى ، رحمه الله ، هذا الشيخ اعبد العباد ، وازهد الزهاد ، وكان لكثرة زهده يحسب ان ذلك بله ، ولفرط حزنه على الآخرة يظن أن الذى به وله ، لا يكترث الا بخدمة ربه ، ولا يعمل لشيء غير حبه ، حتى خصه بالكرامات التى خص بهـا الاولياء ، وافاض عليه نور معرفته وكساه الآلاء .

تهجد الشيخ وملازمته المسجد

ذكر أبو الربيع عن خاله عبود بن منار ، انه كان يذكر عنده ان أبا صالح ينتقل فى كل ليلة فى جميع مساجـد وارجـلان ، يطوف عليها مسجدا ، بعـد مسجد ، قال ، فاتبعته ليلة وقد قام لتهجده ، فجعل كلما اتى مسجدا ركع ما شاء الله ان يركع ، فاذا انصرف قفوت اثره ، وهـو لا يشعر ، ثم يأتى مسجدا آخر ، فيركـع كذلك أيضا ، وانا خلفه اركع ، حتى مر ببعض المساجد واخذ بالركوع فغلب علي النوم فاستندت الى بعض اساطين المسجد ، فلم استيقظ الا وقد خرج ، وغلب على ظنى انه اتى مسجدا آخر حتى يطوف على جميعها ، فحققت ما كان يقال عنه .

بعض ما ذكر من كرامات الشيخ

وكان هذا الشيخ يحضر مجالس أبى عبد الله محمد بن بكر ، فحضر مجلسه ذات يوم ، فكان اكثر ما اورد فيـه الوعظ والتخويف ، واسهب ما امكنـه ، فقال لـه أبـو صالح : يا محمد ، اليس يقولون الجنـة فى آخر الزمان

أرخص من حمار أدبر ؟ فقال نعم أرأيت اذا وجدت فى السوق جملا بقيراط واحد ، أتكون لك قدرة بتحصيل الجمل ما لم تملك القيراط ؟ وذكر عيسى بن يرزكشن قال : مررنا بأبى صالح فى الغيران المعروفة « ببنى أجاج» بخارج وارجلان ، وكنا فى جماعة من العزابة ، قال فاضافنا أبو صالح وبتنا عنده تلك الليلة ، فلما كان وقت من الليلة واخذ العزابة فى القراءة جعلت الجن ترد عليهم ، يسمعون الاصوات ، ولا يرون الاشخاص وذلك دأبهم مع أبى صالح ، ولعلهم من مؤمنى الجن ، تأنسوا بأبى صالح، وتأنس بهم، لان من هرب من الناس وتوحش منهم تأنس بما يتوحشون .

وذكر من كرامات أبى صالح انه اذا اتى ليلا الى الغار الذى هو مصلاه من غيران «بني أجاج» واراد الدخول ليتنفل على حسب العادة ، أسرج له سراجان احدهما عن يمينه ، فى الجانب الغربى ، والآخر عن شماله فى الجانب الشرقى ، ولا يعلم ولا يرى من يسرجهما له .

خروج الشيخ من وارجلان اعتزالا للفتنة

ووقعت فتنة بوارجلان فلم يمكن أبا صالح المقام بها فخرج مهاجرا الى ناحية ادرج ، وكانت له بها ابل ، فمكث عند ابله مدة سبع سنين ، حتى صرف الله الشر عن بلاد وارجلان ، وانتشرت فيها العافية فأراد أبو صالح الرجوع الى الوطن ، وكان حينئذ ببلاد ادرج شيخ من المشائخ الكبار ، وكانت عنده حلقة عظيمة فيها نحو ثلاثمائة تلميذ يقرأون العلوم ، وسير اهل الخير والصلاح فكان أبو صالح يستأنس به ، ويستفيد منه ، فلما خرج مسافرا خرج الشيخ معه ، وتلامذه مودعين ، وجعلوا يودعونه جماعة بعد أخرى ، حتى لم يبق غير الشيخ ،

الدعاء الصالح من خير المكاسب

فدار بينهما من الكلام المفيد انواع ، فكان آخر ما دار بينهما ان قال احدهما للآخر ، أخبرني ما اعظم شيء ينال به خير الدنيا ، وسعة الارزاق فيها أبالتجارة أم بالزراعة أم بالصناعة ؟ فلم يجبه طلبا لاخذ الفائدة وليكون الجواب من عند السائل ، فقال : ان أفضل ما ينال به ذلك دعاء الصالحين ، لا سيما اذا اغثت ملهوفا أو سددت فاقة مضطر ، وذكر انه استسلف حينئذ من تلك النواحي عشرة دنانير صرفها فيما لابد له منه ، فلما قدم على أهله واحضر الدنانير المذكورة واراد تبليغها منه ولم ير ما يخلصه منها الا ان يوديها بنفسه ، فلما ارتحل عن أهله اجتاز بقوم يعملون المعروف ويتطوعون به لسد خلة أو نفقة على انفسهم ، فكل رجل منهم يتنفل بما عنده ، ويتطوع بما قدر عليه ، فارتاح أبو صالح واهتز ورآها فرصة تنتهز ، لكن تردد ما بين الفرصتين أداء الاتباعة لمستحقها او اصطناع المعروف في محله ، ثم انه رأى تقديم ما يخاف فواته على ما ليس بفائت واستخار الله عز وجل ، وتطوع لهم بدينار من العشرة دنانير ، ودفعه لهم عازما على استئناف اغترامه لصاحب السلف ، فلم ير بذلك باسا لان ذمته كانت عامرة بالكل ، وتبقى عامرة بالبعض ، فبعد دفعه الدينار تمادى في طريقه حتى وصل الى صاحب السلف ، فدفع له الصرة فعدها فوجد فيها عشرة دنانير ، والشيخ لا يعرف اكثر من تسعة ، فقال له أعد عدها ، فأعاد ، فوجد عشرة ، فعلم ان ذلك من عند الله .

تحرج الشيخ وشدة ورعه

ومما يحكى من الاخبار التي لم ينسج احد على منواله ما ذكر انه جلب من ابله ابعرة الى وارجلان للبيع، فاشترى

وارجلانى منها بعيرا ، فلما أراد ان ينقده الثمن قال لـه : ان ثمن جملك فى تادمكت ، وكان له جمل اراد المسير عليه فقال له رجل من أهل وارجلان أتحمل لى على جملك هـذا حمل متاع الى تادمكت فتبيعه لى هناك ؟ فقال بكم ابيـع حملك ؟ فقال بكذا وكذا ، وكان بعدد سماه لـه ، فلمـا وصل تادمكت وسوق تلك الوديعة ، نقص من العدد الذى سمى شىء يسير ، قيل قدر ثلاثة اربـاع قيراط ، فقال لا يمكن البيع بدون ما سمى لى فرجع بالحمل الى وارجـلان قالوا فلم ير حمل رجع من تادمكت الى وارجلان غيره ، ولا سمعنا به ، وهذا فى التحرج شىء بعيد .

وكان لابى صالح ولدان احدهما يسمى صالحا وبـه يكنى ، والآخر يسمى سليمان ، وكان اذا أراد ان يسأل عن ولديه يقول : ما فعل ابنى صالح ؟ واما سليمان فقـد رضى عنه المسلمون ، وكان يقول : اذا نظرت الى ولـدى سليمان والى عمران بن زيرى وسدرى بن سليمان احترقت نفسى ، وعلمت انى محتاج الى التوبة والانابة ، واستئناف العمل ، وكان هؤلاء النفر الثلاثة يقول بعضهم لبعض : سيروا بنا الى زيارة الاخيار ، ودعونا من هذا الشيـخ ـ يعنـون ابا صـالح ـ فانـه لـو سكـن بـين اظهـر المشركـين مـا تبـدل ، ولا تغـيـر . وممـا يحـكى أيضا من اطراحه الاستعمال انه كان ربما قصد مع ابى عبد الله محمد بن بكر رحمه الله حتى تذاكـر معـه فى الصغيرة والكبيرة ، حتى كان مما ذكره ابو صالح ان قـال له : يا محمد يا ولدى ما عسى ادركت منى وشعـر رأسى كالثغامة ، ولحيتى كالصفار ، وجسدى هزيل ، ولو علمت ما علي من القوة والشجاعة والعبادة ، لو رأيتنى حينئـذ

قـوة ايمانه ويقينـه

لرأيت شيئا عجيبا تعجب ان تراه ، أفتراه رحمه اللـــه يريد بذلك تفاخرا وسمعة ؟ حاشاه ، ثم حاشاه ، انما ذلك دليل على صفاء باطنه ، وكونه لا يحذر شيئا يحذره أهـل الدنيا رحمه الله .

الطبقة التاسعة 500 ـ 450

ابو عبد الله محمد بن بكر

منهم ابو عبد الله محمد بن بكر ، رحمه الله ، الطود الذى تظاءلت دونه الاطواد ، والبحر الذى لا تقاس به الثماد ، بيت أهل المذهب والمشهور بالبركات ، والمعتمد عليه فيما أصل للحركات والسكنات أسس قواعد السيرة وله فى كل فن تآليف كثيرة ، وأكثرها الحجج والبرهان لانه كان فيها ركن الاركان ، وحفظ عنه فى الاخلاق حكم قد خلدت فى بطون الاوراق ، وله الدعوات التى ترتجى وتتقى عواقبها ، وهى باقية لذريته يتوارثها بدورها وكواكبها .

وصنوف فضائل ابى عبد الله اكثر من ان تحصى ، لكن اذكر منها ما تيسر فمن كراماته انه أضاف جماعة من أهل الخير والصلاح ؛ ممن ينبغى معه الاحتفال ، وممن لا يقابل بالمحال وكانت غنم الشيخ فى مرعاها بالبادية ، ولم

كرامات تحكى عن الشيخ ابى عبد الله

يحضر ما يسنى به طعام أضيافه ، ولا وجدوه له بوجه الشراء ، فقال لهم : انظروا العريش هل فيه شيء ام لا ، وكان في داره عريش فنظروا العريش ، فاذا فيه كبش عظيم ، فجهز به ضيافة أضيافه ، فبعد ذلك قدم رعاء الغنم فسألهم عن حال الغنم فقالوا ما علمنا بأسا الا ان الكبش الكبير الفلاني دارت عليه زوبعة ريح في يوم كذا وكذا ، فتشنا عنه فلم نجده ، وهذه الحكاية روتها جماعة ممن لا يرد ما ذكر ، ومثلها لمثله ، لا ينكر . ومن كرامته ما ذكر الفقيه ابو الربيع رحمه الله قال : كنت عنده ذات يوم وحوله عمال يعملون ، فقدم لهم بسرا ليأكلوه ، فقال لي : كل يا سليمان ، فامتنعت ، فقال كل يا سليمان ، ان من يطاوع لمشكور الحال ، محمود الخلائق ، فاردت ان أقول ولو فيما لا ينبغي، فامسكت فاطلع على ما كتمت ، وكوشف بما عنه سترت ، فقال لي : يا سليمان ذلك ليس بمطاوع فنطق به قبل ان اظهره له .

وكانت في أيام ابى عبد الله امرأة كثيرة التخدم لتلامذته ، محسنة القيام بمعائشتهم ، وكثير من مهماتهم ، فتزوجها رجل وغاب عنها في نواحي طرابلس في بعض احياء مزاتة ، فأضربها مغيبه عنها ، وبلغ ذلك في الشيخ مبلغا عظيما لكثرة اهتباله بها ، فوجه رجلين الى ناحية طرابلس في شأنها ، احدهما على بن يعقوب ، والآخر عمرو بن يحيى ، واشهدتهما على نفسها انه متى فارقها فقد اسقطت عنه المهر ، فلما استوثقا منها سارا الى جهة طرابلس ، فوصلا الى الرجل فاشهدهما انه خلى سبيلها فكرا راجعين الى أريغ ، ثم انقلب على بن يعقوب الى جبل نفوسة ثم اراد الرجوع ، فمر بقرية خاملة الذكر ، فيها

عجوز يجتمع اليها الناس سألونها عن مسائل دينهم ، ولها
مصلى تصلى فيه ، قال علي فصليت فيه صلاة الصبح مع
أهل المنزل ، فتفرقوا .

خبر الجني الذى قيل انه كلم الناس

ثم جلست أتلو القرآن حتى غلبتنى سنة ، فما ايقظنى
الا صوت قارئ يقرأ بازائى ، اسمع صوته ولا أرى
شخصه ، ثم سمعت صرير ثيابه لها تحرك وهى جديدة ،
فارتعت ارتياعا شديدا ، فقال لى الصائت ، لا تخف فانى
جني ، ممن لا يخشى أذاه ، فسألته عن كثير من الانباء
فاعلمنى بما سألته عنه من الاشياء البعيدة عنا ، ثم سألنى
عن السبب الباعث لى على السفر الى ناحية طرابلس ،
فذكرت له خبر المرأة وبعلها وما كلفنى به الشيخ ابو عبد
الله من اصلاح حالها ، ثم وضع سؤالا فسألنى به ، فقال
كيف ولايتنا لكم ، وولايتكم لنا ؟ فقلت الجواب من عندك
قال نعم اما ولايتكم لنا فبالجملة ، واما ولايتنا لكم
فبالاشخاص ، فسمعت العجوز تجاوبنا ، فجعلت تسبح
وتكثر التعجب ، ثم شكوت اليه ما استقبلته من الحركة
وأتوقعه من خوف الطريق، فقال ، اقرأ هذه الآية : «قولوا
آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل
واسحاق ويعقوب والاسباط،وما اوتى موسى وعيسى،وما
اوتى النبيئون من ربهم ، لا نفرق بين احد منهم ، ونحن له
مسلمون،فان آمنوا بمثلما آمنتم به فقد اهتدوا،وان تولوا
فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »
فكررها علي حتى حفظتها،ولم تقنعه قراءتى معه حتى قال لى:
اقرأ وحدك،فقرأت،قال: الآن قد تحققت انك قد حفظت،
ثم قال : ان لنا موعدا بالجزيرة اليوم ، لا يمكننى المغيب
عنه ، فلا تغب عن هذا المكان حتى اعود اليك ان شاء الله .

فانا لنتحدث اذ طلعت الشمس ، فقال لى : هذا وقت الختمة ، فخذ بنا فى الدعاء ، فقلت له الدعاء من عندك ، فقال بل الدعاء منك لانكم أفضل، فدعوت، ثم دعا، ثم قال زيدى من الدعاء يا عجوز ، فدعت واكثرت التسبيح ، ثم مضى الجنى وانتشر الخبر فى القرية ان الجن تكلم وحار الناس وتنحيت عن الناس بحذاء القرية فى خربة ، ثم نمت فيها ، فلما استيقظت اقبلت أنظر ميعاد صاحبى ، وجئت الى العجوز فاعلمتنى ان الجنى أقبل ، وسأل عنك ، فلم يجدك فناولنى حصيات ، وقال ادفعها اليه اذا جاء ، وقد انصرف وترك الحصيات برسمك ، فهاكها ، فاخذت الحصيات فوجدت عليها خطا رقيقا، لا اكاد أبينه ، فعزمت على التوجه الى ناحية بلادنا ، فسلكت على نفزاوة ، ثم على تقيوس ، ثم قال ، وقد اشتريت كساء طاقيا (I) من نفزاوة ، فلما صرنا فى السبخة التى بين نفزاوة وبين تقيوس من طريق بشرى وتوسطنا السبخة واجهتنا خيل لا نستطيع الهروب منها ، فقصدناها وقصدتنا وانا فى ذلك اردد الآية التى علمنيها الجنى ، فلما وصلناهم حفوا بنا والكساء الطاقى على عاتقى، فردد في أميرهم نظره وصعد فينا بصره وصوبه وقد غشينى زبد فرسه ، فقال لنا من انتم ؟ فقلنا عزابة تلامذة ، فقال امضوا على طريقكم راشدين ، قال ، وقد كنت اتوقع ان يقول ضع الكساء فسلمنى الله ، وذلك بفضل الله وبركة الشيخ ابى عبد الله ، فانى ما تحركت الا مساعدة له وموافقة لمراده ، قال فكانت معى تلك

(I) كذا فى النسخ ، وفى الاصل كتاب « الموجز » كساءة أنطاكية

الحصيات فوصلت بها الى تادمكت لم ازل اتعرف ببركتها فلم ارزأ قليلا ولا كثيرا مذ ظفرت بها .

وذكر يعقوب بن ابى القاسم ان ابا الحسن افلح كان من اصحاب ابى عبد الله وكان ابو الحسن من تلامذة حمو بن اللؤلؤ فاحتاج بنو ورتيزلن الى ان يقوم عليهم ابو الحسن قاضيا ، فقدمه عليهم الشيخ ابو عبد الله قاضيا ، فمكث سنين فيهم قاضيا يحكم بالعدل ، حتى ملوه وضجروا منه، فوقعوا فيه عند الشيخ ابى عبد الله واكثروا الشكوى وكرروا القول ، فلما طال ذلك على ابى عبد الله وكان من جبلته الغيرة على أهل الفضل فاستحضر جماعة بني ورتيزلن ومن يليهم من تلك النواحي وحضروا فى جمع جم ، وحضر ابو الحسن وحلق القوم حلقة واحدة عظيمة فسكتوا طويلا ، فقال لهم ابو عبد الله : ما الذى نقمتم من ابى الحسن ؟ فقال قائلهم ان أبا الحسن يحكم بين بعض منا دون بعض ، فقال الشيخ أكان ذلك يا ابا الحسن ؟ فقال نعم ، فقال لهم الشيخ ثم ماذا ؟ قالوا حكم على رجل بصداق امرأة بغير اقرار ولا شهادة ، فقال له أكان ذلك يا ابا الحسن ؟ قال نعم ، فقال لهم ثم ماذا ؟ قالوا له اختصم عنده رجلان فى شفعة فابطلها من يد القائم فيها ، فقال له أكان ذلك يا ابا الحسن ؟ قال نعم ، قال لهم ثم ماذا قالوا مات رجل بقرانا فأوصى فى ماله بوصية فاستأثر بها أبو الحسن ، فقال أكان ذلك يا ابا الحسن ؟ فقال له سأخبرك بما فعلت فيها ، قال لهم الشيخ ثم ماذا ، فلم يجدوا زيادة . فقال له أبو الحسن : يا محمد أيثبت الحاكم الخصومة فى الارض المشاعة التى لم يتعين لها رب ؟ قال لا ، قال فان هؤلاء القوم حين دخلت هذه البلاد قالوا لى : ما بين فلانة الى فلانة

جملة من الاحكام الشرعية استجوب فيها القاضى ابا الحكم

مشاعة لبنى ورتيزلن ، فجعلوا يعمرون هذه الارض دون ان يسلم بعضهم لبعض ، فهو ما لم احكم فيه بينهم ، ثـم قال : ما تقول فى رجل أقر بالنشوز هل يحكم عليه بالصداق أم لا ؟ قال نعم ، قال اختصم الي الخير وامرأته تازوراغة ، فأقر بالنشوز ، فحكمت عليه بصداقها ، ثم قال ابو الحسن ما تقول فى نخل نبت فى اعلى مجرى العامة هل يحكم فيها بالشفعة لبعض دون بعض ؟ قال لا ، ثم قال ان رجلـــين اختصما عندى فى نخلة هى فى مجرى العامة ، فطلبها رجل بالشفعة من مشتريها ، وهو واحد من تلك العامة ، فلـم احكم له بها . واما أمر الوصية فان الرجل الذى مات من بنى ورتيزلن استخلف امرأته على تنفيذ الوصية ، فقالت لى ارسل معى من يعلمنى كيف انفذ هذه الوصية ، فارسلت معها ولدى فبغلنى انها تصدقت عليه بربع شاة لحما ، ولم أره ، ولم آكله ، ثم قال ان عندى كلاما لا اريد ان القيه اليك ، فقال دع كلامك ، فحلف ابو الحسن ان لا يتكلف قضاء بينهم سبع سنين ، فصاح فيهم الشيخ ، فتفرق كل واحد على جهة ، وقام ابو الحسن منصرفا فقال الشيـــخ ليعقوب بن ابى القاسم اردد أبا الحسن ، فرده ومضى معه الى الغار . فقال الشيخ ليعقوب أنظرنى ، وذلك فى أول الليل ، فلما اصبح لم يخرجا ثم الى غروب الشمس فلـم يخرجا ، ثم الى الصبح فخرجا ، فتوادعا ، فقال يعقـوب فقمت الى أبى عبد الله فقال من هذا ؟ فقلت أنا يعقوب ، فقال : أو انت قاعد هنا الى الآن ؟ فقلت أجل ، فقال ان أبا الحسن لم يزل يسئلنى عن مسائل الاحكام ، ولم يفتر عن السؤال الا اذا قمنا الى الصلاة ، ثم قـال ان جيرانك يصارعون من لا يصرعونه .

ومن الكرامات ما ذكر على بن يعقوب قال : رأيت فى منامى بعد موت ابى عبد الله كأنى اتيت الى تين يسلى ، فسألت عائشة زوج الشيخ عنه ، فقالت لى قد خرج ، فاذا فى ذلك اذ أقبل على فرس ادهم ، فنظرت اليه فاذا هو كحيل العينين ، ناعم الجسم والوجه ، فنظر الي فقال : امض بنا فقلت يا شيخ انى غير ماض بعد ؟ فنظر الي فقال تركتـه للناقضين الذين يموت الدين على ايديهم (I) ، فتوجه نحو المشرق .

ومن فضائله ما ذكر ابو الربيع ان رجلا نفوسيا كـان صاحبا ليكنول بن عيسى المزاتى ، وكان بتاجديت وكـان لازمه ويسعى فى أموره وحاجاته ، حتى ترتب للنفوسي على يكنول عشرون دينارا ، فمات يكنول فى بلاد افريقية فى غير بلاده ، فسار النفوسى فى طلب ماله قبل يكنول ، فلقي المشائخ بتاجديت ، فقالوا له ان يكنول قد مات فى غير بلده ولم يترك وارثا سوى بنتا له طفلة ولم يوص بما ذكرت ، فلما أيس النفوسى من الخلاص على ايديهم ، وسمع بمشائخ أهل الدعوة قدموا الى قسطالية ونزلوا قنطرار وفيهم الشيخ ابو عبد الله محمد بن بكر ومحمد بن الخير وداود بن يوسف وسعيد بن ابراهيم رحمهم اللـه جميعا فى جماعة كبيرة قصدهم النفوسى ، فأعلم الشيخ ابا عبـد الله بقضيته وشكى اليه بعدم خلاصه ، فجمع أبو عبد الله اصحابه وقص عليهم قصة النفوسى ويكنـول ، وما شكى به النفوسى ، فقام داود بن يوسف فقال علي قضاء ديـن يكنول من مالى ، فقال له الشيخ ابو عبد الله اجلس فـلا

مشـائخ يتسابقون الى قضاء دين اخيهم

(I) يبدو فى العبارة نقص ولعل الصواب هكذا : قلت : لمن تركت المذهب؟ فنظر الى فقال الخ

يصح لك الا نصيبك ، ثم قام سعيد فقال كقول داود فقال له ابو عبد الله مثل ما قال لداود ، فقام محمد بن الخير فقال علي دينه لسعة مالى ، فاجابه ابو عبد الله بمثل جواب اصحابه ، فلما رأى النفوسى تبرعهم ورغبتهم ومسارعتهم الى الخير واهتمامهم بقضاء دين يكنول . فقام فقال لهم تركت ليكنول دينى عليه ، فقال له المشائخ اجلس فجلس فجمعوا له دينه .

ومن تحرجه ما ذكر ابو الربيع قال ، دعانى ابو عبد الله محمد ذات مرة ، فقال انى قمت البارحة فلم اجد ما أتوكأ عليه الا هذه الجريدة ولا أدرى لمن هى فاخذتها على وجه الدلالة على العزابة عموما ، فسل عن صاحبها وادفعها له .

الجماعة اولى واهم من الفرد

وتوجه الىوغلانة فوجد بينأهلها تنازعا وتدابرا وفيهم رجل من لواتة يسمى أبد الله من ذرية ابد الله السكاك ، يعنتهم فى الأمور وينزع الى الخلاف والتشاغب ، فقال له أبو عبد الله لما علم انه أحد أسباب الخلاف بين جماعتهم : أعلم يا أبد الله انه ليس واحد أفضل من جماعةغير النبىء عليه السلام ، وأعلم يا أبد الله ان من يتكلم وقد أحتيج الى كلامه فقد ابتلي ببلية ، ومن يتكلم ولم يحتج الى كلامه فقد ابتلى ببليتين .

ضيوف الله اولى بالاكرام

ومن ايثاره وحسن آثاره ما ذكر انه قدم وغلانة وبها جماعة من التلامذة العزابة ، فجلس أبو عبد الله فى ظل النخيل التى عند راس تغرمات ، فأطرفه أبو عمران موسى بن كنون برطب بنى باكور وقثاء ، فعلم رحمه الله ان ذلك لايؤثر به غيره وان العزابة الغرباء قد يكون بهم تشوق

لمثل هذا مما يستغرب فلم ينفرد بذلك دونهم ، فقال لــه يا موسى أعلى تجترأ بمثل هذا ، وتجهم فى وجهه ، فقال وما ذلك ؟ قال تتحفنى بمثل هذه التحفة ومعــك أضياف الله لا يتحفهم أحد بمثل هذه التحفة، وهم أولى من أوثر بها ، فاذهب وادفع ذلك اليهم وطب نفسا بما يقر عيونهم، فقال ان هذا شيء يسير لا يجزى فيهم ، ولا يقوم لهم مقاما فقال بل يقوم لهم أي مقام فجز القثاء على عددهم ، أو أكثر من عددهم ، ثم ضعه على الرطب ، ثم ادفع اليهم ، ففعــل ولا يبعد انه تناول لنفسه مثل نصيب أحدهم لا زيادة ، وكل ذلك ليبقيه سيرة يقتدى بها من رآه ، أو سمع به .

ومن الكرامات ما ذكر أبو الربيع ان الجراد نزل « بتين يسلى » وكاد يتلف ضيعة الشيخ أبى عبد الله ، فدعانى فقال لى : صل الى الضيعة فاقرأ هذه الآية : «سواء منكم من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه مــن أمر الله ، ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم واذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونــه من وال» . ثم ناد ؛ يا من هنا من اخواننا يستعين بالله وبكم الشيخ الضعيف الاعمى ، على دفع الجراد عن ضيعته ، قال ففعلت ما امرنى به ، فانكشف الجراد وانقشع باذن الله ، ونحو ذلك ما ذكر انه كان نازلا بالبادية فى فصل الربيع بالناحية الغربية الى بلاد أريغ، فنفرت بغلة الشيخوصارت متوجهة الى بلاد أريغ ، فلم يستطيعوا ردها ، فقال : قوموا يا اخواننا ردوا على الشيخ الضعيف الاعمى بغلته ، ففعلوا فرجعت البغلة دون ان يردها احد .

ومن حكمه وأمثاله في ذم الزمان وأهله قوله : ان أهل زماننا هذا كالسبخة ، ان أبتلت أزلقت ، وان جفت خدشت وكالتيوس ان اجتمعوا تناطحوا ، وان افترقوا تصايحوا، وقال : قطيعة الرحم كقطع عضو من الجسد ، لا يخاط ، ولا يربط ، ولا يناط .

خروج الشيخ من اريغ

وذكروا ان بني ورزمار طغوا واكثروا من الفساد وقطع الطرق وانواع الاذى ، فاجتمعت جماعة أهل ريغ عند الشيخ ابي عبد الله فوعظهم وذكرهم على حسب ما جرت به العادة في مجالسه ، ثم ذاكرهم فيما تدمر به السالكون في الطرق ، والمستضعفون في الارض من أضرار بني ورزمار بهم ، وانهم ينبغي لهم النظر في حسم هذه العادة ، واكثروا القول في ذلك ، فاجاب قائلهم بان قال : لا طاقة لنا ، وما عسى ان نقدر عليه ؟ فقال لهم الشيخ : نحن نقدر اذا على انفسنا ، فارتحل بأهله وعياله ونزل ايفران من قرى وارجلان ، فاقام فيهم عاما فضاعت أحوال أريغ لفقدهم ابا عبد الله ، وما كان يصلح من أحوالهم وفسادهم ، فاجتمعوا في جمع كثير ، وقصدوه ورغبوا اليه في الرجوع الى موضعه ، وكان من قولهم ان قالوا له : لم تركت ضيعتك وقد اقبلت منفعتها واقبل خيرها ؟ فقال هي عندي وهذه « الزيتا »[1] واحد ـ واشار الى شجر « الزيتا » حوله كانه يراها ـ وما الذ في ضيعتي من فائدة اذا كنت منكم كالفريسة يعتادها السباع من كل مكان ؟ أو لا ترونني اقصد من الآفاق؟ يقصدني العزابة للاستفادة فيقتلون بنواحي اريغ ! وعدد عليهم اشياء قبيحة .

(1) نوع من اشجار البرية قصير لا يصلح لشيء حتى للايقاد فهو كثير الدخان

فلما أيسوا من رجوعه معهم تلك المرة رجعوا، فاجتهدوا فى قطع الفساد جهدهم ، واستعملوا الصلاح ، وتحلـوا بحلية الخير ، وتعاونوا على البر حتى ارتدع عتاتهـم ، وانقمع غواتهم ، فلما بلغه ما هم عليه من الخير وسألـوه الرجوع رجع .

منشأ الخلاف الاستبداد والعناد

وقد كان محمد بن سليمان زاره اذ هو بايفران ورغب اليه فى المسير اليه ، فقال : تصل الى وارجلان فترى الناس ويرونك ويتبركوا بك . فقال : مالى ولقوم عمدوا الى مكتل عظيم فجعلوا فيه القدور والملاقى (I) والشقـف والملاحف ، وخلطوا ما لا ينبغى ان يخلط قال الشاعر :

لا تخلطن خبيثة بطيبة واخلع ثيابك منها وانج عريانا

وعن أبى عبد الله رحمه الله أنه أوصى بعض تلامذته عند وداعه اياه منفصلا الى أهله،فقال : اذهب الى منزلك وأهلك فان وجدت من تقدمه في الامور فتكتفى به فاتبعه، فان لم تجده ووجدت من تتعاون معه فتعاونوا على البر والتقوى ، وان لم تجده ووجدت من يقتدى بك فى الخير فكن اماما ، وان لم تجد من هؤلاء أحدا فألزم الطريق وحدك ، وجانب الناس .

وعنه أيضا قال : خرجنا فى حلقة زائرين أهل الدعوة فلما صرنا فى بلاد الساحل خرج أهل المنزل فتلقونـا ، فادخلونا وأحسنوا نزولنا، واذا فيهم رجل ممن كنت أعرفه من تلامذة شيوخى ، وممن قرأ معى ، واذا هـو قـد لبس

كساء حشميا (١) وفى رجليه قــرق قلعى ، وعــلى رأسه شاشية حمراء ، وفى يده مزراق يرفعه ويضعه ، فأدخلونى المنزل وقد عزمت على هجران صاحبنا المذكور، ثم ان الرجل ادخلنا بيتا وأدخل معنا رجالا من أعوان الجبابرة فأزددت عليه حنقا ، وتضاعف غيظى عليه ، وقلت لابد من الخطة فأكلنا طعاما الى آخره ، وفرغت القصعة ، وجعل الفــور يتصاعد من قعرها ، ولم ار قبلها قصعة تفور بعد فــراغ الطعام ، وذلك لشره الأعوان ، وشدة أكلهم ، وقلة أدبهم وكان ذلك مما زاد فى حنقى وقوى عزمى على هجرانه ، الا انه كان من لطف الله ان حبست نفسى ولم أعجل عليه، قال فبعد انصرافهم ادخلنا بيتا آخر ليس الا فيه العزابة،واحضر طعاما حفيلا فقال كلوا فلعلنا نؤدى بعض حقوق الأسلام وأهله ، . . . . (2) ما تعلق بنا من طعام كنا نأكله مــن أموال أهل الدعوة فى حرمة هذا الاسم ، ثم قال ما دعانا الى ما ترون من مواكلة غير الجنس الا المداراة عليكم وعــلى المذهب ، قال فانحل بعض ما اعتقدت ثم دعونا وانفصلنا الى المسجد ، فلما كان وقت الصلاة الأولى فاذا بالرجل قد جاء ــ وأذن ، فانحل بعض ذلك أيضا ثم جاء وركع ما شاء الله ، ثم أقام الصلاة فلم يجد من يقدمه ليؤم فتقدم ، وأم بالجماعة ، فانحل بعض ذلك أيضا ، ثم دعا فقام وركــع ما شاء الله ، ثم جلس وأخذ الكتاب وجعل يقــرأ ويفسر ما اشكل منه ، فانحل جميع ما اعتقد عليــه ، وحمدتــه واستحسنت حاله ، وحمدت الله اذ لم تكن منى اليه عجلة بنشاط ، ولا معاملة بمكروه .

(١) نسبة الى حشم الرجل اتباعه ومن اصطنعهم ويعنى بهم اتباع الظلمة وذوى الجور من الحاكمين فلهم لباس يميزهم ، وفى نسخة جسيما

(2) بياض فى الاصــل

وعن أبى عبد الله رحمه الله قال مثل الجماعة كالخشبة ومثل من يستغنى برأيه كالوتد الذى يضرب فى الخشبة فتفريق الجماعة انما يكون بسببه ، وذلك اذا استبد برأيه فى أمر تنبغى فيه المفاوضة كان حريا بأن يخطئ فاذا أخطأ فلابد من اجتماع الجماعة للنظر فى أمره ، فاذا اخذوا فى الكلام فى قضيته لم يعدموا من يقوم غضبا للخاطىء يدافع عنه فيكون خاطئا ثانيا ، فهو كوتد ثان يضرب فى الخشبة فى سمة الوتد الاول ، ثم اذا حاول الجماعة النظر فى أمر الوتد الثانى قام الثالث يدافع عنه فهو بمنزلته وتد ثالث في سمة الوتدين ، فعند قيام هذا الثالث تتفرق الجماعة ، ألا ترى ان الخشبة بعد الوتد الثالث تصير اثنين ؟ فلا ينبغى الأستبداد ، فقد ورد عن النبىء صلى الله عليه وسلم انه قال «من استغنى برأيه ضل ، ومن هجم على الأمور عطب » .

رايه فى بعض كتب الفقه

وبلغنا ان محمد بن سليمان النفوسى ومحمد بن غمرة زاراه حينئذ فسألهما عن مقدمهما ، فاعلماه انهما قدما من غيران بنى « اجاج » وانهما بها يدرسان الكتب كتب الفقه ، فاستحسن عكوفهما على دراسة الكتب ، وقرر لديهما ان من يدرس كتب اللقط كمن يهيل أنواع الثمر الى غرارته ، وان كتاب ابى غانم قد أوضح قول كل عالم من مشائخه ، واسنده اليه ، وان اجوبة الائمة هى مخ الفقه ، قلت انما يعنى ان ملتقطات العزابة مختلطة كمن يجمع فى غرارة واحدة من كل نوع من الثمر ، وكذلك هى قد تشتمل ورقة واحدة على مسائل شتى من ابواب شتى ، فلا مسئلة تنتظم مع اختها ، ولا باب من ابواب الفقه يستوعب ويستقصى له فهى قليلة الفائدة جدا والغناء ، كثيرة التعب والعناء ، وان الغانمى قد نظمت مسائله

---

(1) لعل الصواب المقالى جمع مقلات ، والشقف بالتحريك قطع الخزف ، ويعنى بهذا التشبيه اختلاط الاشياء المختلفة وتكدسها بدون نظام أو تصنيف

فى ابوابه منسوبة الى اصحابها ، فمتى حفظت بابا عرفت مسائله ومن قال بها ومستند كل قول منهم ، فهى بالمصلحة عائدة ، قنية باجتلاب الفائدة ، واجوبة الائمة مليحة فى معناها ، فانك تعرف منها وضع السؤال فتفرغ ذهنك لما فى جوابه ، كما فرغ المجاوب خاطره ، واستجم فكرته للجواب عن فصوله مستقصات ، فهى مخ كما قال .

الآخرة تقوم احيانا بالدنيا

قيل وزار ابو محمد بعض اصحابه وقد كان عهده قبل ذلك على حالة سنية ورفاهية ، فرآه فى حالة ركيكة وثياب رثه ، فساءه ما رءاه فيه من سوء الحال ، فقال له ما هذا يا أخى ؟ فقال له نحن فى زمان من فقد فيه دنياه فقد آخرته وكان السلف فى زمان من فقد دنياه لم يفقد آخرته ، فالسعيد من احتاط على سلامة آخرته .

وقدم رجل من لمطة يسمى « منزو » الى اريغ وقصد ابا عبد الله وتاب على يديه ، وتعلم السير ، وسلك سبيل الصلاح ، فكان من حاشية ابى عبد الله ومن المقربين عنده فذكر ان ابا عبد الله ارسله فى غنم له بجبال بنى مصعب سائمة ، فخرج فكانت الغنم تحت يده وله فيها غنم قد جمعها فيها جميعا ، فاغارت خيل بنى غمرة عليه ، فاستاقوا الغنم كلها ، فاتبعهم يطلب منهم ان يردوها له ، فابوا ، فألح عليهم ، فاخرج احدهم رجله من الركاب فركله بها ، فتيبست رجله ، بأذن الله ، فلم يطق ردها فى الركاب فلما رأى اصحابه ما نزل به رغبوا اليه ان يحالله فيغفر له ، فامتنع فكرروا الرغبة ففعل بلا نية ، فقالوا لكن نرغب اليك ان يكون ذلك منك بنية ، ففعل ، فانطلقت رجله سوية ، كما كانت أول حال ، فلما تحققوا ما هو عليه صاروا يتجنبون أذاه ، ولا يتعرضون له بمكروه ، فلما

كان أيضا ذات مرة اغاروا عليه ، وعنده غنم الشيخ ابى عبد الله أيضا ، فقال لهم : خذوا غنمى ، واتركوا غنم الشيخ ، فانه افضل منى ، وانما نالنى بعض بركته فأبوا عليه ، فكان عاقبتهم خسرا .

الخوض من جديد فى مسألة الحارث وعبد الجبار

وذكروا ان ابا عمران موسى بن زكرياء رحمه الله ضاق فى الوقوف فى الحارث وعبد الجبار والذين وقع فيهم الاختلاف فقال فيهما عبد الله المدونى بالوقوف لانهما لم يبلغنا صلاحهما الا مقرونا بفسادهم ، فتنازعا فيهما فورد عليهم يوسف بن نفاث فسألاه عنهما ، فسمع مقالة المدونى فقال هذه نكارية بعينها ، واستحسن ما قال ابو عمران ، ثم كان بعد ذلك بايام مجلس آخر حضره جل العزابة المشائخ ، فيهم ابو عمران فسألهم ابو عمران ما تقولون فيمن وقف لكم فى ائمة المسلمين ؟ فأداروا السؤال بينهم حتى انتهى الى المدونى ، فقال من وقف فيهم دون ان تقوم عليه الحجة فلا شىء عليه ، فلم يقنع السائل بهذا الجواب ، ثم قدم عليهم يوسف بن سهلون فسألوه عنها وعلم ما كان من جواب كلا الشيخين ، فقال لهم كفوا عن منازعة الشيخ فلعله لم يبلغه ما تقوم به عليه الحجة فيهما قبل حدثهما ، فكتب ابو عمران الى الشيخ ابى عبد الله سؤالا عن هذه المسئلة وكتب له اخبرنى بما حفظت فيها عن شيخنا ابى نوح رحمه الله فاجابه ما نصه ـ الله أعلم ـ فى الحارث وعبد الجبار ، واما رجل لم يبلغك صلاحه الا مقرونا بحدثه فليس عليك منه شىء والسلام » فلم يقنعهم الجواب ووقف عليه يعقوب بن أبى محمد واسلان فقال اما انا فقد ظفرت بهذا الجواب ولا أبالى في الحارث وعبد الجبار.

تحرج الشيخ من اموال العامة

وعن أبى يعقوب بن أبى عبد الله قال أوصى أبى بألف دينار ثم استكثرها ، وأوصى بخمسمائة دينار ، ثم قال يا يوسف يابنى هذه وصيتى فانفذها ولا جعلك الله فى حل ان دفعت زائدا على اربعة دراهم لشخص ، أى شخص كان ، فانما هى حوطة من أموال أهل الدعوة ، وما اطعمتكم منها عشاء ولا غذاء الا أنهم ربما أرادوا وجها فصرفته فى غير الوجه الذى أرادوه .

ومن تواضعه ماذكر ياجر بن جعفر قال كنا فى حلقة أبى عبد الله نقرأ عليه ، فكان العزابة أرادوا كنس الغار فكنس معهم الشيخ أبو عبد الله وجعل يرفع معنا الكناس على عاتقه فقال له يوما بعضنا وهو ينقل معنا : اقعد ياشيخ فان العزابة يكفونك ، قال أو يحملون علي ذنبى ؟ فكان يرفع قليلا قليلا جهد طاقته ، فقلت له ارفع اذا أكثر من هذا ، فقال لو كان رأيك يؤخذ لأخذنا به آنفا ، وكان أبو الربيع اذا شبه الشيوخ وضرب بهم المثل قال انما مثل أبى عبد الله كما قال : الله تعالى « ولوا الى قومهم منذرين » (2)

وكان أبو عبد الله اذا سئل عن احد فان علم به خيرا قاله ، وان علم غيره سكت ، وتوفى رحمه الله سنة 440 اربعين واربعمائة ودفن فى مقبرة بمقربة غاره فى اجلو وهو موضع معروف بالبركة (1) .

---

(2) يعنى آية سورة الاحقاف ، واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين

(1) لا زال قبره رحمه الله معروفا الى الآن فى مسجد بقرية بلدة عمرو بدائرة تيقورت ، وهو مشهور عند الاهالى باسم سيدى محمد السائح ، والى هذا الوصف تنسب ذريته فى الناحية حسب ما افادنى به بعض الشيوخ الافاضل

أبو يحيى زكرياء ، وأبو القاسم يونس

ومنهم الشيخان أبو يحيى زكرياء وأبو القاسم يونس بن أبي زكريا. فصيل بن أبي مسور اليراسني رحمهما الله ورضى عنهم اجمعين لما علم الشيخ أبو عمار نجابة هذين الشيخين وتصرفهما فى فنون المسائل ، وسبقهما فى حلبة الفضائل ، اثبتهما فى طبقة شيخهما الذى قرآ عليه ، واستمدا فى رواية العلوم اليه ، لعلمه بانهما لم يقصرا عن مداه ، ولازاغا عن هداه ، بل الكل فرسان حلبة وكلهم سابق ، والساعى فى اثرهم لاحق او متلاحق ، ولكل واحد من هذين الشيخين مزايا ، وسجايا يالها من سجايا ، جود كالسحاب ، ودعاء كالشهاب ، وحسن سلوك الطريقة ، وحفظ العلوم الحقيقية ، والتمسك من عرى التقوى بالاسباب الوثيقة ، وما عسى يقال فى هذين الشيخين وهما فرعا تلك الجرثومة ، والناميان فى اكرم ارومة ، فطاب منها الخبر والمخبر ، وكيف لا والاب فصيل والجد أبو مسور وقد تقدم فى أول الكتاب من فضائلهما فصول ، كلها فضل وما عداها فضول .

حكم طهارة ما صنع من نبات الارض

ذكر أبو الربيع ان أبا زكرياء يحيى بن كرنان قدم الى ناحية طرابلس زائرا ، وكان بها زكرياء بن فصيل فاجتمع الناس يوما على ابن كرنان يسألونه عن امر دينهم وذلك فى مجلس محفل عظيم . وكان ممن حضر هذا المجلس زكرياء بن فصيل ، فسأل ابن كرنان سائل عما يعمل من نبات الارض كالحصير وما اشبهها هل تطهره الشمس اذا اصابتها نجاسة؟ فقال نعم تطهره الشمس ، فقال أبو زكرياء :

ليس هذا الجواب من المعمول به يا شيخ ، كانه لم يرض بهذا الجواب ، فقال ابن كرنان بل المعمول به وكرر صحته وكرر ابن ابى زكرياء المنع، فقال ابن كرنان فان الذى يقال فى أولاد الشيوخ انهم غير منقادين صحيح ؟ فقال ابن ابى زكرياء هل علمت ان عقبة المستجاب (1) قال لاولاده : اياكم والمرخصين لئلا تفارقوا دينكم وانتم لا تشعرون .

اخوة تصل الى حد الدلالة والتدلل

وذكروا ان ابا القاسم يونس بن ابى زكرياء وابا نوح صالح قدما على ابىمحمد عبد الله بن مانوج زائرين له،فلما اديا حق الزيارة وانفصلا عن موضعه متوجهين الى موضعهما مرا بشجر تفاح قد أينع ثمره واحمر ، والشجر لأبى محمد ، فقال له ابو نوح الم ترها يا يونس حمراء ؟ وكانا راكبين ، فنزل ابو القاسم وخلع ما كان فى رجليه وجعل يمشى فى رمل هنالك ، واكثر المشى فى موضع يتيسر فيه بيان الاثر لئلا يقع الشك فى غيره ، فعمد الى الاغصان واجتنى من ثمارها ما رأى فيه كفاية ، ودفع الى ابى نوح فرد أبو نوح بعضه الى ابى القاسم ، وسارا الى أهليهما ، فجاء ابو محمد فقال : هذا اثر ابى القاسم ، وهذه منه دلالة لم يستبدل عندى ، ولم يزل مثله يدل فى مال اخيه له ولغيره ، وذلك يثبت المودة بينهما فقد حكى عن ابى عبد الله رحمه الله ، انه قال من كان له اخ كاخى حاجب فليأكل وليرفع .

وكان ابو القاسم ممن يزور ابا محمد عبد الله بن مانوج فزاره مرة فتواردا ما يرد بين امثالهما ، فقال ابو القاسم لابى محمد ان وكيلك على الحج قد اخذ واخذنا معه

(1) فى نسخة ـ ب ـ عقبة المستجابة

فان اذنت لنا ان ننظر اليك شيئا تستعين به فعلت، فنظر له خمسا وعشرين دينارا ليدخرها لقضاء فريضة الحج ، واراد ان يحدب عليه فلم يقبله ، واستحسن أبو محمد ايثاره على نفسه ، وذلك لحسن ظنه ولا عجب فى مثلها من مثلهما رحمة الله عليهما .

الشيوخ الثلاثة الكنوميون

ومنهم الشيوخ الثلاثة ابو عبد الله محمد بن سودرين وابو محمد عبد الله بن زورستن وميمون حمودى ابن زورستن الوسيانيون ، ثلاثتهم من أهل كنومة رحمهم الله كان هؤلاء النفر الثلاثة علماء زمانهم ، وفخرا لاخوانهم ، وطرازا لمكانهم ، درسوا علوم النظر وأتقنوها ، واحرزوا معانى الالفاظ بصيانة الكلام . ودونوها ، فلم يقدم حينئذ من المخالفين مجادل ، ولا نجم من خيالهم مناضل ، وهم لبنيان رتبة الحلقة دعائم ، وعندهم ابتدأت وقامت ، فكانو لها من القوائم بعد ان جالوا فى تحصيل العلوم وطلابها ، واخذوها كما يجب عن اربابها ، فكانوا بدورا بأفق تقيوس ، تميل بهيجة بهم النفوس .

ذكر ابو الربيع ان ابا محمد توجه الى ابى صالح فسار هو واصحابه حتى وصلوا وسط السبخة التى بين نفزاوة وقسطيلية فرأى ابو محمد فى السبخة شخصا اسود ، فحين رآه على بعدظن انه غراب ، فقال لأصحابه ما ذلك الشخص فيما تظنون ؟ فلما نظروا الى الشخص تسارعوا اليه ، فاذا الشخص أمة ، فضموها ورفعوها ، واظنها أبقت فذكر انه تكدر من اجلها خاطره وتنكر ، فلم يهنأ له عيش وحار فى وجه تخلصه من هذه الورطة ، فلما وصل جربة قصد أبا صالح الى المسجد ، قال : وحان وقت صلاة الظهر وحلقت

الشيخ يتحرج من تقديم معونة لآبق

الجماعة وناولوني كتابا ، فكنت اقرأ وأفسر حتى جاء أبو صالح وامسكت عن التفسير ، فقالوا له فسر فجعلت أقرأ الكتاب ، فقال لى بعض من فى المجلس : فسر لنا ، وكان في المجلس ابو عمرو النميلي ولم اعرفه قبل ذلك ، قال فطفقت اقرأ فقالوا له فسر لنا يا شيخ فاحال ابو صالح على ابى عمرو النميلي ، فكنت اقرأ ويفسر فاصابني خجل لما فرط مني اذ تكلفت التفسير بمحضر منه ولم اعرف مكانه قال ابو محمد ثم سألت ابا صالح عن مسألتى ـ أعنى ـ تلافى الامة وكنت السبب فى تلافيها (1) واوضحت له المسألة ، طلبا ان يدلني على الخلاص فقال لى لا بأس عليك لانك لم ترد الا خيرا ، وما تعمدت اتلاف مال احد ولا اتلفته انت .

وذكر عن ابى محمد انه فتى ابى نوح المقرب من تلامذته ، صاحبه فى اسفاره وكان له مواتيا موافقا ، كان المشهور من اسمائه ان يقال له فتى ابى نوح ، كيوشع بن نون وموسى عليه السلام، فذكر انه صحبه ذات مرة الى بنى كطوف الذين حول تملى فألفاهم حين ظعنهم ، وتمادوا فى رحيلهم ، فتبعهم الشيخ حين نزلوا ، فنزل الشيخ عن فرسه فارسلها فى المرعى ، فلها أهل الحي فى اشغالهم وغفلوا عن الشيخ حتى ضاق صدرا من قلة التفاتهم ، فقال لفتاه : اردد الي فرسى فان دين الله اعز من هذا ، قال الفتى : فقمت الى الفرس لازاوله واصلح هيئة ركوب الشيخ ، وعينى ترمى الى أهل الحى ، فرايتهم اجتمعوا بجمع يسيرون الى الشيخ مسلمين معتذرين ، فلما اقبلوا قدت الفرس واقبلت أمشى لمشيهم حتى التقينا عند الشيخ ،

دين الله اعز من هذا

(1) تحرج من ذلك لانها آبقة والعبد الآبق لا يؤوى ولا تقدم له المعونة

وصافحوه واعتذروا فقبل عذرهم ، ثم أني اخبرته بما كان مني من مماطلة وما اقتضته سياستي في ذلك فقال احسنت يابني ، وناهيك .

وذكر ان أبا نوح كان اذا سئل عن مسألة في الفقه يجاوب بان يقول روى فيهاهذا الفتى عن ابي صالح كيت وكيت ، ويشير الى ابي محمد عبد الله بن زوستن ، وعن ميمون بن حمودي قال كنت اقرأ على بعض شيوخي حتى ظننت اني قد استفدت ووعيت ما عنده من العلم ، حتى سمعته يوما يقول : رؤية المديان غريمه فيه تقاضي بعض دينه ، فلما قال ذلك ولم اسمعه قبل ذلك قلت : لا تدرك للعلوم غاية ، قلت : وهذا الكلام انما اخرجه فيما يلوح بخاطري ان المديانين انواع ، وطبائعهم تختلف ، فبعضهم اذا اراد الغريم تقاضي دينه منه تقاضاه بعنف واغلاظ ، هذا اذا علم فيه لددا ، وبعضهم يتقاضاه منه بكلام لين دون التقاضي الذي وصفته ، وبعضهم ينظر اليه الغريم نظرة يفهم منها التقاضي فتقوم عنده مقام مطالبة بابلغ قول واشد اقتضاء ، هذا اذا كان ممن يستحي ويتقي على عرضه ودينه، فالدين الذي يكون على من هذه صفته هو الذي عني الشيخ ، وهذا مقصده ، والله اعلم ، الا انه استوفى بعض حقه ، والله اعلم .

للعزماء طبائع مختلفة

وذكر عن ابي يعقوب شيخ كان بنفوسة أمسنان ، انه كان مقصدا للمبتدئين فاذا انتظموا في حلقته علمهم السير وآداب الصالحين ، ثم ينقلهم الى محمد بن سودرين فيجرون قراءة القرآن ويتعلمون اللغة والاعراب ثم ينتقلون الى ابي عبد الله بن بكر فيعلمهم اصول الدين ، والفقه ، فكان العزابة في ذلك الزمان يشبهون الشيوخ الثلاثة بثلاث

تعاونهم على تخريج الطلاب في ثلاث مراحل

نجارين احدهم يحسن قطع الخشب من الشعراء ، والثاني يشقها وينشرها ، والثالث يركب الالواح ويسمرها فيما يصلح بين الادوات .

وعن ابى عبد الله محمد بن سودرين انه قال : بينما انا امشي فى بلاد الساحل اذ رأيت بابا مفتوحا ورأيت ناسا يدخلون ويخرجون فقصدت اليهم ودخلت ، فوجدت بيتا مفتوحا ، واذا برجل جالس فى دكان فكل من دخل ناوله الرجل دينارا ، فدخلت فناولنى الرجل دينارا ، فاخذته فسرت غير بعيد ثم راجعت نفسى لائما لها ، مقبحا لفعلى ، ثم رجعت اليه فقلت له ، انا على غير مذهبك ، فنظر الي متبسما وزادنى دينارا آخر ، الا ترى انه لم يقبل صلة من ظن انه مخالف حتى تحقق بتلك الزيادة انه اهل لصلته.

اختل الامن فى زمنهم حتى سقط فرض الحج

وذكر ان ابا يعقوب بن أبى عبد الله تذاكر يوما مع أبى محمد فبسط أبو محمد القول فى ذم الزمان وعدم الاخوان ، فقال له اكسب يا أخى من المال ما شئت ، فلا أرى الحج الا وقد سقط عنك لانقطاع السبيل ، وجور اهل هذا الزمان ، قلت وقد صدق رحمه الله فان فريضة الحج الاستطاعة ، فاذا انقطع السبيل فكان من الجور ما يجحف بالمسافر فى زاده فقد عدمت الاستطاعة ، وسقط فرض الحج . وميمون ابن حمودى هو الذى يروى عن هود بن محكم انه جاءه رجل من العزابة يستعين فى افكاك كتب له مرهونة عند رجل نكاري فى خمسة دنانير ، فدعا هود رجلا فقال له سر مع هذا الرجل الى احياء مزاتة فاعلمهم بما جاء به ، فأعلمهم وتسارع الرجال والنساء كل يجمع ما امكنه من دنانير ودراهم ، حتى اجتمع مال كثير ، فجاء به الى هود ، فقال له يا شيخ هذا ما فتح الله

تسارع مزاتة الى الخير ومساعدة اخوانهم

على يديك ، فانت اولى بـه واحوج اليـه لكثرة مؤن من يقصدك ، فاخذ من ذلك كله خمسة دنانير وترك الباقى ، وزعموا انهم عند ما تداعوا لأعانة الرجل بسطوا بساطا وجعلوا يلقون فيه حتى كـاد يضيق عـن زيـادة ، حتى ناولوه وضموا اطرافه ، وناولوه معه ، فلا ادرى أميمونا أم هودا قال حينئذ : صدق الامام رضى الله عنه فى قوله المشهور بقيام هذا الدين باموال مزاتة (1) .

حكم اخذ الاجرة على تعليم القرآن

واجتمعت بوارجلان بالمسجد الكبير جماعة فيها اهل الدعوة منهم أبو عبد الله محمد بن بكـر وابن سودرين وابن زورستن وعبد الله المدونى فسألهم رجل عن مسئلة وهى، الاجرة هل توخذ على تعليم القرآن ام لا ؟ فتدافعوا السؤال بينهم ، فقال عبد الله المدونى اجب الرجل عـن مسئلته فقال له نعم توخذ الاجرة على تعليم القرآن ، فان لم توخذ عليه فعلى ماذا توخذ ؟ أعلى رعي البقر ؟ ! فسكت الفقهاء توقيرا له ، مع انه لم يحسن العبارة تأدبا منهـم وفضيلة ، قلت وهذا الجواب غير معروف بالمذهب ، والذى انكر من الاجارة على رعي البقر فهذه الاجارة لاخلاف فى جوازها ، وكان ينبغى ان يقول بما فى المذهب من جواز الاجرة على تعليم الادب والخط . وصناعة الكتابة وادواتها دون ان يكون للقرآن ثمن ، والعذر عنه رحمه الله كره ان يقول لا تجـوز فيكون ذلك ذريعـة الى تـرك التعليم فيفضى ذلك بالناس ان يكونوا اميين لا يعلمون الكتاب ، يقول : فاذا جاز لراعى البقر الاجـرة وهـو ياخذها على اصلاح احوال الدنيا فالذى ياخذها بسبب اصـلاح الآخرة أولى .

(1) راجع ذلك فى اول الكتاب فى الحديث عن امامة عبد الوهاب

أبو محمد عبد الله بن مانوج

ومنهم أبو محمد عبد الله بن مانوج اللمائى رحمه الله . احد من نظر (1) ، فابصر واستبصر ، وذكر حينا فتذكر تلافى الفوات بعد حين . واعتاض الاجهاد بما ضيع عدد سنين . واطمأن بعد الحزن الى السهولة ، وعالج ما يعالج الشاب وهو فى الكهولة ، يسر الله له الورود من منهل الوعظ الفاظا فارتوى ، وبادر ولم يتباطأ ، وجد ولم يثن عن طلب الخير عنانه ، ولا أزاح من الاجتهاد فكرته ولاجثمانه ، حتى أصبح من العلم مفعم الوعاء ، ومن القرب من ربه أهلا لاجابة الدعاء .

شيخ حكيم يوثر فى ابن مانوج ويوجهه

ذكر أبو الربيع ان أبا محمد عبد الله بن مانوج تاب بعد الكبر وسبب توبته انه لقي شيخا من لماية وهو يرعى غنما له ، فقال له الشيخ : اعلم ان غنما ترعاها اللحية هى خير الغنم ، وان لحية تتبع الغنم هى شر اللحا ، فوقعت التوبة في نفسه فتاب . وطلع حينئذ الى المشائخ : أبي مسور ، وأبى صالح ، وأبى موسى عيسى بن السمح ، فمكث عندهم فى الجزيرة ما شاء الله ثم رجع الى أهله فلقى الشيخ المذكور فقال له : اعلم ان الجمال تبرك للحمل عليها ، ولكن تتفاضل فى تبليغ الاحمال ، فرجع الى المشائخ فمكث عندهم ما شاء الله ، ثم رجع فلقى الشيخ المذكور فقال الشيخ : اعلم ان الغدران كلها تاخذ الماء وانما التفاضل فيما يبقى فيها الماء ، فرجع ثالثة الى المشائخ فمكث عندهم ما شاء الله يقرأ العلم ، حتى تفقه. وهو أحد الفقهاء السبعة المشهورة نسبتهم الى غار أمجماج (2) .

(1) فى نسخة (أ) أحد من بصر فابصر بالبناء للمجهول ، وهو انسب لما سيذكره بعد

(2) سياتى الحديث عنهم فيما بعد

اخبار عن قناعة الشيخ وجوده

ومما يذكر من قناعة وقلة تعلقه بعلائق الدنيا ما ذكر أبو الربيع ان عبد الله بن مانوج لم يستسلف من احد شيئا قط غير دينار واحد ، استسلفه مرة ورده بعينه الى الذى استسلفه منه ، وليس منه هذا استغناء بل رضى بما قسم الله له . قال ، ومع قلة ماله فان ضيافته لا تزال حفيلة لا فضل عليها لضيافة ذوى اليسار ، ومن ذلك ما ذكر أبو الربيع ان راعى غنم أبى محمد بن مانوج قدم عليه فسأله عن حال الغنم فقال : هى صالحة الحال . وان وهب الله لها العافية الى قابل فستكمل مائة ، فقال أبو محمد لا أحب ان تكون مائة ، كما لا أحب ان أكون يهوديا .

ومن اجتهاده ما ذكر انه لما كبر وضعفت قواه وكان أعمش وكان يضر بعينيه مرور الماء عليهما ، فكان اذا وجب عليه الاغتسال غسل جسده كله الا وجهه ، واذا توضأ امر الماء على اعضاء وضوئه الا وجهه ، ويتيمم فى كلا الامرين فى مقابلة غسل الوجه ، فكان دأبه على ذلك ، يتخذ مستحما فى كل ناحية من نواحى خيمته الاربع بسبب الرياح ، فقيل له فهلا اكتفيت بالتيمم ؟ فقال تلك مسئلة «العجزانين» لا آخذ بها .

تحرج الشيخ من الاموال المجهولة

وذكر انه زاره مرة أبو عمران موسى بن زكرياء فتذاكرا فى أنواع من الفوائد ، وصنوف من العلم ، حتى افضت بهم المذاكرة الى ذم الزمان ، وما صار الناس اليه من ضيق الحال ، والتحرج مما يدخل على الناس ، وهم لا يعلمون او يعلمون ، فقال احدهما للآخر اكثر ما عاش الناس،عليه اليوم حمل الاشياء على احسن وجهها . وقال الآخر انما ينبغى ان يرتكب ذلك فى احوال الطهارة

والنجاسة ، واما فى اموال الناس فلا ، واستحسن الآخر ما أتى بـه .

وسئل عن العبادة ما هى ؟ فقال : النية والاخلاص لا ما يتخيلونه من الاجتهاد فى القراءة وغيرها ، اذا لم يصحب ذلك تقوى الله . الا ترون ان داود يقيم الفتن ويقعدها وهو يحفظ ما بين الدفتين واكثر ، قصده فى ذلك ما يقدم به ابنه عما هو ليس بسبيله ، وكان ينهى بنيه عن معاضدة داود ومساعدته ، خوفا ان يصيبهم ما أصابه ، ولم يزل متكدر النفس من أجله ، لسلوكه غير طريقة ابيه ، حتى عادت عليه بركته ، فالهمه الله الرشاد وتاب عما كان عليه ، وحسنت توبته بهمة الشيخ .

العبادة هى التقوى والاخلاص

وذكر الشيخ ماكسن بن الخير قال لما توجهت الى جربة برسم الطلب كان طريقي على الشيخ أبى محمد عبد الله فاستشرته فى أى فن أبتدئ فيه القراءة ، الكلام ام الفروع ؟ فقال : يا بنى اقرأ كليهما ، فقلت : ارأيت ان كان ذهنى يقصر عن ذلك ؟ قال : فدينك اذا يا بني يشير الى علم الفروع ، والله اعلم .

وذكر ان عبود بن منار زار ذات مرة أبا محمد ، فقال له يا عبود انك لعظيم القدر عندى ، فكيف حالك يا عبود ؟ فقال بخير يا شيخ ، الا انه علي ديون ، قال له أيكون عليك الدين وتزورنى ؟ ابعد عنى يا عبود ، فانفصل عنه واتى الى موضعه فقال لعلى بن يخلف اخى سليمان الفقيه بادرنى يا على بما يخلصنى من هذا ، فاتاه بمن اشترى منه قطعة غنم وعبدا، أو مطمورة شعير ، فقضى دينه ، فبعد ذلك بايام اغارت عليه غارة للنكار

لا يرضى منه ان يزوره وعليه دين

خرج بها رجل منهم يعرف بمنصور بن فلديك يلقبونه فى «زريق» فدافع عبود عن نفسه وماله واهله ، حتى قتل شهيدا ، فكانت زيارته لابى محمد فضلا من الله ونعمة . قيل فرآه بعض اهل الصلاح فى منامه فقال مضيت وتركتنا يا عمى ، فقال لا تقل ذلك فانى تركت فيكم سليمان بن يخلف نذيرا بعدى .

وصية لعمروس الزواغى

وزاره مرة عمروس بن عبد الله الزواغى فسأله عن حاله فاعلمه انه صالح الحال ، فكان مما قال له يا عمروس اجعل تقوى الله جنة فانها خير جنة ، وأحسن معاشرتك للناس ، فقال له أى الناس ؟ فقال أحسنت ، وفهمت ، الناس هم الصالحون .

يختار ان يترك الناس قبل ان يتركوه

قال أبو الربيع كان أبو محمد يقول بعد ما كبران من العلماء من يقول ان العالم اذا أحس بعقله ضعفا لعلة أو لكبر فلا يجوز له ان يفتي ، وانا آخذ بهذا القول وأترك الناس قبل ان يتركونى ، وكان قد اخر الله فى اجله فلم يعرض نفسه لما يجر عليه نقصا .

أبو جعفر احمد بن خيران

ومنهم أبو جعفر احمد بن خيران الوسيانى ، رحمه الله ذو الاجتهاد العظيم ، والتشمير والتصميم ، الثابت على الورع وملازمة المنهاج القويم ، العامل بما يرجو فيه خلاصه ، المؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة ، ليس بكثير في العلم ، ولكنه حاز من التقوى الخلاصة . كان أبو عبد الله محمد بن بكر يقول لاهل الدعوة من اهل قسطيلية : قطع عذركم أحمد بن خيران ان زعمتم انكم

قطع عذركم يا اهل قسطالية احمد بن خيران

مقلون فكذلك هو ، وان زعمتم انكم مسلك ومسكنكم فى بلاد قائمة الاسواق ، فكذلك هو .

اهتمام الشيخ بالضيف وابن السبيل

وكان من عادته تأخير المشاء الى صلاة العتمة فاذا صلى نادى فى المسجد « أهاهنا ضيف ؟ ألا لا يبيتن احد دون عشاء ، ثم لا يفته ذلك حتى ينتظر انصراف النـاس ، فاذا انصرفوا طاف على زوايا المسجد بعكازه يفتش هل من طارق ؟ هل من ابن السبيل .

وذكر عنه انه دفع لجنان جنته فى ابان الزراعة زريعة على أنه يزرعها ، فكان اذا اتى من الجنة يسأله كيف حال الزراعة ؟ فيقول : بخير يا عمى ابا جعفر ، فلما كان يوما من الايام وقد فات وقت الزراعة خرج ليرى زرعه فلـم يجد شيئا ، فقال للجنان : ما هذا يا فلان ! ! فتلقاه بكلام مغضب قبيح، فقال له يا عمى يا ابا جعفر اتظن انى ازرع لك الزريعة ويموت أولادى جوعا ؟ فخرج وهـو يقول سلاما سلاما امتثالا لقوله تعالى : « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » فلم يسمع منه الجنان ما يسوءه .

سمـاحة الشيـخ وسعـة صـدره

قال ابو الربيع سليمان بن يخلف مررت انا وخالى عبود بن منار بابى جعفر ، فاخرج من جيبه صريرة فيها دراهم فقال : خذا هذه الصريرة فاذهبا بها الى السوق واشتريا بها خبزا نقيا لغذائكما ، فقلنا : لا انا قد تغذينا واكتفينا ودعونا له، فقال الحمد لله رب العالمين ، ثم اعاد الصريرة الى جيبه .

أبو الخطاب عبد السلام

ومنهم أبـو الخطاب عبـد السـلام بن منصور بـن ابى وزجون المزاتى رحمه الله ممن انتفع بكثرة الاجتهاد

وانتفع به كثير من العباد ، احد نجباء تلامذة ابن زنغيل والحادى حدوده فى كثير من الفعل والقيل ، وكان احد من رتب الحلقة وابتدأ الاساس ، واحكم لها الامراس وهجر الاهل رغبة فى العلم والدين ، وخدم الهدى فكان من المهتدين .

ذكر ان عبد السلام كان مع التلامذة بكنومة فى أيام ابتداء ترتيب الحلقة على أبى عبد الله ، فكان يتحرى مجالسة الصلاّح ، وينتهز الفرصة اينما سنحت ، حتى عرفت له هذه الشنشنة ، وتناقلها عنه ألسنة ، وكان بها الشيخ ابو محمد يوجين اليفرنى ، فقال له : يا عبد السلام ، يا بنى ، اريد ان يكون رقادك فى موضع اعرفه ليتأتى فيه ايقاظك عند خروجى الى الوضوء فكان عبد السلام يطيل القعود فى المجلس للقراءة ، فاذا قام من المجلس ذهب الى الموضع الذى يعتاده فيه الشيخ ، فاذا نام قليلا جاءه الشيخ فايقظه ، فيقول له يا عبد السلام يا بنى : انما نال الصالحون ما نالوا بتركاللذات ، والنوم من اللذات .

انما نال الصالحون ما نالوا بترك اللذات

قال فلما ارتحل الشيخ ابو عبد الله باهله وتلامذته الى ريغ قال لعبد السلام ، يا عبد السلام كن معى ، فان من يقصده الناس بحاجاتهم كمن دخل فى الحرب ، لاغنى له عمن يؤيده ، ويرعاه ، ويرفده ، ويداوى جراحه ، ويسد خلله ، والا كان هلاكه وشيكا ، فاجابه الى ذلك ، وانكحه ابنة ابى القاسم ، فمكث بذلك ما شاء الله .

مؤازرة الشيخ للامام ابى عبد الله

ثم سار الى عشيرته زائرا فلما وصل اليهم ، قالوا له ان كنت تتركنا فانا لا نتركك ، فكن معنا كما كان أبوك

محمد بن بكر يهجر اهله ويقيم بينهم ليحيى الدين

لتحيى ما كان احياه من الدين ، والا كنت مسؤولا عنا ، واعلم انه لاغنى لنا عنك ، فاجاب رغبتهم ، واعتقد المقام فيهم ، فانكحوه زينب بنت ابى الحسن ، واقام حينا ثـــم انحدر الى اريغ واستصحب ما يتسر من صداق بنت ابى القاسم ، فقدم على الشيخ ابى عبد الله واعلمه بما كان من رغبة قومه فيه ، وانه قد قضى الله بفراق ابنة الشيخ وقد جئت بما امكن من صداقها ، والباقى ان شاء اللـــه أوفيه ، فاخبر ابو عبد الله ابا القاسم فقال ، معاذ الله ان نأخذ من عبد السلام عرضا من اعراض الدنيا وانما جمع بيننا وبينه الدين والتقوى ، لا الطمع فيما نناله منــه ، اشهدوا انى قد تحملت جميع ما وجب لها عليه ، وتركته له ، فلم يقنعه ذلك حتى ابرأته المرأة من نفسها ، مـــن جميع ما كان لها عليه من صداق ، فلما تخلص بعضهمـا من بعض قال له الشيخ يا عبد السلام ما حصلت ؟ كأنــه يشير عليه بالاقامة معه ، فلم يمكنه ذلك ، فرجع الى أهله واقام فيهم حتى ارتحلت زناتة الى طرابلس ، وارتحلـت معه مزاتة ، فكان عبد السلام معهم مدة اقامتهم ، فلمـا انقلبوا الى افريقية قصد عبد السلام الى جبل نفوســة فاقام هنالك حينا ثم سافر الى المشرق للحج فقضى الفريضة فلما رجع انتقل الى قسطالية فسكن قلعة بنى درجـــين ، فكان فيها مرفها .

وكان حينئذ كثيرا ما يقول لزينب : يوشك ان يغلــب بنو العلم على بناتك يا زينب ، تعرض لهـــا بالنظــر الى زوجة ليهب الله له منها ولدا ذكرا وكان حينئذ كثير البنات فجرى من قدر الله ان وقعت مجاعة فى بـــلاد طرابلس وسنة شديدة ، تسمى سنة فرورار سنة ثلاثين واربعمائة

فانجلى اهل طرابلس فى الآفاق ، ووقع رجل من ورغمة فى قلعة بنى درجين ، فنزل الورغمى فى جيرة دار عبد السلام ، ومعه عياله وله ابنة ، فاستحسنت زينب صورة بنت الورغمى ، فخطبتها على بعلها ، فتزوجها ، وسكنوا معه فى دار واحدة، فطلع هو وزوجته الى افريقية، ووصلا الى مزاتة ففى مغيبهما نزل عسكر لصنهاجة على قلعة بنى درجين فحاصرها حصارا شديدا ، وذلك سنة اربعين واربعمائة ، فلما اشتد عليهم الحصار ولا صريخ لهم خرجوا عليهم خروج رجل واحد يقاتلون ، حتى قتلوا عن آخرهم ، واستبيح ما فى القلعة ، وهدمت ، فخرجت امرأة ابن ابى وازجون معها بناتها ، وجعلت تنادى يا آل مزاتة فسمع دعوتها رجلان من العسكر فحاطاها وبناتها حتى تخلصن ولم ينكشفن ، فقدم عبد السلام فوجد احوالا لم يستقر له معها قرار ، فاجمع على الارتحال الى سوف ، فتسامعت به بنو ورتيزلن فسارعوا اليه بالحمولات ، وارتحلوا به الى اجلو ، فمنحوه ارضا عظيمة فعمرها .

انتقال الشيخ الى اجلو بعد فتن وقحط فى طرابلس

محاصرة قلعة بنى درجين وتهديمها

وولد له من الورغمية ولد فسماه سعيدا، فلما بشر به قال : ولد الشيخ يتيم ، انما قال ذلك شفقة ورقة أو لعله كوشف له بابن سيكون يتيما ، ويمكن ان يكون قال ذلك لئلا يظهر عليه الاشر ، لانه سر به سرورا عظيما ، ومن هذا المولود تنوسلت ذرية هذا الشيخ .

وكان حين قدومه اريغ وجد ابا عبد الله محمد بن بكر فى آخر ايامه ، فزاره عند احتضاره فوجده فى السياق فجعل يتأسف ويظهر الجزع لفراقه ، فقال له رحمه الله : يا اخى اقصر عن هذا ، ولكن الدعاء الدعاء ، فصار يكررها حتى قبض رحمه الله .

حزن الشيخ على موت الامام محمد بن بكر

وكان عبد السلام يقول بعد موت ابى عبد الله ، انما مثلى كمثل رجل يسير فى يوم شديد الحر ، فبينما هو يمشى اذ وقعت له شجرة عظيمة فقصدها جاريا ليتفيأ ظلها ، ويتقى بها حر الشمس ، فلما وصل اليها اقتطعت فازيلت فبقى ضاحيا .

وذكر ان عبد السلام اشترى بافريقية خرافا من السوق فلما استوجبها وجاء بائعها ليقبض الثمن قال له : (ارا) ومعنى هذه الكلمة بلغة صنهاجة : هات ، فغلب على ظنه انه صنهاجى ، فدفع له ثمن الخرفان ثم تصدق بها ، ولم يستجز اقتناء غنم غلب على ظنه انه اشتراها من صنهاجى (I) .

وذكر ابو نوح ، ان اهل امسنان سألوا عبد السلام عن رجل زنى بامرأة وأقر على نفسه بالزنا ، ما الحكم الذى يجرونه عليه ؟ فقال ادخلوه المزبلة وارجموه ، ففعلوا ، فلما فرغوا عنه ، وحضرت صلاة الجمعة صلى ركعتين بخطبة ، ثم قال ان الكتمان يأخذ من الظهور ، والظهور لا يأخذ من نفوذه فتدخل احكام الظهور حينئذ فى ايام الكتمان ، يعنون أهل الظهور لا ينبغى لهم ان يدخلوا تقية فى شيء من الاحكام التى تلزم أهل الظهور ، ففعلوا ما لا يحل فعله الا فى الكتمان ، والكتمان حينئذ لا تدخل احكامه فى الظهور (I) .

(I) مما يذكره المؤرخون ان قبائل صنهاجة هى التى ايدت أمراء العبيديين وخلفائهم بشمال افريقيا . كآل زيرى وآل حماد ، وكانوا لا يتورعون من مصادرة الاموال ونهبها وسلب من يرونه يستحق ذلك عن حق او باطل ، ولو كان مسلما ، فلذلك تورع الشيخ رحمه الله من التعامل مع الصنهاجى .

(I) صلى الشيخ ظهر يوم الجمعة ركعتى (أى صلاة جمعة) لان الاباضية لا يوجبون صلاة الجمعة الا مع الخليفة العادل الذى يقيم الاحكام الاسلامية ، ويعتبرون صلاة الجمعة من جملة مظاهر الدولة المسلمة المرتبطة باحكام الاسلام ، هذا رأى القدامى منهم .

الشيخ أبو عمران المزاتي

ومنهم ابو عمـران موسى بن زكرياء المزاتي رحمـه الله ، رأس من رؤوس المذهب واعلم علمائه ، وشمس من شموسه الكاشفة لظلمائه ، العلم والادب حليته ، والكرم والصبر سجيته ، شيمته تفوق الشيم ، أدرك المشائـخ وروى عنهم العلوم والآثار ، وسادت تلامذته فكل منهـم منير في الدين ومنار ، وله كرامات مذكورة ، وبركـات مشهورة . ولنذكر معه هاهنا اهل غار امجاج السبعـة اذ كان رأسهم على ان منهم حينئذ الشيوخ والشبان ، لكنهـم لما ضمهم مضمار واحد . جرى ذكرهـم هنـا في نسـق ، وأجروا في ميدان ، ولجميعهم فضيلة في هذا الفن وشأن من الشأن .

المشائخ السبعة و تاليفهم للديوان

وهم ابو عمران موسى بن زكرياء هذا ، وجابر بـن سدرمام ، وكباب بن مصلح ، وابو جبير المزاتي ، وابـو عمرو النميلي ، وعبد الله بن مانوج اللمائي ، وقد تقدم ذكرهما ، وأبو يحيى زكرياء ، بن جرنان النفوسي رحمهم الله ، وسبب نسبتهم الى غار امجاج انهم اجتمعوا بـه ، وصنفوا تصنيفا في الفقه مشهورا . في اثني عشر جزءا ، فتولى نسخه ابو عمران لما خصه الله من جودة الخط ، فنسب اليه التصنيف ، وليس له ما عليهم فضل سوى فضل البنان والا فهو كأحدهم في فضل البنيان ، شريكا فيما أودعـوه شركة عنان ، ذكروا ان ابا عمران رأى في منامه ان يـده صارت مصباحا فقص رؤياه على معبر الرؤيا ، الماهر في تاويل الرؤيا ، فقال له هذا رجل يحيى دين الله بيـده ، فلم يبعـد .

يتاسف على ثلاثة فاتته

وقال ابو محمد لا اندم على شيء فاتني من الدنيا كندمى على ثلاثة اشياء لتركى اياها قراءة كتاب الجهالات ، وزيارة أهل الدعوة ، ومجالسة ابى عمران سافر مرة زائرا لاهل الدعوة فاجتاز بقسطيلية ، فنزل عند ابى جعفر احمد بن خيران ، فقال له ابو جعفر هلم بنا الى زيارة الغاية زوجة الشيخ ابى القاسم ، ففعلا ، فلما دخلا اليها وسألا عن احوالها سألتهما عن نازلة نزلت بها وخصصت ابا عمران بالسؤال ، فقالت له ما تقول فى امرأة صحبت النساء الى الوادى فنزلت فى الماء فى ثيابها وجعلت على رأسها سترة ؟ فقال لها أيما امرأة نزلت فى الوادى مكشوفة فانها ستقوم فى سبعة أودية من نار جهنم ، قال فتغير لونها لما سمعت ذلك ، فقالت له هل من رخصة ؟ فقال لها اذا كان ما ذكرت من السترة فانه اشبه شيء واقرب الى السلامة ، ثم قلب عليها السؤال فقال لها ما تقولين انت فقالت نعم هكذا سمعته من سعيد بن يونس .

وذكر ان ابا نوح سعيد ابن يخلف قدم الى وارجلان فجلس فى مسجد « تماواط » فرأى رجالا يغتسلون ويتوضأون من ساقيتها ويطلعون الى المسجد حفاة ، يطأون فى الطين ، فانتهرهم ونهاهم عن ذلك ، وقال أرى ان الذى يقوله الناس حق : ان اهل وارجلان سيصيرون مخالفين للمذهب ، وانما حمله على هذا الكلام ما طبع عليه من التحرج والتنزه فيما طهر ونجس ، حتى ان ثياب صلاته غير ثياب لباسه ويجعلها فى خرج حسبما تقدم .

واجتمع بها فى مجلس هو ، وابو نوح سعيد بن زنغيل فوقع بينهما كلام فى مسألة امة اخذت فى الصلاة مكشوفة الرأس فلما قضت بعض ركعات صلاتها ، اعتقها ربها

فأتمت صلاتها كذلك ، فقال احدهما عليها اعادة الصلاة لان حكمها أخيرا غير حكمها أولا ، وقال الآخر ليس عليها اعادة لانها دخلت فى فعل عبادة على وجه جائز لها ، فبينما هما فى هذا الاختلاف اذ طلع عليهم الشيخ ابو عمران موسى بن زكرياء ، فلما رأياه قال احدهما للآخر اسكت فقد جاء من هو اعلم منى ومنك ، ثم سألاه عنها فاجاب بما وافق احدهما ، قلت هكذا حكى صاحب الكتاب مبهما ، والذى يغلب على الخاطر انه اجاب باسهل قوليهما وقياسا على غير هذا قلت والذى يظهر لى قول ثالث بين قوليهما وهو انها لا تخلو ان تكون عالمة بوقوع العتق عليها من سيدها ام لا تعلم حتى خرجت من الصلاة ، فان علمت وقد بقي عليها شيء من اركان صلاتها وتمت صلاتها مكشوفة الرأس فاولى والاصح اعادة الصلاة ، وان لم تعلم فاولى والاصح لا اعادة عليها ، فكيف ترى هذا الجواب ؟ .

حكم صلاة المراة مكشوفة الراس

وعن ابى محمد ان ابا عمران قال مرارا فى مجالس كثيرة تعلم حرف واحد من العربية كتعلم ثمانية مسألة فى علم الفروع ، وتعلم مسألة واحدة كعبادة ستين سنة ، ومن حمل كتابا الى بلد لم يكن فيه ذلك الكتاب فكانما حمل ألف حمل دقيقا ، وتصدق بها على اهل ذلك البلد ، وهكذا فى فضل العلم وطلبه .

فضل تعلم العلم و نشره

وذكر ان جابر بن سدرمام اضاف اضيافا ، فلما استدعاهم وكان ذلك بمحضر صاحب له يعرف بخليفة بن تزوراغت ، فرغب اليه جابر فى ان يصحبهم ، فامتنع فألح عليه ، فقال له : يعلم الله انى لا اصحبهم ، فقال له جابر أما الآن فان شئت فاصحب وان شئت فامكث ، فالكفارة قد وجبت ، قال الراوى وانما اوجبها لانه حتم فى شيء

لا يدرى ان يكون ام لا ، قلت : وهذا تشديد لانه لم يذكر شيئاً من ألفاظ القسم .

أبو اسماعيل البصير

ومنهم أبو اسماعيل البصير ابراهيم بن ملال المزاتى رحمه الله شيخ عبادة وورع ، واجتهاد فى معرفة ما فرض الله وشرع كثير الملازمة لزوايا المسجد ، لالتقاط الفوائد ، يغدو اليها ويروح كما يغدو الطير ثم لا يروح الا بطينا باستفادة كل خير ، وعنه يحكى ابو محمد ماكسن انه كان يعلمه فى درب بنى ميدول من بنى راسين بتوزر ، وانه اكتسب فيها خمسمائة دينار ، وحفظ فيها خمسمائة كتاب ، واكل فيها خمسمائة رأس ضانية سوداء،وعنه يحكى ابو محمد ماكسن انه قال وقد آب من سفر لقد استفدت فى سفرى هذا ثلاث مسائل ، فذكر المسائل التى يذكرها العزابة ويرددونها كثيرا ، وهى مسألة القراد المتعلق بالميت ، والطريق فى المقبرة ، ونخلة المقبرة ، وغار المقبرة ، وكذلك بئر المقبرة . فالقراد ان أثر يتيمم للميت ، وان لم يؤثر غسل قلت والغسل عندى على كل حال أولى ، والمسائل الاخرى يعطى الحكم للمتقدم منها ايهما كان .

لا يحل المبيت عند قوم اظهروا المظالم ، واعلنوا المناكر

وحكى عنه انه زار اهل الدعوة فاجتاز على بلاد اريغ وعلى كدية بنى غمرة ، وهم قوم ظلمة ، فتاكون ، أهل فساد وغارات ، وفى المنزل قوم صالحون ، فرغبوا اليه بان يبيت عندهم ضيفا تلك الليلة ، فقال لا يحل المبيت عند قوم اظهروا المظالم، واعلنوا بالمناكر، فاذا قيل لهم انقادوا الى الحق لا ينقادون ، ولا يدعنون ، فتجاوزهم ونزل

« بتميرينت » فلم تكن الايام قلائل حتى نزل عليهم حماد بعسكره فاجلاهم ودمرهم تدميرا .

أبو محمد عبد الله بن الامير

ومنهم ابو محمد عبد الله بن الامير اللمائي رحمه الله . شعاره الدين والتقوى، مع صبر ورصانة تزرى على رضوى ومحافظة على السير والآثار ، والتحلي بالتواضع ، والتخلي عن الاستكبار ، اذا رفع عينه الى السماء ، فتحت له ابوابها لاستجابة الدعاء ، فكل من يعاشره يتقي عقوقه ، وكل من يعرفه يعرف في الصغيرة والكبيرة حقوقه .

يفطر من صوم النافلة ارضاء لاخيه في الله

ذكر أبو الربيع ان أبا محمد عبد الله بن الامير زار ابا محمد عبد الله بن مانوج ، ومع ابن الامير لحم مطبوخ ، وذلك في يوم جمعة، وابن مانوج حينئذ صائم فتناول واكل منه ، وذكر ابراهيم بن يوسف ان ذلك بعد الظهر ، لما علم ابن مانوج انه انما قصده به على جهة الود خشي ان يسخطه ويعقه ان امتنع من اكله ، فآثر رضاه على تتميم صوم هو فضيلة من الفضائل ، واعتقد ان رضى الشيخ لاحق بالفرائض .

احذروا سخط الله فانه يعم

وحكى ابراهيم بن ابراهيم ان ابا محمد كان يعظ لماية ويحذرهم ، ولقد قال لهم يوما فيما أورده عليهم (يا لماية) احذروا ان تؤاخذوا بذنوبكم ، ثم قال من فم أبى صالح الى اذني ، الويل لى ان ظلمته ، سمعته يقول : السخطة تعم والرحمة تخص ، يهلك الصالح بذنب الطالح ، قال الله عز وجل (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) وقال (انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم) .

وقال : ابو الربيع جئت لزيارة عبد الله بن الامير فلم اجده في منزله ، فأعلمت انه في الاندر فقصدته ،

فوجدته فى جبة صوف وقد وضع كساءه، وهو يضم اطراف الاندر ، فلما رآنى تنحى الى كسائه فلبسه فلاقـاني ، فصافحته ثم اقبل يعتذر كأنه أساء فى وضع الكساء، وقلت له وهل فى ذلك من بأس ؟ أليس هو العمل فى الحـلال ؟ فقال نعم ولكن اين من يحسن العمل فى الحلال ؟ انمـا يحسن ذلك ابو صالح ، فقلت وكيف كان عمله ، قال كان فى ايام الحصاد يحمل الزرع الى الأندر على ناقة له ، فاذا كان وقت صلاة الضحى اناخ ناقته وحط عنها حملها، ثم عقلها، وحل ازاره واخذ فى الصلاة ، حتى يصلى ما كان يصلى ذلـك ، ثم يرجع لناقته ، فهكذا العمل فى الحلال ، انما هو ما لم يضر بعمل الآخرة .

العمل فى الحـلال فضيلة ما لم يضر بالآخـرة

قال ابو الربيع وجه الي سليمان بن موسى شيئا، وامرنى ان اشترى به طرفا من المآكل ، والطافا فآتى بها الى عبد الله ابن الامير ليأكلها ، ففعلت من ذلك ما امكننى ، ثـم توجهت اليه ، فمررت فى طريقى على كلأ خصيب وكنت على حمار لى ، فجمعت من ذلك لحمارى ما قدرت انه يكفيه ، فلما وصلت اليه قال لاولاده : اعلفوا حمار سليمـان ، فقلت له يا شيخ انه ليس بحمار يعتاد العلف ، وقد جمعت له فى طريقى ما يكفيه ، فقال : هكذا جرت قصتى مـع عبد الله بن مانوج ، جئته ذات مرة وانا على دابة وقـد جمعت لها كلأ كثيرا ، فقال : اعلفوا دابة عبد الله ، فقلت له ما هو حمار علف ، فقال لا بل يعلف ، ولا بد من ذلك ، فان علف دابة الضيف يا عبد الله أهم من اطعام الضيف .

علف دابـة الضيف من جملـة اكرامه

وكان عبد الله بن الامير من امة سوداء وكان ذلك غالبا على لونه ، فذكر عنه انه صحب فى بعض تقلباته شيخـا

يعرف بعزون ، فلما كان في بعض الطريق اراد عـــزون تكليف ابا محمد احد الكلفات الكبار المستثقلة ، فلـــم يساعده، فقال عزون معرضا لسواده لو كان العبد من ديباج لكانت اطرافه من تليس ، فقال ابو محمد يا عزون انفترق بعد هذا الطريق ولابد ؟ قال نعم ، قال تعال فاركـــب على عاتقى .

أبو زكرياء يحيى بن ويجمن

ومنهم أبـــو زكرياء يحيى بـــن ويجمن الهـــوارى رحمه الله . (1) الورع الزكى ، الفطن الذكى ، الدّيّـن النقى ، المقر بفهمه كل شاف قصى ، الكاشف بذكائه كل غامض خفى ، المذلل بسياسته كل عاص قسى ، المعترف بفضله البدوى والحضرى ، ان نطق جلا المبهم في صورة جلي ، وان صمت فله معتبر في كل شيء .

الناس في شأن علي بين افراط وتفريط

قال ابو عبد الله بن محمد قلت لابي زكرياء ما معنى قولــه عليه الســلام هلكت فيك فئتـــان يا علي : محبــك ويغيضك المفرط ؟ فقال صدق عليه السلام ، اما محبــه المفرط ففرقة الشيعة الذين قالوا فيه مثل قول النصارى في عيسى عليه السلام : انه نبيء ، وانه حي لا يمــوت ، وانه في جبال رضوى ، وانه الاه ، وانه امام مطاع ، ومن عصاه فهو كافر ، وانه امام يجوز له تبديل الكتاب والسنة ونسخهما ، وانه اولى من ابي بكر وعمر ، وانه وصى ، وان الامــة ارتــدت اذ لم يولوه . واما بغيضــه المفــرط فاصناف الصفرية الذين اتفقوا على ان كل معصية شرك ، وقال قوم كل كبيرة شرك ، فجعلوه مشركا لانه حكم الضالين وقتل المسلمين ، فافهم ذلك .

---

(1) اثبته صاحب السير باسم يحيى بن وجمين

وقال ابو محمد كنا في اجلو فجلسنا يوما للمذاكرة ، وكان رجل عزابي يقرأ آثار الربيع عن ضمام عن جابر رواية عبد الله بن صفرة ، قلت وكنت افسر بلسان البربرية ما يقرأه القارىء ، فكنت كلما قرأ سند أثر من اثاره تجاوزت السند فلم اتكلم عليه وتركته الى ان يصل الحديث ، او الاثر ، فاتكلم عليه فسمعنا ابو زكرياء – وكان في ناحية – قال : مالك لا تذكر ايمتك ؟ فعدت اذكر كلما قرأ فاقول : روى ابو صفرة عن الربيع عن ضمام عن جابر .

الشيخ يابى عليه ان يذكر الحديث بدون سنده

وقال ابو محميد كنت اذا سألت ماكسن عن مسألة عويصة توقف فيها ، وقال : دعها الآن حتى نسأل عنها صاحب الغوامض ابا زكرياء يحى .

وقال ابو محمد اجتمع الشيوخ ذات مرة في مسجد الشيخ يكنول بن الطويل في تمولست ، وكان الاختلاف بين جماعة «تين وال» وأرادوا ان يصلحوا ذات بينهم وكانوا يقرأون كتابا فمروا في الكتاب، على خبر وهو : « ان رجلا كان في زمن موسى عليه السلام وكان للرجل حمار ، فقال يا رب لو كان لك حمار لعلفته مع حماري ، وربطته مع حماري، فهم به موسى عليه السلام فاوحى الله اليه : يا موسى ذلك مبلغ عقل عبدي فتركه موسى عليه السلام.» واجتمعت باثر ذلك جماعة «تين وال» فجعل الشيوخ يعاتبون رجلا يلي الامر ، يقال له أيوب بن حمو ، فقال لهم ابو زكرياء : اتركوا عنكم البله الذين تمتلىء بهم الجنة ، يعني – الآثر المروي – ألا ترون قصة صاحب الحمار ؟ دعونا من هؤلاء ، وهلموا لمن يثقب الخرزة بكيسه ، مثل ياتياسن بن حمو فجاءوه ولحوه ، حتى تابوا واصطلحوا .

يحاسب الله العبد على مبلغ عقله

وذكروا ان أبا زكرياء يحيى بن ويجمن رأى ليلة القدر في مصلى المسجد ، عند موضع المحراب الذى يلى الحائط القبلى من مسجد أجلو ، فبنوا محرابا ملصقا الى جدار قبلة المصلى ، في دار يحيى بن ويجمن وهو اليوم هنالك معروف مما يلى الجانب الغربى ، وهو من المواضع المزورة المعروفة بالبركة .

الشيخ يحبس الاب ليؤدى دينه على ابنه

وذكروا ان رجلا ممن ينسب الى الديانة كان لابنه عليه دين . فماطله فدعاه الى المشائخ باجلو وفيهم يحيى بن ويجمن وغيره من جماعة عزابة اجلو ، فجبروا الاب على الدفع وحبسوه وجعلوه فى الخطة ، واعلموه انه لا يبرح حتى يقضى دين ابنه او يسرح الابن سبيله ، فسمع بذلك ماكسن ، وقدم من تينوال الى مشائخ اجلو ، فقال لهم علام يحبس الاب فى مال ابنه ؟ فقال له ابو زكرياء يحيى بن ويجمن قد حكم بها أبو عبد الله بن بكر بوغلانة ، وحكم بها هنا فى اجلو ونحن نحكم بها فلا يخرج من تلك الخطة حتى يؤدى ما عليه .

أبو عبد الله محمد بن سليمان

ومنهم ابو عبد الله محمد بن سليمان النفوسى رحمه الله ، جال فى حلبة المتقين ، وجمع الله له بين الدنيا والدين فكان مرضى الحال موسعا عليه فى المال ، فكان ينفق مما آتاه الله من سعة عطائه ، حتى انسى كل ذى سخاء بسخائه فانه يهب من كلتي الذخيرتين لا تغيب هباته، ومهما بدرت أملا فى بدره فطيب يخرج نباته ، يفيد العلم ويكسو ويمون ، فنيله مأمول، وحرمانه مأمون ، يحنو على التلامذة حنو ابيهم ، ويقويهم دون قرابة ويجتبيهم .

الشيخ يعلم طلبته وينفق عليهم

ذكروا ان ابا عبد الله بن سليمان كانت عليه حلقة عظيمة ، يعلمهم ، ويطعمهم ويكسيهم من ماله ، وكان اذا اقبل الشتاء اشترى لهم اكسية جديدة فيها دفء فاذا اقبل الصيف اشترى لهم اكسية خفيفة برسم الصيف ، ويدخر الاخرى للشتاء ، وربما باعها بالثمن الذى اشتراها به ويخرج لهم كل يوم ما يقيم طعامهم وادامهم ، وقال ابو عمرو قال لى ابراهيم بن يرموز ـ وكان شيخا صالحا ـ : دعانى ابو عبد الله يوما فوجدته يلوت عمامته ويصلح نفسه ، فقلت له : ما هذا يا شيخ ؟ فقال عزمت على الوصول الى « شروس » فان لى فيها شجرة زيتونة مشرفة على السوق ، تضيع غلتها فلا انتفع منها بشىء ، فاردت بيعها . فقلت بكم تريد بيعها ؟ فقال : اذا وجدت عشرة دنانير فانا ابيعها ، قال ابراهيم فساعدته فاقبلنا ماشيين ، حتى وصلنا « شروس » فسيمت منه شجرته باربعين دينارا ، ثم صر الثمن فى عمامته صرارا متفرقة ، فلما وصلنا الى موضعه اخذ يفرق الدنانير على العزابة لكل واحد منهم دينارا او اقل ، او اكثر ودفع لى ستة دنانير ، ففرقها حتى لم يبق لنفسه غير عشرة دنانير ، فقلت له : ما هذا ؟ قال كنت نويت البيع بعشرة دنانير ، فكل ما زاد فهو لله لا أرى له فيه شيئا ، قال ابو عمر : سألت عن ذلك ابا العباس فقال ، ان من العلماء من يقول الفقراء احق بتلك الزيادة ، والذى فعله حسن جميل .

رايه فى الزواج واقتناء الحيوان

وكان ابو عبد الله يقول ثلاثة لا اراها الا فى بيت عدو الفرس فى رأسه مطحنة ، وفى تحته مزبلة ، والكلب ينبح فيسمع نباحه ، فيروع ولو مسلما واحدا ، وساق هنا خبرا قال : سرنا ذات مرة مع الشيخ ابى سليمان ايوب فى بعض

الطريق حتى نبحنا كلب من احدى الدور ، فذعر الشيخ .
وقال ان دخلكم الروع مثل ما دخلنى فان صاحب الكلب
لا يدخل الجنة ، والثالثة المرأة تفشى الاسرار وتهتك
الاستار .

وروى انه لم يملك قط حيوانا ذا روح ولا تزوج قط ،
فلما علت سنه قال لاصحابه ان أهلى وآبائى قد عرف من
عادتهم انهم اذا كبروا اعترضتهم حبسة باللسان ،
تؤذنهم بفراق الدنيا ، فاذا رايتم ذلك اصابنى فزوجونى
امرأة تقوم بى فى مرضى ، فلما رأوا ذلك نزل به انكحوه
امرأة قامت عليه فى مرضه حتى توفى رحمه الله ، قلت
وفى هذه الحكاية مواضع تحتاج الى النظر منها : ما قال فى
اقتناء الكلب ولعله علم انه كلب غير مباح الاقتناء ، وكونه
لم يتزوج قط فقد حكى ذلك عن غيره من المؤمنين ، والتزوج
افضل الا ان علم من نفسه انه غير قائم بحقوق الزوجة ،
وكونه لا يقتنى حيوانا ــ وقد قال عليه السلام ما من نبىء
الا ورعى الغنم ــ لا يلزم منه ان نقول من يكتسب الحيوان
مذموم ، بل ربما اراد راحة خاطره وتفرغ باله الى ما هو
اوكد واولى ، وقوله : اذا رأيتم ذلك فزوجونى . نظرا
لأمرين ، احدهما : ان المريض يصير الى حالة يحتاج فيها
الى من يطلع على عورته ، ويقلبه فى مضجعه ، والثانى نظرا
الى قوله عليه السلام : من مات عازبا مات شيطانا ، فاخذ
بالظاهر واراد ان لا يموت عازبا . وهذا اذا صح هذا
الحديث .

حكم التزوج فى مرض الموت

وكونه تزوج فى مرضه الذى مات فيه هو جائز عندنا
خلافا لمن منعه اللهم الا اذا علم ان المريض انما قصد التزوج
ليمنع ما لورثته من الميراث ، فهاهنا وافقناهم على منع

التزوج ، واما ان قصد به شيئا مما يقصد بالتـــزوج غير المحابات فلا يمنع .

الشيخ أبو مكدول الزنزفي

ومنـــهم أبـــو مكـــدول مطكـــو داســـن الزنزفي رحمه الله . هذا الشيخ منسوب الى صلاح ، وزهـــد في الدنيا واطراح ، ويعد في الوعاظ والنصاح ، والداعين المرشدين الى سبيل الفلاح ، ويحكى عنه الحكم والامثال ، والاصابة في الاقوال والافعال ، ان اكثر ما يروى عنـــه انما هو باللسان البربرى ، صادر عن صدر رحب ، وقلب جرىء ، وهو من كل غش برىء ذكر يحيى بن جعفر ان ابا القاسم يونس بن ابى زكرياء كتب الى ابى مكدول :

«بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم . الى ابى مكدول اطال الله بقاءه وادام عليـــه نعماءه .

اما بعد فانى سمعت ان جماعة من النكار طلعوا قبلكم ، فاياكم ، ثم اياكم ، ان يردوا ارضكم ولو للضيافة ، فان القوم اخدع الامة ، وانت ممن لا يحتـــاج الى ان يوصى ، والسلام؛» فوقف عند ما حـــد لـــه ، وكان أهلا لصـــد ما يخشاه منه من هذا الداء (I) وذكروا ان ابا محمد ماكسن ويخلف التميجارى اضافهما أبو مكدول فقدم لهما طعاما حفيلا ضيافة كاملة ، وعلى كمالها فانها دون قدرهما ، وقال حين قدمها لهم : كلوا فقد مات من يسلم فى نفسه ويسلم معه غيره ، فشكرا صنيعه ، وشكرهما حين رآهما شكرا ولم يذما ، وحمد هو الله على اقتران الشكرين ، وخطر بباله

(I) فى نسخة من هذا الدعاء

ان اللعنة مع الضيف مقرونة ، فاذا حمد وشكر وقابله المضيف بحمد الله وشكره وقعت على ابليس، لعنة الله عليه وان لام احدهما وضجر وقعت عليه ، وقد وقفت لابى مكدول على كلام كثير بالبرية لم احصل منه فائدة فاعلقها .

أبو موسى يزيد المزاتى

ومنهم ابو موسى يزيد المزاتى وابنه ضمام رحمهما الله ممن تمسك بالورع بحبل وثيق ، وسلك فى الصلاح أنهج طريق، واتقن مسائل الحلال والحرام ، واشهر نفسه بعلامة المجتهدين من الخدام ، وذللها وراضها حتى انقادت لموافقة أهل الاسلام ، وبث المعروف فى الاجانب وأولى الارحام ، وكان من افاضل تلامذة ابى خزر ، واخذ عنه الآثار والسير .

مساعدة الشيخ لقبائل مزاتة وانقاذهم

ذكر الشيخ ابو نوح صالح بن ابراهيم ان بلاد افريقية أصابتها سنة، فاشتدت احوال أهلها ، وعدموا القوت، حتى ضمت أهل البوادى وغيرهم الى بلاد الجريد ، فانتجعت مزاتة الى قابس ليمتاروا منها التمر بالدين والقرض فأتوا ضمام بن ابى موسى يدلون عليه بالقرابة والاخوة ، وهو حينئذ عند أهل قابس معروف ، وبالخير والصلاح موصوف فسألوه ان يستقرض لهم ، ويستدين ، ويتحمل عنهم ، واعلموه بما هم فيه من شدة الحال ، وان جاهه كفيل باستنقاذهم من الجوع ، فشاور والده فى ذلك واعلمه بما جاء به قومه ، وبما طلبوه، فقال له هل يعرفهم احد ؟ قال : لا ، قال : وانت ، هل يعرفك أهل قابس ويأمنونك ؟ قال نعم ، ولا يعرفون غيرى فقال له ابوه دخولك فى شىء يستنقذهم من الجوع اذا فرض من الفروض اللازمة ،

اذ كانوا ينتفعون بجاهك اكثر مما ينتفعون باموالهم ، فقضى مآربهم اجمعين .

وقال أبو نوح صدق أبو موسى ، وقد قيل : يسأل المرء عن فضل جاهه كما يسأل عن فضل ماله ، وقد قيل من تبرم بجاهه فقد تعرض لزواله ، قال فهو كقوله عليه السلام : «ان لله وجوها من خلقه يستخصهم بنعمته ما بذلوها لخلقه ، فاذا بخلوا بها بدلها الى غيرهم» فتحمل عنهم ضمام ، وانجز مآربهم ، فلما ايسروا قضوا ما عليهم الا اقلهم فقضاه عنهم ضمام ، وقد نسب اليه كلام فى ذم الحمالة

يسال المرء عن جاهه كما يسال عن ماله

ومنهم أبو يعقوب بن سهلون رحمه الله

العظيم القدر ، الكثير البر الغزير الحفظ فى فنونه ، المتحصن من كل روع بورعه ودينه ، لا تهوله الاهوال ، ولا يغتر بما يرى من حسن الحال .

ذكر يعقوب بن أبى القاسم انه وصل ذات مرة الى وارجلان ، قال : فرجعت ووجدت أبا عبد الله محمد بن بكر ، ومزين بن عبد الله عنده ، فقال لى أبو عبد الله : هل رأيت أبا يعقوب يوسف بن سهلون ؟ قال : فقلت لا فقال انظر يا مزين ! أولا تعجب لهذا الذى سافر الى وارجلان ولم يزر أبا يعقوب ، فعظم علي ذلك ، ورجعت الى أبى عبد الله فاخبرته بحال أبى يعقوب ، وذلك بعد ما اصيب فى لسانه ومنع الكلام ، وسبب ذلك ان مسألة شنيعة نزلت فى وارجلان فاجتمع لها كل من بها من وجوه العزابة ، ومن ينسب الى العلم والرأى ، وكان دأبهم فى ذلك الزمان اذا نزلت مسألة ان يجتمعوا من شأنهم

مصاب الشيخ فى لسانه وسبب ذلك فيما قيل

الاجتماع للتشاور فى النوازل ، فاچتمعوا بالموضع المعروف بمنبر وارجلان ، فوضعوا المسألة ، وذلك : ان امراة ادعى تزويجها رجلان واتى كل واحد منهما ببينة على صحة التزوج ، فتراد الشيوخ المسألة حتى انتهت الى أبى يعقوب ، فقال حرمت على الاول ، والاخير ، ورجال الدنيا ، والآخرة الا ان تتوب فتحل لرجال الآخرة ، فقال رجل من بنى ياجرين ، هاج الفحل فتفرقت الفصلان ، فاصابته عين ، فاحتبس لسانه حتى لا يستطيع كلاما .

كيف اعان الشيخ ابنه على بره

وكان أبو يعقوب كثير السياسة كثير الرفق وله ابن يسمى أيوب وكان اذا اراد ان يأمره بشىء اشار اشارة او ساقه فى حكاية لئلا يغلق عليه الامر فيخالفه فيعق ، وكان اذا اشاره بشىء امتثله ، واتى به على حسب ما يرضيه ، ويجىء على وفقه ، حتى ضرب بهما المثل فى بر الابن للاب والاب للابن ، فقالوا : «الاب كابى يعقوب والابن كايوب» .

وحكى الشيخ فلفول خلافا وقع بين ابى عبد الله بن بكر ، وبين الشيخ أبى يعقوب بن سهلون فى مسئلة وهو : الرجل يقول فيمن يتولاه : هو مسلم عندى ، أو مسلم عند الله وعندى ، فقال أبو عبد الله لا يجوز الا ان يقول مسلم عندى ، وقال أبو يعقوب كلاهما جائز سواء ، لا فرق بينهما ، لانك اذا قلت عند الله فانك تعنى يعلم الله انه عندى مستحق لهذه المنزلة .

قلت اماما قاله أبو يعقوب فى المرأة التى ادعاها بعلان انها لا تحل للاول ولا للاخير فتصح على اصل تحريم الزانية : وحرم ذلك على المومنين ، وهذه المرأة قد تعمدت

الحكم الشرعي في التي يدعيها رجلان انها زوجته

الزنا بادخالها بعلا فى عصمة آخر ، وهذا اذا كانا مقرين بالدخول ، وهى أيضا مقرة ، فان لم يكن اقرار بالدخول، ولم تقم به شبهة فلا تخلو البينتان ان تثبتا على تاريخ أحد النكاحين ام لا ، فان تثبتا فهى للاول ، وان لم تثبتا او احدهما فسخ النكاح ، ويتزوجها من شاءت منهما او من غيرهما .

كتابة عقود النكاح والطلاق تدفع الشك

ولاجل هذه الشنائع وامثالها تجدنى اتلهف واتاسف على شيء لو امكننى فعله والاشارة به ، هو . والله امر سهل ، رافع للالتباس ، كاشف لهذا البأس ، وهو والله مما ينبغى ان يسعى فيه اهل الخير ، وذلك : ان يؤذن فى كل جهة من الجهات على ايدى القضاة او عن رأى الجماعات بان لا يشهد فى النكاح خاصة أو فى النكاح والطلاق الارجال معلومون ، لا يعدوهم هذا الشأن ، يختارون اهل علم ودين ، وسنن ويستلزمون كتب التاريخ ولو لم يكتبوا غيره ، فكيف والكتاب فى جميع فصول النكاح والطلاق احوط ، فانه اذا كان على هذا الوجه كان قطعا لاشتراك ما لا يشترك ، ورفعا للالتباس ، والاختلاط فى الانساب ، والشك فى التوراث والعدد ، وفى الخبر : ان اولى ما احتيط عليه الفروج . واما ما اختلف فيه الشيخان فمسألة تضرب فى علم النحو بنصيب . وأرى أبا يعقوب فيها هو المصيب .

الطبقة العاشرة : 450 هـ ـ 500

منهم أبــو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي رحمه الله

الاصولي الفقيه ، الزكي النبيه ، أفنى في الدراسة أيــام الشباب ، وفي حفظ كتب الفقه كتابا بعد كتاب ، حتى برز وبعدت عنه محائبه ، وظهرت بين النجباء نجائبه، ولما بانت فضيلته سبقت بين السوابق ، وحمدت منه الخلائق تصدر للتدريس ، وافادة كل جليس ، فاحيى الله به طرق الصلاح ، وفتح له أبواب الخيرات اى افتتاح ، وخرج من تلامذته كل نجيب، وقيد عنه كل جواب مصيب، وتصنيف عجيب .

ذكر ابو عمار ان جماعة عزابة اجتازوا على قرية من قرى نغزاوة فاذاهم مقدمها رجـــل يسمى « ابا علي » ، فقالوا له : « اخذر عقوق الوهبية » . فقال لهم ارغبــوا اليهم وقولوا لهم يدعوا علي ، فوصلوا جربة يوم جمعة ، فوجدوا الشيوخ قد اقبلوا اليها بجماعة التلامذة ، وفيهم الشيخ ابو الربيع فسلموا وصافحوهم ، وأخبرهم بمــا بلغ أهل الدعوة من ضرر المذكور ، وقوله لهم ، فقال ابو الربيع : رب كلمة سلبت نعمـــة ، اللسان يلعب بالبلاء ، فاجتمعوا وبدأ أبو الربيع بالدعاء فاداروا الدعاء ، وختم

يستهزئ بدعـوة الصالحين فيصاب بها

ابو الربيع ، فاصاب الملعون فى تلك الساعة وجع فجعل يصيح من شدة الوجع ، ويقول : « قتلنى الاعور ، يعنى ابا الربيع ، حتى مات ، ولم تماطله دعوة ابى الربيع .

وروي عن ابى عبد الله محمد بن بكر رضى الله عنه ، انه لما حضرته الوفاة قال لمن حضره : « اشهدوا ان الجنان الذى على العيون لابنى يوسف » ، فلما سمعت امرأته ذلك حسبت ان به غفلة او ذهاب عقل ، فقالت له : ما هذا يا شيخ ؟ تنبهه ، فكرر الاشهاد على نفسه بما قال أولا ولم يرجع عنه ، فقال لامرأته أنى اعتقدت له اكثر من ذلك ، وعلمى ورأيى لا أرجع فيه الى علمك ورأيك ، وكان ابنه احمد اذ ذاك عند ابى الربيع سليمان بن يخلف فبلغه وفاة أبيه وقد بقيت بيده بقية من نفقته فكف عن الاكل منها ، ورأى ان ذلك قد صار ميراثا ، فقال له ابو الربيع : امسك ما بيدك ولا حرج عليك ولا تلزمه العدالة بينكما .

الحكم الشرعى فى الوصية للوارث

قلت اما فعل ابى عبد الله فلا ينفذ لوجوه : منها انه عطية فى المرض الذى توفي فيه فلا يجوز الا باجازة الورثة ، الثانى انه لم يذكر التسليم والحوز وذلك شرط عند جميع اهل العلم الا الشاذ ، والثالث انه لم يعدل فيما دل عليه اللفظ والعدل بين البنين واجب على الاب فى قول جماعة من اهل العلم ، واليه مال كثير اصحابنا فيما علمت والشيخ ابو الربيع رجح قول من قال لا تجب العدالة على الاب ، واقول والله اعلم : ان ذلك انما جاز لاجازتهم له اياه ابرارا بالشيخ رحمه الله .

وعن غير واحد من تلامذته قال لما كان عام احد وسبعين واربعمائة رجعنا من عنده فشيعنا الى المصلى الذى فوق

وصية الشيخ ابى الربيع لتلامذته

عيون تونين ، فوقفنا لمودعته ، فقال احدنا : اوصنا يا شيخ ، قال : قد عزمت على ذلك ولو لم تقله لى ، ثم قال : « امضوا بالسلام . فاذا وصلتم ان شاء الله منازلكم فاياكم والدنيا ان تستقبلوها بوجوهكم ، فان من استقبلها اغرقته ومن استدبرها فلا بد ان تأخذ منه ، وعليكم بالألفة والنصيحة ، والتزاور ، وحفظ مجالس الذكر ، واياكم وأمور الناس والتقصير فيمن يرد عليكم من أهل دعوتكم والسلام » .

وكنا قد اردنا اذ نحن بتمولست الطلوع الى جبل «دمر» برسم دراسة الكتب ، فلم يوافق ذلك ابا الربيع ولا ابا زكرياء يحيى بن ابى بكر فشيعنا ابو زكرياء يحيى ، فقال : اعلموا انكم ان رجعتم الى اهليكم على هذه الحال فانتم كمن ترك الاسلام عمدا، وهذا منه تحريض وترغيب فى طلب العلم .

نكاح الفضولى وحكمه

وذكر ان تلميذين من تلامذة ابى الربيع قال احدهما للآخر : « زوجتك اختى » ، وقال الآخر : « قبلت » فلما لفظ بالقبول داخله ما وسوس عقله وشغل خاطره ، وجعل يسأل الطلبة واحدا بعد واحد هل عليه من هذا شيء ؟ وغلب على خاطره ان النكاح قد انعقد ، فجعل يسأل العزابة الحل عازما على الانفصال ، فقال أبو الربيع لما رأى ما رأى من حاله : ما نال فلانا ؟ فاخبروه خبره ، فقال لهم : قولوا له فليقم وليشتغل بالقراءة ، فانه لم ينعقد عليه نكاح ، ولا عليه شيء ، ولو اجازته ، قلت وهذه المسألة لها وجوه تقيد بها وليست بمطلقة وذلك ان اخا المرأة لا يخلو ان يكون وكيلا مع كونه وليا أو لا يكون وكيلا ، فان كان وكيلا فالنكاح قد انعقد بلا خلاف ، وان

كان أنكح فضولا بغير توكيل ثم اجازته بقرب العقد فالاولى جوازه ، وقيل يكون موقوفا على قبولها وامتناعها ، ولعل ابا الربيع رحمه الله عرف فى هذه القضية بعينها ما اوجب امتناعها كترك وقع متقدما مع خاطب أو عقد تقدم مع ولي تقدم مع خاطب آخر ، والله اعلم . وذكر أبو عمرو عثمان بن خليفة ان ابا يعقوب محمد بن يدير سئل عن مسئلة فى مجسله ، فاخطأ فى الجواب ، وذلك انه قال : علينا العمل بالفرائض وليس علينا العلم بها ، وكان يزيد بن يخلف الزواغى وابو الربيع سليمان بن يخلف فى المجلس حينئذ ، فلما سمع يزيد ذلك قال يا سليمان ما الذى اخذت عن ابى عبد الله بن بكر فى هذه المسئلة قال : اذا لزم فعل شىء لزم العلم به ، وان له فى فعله الثواب ، وانه فرض وعدل ، وكان قد باتا فى حلقته فلم يقل لهما رجعت عن قولى ، ولا قالا له : ارجع عنه ولا ادناهما من المجلس ، وجوابه فى هذه المسئلة جواب النكار وهو خطأ وجوابهما جواب أصحابنا وهو الصواب ان شاء الله ، وهو قول جمهور الامة لانه كيف يمتثل الامر من جهله ؟ وكان هذا حال الشيخ أبى الربيع لا يعجل بتخطئة احد ، ولا يسمعه جفاء .

هل العلم بالفرض واجب كالعمل به ؟

وتوفى رحمه الله عام أحد وسبعين واربعمائة،فبلغ خبر وفاته المشائخ ببلاد أريغ امثال ماكسن ، ومزين ، ويوسف بن ابى عبد الله بن بكر ، وغيرهم فجل عندهم الخطب وسامرهم الرثاء والندب ، واجتمع اليهم اعيان تلك النواحى يعزونهم، وهيهات، فقد لازموا العويل والاكتئاب الطويل ، حتى قال لهم ابو يعقوب كفوا عافاكم الله فان هذا لا يغنى عنكم شيئا ، وعليكم بالتمسك بما اخذتموه

عنه ، وعن غيره من الاشياخ ، وكونوا لها كابراهيم بن أبى ابراهيم للامانة ، وذلك ان رجلا أودع الشيخ ابراهيم دينارا ، وقال له : ادفعه الى فلان ، واحذر ان يسقط ، فقال له : « تسقط هاتان ولا يسقط يا عماه » ، واشار الى عينيه .

ومنهم الشيخان أبو محمد ماكسن بن الخير

وأبو عبد الله مزين بن عبد الله الوسيانيان رحمهما الله

كانا ممن تنسب اليهما انواع من الفضائل ، وترفع اليهما عند وقوعها المسائل وترجى بدعائهما عند الله الوسائل ، ويستشفى برأيهما متى نزلت الخطوب النوازل ، وتتيممهم للبركة القنابل (1) والقبائل ، وممن يفصل الخطة لما أعيت كل فاصل ، فليس منها الا عائل .

قال ابو عبد الله : كان مزين يقول : « الرأي اشارة ، واما الموارثة (2) فقتال ، لا تدخلن بين العصا ولحائها » ، وذكر أبو محمد قال : دخل علي ينجاسن بن حمو ذات يوم كانه ذاهل ، فاستلقى مضطجعا ، فقلت له مالك ؟ ومن أين أقبلت ؟ قال : « من عند مزين ، جئته استفتيه فى تباعة تعلقت بذمتى فى قرية من قرى وارجلان ، وسألته كيف الخلاص منها قال لى : اتعرف الموضع ؟ قلت : نعم ، قال : أتعرف صاحب التباعة ؟ قلت لا ، قال تجد من يشهد لك بان تلك التباعة لفلان بن فلان ؟ قال : لا، قال : فتصدق بها اذا فى موضعك ، وأقم ولا تتكلف حركة » . فحاربها — والله اعلم — انما بسبب كونه لا يدرى من يصرف اليه

الحكم فيمن عليه تباعة جهل صاحبها

(1) جمع قنبلة بفتح القاف : جمع من الناس

(2) كذا فى النسخ ولعل الصواب المؤاربة

تلك الصدقة ، فيكون لها أهلا ، ولانه ذكر عنه انه قال حينئذ : خائن حازم ، خير من أمين مضيع ، فداخله من ذلك شغل شاغل .

وذكروا ان « ابا ويدران » الفطناسى استخلف على وصيته مزين ، فعمد الى خيار ماله وما تكثر فيه رغبة المشترى فباعه ، وجعل ينفذ منه الوصية ، فشكته زوجة ابى « ويدران » وبناته الى الشيخ ابى عبد الله ، وقلن له : انه قد باع افضل المال ، ان فى التركة اطرافا لو باعها لم يصبنا لفقدها جزع ، فقال له مالك ولهؤلاء ؟ قال : اعلم انى لم اشتغل بمصلحة هؤلاء لكن بفكاك رقبتى ورقبة أخى فى الله .

وذكر ابو الربيع ان ابا محمد ماكسن كان من اعاجيب الزمان ، وذلك انه اصيب فى بصره وهو ابن سبعة أعوام وقيل سبعة ايام ، فجاءت امه الى ام يوسف زوج المعز بن باديس فاعلمتها بما اصاب ابنها ، فقالت لها رديه فى الكتب ، فانه يستفيد لما رأته من حدة فكره ، وحضور ذهنه وذكائه ، ففعلت ، فحفظ القرآن تلقينا فى أسرع وقت ، ثم قصد جربة وحضر حلقة أبى محمد واسلان ابن ابى صالح ، فكان انجب تلميذ حضرها ، وكان كل من رآه يستغرب ذكاءه وبراعته ، وكثرة حفظه ، الا انه كان مع ذلك سريع الغضب ، حاد الكلام ، فكان الطلبة يقولون لابى محمد : اطرد عنا هذا السريع الغضب ، الحاد الكلام ، فيقول لهم : والله لا اسمع قولكم فيه ولا اقبله ولا اخرج عليه ، لما تفرس فيه من الخير والبر ، واحياء الدين والسير ويقول لهم الم تعلموا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل له : لم تكون الخفة فى المؤمن ؟ فقال لغزارة فى قلبه ،

كيف كان الشيخ ايام التلمذة ورفق شيخه به

وقيل لابن عباس رضى الله عنه انك لخير لو لا خصلة فيك، قال وما هى ؟ قال الخفة ، فقال ابن عباس : « عبتنى بخير الخصال » .

وكان ماكسن اذا ذكر هذا القول يقول رحمه الله : ان ابا محمد لو سمع في قولهم وطردنى لرفعت رأسى وكنت فى غير هذا المذهب ، فأضل واهلك ، فلم يكن الا مـــدة يسيرة حتى تفقه وعظمت منزلته . فاعجب بيتيم عديـــم مكفوف البصر ينتهى الى هذه الغاية فى اسرع وقت ! ولا جرم ان الشيخ أبا الربيع سليمان ابن يخلف كان مفتاح باب الخير عليه ، لانه كان محاضره ، فكان ينشطه ويدربه ويحرضه ، ويقرأ عليه الكتاب فاذا قرأ بابا رددا معـــا مسائله ، هكذا كانت عادتهما ، وكان كل واحد منهمـــا بارا بالآخر ، حفيا به ، كان أبو الربيع كما ذكرنا لا يأل جهدا فيما ينتفع به صاحبه ، فلا يعرف له طريق مصلحة الا تحراه ، وكان ماكسن على نحو ذلك فيما له عليه قدرة ، حتى ان ماكسن يدعوه بالخؤولة مع كونه دونه فى السن ، وهذه الدعوة لان ام ماكسن مزاتية من قوم ابى الربيع .

ولقد تنازعا يوما فى مسئلة حتى تغاضبا وكان ماكسن يصلى بثوب ابى الربيع ، فحضر وقت الصلاة ولم ير ماكسن انه تصح له صلاة بثوب ابى الربيع ، وحسب انه يجد منه فى نفسه شيئا ، واراد نزع ثوبه ، فقال له صل عافاك الله فانه لم يحدث عندى شىء .

وذكر ان أول مسكن الشيخ ماكسن بوارجلان وذلـك بعد انفصاله عن القيروان ومجيئه من جربة، فاقام بوارجلان حتى سافر منها الى الحج ، وقضى الفريضة وتنفل ، وتزوج

بوارجلان وقطن به ، وجاءه رجل من أهل اجلو يقال له

ابو العزيز يدعو الشيخ ماكسن الى الاهتمام باولاده

ابو العزيز داود ، فقال له :أقم هنا يأكل أولادك تحف أهل الدعوة ، فاذا متت اقتسموا ريح الصبا ، فسمعت كلامه اذن واعية ووقع فى نفس ماكسن الانتقال الى اريغ ، فلقى الشيخ عيسى بن ابى الحجاج فقال له : اجعلنى يا اخى فى حل فانى عازم على الارتحال ، فقال : بل اسأل الحل فى قولك لى اجعلنى فى حل ، فقد ادخلت علي روعة ، فقال له : اعلم انه لا يصح لك انتقال عن وارجلان حتى اموت وتغسلنى وتكفننى ثم انتقل ، بعد ذلك أو اقم واما ـ وانا حى ـ فلا اذن لك فى المسير ، فوافقه واقام حتى قضى الله بموت الشيخ عيسى ، فتولى عنه ما سأله ان يتولاه . واجمع على المسير الى أريغ ، فقال له عبد الله بن عيسى الوسيانى من أهل « كرناداش » ألم تقدر فى سفرتنا يا ماكسن ؟ فقلت : قد عولت عليكم ، وهيأت لكم . فساروا جميعا الى أريغ فاقام ماكسن بأريغ مدة وليس لاولاده مؤدب ، فجاءه ابو العزيز داود فقال له : اقم هكذا يا ماكسن حتى تموت وتبيع أولادك كتبك ، فأيقظه وعلم انما نبهه على أولاده ، فاستأجر مؤدبا يعلمهم .

الشيخ يتعجب من ثلاث مسائل والحكم الشرعى فيها

وكان ابو محمد ماكسن يتعجب من ثلاث مسائل احداها قولهم « يموت الرجل ولا يقذف » ، ثم اجازوا له اذا خاف ان يقول : ليس هذا بابن فلان ، أو ليس من القبيلة الفلانية فينفيه ، والثانية قولهم : « يموت ولا يتعرى » ، ثم اجازوا له ان يتعرى عند الاختتان وعند الطبيب والقابلة ، وقياس الجراح ، والثالثة قولهم فى امرأة المفقود : « عدتها عدة المتوفى عنها زوجها » ، ومع ذلك فالوا لا تخرج حتى يطلق عنه أولياؤه ، قلت : اما الاولى

فمن باب الكذب المباح لا من باب القذف ، والثانية ضرورة تعارض فيها حكمان ، فلا بد من أرجحهما والثالثة أخذوا فى العدة بالحوطة ونظروا فى تسريح المرأة خشية الضرار وجعلوا التطليق الى الاولياء ، على انه لا حكم على غائب .

يحمل اولاده على الحق

ومن تحرجه ما ذكر ان أولاده بنوا بابا وزادوا فى حائطه شيئا من الطريق ، فقال لهم : اهدموا هذا البنيان وردوا الشيء بحاله ، فقالوا ان الطريق واسعة ، بحيث لا يضرها ما نقصناه منها ، فقال لهم : لا بد من هدمه ولا انصرف حتى يهدم ، فهدموه ، وحينئذ طابت نفسه على الانصراف .

وذكر ابو الربيع قال : اغارت غارة « لبنى يوجين » على رأس وادى أريغ فساقت غنمهم ، فاتبعتهم عدة من المشائخ منهم ماكسن ، وابو العباس الوليلى ، وعيسى بن يرصوكسن ، وعبد الله الدمرى ، فلم يلتحقوا بهم الا بعد احيائهم ، فلبثوا مدة يستردون ، حتى استردوا الغنم بجملتها ، وما استردوها الا وقد نفدت ازوادهم أو كادت قيل وفيهم عجوز مرابطة ، وقد اطلعت على حال المشائخ وعلمت ان ازوادهم نفدت ، وان طعام قومها لا يرون أكله تورعا ، فرغبت اليهم ان يأذنوا لها فى ان تعالج لهم طعاما من مالها ، فاجابوا ، فاستعملت طعاما ولما حان وقت صلاة المغرب وصلوا جاءتهم العجوز تسألهم عن مسائلها ، والشيخ ابو العباس الوليلى حينئذ يركع ولم يتفرع من ركوعه ، فعاد كلما سلم من ركعتين قال لهم : ابعدوا العجوز عنكم واطردوها عن انفسكم ، ولم يفطنوا لما اراد ، حتى سألتهم ما تقولون فى قومى هؤلاء اذا غاروا غارة وغنموا واخذوا واعطونى زكاة ما اخذوا فهل فى ذلك من حرج ؟

قالوا اذا فانت على هذا الحال المذمومة يا عجوز ؟ ابعدى عنا ، فقال لهم ابو العباس : ألم اقل لكم من قبل ؛ ابعدوها عن انفسكم ، فانصرفت ولم يذوقوا طعامها . فقالت « بنويوجين » لماكسن : ان رخصت لنا فى ثلاث مسائل رجعنا الى مذهبك ، وهى : اموالنا ، وأولادنا ، وازواجنا كلها حرام ، فأذن لنا بالمقام فيها . فقال لهم : لا يحل ذلك فى مذهبى ، قالوا فانا نجد من يرخص لنا فى ذلك كله .

يطلبون منه ان يرخص لهم فى اموالهم وازواجهم لانها حرام

وغارت غارة لبعض العرب على وارجلان فساقوا عدة من الأماء ، فلحقهم الشيخ ماكسن «بالدرمون» فوق بئر الكآهنة ، فسألهم بالله ان يردوا عليه ما اخذوا من اموال المسلمين ، فكان فى القوم رجل يعرف بابن يلبان ، فقال لهم : اجيبوا سؤال العزابى ، فردوا عليه جملة الاماء الا واحدة مولودة، (1) فزينها الشيطان في اعينهم، فرغبوا فى الابتناء عليها ، فقال لهم : الشيخ انها حرة ، فقالوا : أعريقة ؟ قال لهم : نعم ، قالوا له : أتحلف ؟ قال نعم ، قالوا بالطلاق ؟ قال لا يحلف بالطلاق مسلم ، فلا احلف به قال ، فردوها له ، ثم سئل بعد ذلك ما اردت بقولك حرة ؟ قال أمى ، قيل وما اردت بقولك عريقة ؟ قال فخدى .

وذكر عن الشيخ ماكسن انه قال أقبلت انا واصحابى من الحج ، وكنا فى اثنى عشر رجلا ، كسليمان بن موسى الزلفينى ، وعبد السلام بن عمران النكسى ، ومحمد بن عيسى بن ابراهيم ، وامثالهم ، ووصلنا طرابلس فاشترينا منها كسوتنا ؛ كسوة سنية ، ودخلنا جربة ، فشكروا ذلك منا واستحسنوه ، ودخل عليهم من السرور ما لا يتصف ، حتى قال لهم زكرياء بن الشيخ ابى زكرياء فصيل رضى

اهل جربة يبتهجون بمقدمهم فى سمت حسن وابهة

(1) لعل الصحيح مولدة

الله عنه : لقد عاملتمونا فى زورتكم هذه بما لا نستطيع ان نـــودى حقــه ، وقلدتمونا عظيمة لا تقــوم ألسنتنا بشكرها ، وان اختصاصكم ايانا بقدومكم علينـــا عنـــد مقدمكم فى تلك المشاهدة الشريفة ، ومشاهرتكم لنا ليقوم عندنا مقام قدوم جميع من سلف من أئمتنا ، واشياخنا ، من لدن ابى عبيدة الى اليوم ، فالله يتولى متوليكم ، وأكثر ما ادخل عليهم السرور قدومهـــم فى احسن زى واشارة ، فانهم باهوا بهم جيرانهم النكارة، وظهر من جلالة اقدارهم ما زاد فى جيرانهم الحقارة .

فتـن اهلـــية فى وغلانة وتينتلات وسوء مصـيرها

وذكروا ان قافلة خرجت من وارجلان من أهل ريـــغ ، متوجهين الى أهل ريغ ، فلمـــا وصلوا الى « ونو » يعنى : البئر ، ازدحموا عليه يستسقون حتى اقتتلوا ، فقتل رجل من بنى سيتتن رجلا من « وغلانة » ورأى الوغلانيون ان لا طاقة لهم ببنى سيتتن ، لكونهم جميعا يكون طريقهم على بنى سيتتن ، فخافوهم على انفسهم ، فافترقوا من هنالك ، وجعل الوغلانيون طريقهم على بنى ينجاسن، فعاهدوهم على ان يكونوا معهم ألبا على طلب حقهم ، فلما وصلوا منازلهم عيبوا ونهضوا الى بنى سيتتن ثائرين بصاحبهم ، فلمـــا وصلوا قرية « خيران » خرج اليهم أهلها يريدون انزالهم ويحسبونهم اضيافا، فقالوا لهم : مكنونا من القود بصاحبنا فقالوا : نعم ، لكم القود ، فألقى الشيطان فى اسماعهم ؛ ان لا يصلح لكم قود ، فلم يلبثوا ان وثبوا عليهم بالسلاح فدافع يعقوب بن يصفا وامثاله حتى قتلوا ، فى ثمانـــين قتيلا من بنى سيتتن ، وكان رجل من وغلانة ادرك يعقوب على بغلة فعقرها ، قال فادركته الرجالة ، فقتلوه ، فأوصى عاقر البغلة بدية يعقوب ، واستخلف على وصيته يعلو بن

صالح فدفعها الى ورثة يعقوب ، فلما رأى أهل تينتلات انفسهم فى قلة بعد موت العدد المذكور عزموا على الرجوع الى أهل الخلاف ، وكادوا يفعلون ، فبلغ ذلك ماكسن فقال : من ذا الذى يعرض لاهل المذهب من تنتلات ؟ فانتقل اليهم بحلقته فوجد اعلام الخلاف قد نصبت ، فلم يزل يكف شرهم ، ويدحض عزمهم ، حتى انقطع الاختلاف ولم يبق الا الائتلاف ، فحينئذ ارتحل عنهم . ومدة اقامته عندهم ثلاث سنين .

وسبب ارتحاله عنهم فيما ذكر انه كان ذات يوم هتف به هاتف : يا ماكسن اهرب ، اهرب الى حيث طاب الزمان ، فالجبن خير من الجرأة اذا الفتنة تمكنت عروقها ، قيل ولما ارتحل عزم من بها من أهل الخلاف وهم فى غاية الحقارة والضعف على ان يبنوا لانفسهم مسجدا ، ورأوا ان الفرصة قد امكنتهم بعد انفصال الحلقة ، فاستفزوا ضعفاء العقول من أهل الموضع ، وشاوروهم فى ذلك ، فأذنوا لهم فى بنيانه ، وكان ذلك فى مغيب ابى يوسف بن زيرى وهو من اعيان القوم ، فاستحضروه للمشورة ، فلما حضر تكلم متكلمهم . فقال : عزمنا على ان نبتنى هنا مسجدا لاخواننا قال : لا يبنى الا ان يبنى على رأسى ، فانحل عقدهم ، ومن سمع بجواب ابى يوسف شكره ودعا له . ويتصل بهذا ما ذكر ان يعلو بن صالح خرج فارا بنفسه ، غضبا لما فعل أهلها ببنى سيتتن وذلك انهم لما رجعوا من قتالهم دخلوا من باب وخرج هو من باب آخر ، فمر بيعقوب بن ابى موسى الزواغى وكان بينهما قرابة ، فصحبه وسارا حتى لقيا أبا عبد الله بن الخير ، فقال له : يا يعلو بنى سيتتن صرعوا قتلى لم يدفنوا بعد ، وانت تغدو وتروح عليهم ، فقال له

الشيخ يعلو بن صالح يفر من وغلانة اعتزالا للفتنة

يعقوب هذه منك سقطة يا ابا عبد الله، اتخاطب بهذا رجلا خرج مهاجرا مراغما لاهل الظلم طلبا للسلامة فتلقاه بهذا القول وانت لا تقدر له على شيء ؟ فمن ذلك اليـــوم سار الى أجلو .

أبو سليمان داود بن أبى يوسف

ومنهم ابو سليمان داود بن ابى يوسف رحمه الله . احد المشائخ المذكورين ، والفقهاء المشهورين استفاد وافاد ، وخدم حتى ساد ، فكان شيخ حلقة ، يعرف كل احد حقه ، وسعهم علما وخلقا ، وسيرا حميدة وتقى ، ولا يجتنبـــه الطالب ، ولا يخيب امل الراغب .

ذكر ان جماعة من شيوخ العزابة توجهوا الى « تنومة » فيهم ابو عبد الله محمد بن بكر ، وابو سليمان داوود بن ابى يوسف ، وكان على داوود دين لرجل من تنومة ، فلما كانوا ببعض الطريق لقوا زنغيل بن نوح بن الشيخ ابى نوح فسألوه عن الرجل صاحب الدين ، فقال : تركته على آخر وقته ، فرجع ابو سليمان فشق عليه ما سمعه ، وتكدر خاطره، فقال له ابو عبد الله ان لى على صاحبك دينا اكثر مما له عليك ، وقد وهبت لك من ذلك مقدار ما له عليـــك ، فقاصصه بذلك فيما عليك ، ففعل ، وهذه الفضيلة لابى عبد الله رحمه الله .

وذكر ان الشيخ ابا عبد الله رحمه الله كان على جلالة قدره اذا اقبل الشتاء وفرغ من حرث ضيعته طلع بحلقته الى ابى سليمان يقرأون عليه ، فيقيمون حتى يسمعوا صي البعوض فينزل الى ضيعته ، وجاء رجل من أهل وارجلان فسألوه عن حال ابى سليمان فقال له : لما به اما ادركتموه

واما لم تدركوه ، فمضى الشيخ ماكسن يجد السير فوجده على آخر وقته ، فقال كيف تجدك فقال متمثلا :

ولا يعــرف الريـــان مـــن طـــال عطشه

ولا يعــرف الشبعـــان مـــن هــو جائــع

فاقام عنده حتى توفي رحمة الله عليه .

وذكر انه لما كان عام اثنين وستين واربعمائة تــوفى داود بن أبى يوسف وبلغ خبر وفاته المشائخ وهم اذ ذاك فى زنزفة عند انحدار الشيخ ابى الربيع من زنزفــة الى منزله بتمولسة ، فشيعه المشائخ الى قلعة بنى على ، منهم على ابــن منصور ، وابراهيم بن يوسف ، وغيرهم ، فوقفــوا للرجوع فكرهوا مفارقة ابى الربيع الا وقد عزوه فى ابى سليمان ، فتناجوا أيهم يجسر على مخاطبته بذلك ، وخشوا ان يدخلوا عليه روعة ، اذ لم يتقدم عنده علم ، فدنا ابو اسحاق ابراهيم بن يوسف والشيخ حينئذ راكب على فرس لرجل من بنى زنزفة ، فقال له : احسن الله عـــزاك فى الشيخ ، وآجرك فى المصيبة فيه ، فقال له : ومن الشيخ ؟ قال : ابو سليمان داود بن يوسف ، فلما سمع ذلك نزل على الفرس ، فقال : « انا لله وانا اليه راجعون » ، فلمـــا تو ادعوا وقضوا حق التعزية فرجعوا عنه ، قال وسرنا معه نحن الى « تمولسة » فأخذ يحدثنا أخبار السلف ويــذكر سيرهم ومناقبهم ، وما صبروا عليه وما صابروا ، وكابروا وكابدوا ويتوجع لما صار الناس اليه من فساد الزمان ، وما نزل بهم من ذهاب الخير وأهله ، وانقراض العلم وحملته ، حتى قال انقطعت آثارنا من المغرب .

وذكر حديثا للرجلين الذين اقبلا من المشرق يريــدان زيارة بكر بن حماد الشيعى ، فلما وصلا مصر سمعا بوفاته فقال احدهما للآخر انقطعت آثارنا من المغرب ، فرجع من موضعه وقال الآخر اما انا فلا ارجــع حتى آتى اولاده ، فتمادى به السير حتى انتهى الى تاهرت ، فسأل عمن خلف بكر بن حماد فقيل له خلف ولدا لا يستحق ان يسأل عنه ، فأبى الا رؤيته ، فطلبه فوجده ينوح مع النساء ، فلما رءاه قال : « انا لله ، مصيبة الاخيار فى أبنائهم » . وانما اورد هذا تفجعا وتوجعا ، لفقد ابى سليمان ، وكونه لم يخلف من يقوم مقامه .

مصيبة الاخيــار تكــون ـ احيانا فى ابنائهــم

وسرنا طريقنا كله وهو يكرر انقراض الخير، واندراس الدين ، وفقد العلماء وانطماس الآثار ، حتى قال : فقد الناس من مسائل الحلال والحرام والفقه اكثر مما فقدوا من مسائل علم الكلام والجدال ، ولا اعلم اليوم من يقــرأ عليه علم الفروع الا ان يكون احد من تلامذة ابى سليمان هذا « يعنى ابن ابى يوسف » فان منهم جماعة بوارجلان . وقال ابراهيم ابن ابى ابراهيم رايت ابا سليمان فى منامى بعد موته فقلت لعلك ظفرت يا شيخ ؟ قال : نعم ، ثم قال قل للعزابة عليكم بالدعاء ، وقيام الليل ، والمعــروف.

الشيخ يشكــو من جهل النــاس باحكام الشــريعة

أبو القاسم يونس ابن أبى الحسن

ومنهم أبو القاسم يونس بن أبى الحسن رحمه الله . من جملة الفضلاء ، المكرمين باستجابة الدعاء ، المنتظمين فى سلك العلماء ، وان كان السيمى مقصورة على شيــم الصلحاء .

ذكر ابو سليمان ان الوباء وقع في اجلو سنة من السنين فاضر باهلها في جناتهم ، وآذاهم أذى كثيرا ، واقتضى نظرهم ان يجتمعوا ويصوموا يوم الاربعاء والخميس والجمعة ، ولما صلوا صلاة العصر يوم الجمعة خرجوا الى محراب المقبرة ، وهو موضع معروف بالبركة ، واستجابة الدعاء ، واجتمعوا عنده ، وقرأوا وتطوعوا بالمعروف ، وعادتهم ان يحضروه ويدعوا ، ثم حضرت صلاة المغرب وصلى بهم امامهم يونس بن ابى الحسن ، فلما صلى دعا الله ان يرفع عنهم الوباء ، ولم يصبح حتى لم يجدوا له اثرا .

وذكروا عنه انه كتب الى من بقسطيلية من طلبة مزاتة « اما بعد فاجعلوا حوائجكم بكريات، واذا وجدتم ما ترعون فارعوه رعى النهماء من الغنم، ولا تمجوه مج الريان الماء » في كلام كثير ينشطهم به الى القراءة والاجتهاد في الطلب .

أبو الربيع سليمان الزلفيني

ومنهم الشيخ ابو الربيع سليمان بن موسى الزلفيني رحمه الله . ذو النفس الالفية، والخلق المرضية، والدعوات المستجابات الدينية ، المحافظ على الامور الدينية والدنيوية .

وعنه يحكى انه نظر فرج ابنته ففارق امها ، وعنه يحكى انه قال : ان أهل وارجلان اذا مات احد من فضلائهم في اى قرية من قراهم بعثوا الى أهل القرى ليحضروا جنازته ، فكانت هذه عادتهم ، فلا يعجلون بدفن من يموت عندهم حتى يشهدوا جنازته جماعتهم ، قال فمات رجل في « يمطنون » يسمى « صالح الصادق » فبعثوا الى أهل

« تينبماطوس » قالوا فحضرنا جنازة الرجل ، وكنا قد وجدناه قبل ان تخرج جنازته وجدنا داره مشحونة بالناس قال ، فقعدنا على باب الدار ، فجيء بالنعش فاذا الباب ضيق قصير عنه ، فجهزوا الميت ، واخرجوا النعش ، ولما وصلوا الى الباب خرجوا أسهل خروج ، فأختلف من حضر داخل الدار وخارجها فقال بعضهم انما خرج من العتبة ، وقال بعضهم بل اتسع الباب وخرج النعش ببركة الله تعالى .

كان الشيخ مجاب الدعوة عند الله

وذكروا ان ابا محمد بن سليمان العرجا ورد من القلعة (I) على ابى الربيع فقال له : انى تركت عبد الله بن حسن وولده فى الجيش القلعى ، فادع الله ان يهلكهما ، فقال له كن فى غيرهما ، واما هما فقد هلكا ، فكان كما قال ، وسمع ماكسن يدعو على بنى ظافر ، فقال له ادع على غيرهم ، واما هم فقد هلكوا ، فكان كما قال . وكان العزابة يقولون : اذا اردت ان تعرف عدد عيال أبى الربيع فراقبه وقت التطوع بعمل المعروف ، يعنى انه يتطوع على كل رأس بمعروف ، وكانت له حركة فى جسده فيها دلالة يعرف بها امورا خفية ، فكان الشيوخ اذا دعوا وحس بما يدله على استجابة دعائهم يقول لهم : قد اجيب دعاؤكم ، والا سكت ، ومثل هذا من الكرامات لا تنكر .

يابى من ارتكاب المكروه ولو انه يجر منفعة

وعزم ابو الربيع سليمان بن موسى على ان يكنس عينا او يحفرها ، وهى التى فى شرق مسجد تامولسة ، فاعانه اخوانه بخدمة عبيد، فلما حضره العبيد وشرعوا فى الخدمة جعلوا يتغنون ، ويقولون ما يقول امثالهم ، فقال لهم « اطلعوا من عينى فان كانت لا تحفر الا بمعصية الله فلا

(I) يعنى قلعة بنى حماد بنواحى امسيلة

حفرت ، قال ابو مرداس فهلاك فى طاعة خير من نجاة فى معصية » فلما رأوا ذلك منه تركوا ما كره .

وذكر ان الشيخ معاذ بن ابى علي كان مسكنه بقصر بني ولـيل من بلاد قبلة اريغ ، فكان دأبه ان ياتى فى كل ليلة الجمعة الى اجلو فيبيت مع الحلقة ، يحيى ليلة ثم يقيم حتى يشهد مجلس يوم الجمعـة ، ثم يصلى العصر ، ثم ينصرف الى أهله ، فصادف مجيئه ليلة من الليالى مجيء فتى من ولد ابى ويدران الفطناسى المزاتى يسأل المعروف ، وكان هذا الفتى اقرع وكان ابو ويدران المذكور اول غريب دخل هذه البلاد الريغية ، وهو الذى بنى مسجد تينسلمان ، على مصلى حبيب بن زلفين ، قيل فلما رأى معاذ المذكور الفتى المذكور ازدراه وانتهره ، فقال له ، ما ها هنا الا التلامذة والا فاهل المنزل قد خرجوا فى طلب الربيع ، وكان الشيخ ابو الربيع بحيث يسمع كلام معاذ فانتهره ، وقبح عليه ما قابل به الفتى ، وقال له : قال الله تعالى « وكان ابوهما صالحا » ثم التفت الى أهل الموضع فقال لهم اعطوه ما اعطاه وقته ، فاعطوه ما أربى على مأموله ، وانقلب شاكرا ، ثم ان الشيخ ابا الربيع قابل معاذا باشد من الوجه الذى قابل به الفتى ، وأنّبه كل التأنيب بكلام طويل .

الشيخ ابو الربيع يكرم ابن ابى وايدران تقديرا لابيه

ومنهم أبو العباس أحمد وأبو يعقوب يوسف
ابنا الشيخ أبى عبد الله محمد بن بكر رضى الله عنهما

كانـا فى طلـب الخـير فرسي رهـان ، مشتركـين فى كـل فضيلـة شركـة عنـان فلعـل احـدهما اعلـم والآخـر أزهـد ، فلكـلا الوصفـين دلائـل تشهد فان المنسوب الى احدهما تأليف كتاب، وتهذيب جواب

والمنسوب الى الآخر دعاء مستجاب واستعداد لمآب ، وبينا انهما حائزان على هذا السباق ، ومن دون اغبارهما تقطعت الاعناق ، ولا غرو لامثالهما فى جميع احوالهما ، فان مفيض ضيائهما بدر باهر النور بهيجه ، وهل ينبت الخطى الا وشيجه ؟ .

فضل ابى العباس وخدمته للمذهب

قال ابو محمد اجتاز بنا ابو القاسم عبد الرحمان بن عمر فخرجنا معه مودعين ، وكان فيما اورده من القول عند وداعنا ان قال : ان اقل ما نزل من السماء الى الارض التوفيق وقلَّ ما يدعو به المرء الا استجيب له ، ثم قال : رحم الله احمد بن محمد ، فقد كان رحمة لاهل مذهبنا حيا وميتا ، وذلك انه كان فى حياته بيت العلم يفيد به كل طالب وكل ذى حاجة ، ولما دنت وفاته اودع علومه الكتب فصنف تصنيفات خمسة وعشرين كتابا وكتابا آخر تركه فى الالواح (1) .

يتعجب من احوال الناس يفعلون خلاف ما يعتقدون

وذكر داوود بن يخلف عن ابى العباس انه قال : الناس اذا اتاهم خبر خوف انتقلوا عن الحال التى كانوا عليها قبل ورود الخبر ، ولو كانوا فى حر وبرد ، وأخذوا لأنفسهم بالحذر والتحرز ، ولعل ذلك الخبر يكون او لا يكون ، وليسوا منه على يقين ، ولقد انذرهم الله النار وخوفهم من الشيطان ، وكان ذلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدقوا المرسل والمرسل ، وأيقنوا بذلك وتركوا التحرز ، واغفلوا الاستعداد لذلك ، والحذر من سوء ما يتوقع من ذلك ونسوا فقد اخوانهم وتفقد احوالهم ،

---

(1) يشير الى المؤلفات التى تركها الشيخ أبو العباس بعضها مفقود ، وبعضها لا زال ضمن المخطوطات ، ككتاب اصول الاراضين ، فى ستة اجزاء ، والسيرة فى الدماء والجراحات ، والجامع المعروف « بابى مسئلة » وتبين افعال العباد فى ثلاثة اجزاء وبعض هذه الكتب أصل لكتاب « النيل » وملخص لها .

ويا عجبا الناس يكرمون اضيافهم خوفا من اللؤم والذم واضياف الله الكرام الكاتبون معهم وهم يعلمون ويتيقنون انه « ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » . « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله » ومع ذلك فلا يعبأون ولا يكترثون .

سبب اقبال الشيخ على التاليف

وعن ابى محمد أن سبب تأليف ابى العباس كتابه الذى تسميه العزابة « ابا مسألة » ان ابا عبد الله محمد النفوسى كتب اليه من « أبيدلان » يرغب اليه فى مختصر ، مشتمل على مسائل فى الفروع فتدبر كيف يضع هذا التأليف ، فنام فرأى فى منامه قائلا يقول له : اذكر ابا مسألة ، فجعله فى جزءين ، فسماه العزابة ابا مسألة ، واما ابو محمد فكان يسميه جامع الشيخ ابى العباس .

وروى ابو محمد وابو نوح عن ابى العباس قال : أتانى آت فى منامى رجل ابيض فتقدمنى واتبعته حتى دخل فى قرية « تنزاج » من قرى نفزاوة ، ثم أتى المسجد وقصد المحراب ، فقال لى : احفر فحفرت حتى استخرجت قصعة كبيرة ، فوجدت فيها دينارا ، فقال لى خذ ارث والدك فسألت « بقابس » عن تاويل رؤياى رجلا حاذقا بتفسير الرؤيا ، فقال لى : القصعة العلم والخير ، والدينار الصافى دين والدك ، فرجعت الى « تمولسة » قال فبلغ فيها فى العلم مبلغا عظيما ، وصنف بها عشرين كتابا ، وكتابين معروضين عليه ، وقد عرض جميع ما صنف غير كتاب واحد تركه فى اجلو مبيضا فى الالواح ، ورغب اليه الاشياخ فى وصولها اليهم « بايفران » من قرى وارجلان فعرضها عليهم ولده ، وهم : اسماعيل ، وحمو بن المعز ،

وأيوب بن اسماعيل ، وداود بن واسلان ، وأبو سليمان الزواغي .

انكباب الشيخ على المطالعة زمن التلمذة

وروى ابو عمرو عن ابى العباس انه قال : كنت اقرأ على الشيخ سعدون واحضر مجالسه ، فاول ما وقعت فيه المذاكرة عنده مسألة ذبيحة الاقلف ، هل تؤكل ام لا ؟ وقال فى المسألة قولان ، ولم يزد على هذا شيئا ، قال أبو العباس وكان الديوان فى نفوسة مشتملا على تصانيف فى المذهب ، فلازمت الدراسة اربعة اشهر لم اذق فيها نوما ليلا ولا نهارا الا فيما بين اذان الصبح الى طلوع الفجر ، فنظرت فى اثناء ذلك فيما هناك من كتب المذهب التى وصلت من المشرق فاذا هى نحو ثلاثة وثلاثين الف جزء ، فتخيرت اكثرها فائدة فقرأتها حينئذ .

الفتنة التى وقعت بين اهل الدعوة بأريغ ، وخروج المشائخ منها

وذكر انه وقعت فتنة ببلاد اريغ سنة احدى وسبعين واربعمائة ، وهى فتنة « خيران » « وتاغمارت » وهى اول فتنة وقعت بين وهبية اريغ ، فلم يمكن ابا يعقوب بن الشيخ مقام ، فهرب الى وارجلان فكان « بتماواط » وهرب أبو صالح من «وغلانة» فقضى الله بوفاة أبى يعقوب بتماواط فاوصى واستخلف على تنفيد وصية الشيخ اخاه أبا العباس ، فجاء أبو العباس الى محمد بن اخيه فلم يجد عنده ما ينفذ منه وصية والده غير دينار واحد ، لانهم كانوا فى عسر شديد عظيم ، بعد رجوعهم الى عين يونس ، فقبض منه الدينار فصرفه فى اوكد وجوه الوصية ، ولم يزل يستخرجها برفق حتى انفذها كلها .

وبلغ أبا محمد ان أبا العباس احتضر وكان قد استخلف أبا موسى على وصيته فجاء أبو محمد مبادرا الى

«أجلو الغربى» فوجدوه فى دار يحيى بن جعفر فى السياق ، فاعلم بقدومه هو ومن معه ، فقال : أيتوني به وباصحابه فلم يدخلوا عليه الا وقد توفى ، رحمه الله ، وكان قد اوصى بان يصلى عليه أبو محمد ، فجهزوه وصلى عليه ودفنوه وكانوا قد ألقوا على القبر سترة فقال بعضهم انما هذا للنساء ، وقال بعض نصنعها للرجال وللنساء ، فهو احسن من ان لا تكون سترة ، فلما دفنوه دخلوا وعزى بعضهم بعضا ، وعزوا اهله فتمثل أبو محمد عند دفن الشيخ أبى العباس بقول الشاعر :

كفى الخليلين ان الارض بينهما
هذا عليها وهذا تحتها بالى

وكان وفاة أبى العباس بذى الحجة سنة اربع وخمسمائة ، رحمة الله عليه .

أبو العباس أحمد الوليلى رحمه الله

ممن رزق على العبادة والطاعة طاقة ، وأيد بالرضا والصبر على العدم والفاقة ، وكان ذا كرامات يتناقلها الراوون ، وبركات لم ير مثلها الراؤون ، وكان له حسن اعتقاد ، وكثرة قناعة ، واقتصاد .

ساعة تجل ظهرت لابى العباس

ذكروا ان أبا العباس أحمد الوليلى طلع سنة من السنين الى جبل بنى مصعب ، فى أيام الربيع ، فصادفه هنالك شهر رمضان فلازم ربوة (١) يتعبد فيها عاكفا على القيام والصيام ، فلما كان فى الليلة السابعة والعشرين من رمضان وكانت ليلة جمعة اقبل على ركوعه وسجوده ،

(١) وتعرف الربوه الآن فى ميزاب بجبل أبى العباس ، ومصلاه فيها معروف يقصد للدعاء والتبرك

فبينما هو كذلك اذرأى كل شيء معه ساجدا ، فلما سلم
رأى نورا ساطعا وأبواب السماء مفتحة ، واذا بحورتين (2)
قد نزلتا من السماء فقصدتا نحوه وقد التفتا فى لحاف
واحد ، احداهما كبيرة ، والاخرى دونها صغيرة ، لم ير
مثل صورتهما ولا مثل نورهما الذى اضاء البر ، فقعدتا
امامه والصغيرة خلف الكبيرة ، فخاطبتاه وجرى بينهما
كلام ، حتى اعلمتاه انهما زوجتاه فى الجنة ، فحاول الدنو
منهما ، فقالت له الكبرى : اليك ، اليك عنا ، فان فيك
نتن الدنيا ، ولكن الميعاد بيننا وبينك فى العام القابل
ليلة الجمعة ، كدية الطبل من تينسلمان ، وهو منزل أبى
العباس ، قال فصعدتا ، ثم اتبعتهما ببصرى حتى غابتا
فى السماء ، وغلقت الابواب دونهما ، فسار أبو العباس
باثر ذلك الى وارجلان فاخبر بعض الشيوخ بما عاين ،
فلما دنا الوقت جاء الى اريغ فمر بالشيخ أبى العباس ابن
محمد بتينيسلا فرغب اليه هو والعزابة فى المبيت ، فابى،
وجاء الى أبى العباس واخبره ان الميعاد بينه وبين الحور
العين ليلة الجمعة المقبلة ، فقال لهم ابو العباس : دعوه
فان الدولة عنده الليلة المقبلة ، فتوجه الى الرملة فاذا
الحورتان كاسفتا اللون كأن بهما كآبة ، وكان أبو العباس
اذا وصفهما يقول كأن العين منهما كالقدح ، والاشفار
كجناح النسر ، وارنبتيهما كناحية قصر بنى يخلف ،
فسألهما عن تغيرهما فقالت لبوحك بسرنا ، ولان اولياء
الله يقتلون على امرهم بالحق ، وذلك حين قتل عبد الحميد
الوليلى ، واستخف باهل دين الله وما كسن بن الخير يرجم
بالحجارة لامره بالقسط ، قيل : وقد ذكرت له الا بدال

(1) هكذا ثناها الشيخ رحمه الله ، والا فالقياس حوراوين

حينئذ . ان ابـدال وقتهم سبعـة : عبد اللـه بن يحيى ، وابراهيم بن اسماعيل ، وابراهيم بن معاذ ، ويحيى بن عيسى ، والنعيم بن الولى ، وقيل سليمان بن عبد اللـه ، وصالح بن محمد ، وقيل يوسف بن ونماواى ، وقيل عبد الله بن يعقوب ، وهؤلاء كلهم رجال صالحون ، ثم قالـت له ليلة الاثنين تبيت عندنا ، وصعدتا الى السماء ، فلمـا صلى صلاة الظهر يوم الاحد بعد ان ودع اهله وقضى جميع ما أراد قضاءه موقنا بما لا بدله منه ، فقال لهم احسست صداعا فما هو الا ان صلى العصر فمات ، رحمه الله .

أبو زكرياء يحيى واخوه زكرياء

ومنهم أبو زكرياء يحيى بن أبى بكـر ، واخـوه أبو يحيى زكرياء رحمهما الله . كانا من الافاضل ، المقتفين آثار الاوائل، لم تزل نفس الديانة بحياتهما حية، وطرق البر ناهجـة والصلاحية ، وطلب علـوم المذهب وسيرمن تنسك او ترهب ، ولهما فى علوم النظر اطول باع ، بادلة ذات اقناع ، وحجج تملأ القلوب والاسماع ، وتغنى عند المحاضرة ما لا تغنى المشرفية عند القراع ، فكانا مـراد الفارين ، على تباعد الدارين .

ما عليه اهل وارجلان فى عهد الشيخ ابى يحيى

ذكروا ان أبـا يحيى زكرياء بن أبى بكر توجـه ذات سنة الى وارجلان زائرا ، ثم رجع فمر بجماعة من اصحابه بقنطرار ، فسألـوه عن احـوال اهل وارجـلان ، وكان ذا فطنـة وبصيرة ، فقال : إما انا ذهـب بصرى فلا أرى شيئا ، ولا رأيت احدا ، وأما وارجلان خلت فما بها احد.

وحكى ان اهل وارجلان قالوا له حين وصـل اليهم : أقم عندنا قليلا نتأنس بك ، فقال لهم : قولوا اقـم عندنا

قليلا يمت قلبك ، وذلك لما اطلع عليه من سوء طريقتهم ، ورداءة احوالهم (I) .

يأبى من تلامذته التوقف دون اكمال الدراسة

وذكر غير واحد من تلامذة أبى الربيع سليمان بن يخلف قال : اردنا الطلوع الى جبل دمر لدراسة الكتب ، ونحن جماعة نقرأ بتمولسة ، فلم يوافق ذلك أبا الربيع ولا أبا يحيى زكرياء ، فمضينا على ذلك فشيعنا أبو يحيى فقال : اعلموا ان سوء الرأي انما يخرج منه من دخل فيه بالرجوع عنه ، لا بالتمادى عليه ، وقال لهم أيضا : انكم ان مضيتم الى اهليكم على هذه الحالة كنتم كمن تعمد اماتة الدين ، وهذا تحريض وترغيب فى طلب العلم .

وكان كثيرا ما يوصيهم فيقول لهم : اياكم والتسارع الى قبول صنائع الناس وهداياهم ، فانه قيل كن عبدا لله ولا تكن عبدا للناس ، وانشد فى ذلك :

ولست وان قربت يوما ببائع
لدينى واخلاقى ، رجاء التقرب

ويعتاده قوم لقوم تجارة
ويمنعنى من ذاك دينى ومنصبى

وكما قيل : اترك الطمع يتركك الفقر ، واحمل نفسك على مالك يحملك وارض بقليل من الرزق يرض الله عليك بقليل من العمل .

وكتب أبو زكرياء الى أبى نوح محمد فى مسئلتين : احداهما خلع الفضول هل ينعقد ؟ وذلك مثل رجل يقول

(I) كان اولى بالشيخ رحمه الله ان يقيم بينهم فترة لينير لهم الطريق خير من الهروب ، كما فعل من سبقه من المشائخ ، ولعله رحمه الله ادرى بالاحوال ، فراى ذلك أسلم .

احكام شرعية في الخلـع والتصرف في امهال الابن والزوجة

للآخر قـد رددت لك مالامرأته عليك على وجـه الطلاق ، فيقول : قد قبلت فيبلغ ذلك المرأة فترضاه ، فاجابه بان ليس في ذلك شيء ، ولو اجازته لانـه تقدم بغير امـر ، والثانية الوالد والولد والزوج والزوجة هل يجوز لكـل واحد منهما حوز مال الآخر ام لا ؟ فاجاب بانه يجوز ذلك للاب والزوجة ولا يجوز ذلك للابن والبعل لانهما خديمان وقيل فيهما غير ذلك ، قلت اما المسئلة الاولى فعلى اصل قول أبي الشعثاء رحمه الله لا ينعقد الطلاق لذلك عـلى كل حال ، لانه عنده فسخ نكاح ، واما على قول أبي عبيدة فتخرج المسئلة على انه ان قال له تركت لك صداق امرأتك على ان يطلقها ، فيقول قبلت ، فتجيز المرأة الترك ويقبل الخروج من العصمة فهذا ينعقد ، والا فتحتمل الخـلاف . واما الثانية فان الابن اذا كان في حجر ابيه جاز له ، وان كان غير محجور فله من مال أبيه النفقة والكسوة والمؤن ، وفي مذهبنا العتق في الظهار ، وليس له التصرف في غير ذلك ، وللمرأة في مال بعلها ما لمثلها على مثله فقط .

ينبغـي للانسـان ان يتزوج كفاه

وشاور رجل أبا يحيى زكرياء في التزوج ، واي امرأة يتزوجها ؟ فقال : اذا جئت الى شجرة فـاي ثمارها ايسر عندك ؟ ما مددت اليه يدك نحو فمك ، ام ما اشرف اليـه عنقك ، أم ما طأطأت اليه رأسك ؟ فقال بل ما مددت اليه يـدي ، وما كان امامي فلـم احتـج فيـه الى مديدي الى الاشرف، ولا ان أطأطئ اليه رأسي، قال عليك بقرينتك.

وروى أبو عمرو عن أبي زكرياء بن أبي بكر انه كان كثيرا ما يردد قول يحيى بن معاد الرازي : للتوبة ثـلاث مقامات ، الندم ، والاستغفار ، والحقيقة ، فالندم عنـد التحول ــ والشعور ــ بمرارة المعاصي ، والاستغفار طلب

الغفران بصحة الارادة ، والحقيقة الأوبة الى الله عز وجل فآفة الندم الامل ، وآفة الاستغفار الغفلة ، وآفة الحقيقة الشهوة فيستحسن فيعمر به مجالسه .

من ينبغى ان تجالس

وروى أبو عمرو عن أبى يحيى قال : قال الحواريون لعيسى ابن مريم : من نجالس بعدك يا روح الله ؟ قال من يذكركم الله رؤيته ، ويزيد فى علمكم منطقه ، ويرغبكم فى الآخرة عمله ، قال ابو زكرياء ، مثل ابى يحيى ، وقال ابو عمرو مثل ابى زكرياء .

مصالة بن يحيى ، وفلفول بن يحيى

ومنهم مصالة بن يحيى ، وفلفول بن يحيى رحمهما الله لكل واحد من هذين الشيخين مآثر ، وفضائل مخلدة فى بطون الدفاتر ، ينقلها عن الاوائل الاواخر ، معدودين فى اهل العلم والديانة والبصائر .

كان الشيخ عظيم الثقة فى الله تعالى

ذكروا ان مصالة بن يحيى كان كثير الثقة بالله عز وجل ، وكان يقول : انما استدللنا على ان الله عز وجل قد استجاب دعاءنا الذى ندعوه به فى امر الاخرة ، بما شاهدناه من اجابة دعائنا فيما نسأله فى الدنيا .

وذكروا ان مصالة بن يحيى اوصى داود بن ابى يوسف فقال : اذا عمل اهل وارجلان عملا مما لا تعلم فاحمل نفسك على انك لا تعلم ، وان كان مما تعلم انه سوء عمل فاحمل نفسك على الكتمان ، ودع عنك الاختلاف ، وقد حكاه آخر عن ابى عبد الله ، وقال ابو نوح كان مصالة اذا سئل بماذا تصلى هذه الفضيلة او هذه النافلة من القرآن ؟ يقول : القرآن كله قدح عسل فما والاك منه وجدت عسلا .

كان لا يرى تفاضلا بين آى القرآن

احتفاؤه بالتلامذة

وعن جماعة من تلامذة ابى الربيع سليمان بن يخلف قال لما انفصلنا عن « تمولست » وتوجهنا الى بلادنا جزنا على ناحية اريغ ، فسلكنا من « وغلانة » ومررنا بفلفول بن يحيى فاكرم مثوانا ، واحسن نزلنا ، وكان يقول مع ذلك معتذرا قريتنا صغيرة ، ودراهمنا قليلة ، ويتمثل بالبيتين :

أرى نفسى تتوق الى المعالى
ويقصر دون مبلغهن مالى

فلا نفسى تساعدنى ببخل
ولا مالى يبلغنى المعالى

واقبل تلك الليلة على مؤانستنا وافادتنا بغرائب الاخبار والسير ، حتى كاد الفجر يطلع ، فمما حفظناه تلك الليلة أجوزة فى الوعظ اوردها علينا وهى قول الراجز :

اذا رأيت صلعا فى الهامة
وجذبا بعد انتصاب القامة

وصار شعر الرأس كالثغامة
فأيس من الصحة والسلامة

وعد الى التوبة والندامة
فقد عليك قامت القيامة

وقال : لما مات أبو عبد الله محمد بن بكر قلت للمشائخ « اقتفوا بنا آثاره مادات جديدة غير مندرسة ، قالوا مهلا عليك ، فساعدتهم حتى عفا الاثر ، ودرست السير . ولما انفصلنا شيعنا فقال له احدنا : ارجع ، فقال آه ، لا يقال

كذلك ، انما يقال انظر فى الرجوع ، ولم يزد بعد هذا خطوة ، لانه قال : انه ماجور ما لم يقل له ارجع ، وكان هذا الشيخ شديدا فى الامر والنهى والدب عن دين الله ، فروى انه حين احتضر كان يتمثل بقول عمران بن حطان رحمه الله :

حتى متى لا أرى عدلا اسر به
ولا أرى لدعاة الخير اعوانا

فتح عليه بالقسم الاخير ، وعجز عن الاول ، فطفق يسئل من حضر كيف القسم الاول من هذا البيت ؟ فكان هذا من آخر كلامه ، رحمه الله .

أبو موسى عيسى بن يرصوكسن

ومنهم ابو موسى عيسى بن يرصوكسن رحمه الله . الشريف منسبا ، الطيب مكسبا ، الرفيع مطلبا ، الهاشمى العربى ، وابن عم النبىء ، نماه عبد المطلب والعباس ، فانتمى الى اشرف بناء قائم على اثبت اساس ، الدين حليته والحياء والكرم جبلته ، والسخاء سجيته ، وهو ممن يتعلم منه الورع والعلم ، وممن يطعم ولا يطعم .

الشيخ احيى مواتا وعمره فظهرت فيه البركة

فروى ان عيسى بن يرصوكسن شاور أبا يعقوب يوسف المعروف بالطرفى فى نزوله المنزل المعروف « بتلاعيسى » المنسوب اليه ، فاخبره بحال البلد ، فدله على ذلك ، وشكره له ، الا انه قال : اذا توطنت هذا الموضع فلا تمش راجلا ولا تشرب ماءه الا ممزوجا ولا تشربه صرفا ، واستخدم ولا تخدم بنفسك ، وكن للناس كالسمار مع الماء ان علاه الماء خضع ، وانا علا الماء سطع ، فبلغ فى هذا المنزل مبلغا عظيما هو ، وبنوه من بعده ، يحيى وداود ، وعبد الله بن

يحيى ، وانضم اليه الناس وسكنوها معهم ، وغرس بها الشيخ عيسى الاشجار من النخيل ، وصار فى النخيل ودايا كثيرة ، وكان اذا قلع الودايا الراكبات فى الامهات يسلخها ويرفع جمارها الى « باماوط » مع لحم ما يصيده من الوحش والظباء والارانب ، والظلمان ، والبيض ، والحبارى وغير ذلك ، فيهدى ذلك الى المشائخ العزابة ، فيأكلون اللحم والجمار ، فكان يتبرك بذلك فبارك له ربه فى كل ما يحاوله ، وسعى فى اصلاح فساد المفسدين من بني وليل حتى اصلح الله فسادهم ، فاستقامت عمارة هذا الموضع ، واشتهرت بركته ، وعمره جماعة معه من المشائخ ، وانضافوا اليه ، ومنهم من ضرب فى العقار بسهم وان لم يستوطن المنزّل ، والجماعة المذكورة هم : ابو عبد الله بن بكر ، ومحمد بن الخير ، وماكسن بن الخير ، ومعاد بن على ، وعبد السلام بن ابى وزجوف ، وان آثارهم بها الى اليوم معروفة .

خبر خيل الميورقى عندما وصلت الموضع

ولقد حدثني رجل ينتمي الى « لمتونة » يعرف بابن القابلة ، ورد توزر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، قال : وكنت فى خيل يحيى بن اسحاق الميروقى[1] متوجها بعسكره من اريغ الى وارجلان ، أو قال من وارجلان الى اريغ ، فنزل « تلاعيسى » ، وأراد الاجناد والاعراب ان يطلقوا خيلهم فى الزرع ، فانذرهم بعض من معهم ممن عرف قديما حال الموضع واهله ، وحذرهم ، فقال : « هذا موضع منسوب الى رجال عزابة ، صلحاء مساكين ، يتقى عقوقهم ، فاياكم واياهم » فمن الجند من تنحى ومنهم من توقف ، فقال لهم عمران كاتب الميروقى ؛ « أبكلام هذا السخيف أسنع فرسي هذا الخصب ، قال لهم ، فليدعوا على

(1) هكذا اثبتت نسبته النسخ المعتمدة

فرسى ، واطلقها فى الزرع ترعى ، واقتدى به غيره فى هذا الضلال ، والاستخفاف بقدر أولياء الله ، قال وكانت فرس عمران تسوى اربعمائة دينار ، قال فوالله ما رفع من هناك الا رستها وسرجها ، وانها السابقة سبعة وعشرين فرسا للمستخفين من الاعراب ، والاجناد ، كلها صرعى هلكى عبرة لاولى الابصار .

ويروى ان جماعة من دعار بنى وليل بلغهم ان الشيخ عيسى عزم على المسير الى اريغ ، فهموا بقتله ، ورصدوه ، فركّب بغلته وصرف وجهها الى ناحية اريغ فشمست وامتنعت عن المشى ، فضربها فتولت وذبحت براسها ، فلما رأى ذلك استخار الله تعالى فى الرجوع ، فلما رجع الى اهله شعر بمكر اعداء الله فقال : قد وقفت عند كل ما أوصانى به الشيخ ابو يعقوب الا الخدمة فانى لم اجد بدا من الخدمة بنفسى ، يريد لو لا سبب ركوبى ما نجوت من مكر اعداء الله .

إسماعيل بن يدير

ومنهم اسماعيل بن يدير رحمه الله . لم يتأخر عن تلك الطبقة ، ولا فاته احد من تلك الحلبة ولا سبقه ، بل هو معدود فى المبرزين ، نقي من درن اعجاز المعجزين ، واذا عد الحفاظ كان أولهم تحصيلا ، أو سمى المجتهدون فهو الذى لا يفتر بكرة واصيلا .

ديوان العزابة والذين تعاونوا على تاليفه

ذكر غير واحد من المشائخ ان جميع الطلبة العزابة لما اجتمعوا على تأليف كتاب فى المذهب ، يسهل على المبتدئين حفظه ، وجعلوه خمسة وعشرين جزءا ، انفرد الشيخ اسماعيل بكتاب الصلاة ، فجاء فيما نحوه احسنهم تأليفا ،

وجاء تأليفه أحسن من تلك التواليف رتبة ، واكثرها فائدة وقيل بل جمع اسماعيل كتاب الصلاة كما ذكر ، وجمع ابو العباس بن بكر كتاب الحيض ، وجمع يخلفتن بن ايوب كتاب النكاح ، وجمع محمد بن صالح كتاب « الوصايا » ولما مات ابو سليمان داود بن ابى يوسف اجتمع تلامذته على تأليف الكتابين المنسوبين اليه ، وليس هو مؤلفهما ، وقال ابو عمرو بل تركهما فى الالواح فعرضهما ابو العباس ، واما الذين ألفوا كتاب العزابة فهم ثمانية شيوخ عزابة طلبة مخلصون ، منهم من نفوسة : امسنات يخلفتن بن ايوب ، ومحمد بن صالح ، ومن قنطرار : يوسف بن موسى . ومن تجديت : يوسف بن عمران بن ابى عمران المزاتى . ومن اريغ عبد السلام بن ابى سلام ، وجابر بن حمو ، وابراهيم بن ابى ابراهيم ، وعرضت هذه الاجزاء على ابى العباس وابى الربيع وماكسن ، وقال ابو الربيع لا يطعن فى هذا التأليف الا شيطان ، ولست ادرى هل الاجزاء المتقدمة الذكر داخلة فى تكميل الخمسة والعشرين ام زائدة عليها .

الطبقــة الحادية عشرة 500 هـ 550

عبد الرحمن بن معــلى

منهم عبد الرحمن بن معــلى رحمــه الله ورضى عنه . ذو المقامات الكريمة ، والكرامات العظيمة أول من أسس بمسجد تقورت الحلقة وانهج طرقها ، واحكــم عقودهــا واوثقها ، وقيدها ووقتها ، وحجر على تلامذته أزقتهــا ، وقسط موازينها ، وحقق قوانينها ، فتخلق كلهم بحميــد هذه الاخلاق ، وتيممها طلاب الخير مـــن جميع الافاق ، يشاهدون البراهين والعبر ، يشهدون المنافع الكبـــيرة ، ويأخذون السنن عن الثقاة والسير ، ويصدقون المخبـــر والخبر ، فلا يكلفهم بمحمل العلوم ، حتى يتجاوزوا هذا المقام المعلوم

حدث ابو الربيع عن شيوخ عدة ان الشيخ عبد الرحمن رحمه الله لما حانت وفاته وبشر بلقاء الله وتحقق قربــه استدعى اخوانه ، وتلامذته ، فاجتمعوا عنده فى جمـــع كبير ، فاعلموا انه يروم سفــرا ، فاراد توديعهـــم وان يوصيهم ، قال : فحضروا بقلوب كليه غير كليلة ، وكآبة كثيرة غير قليلة ، فقال لهم : اوصيكم بتقوى الله ، وملازمة ما انتم عليه ، وان لا تبدلوا ولا تغيروا ، فانكم والله على

رؤى الشيخ وبشارته بالجنــة

طريقة الهدى ، فان اهل هذا الطريق لمفلحون ، واسمعوا أحدثكم ما رأيته البارحة ، رأيت كان القيامة قد قامت والناس من قبورهم ينتشرون ، والى ربهم يحشرون ، فانتشرت من قبرى ، فرأيت جمعا كبيرا نظر الوجوه بيض الثياب باهر حسنهم ، وجمالهم ، صالحة شؤونهم واحوالهم ، قد انتشرت من مقبرة بتجديت ، فقلت من هؤلاء ؟ فقيل لى : هؤلاء العزابة الوهبية ، فوهب الله لى جناحين فطرت بهما ، حتى اتصلت بهم فكنت احدهم ، فبشرت بالخير ، ثم نظرت الى ناحية أخرى فرأيت أناسا كالجذوع المحرقة ، فقلت من هؤلاء ؟ فقيل لى : هؤلاء الاعراب ، وبنو « تاكسنيت » ، ولقد رأيت فى الجمع الاول رجالا اعرفهم بأعينهم ، من جباة بنى سيتتن ، فقلت لهم بم فارقتم اهل الشقاوة ؟ فقالوا بمخالطة اهل الدعوة ، فاذا كان بملازمة أولئك فما ظنك بالمجتهدين ، وبأهل الفضل والدين ؟ ثم قال : ومصداق كل ما قلت لكم: انى اذا مت وغسلتمونى وأردتم تكفينى فان طراز الكفن يجىء على عاتقى فتريدون تحويله ، فتحولوه ثلاث مرات فيجىء على عاتقى، فتبقونه حينئذ على حاله، ثم اذا حملتم جنازتى وخرجتم تبعتكم عشر حمامات بيض تتبع النعش ، حتى تضعونى فى المصلى ، لتصلوا علي ، فانكم تصطفون فتكون الحمامات صفا من ورائكم ، فاذا هممتم بتقديم من يؤم بكم فى الصلاة على فان جماعة من صلحاء اهل قرى قبلة اريغ سيقدمون برسم زيارتى ، فيعلمون بموتى وخروج جنازتى ، فيخرجون ليصلوا على ، فيرونكم فى أهبة من تقدمون فيقولون لكم من بعيد : رويدا ؛ لا تعجلوا ، فتنتظرونهم ، فاذا وصلوكم كان الذى يؤم بكم احد

القادمين ، وهو ولي من أولياء الله ، فساءهم وانالهم من الجزع عليه كلما خدثهم ، حتى اذا كان عند التكفين كان ما اعلمهم به ، فتذكروه ، ثم كان من شأن الحمام والزائرين ما اعلمهم به ، فلما وصلوا قدم الجماعة ابا عبد الله محمد بن الخير ، فهو الولي وانه لذلك لحرى ، قلت لعل المذكورين من الجباة من لا يتقلد التباعات ، وكذلك فيما بلغنا كانت تلك الجماعات ، وان الجباة اذ ذاك محسنون عدول فى الجهات .

ابو اسماعيل ايوب بن اسماعيل

ومنهم ابو اسماعيل ايوب بن اسماعيل رحمه الله . بحر تتقاذف فى غواربه السفن ، وبدر يقتدى به من اقتفى من المقتفين ، ان سئل فى العلم اجاب فاقنع ، وان استسيل غيث سمائه فى سماحة صاحب فاوسع ، وان استقسى فيهما معا اروى فانفع ، وملأ الآذان والايدى ، بالافادتين وانزع ، وهو ممن وقف على علاماته ، وشوهد عجائب كراماته ، شيخ شيوخ اكثرهم ساد ، وقل ما روى من تلامذته الا من استفاد .

حدث جدى يخلف بن يخلف التميجارى رحمه الله قال : كان شيخنا ابو سليمان ايوب بن اسماعيل كثير الابرار لتلامذته ، وكانت له داران بوارجلان متقابلتان ، يفصل بينهما طريق ، وفوق الطريق ساباط وصل بين الدارين من علو ، فاحدى الدارين دار سكناه والاخرى مطلقة للتلامذة ، والاضياف ، فما كان فى دار سكناه من تحف وضيافة يتحف بها تلامذته ، أو يكرم بها اضيافه فاتينا يوما بجماعة من تلامذته الى الدار التى ابيح لنا فيها

الخبر عن دار الطلبة والضيوف

التصرف فوجدنا بابها مغلوقا ، فقرعناه فلم يجبنا احد ، فوقفنا ، فاذا الباب مفتوح ، فدخلنا فلم نجد احدا ، فعجبنا لكلا الامرين ، فانا لكذلك اذ نزل الشيخ من جهة الساباط فصادفنا عند دخولنا الدار ، فقال من أين دخلتـــم ؟ وانا أغلقت الباب ؟ فقلنا : أو لست فتحته أو امرت من فتحه ؟ قال : لا ، ولكنى اعلم ان فى الدار من فتحه لكـم ممـن لا ترونه ، والا فليس فى الدار غير الهرة التى ترونهـــا ، وكنا شاهدنا آيات ذلك مرارا ، فمنها ان أحد عمار داره الذين اليهم يشير ، وعنهم يكنى ، وانا لا نـراهم ، أنثى ذات ولد ، كان يخاطبها وتجاوبه اعلانا وكان يوما مـــن الايام ملازما للدعاء ، وكان الزوار يدخلون مثنى وفرادى لا يعرضهم مكروه ، حتى دخل شخص غريب لا رفق معه ، فلما دخل صرخ ورأيناه فى اسوأ حال ، فقال الشيخ مالك ولهذا الشيخ المسكين الضعيف ؟ فسمعنا صوتا مجاوبا له يقول : انه ظلمنى ، كنت عند عضـــادة الباب وابنى فى حجرى ، فكل من دخل استأذن وبسمل فأنحي ابنى عـــن الطريق ، فلا يؤذينى احد ولا ولدى ، حتى دخل هـــذا الجافى فلم يستأذن ولم يبسمل حتى ركض ابنى برجلـه ، فآلمه ، فجازيته على ذلك بمثله ، فقال لها : ومع ذلك كله غريب مسكين قليل الحيلة قليل القدرة فازيلى عنه ما اصابه منك ، قالت سمعا لك وطاعة يا شيخ ، فذهب فى الحـال ما كان من سوء الحال ، ومثل هذا كثير .

وكان والدى رحمه الله متألما ذات يوم لعلة كانت تعتاده فحاولت ما اسلى به نفسه ، واريح به ألمه ، فناولت تعليقة فيها شعر الشيخ ابى يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتى رحمه الله ، فصادفت القصيدة البائية فجعلت اسرد ابياتها

بحيث يسمع فاصغى الي سمعه وسلا ما كان بـه ، فقال :
اعلم ان هذه القصيدة قالها ابو يعقوب يوسف بن ابراهيم
يرثى بها شيخه ابا سليمان ايوب بن اسماعيل ، ثم قـال
وان فيها الدلالة على صحة خبر كنت سمعته فى صغرى من
ابى رحمه الله فقلت وما هو قال : كان ابى فى زمـان
شبيبته مهاجرا بوارجلان يقرأ على شيخـه ابى سليمـان
ايوب بن اسماعيل حتى قضى حاجته من الطلب ، فانفصل
فجـاء الى قسطيلية فاقام بموضعه بكنومة ما شاء اللـه ،
فبلغه موت عم له كان مهاجرا بوارجلان قاطنا بها بتماواط
وليس له وارث سواه ، قال ابى فسافرت الى وارجلان سفرة
ثانية طالب ورث لا طالب علم ، فلما وصلتها سألت عـن
شيخنا أبى سليمان لأزوره ، فاخبرت بان الله قد ابتـلاه
فى جسده ببعض ما ابتلى به اولياءه فعم جسده الجـذام ،
ولازمه اشد لزام ولازم المضجع لا حركة له ، فجئت عجلان
ولهان ، فلما دخلت عليه نظر الي وعرفنى ، فتقدمت اليه
لاسلم عليه ، فخاطبنى خطاب محذر ان اعافه واتقـذره ،
فقال اليك اليك يا سليمان يا ولدى ، فليس فى حالى مـا
تدنو منه ، فقلت : حاشا للـه ان اتقذرك ، يا شيخنا ،
وسقطت منكبا عليه اعانقه واقبله وابكى ، حتى شفيـت
بعض هيامى ، قال سعيد : ما علمت ان ابى حكاها قط الا
بكى وابكى ، قال احمد : ولا علمت ان سعيدا حكاها قط
الا بكى وابكى ، ولا علمت انى حكيتها قط الا بكيـت
وابكيت ، قال سليمان : واقمت مدة اقامتى بها لا افتـر
عن الدخول عليه حتى اقتضيت ما كان لى من حق ، فلما اردت
السفر قافلا وودعت الشيخ وزودنى بالدعاء وعموم البركة
فانفصلت وقد بشرنى بان سيخلصنى الله من شدة عظيمة

زيـارة والد المؤلف للشيخ ابى اسماعيل

فلما صرنا من وارجلان واريغ وكنا فى رفقة كبيرة فيهـا أموال جليلة ومعى مال صالح ، مما خف وثقل ، فاغارت علينا خيل كثيرة ، وقد نسي احمد من أي العرب هى ، قال فبادرت ودفنت كل ما معى فعلمته بحربة كنـت دفنـت عودها، وتركت السن بارزا ليكون لى علامة، وكانت الحربة صقلية ، واستباح الاعراب جميع ما فى الرفقة من قليـل وكثير وجليل وحقير ، واسروا الرجال ، فلطف الله تعالى به وعجل فرجه ، قال فامنونى ولـم يعرضنى احـد منهم بمكروه ، وصحبتهم كانى أخ لهم ، فلما كان من الغـد جددوا لى الامان في نفسى ومالىفاستاجرت احدهم وصحبنى الى الموضع الذى دفنت فيه ما كان معى فرأيت سنان الحربة من بعيد ، فمشيت اليه واستخرجت كل ما دفنت فحملته وحملت الاجير والمتاع ، وجئنا حتى وصلنا ، والعجـب للحربة اذ لم يرها احد من العرب بالامس ، وهى ظاهـرة تلمع ، وقدمت الى اهلى سالما من جميع الآفاق ، وما ذلـك الا بفضل الله وبركة الشيخ رحمه الله .

والقصيـدة هى هـذه :

ايـوب مـا ايـوب لا ايـوب
أودى بـه قـدر الردى المجلوب

فتلوثـت أيامـه وتصرمـت
حينـا عليـه ، وللردى تعقيـب

علقتـه اشراك الـردى من بعدما
اوفى عـلى مائة ، وجاب الجـوب

ما خط فى المكتوب لا يخطئ الفتى ،
وكذا الفتى لـم يخطئه المكتـوب

حكمت عليه يـد المنيــة حكمهـا
قبل الممات ، ولوحتـه خطــوب

سدكت بـه امــراضه و تنحــلت
أوصاله ، لم يشف مـنه طبيــب

دب البــلاء بجسمه بعـد البـلى ،
فله به طـول الحيــاة دبيــب

ذهبت بشاشتـه ، وشــرة مابـه ،
وعلاه من بعـد الشحوب شحــوب

وتغـيرت منــه المحاسن كلهــا
فتؤوب حينا ، ثـم بعـد تلــوب

حتى تخيــل كالخيــال خيالــه
بعــد النضارة والــرداء قشيب

فانسل منــه الروح عنـد وفاتـه ،
بــابى وامــى الطاهــر المسلـوب

بل مــات سبــع سنين قبل مماتـه
لــم يبق الا الروح والتــركيــب

فى كــل ما يوم يمـر وليلــة
ابــدا يقلب ظهــره التقليــب

ضــاه النبىء سميــه فى دأبــه
اذ البــلايــا بجانبيــه تــذوب

فلذا عــدا الــدهر الملوم بصرفـه
فكذاك كــان سميــه ايـــوب

قد كان ذكرى للعباد ورحمة
للعالمين ، وانه لمنيب

فلئن اتى أيوب يطلب أجره
يوم القيامة والاله مثيب

واتى امام الصابرين يقودهم
فلأنت انت الصابر المنكوب

ولئن أتى يحيى الحصور سيدا ،
لهو الحصور السيد المحبوب

ولئن أتى عيسى بن مريم زاهدا
لعلى هداه ، وهديه المحبوب

ولئن أتى يعقوب يحتسب ابنه
اذ غاب عنه وانحنى يعقوب

فلكان هذا كان اعظم رثوة
من مثكلات جلهن رقوب

بكت السماوات العلا ونجومها
حزنا عليه ، والفلا والروب

واستوحشت منه المساجد كلها
لما خلت منه ، وحن النيب

واستشعر التقوى شعارا خالصا ،
فدثاره الترغيب والترهيب

الف التقى فاعتاده حباله
وجفا الذنوب ، وقد جفته ذنوب

سبق الخلائق كالجواد بشدة
لما استوى عتقا به الا لهوب (I)

بد السوابق كلها متهللا ،
كيف السؤال اذا احتمى اليعبوب

فضلت فضائله الفضائل كلها ،
واها لجسم لم تشنه عيوب

رجل أتاه الله ربى بسطة
فى العلم ، والجسم الكريم لبيب

لله عبد خالص ، متخشع
متهلل ، متهيىء ، متعوب

عبد دعاه الاهه فاجابه
لما تيقن انه مربوب

منحته ابصار العباد محبة
لما رأته ، والوداد قلوب

طاب الثناء به ، فطاب رثاؤه
والمدح والتبيين ، والتقريب

اضحى اسير الله فى ايامه
فى العالمين ، وحاله مغلوب

والعقل اوفر ما يكون ، وانه
كالشمس نور ثاقب مثقوب

وجه اغر ، وشيمة وجلالة
من نور رب العرش ، وهو مهيب

(I) الالهوب اسم من الهب الفرس اجتهد فى الجرى والعدو

يــا غائبــا مــا تنقضى حسراتنــا
ابــدا عليــه ، ولات حــين يئــوب

يا غائبــا سكـــن الثرى فى حفــرة
تعلــو الصفائــح قبــره والطــوب

ان غبت عـــن ابصارنا وسماعنــا
لــم تحتجبــك عــن القلوب غيوب

قد كان آن لــك الجـــواب لسائــل
يدعو ، ويسئــل كيف كنت تجيب ؟

ما كان ضرك لــو اجبــت نـــداءه
ان الحشا ضـــرم ، وانــت قــريب

فلئن رحلــت وغبــت عنــا ميتــا
للحــزن فى الدنيــا عــلي رقيــب

ولقد رأيت الخلــق يـــوم مصابه
والنعش بعـــد لقاهم مــركـــوب

حــيرا سكــارى ، هائمــين لما بهم
زمرا ، حيــارى ، مردهم والشيب

تبكى لصرعــته الغــوانى نــوادبا
عـــون النساء، وغـــادة رعبــوب

فى مأتم حـــور المدامع قـــرح ،
كادت تمـــزق اثــوب وجيـــــوب

واذا انتحبــن تفرقــت اكبادنــــا
وتصدعت منـــه القلــوب الهيــب

خطب اجل ، وعبـــرة مسفوحة ،
مهراقـة ، ان الخطـــوب تئـــوب

وعــلا النحيب على رؤوس العالميـ
ـــن الحاضرين وأين منـه نحيب ! !

وترى العيون مـــن الدموع كانهـا
ديم السمـــاء تهمى الحيا وتصـوب

واذا دعـــون ترنمـــا وتفجعـــا
واعمهـــن ! تهتـــك المحجـــوب !

واذا تراجعـن البكـــاء تفطـرت
منها النفوس ، وللقلـــوب وجيب

يا يوم مات ولم امـــت كمداً لـــه
اعظـم بـه حزنا عـــلي نديـــب

يا رجـــة للعالمـــين لفقـــدهم
علـم الهـدى ، وتعـذر الاسلـوب

عمدوا الى جبـــل ظليـل ظلـــه
سكنـــوا ذراه ، ورأســه لشحوب

جعلـوه تحت الارض ثـم تنعمـوا
يا للخلائـــق ، ان ذا لعجيـــب !

لهفى عـــلى الظـل الـذى ضمنته
بطن الثـرى ، والمستراد رحيـــب

جادت بـه الدنيـا وثـم بدالهـــا
سلبته ، ان الســالب المسلـــوب

نسيت مناقبه التى سلبت له
والباقيات الصالحات الطيب

فالدين يبكى شجوه من فقده
بحلاله وحرامه منسوب

فكأن مجلسه مساجد اسست
سكنا على تقوى ، ولا تصخيب

يعلوهم فيه الوقار تخشعا
ان الطيور على الرؤوس رقيب

لم يشنأوا فيه بغيبة غائب
سفها ، ولا نبز ، ولا تقليب

طوبى له ، عمرا طويلا خالصا
فى طاعة الرحمن ، وهو اديب

من للصلاة بجوف ليل مظلم
والليل اسود حالك وغريب ؟

او للصيام اذا تطاول يومه
وامتد طرفاه وهاج لهيب ؟

أو لليتامى والارامل بعده
وتواترت فى العالمين حروب ؟

أو للامور اذا تفاقم هولها ،
أهل النهى والرأي بعد غريب

وتفاقم الخطب العظيم لفقده
ولربما هانت عليه خطوب

في المعظلات تلاحكت وتلابكت (I)
واستعجمت ، واستبهم المطلوب

أو للجموع اذا اتت وتباينت
وعلا الكلام ، فجفجف الخطيب

وترى الخلائق افحموا ، وتهافتوا
والناس منهم مخطيء ومصيب

يكفيك ، بل يشفيك مما ترتجي ،
فهو الخطيب وانه لمنيب

جمعت محاسنه المكارم كلها
والمسلمون خلائق وضروب

ما ضرنا ما فاتنا من بعده
لم تبق الا روضة وكثيب

ما يعبأ الاعمى بظلمة ليلة
أو حال من شمس النهار غروب

فعليه رحمة ربه وسلامه
حتى القيامة والاله وهوب

سبقت به الايام باقي دهرنا
فمضى وما ادراك ما ايوب

خلق ابن آدم عرضة لمهالك
ان المنية يومها لعصيب

(I) تلاحكت الحوادث تداخلت والتصق بعبها ببعض ، ومثله تلابك الامر أو الشيء اختلط وتلبس

أبو زكرياء يحيى

ومنهم ابو زكرياء يحيى بن ابى زكرياء رحمه الله . كثير الغضب فى الله وعلى دينه ، شديد الغيرة مستشعر خشية الله عز وجل ، لا يخشى غيره ، وقف عندما حده المشائخ ، واعتقد ان طريقهم لجميع الطرق ناسخ ، فهو على بصيرة فى دين راسخ ، قرأ العلوم واتقنها ، ووضح المشكلات وبينها ، ورتب السير واحكمها ، وتعلم العلوم وعلمها .

روى ابو عمرو عن الشيخ ابى زكرياء انه وجد الشيخين عبد الله بن عيسى ، ويوسف بن موسى متصارمين ، فسعى بينهما حتى ازال ما وجد بينهما من وحشة ، وما كان له علم بسبب ذلك ما هو ، فقال له يوسف اما ترى يا اخى ما نالنى منه من العقوق وانا اقرأ فى جزء من كتاب «الاشراف على مسائل الخلاف ؟ » فتوجه الى « تونين » فاجتمع بالمشائخ فاعلمهم بما رأى فبعثوا الي بالهجران ، فاسرعت فى اللحاق بهم فلامونى ثم قبلوا توبتى فسعى فى طيب نفس كل واحد منهما على الآخر حتى طابت نفوسهم وله فى الادب نبذ تذكر فى مواضعها ان شاء الله .

أبو محمد عبد الله اللواتي

ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد اللواتى رحمه الله هو عبد الله بن محمد بن ناصر بن ميال بن يوسف وزير الامام افلح رضى الله عنه وتربته القديمة « بمرقة »[1] فيما ذكروه ، نجيب النجباء وامام الادباء ، المعتنى بحفظ الاخبار ، وتقييد سير الاخيار ، درس العلوم زمانا وصحب الاشياخ ضروبا والوانا ، حتى غدا وافر البضاعة فى كل

(١) فى نسخة « برقة »

الفنون ، مقلداً في كل مفروض ومسنون مميزاً في مكيـــل ومدروع وموزون ، قرأ عليه جماعة من التلامذة فنجبوا ، وطلبوا ففازوا بما طلبوا .

ذكر ابو الربيع ان ابا محمد عبد الله قدم الى اريــغ سنة خمسين واربعمائة وهو ابن ثماني عشرة سنة ، وكان في حلقة الشيخ يزيد بن يخلف الزواغي ، وله لوح طويل فلما وصلوا الى « اجلو » خرج اليهم الشيـــخ « ماكسن » فصافح العزابة ورجع الى أهله فلحقته خارجا ، فقلت له : يا شيخ ان العزابة قد اتفقوا ان لا يفترقوا ، فهل يجوز لى ان افارقهم ان رايت في مفارقتهم مصلحة ؟ فقال لى انمـــا جعلنا الله احرارا لنملك امرنا ، فصحبته ، فكان هذا امره مع ابى محمد ماكسن .

انا جعلنا الله احرارا لنملك امر نفوسنا

وذكروا ان سبب سفر أبى محمد الى القلعة فكان مما عرفه به مدوار ان قال له : تركت كتابا في تفسير القرآن من تآليف الامام عبد الرحمن ينادى عليه بالبيع في سوق القلعة ، فسافر وليس له هم ولا ارب غير الكتاب المذكور ، واستبضع شيئا من الشب يظهر انه تاجر ، وغرضـــه ان يستتر به فيما اعتمده، وكان وصوله اليها في فصل الخريف فلما وصلها جعل يسأل عن الكتاب فى خفاء برفق وسياسة ، فبينما هو يسأل ذات يوم لقي رجلا نكاريا يدعى علـــم مسائل الفروع ، فسأله عن الكتاب المذكور فقال له :متأسفا على فواته ؛ قد بيع قبل قدومك ، قال ابو محمد وكان في القلعة حينئذ رجل من أهلها يعرف « بمحمد بن عصمة » ، متفقه مدرس عليه حلقة ، فكنت احضر مجلسه ، واعد من جملة آهل حلقته ، فحضرنا عنده ذات يوم فقال لابن لـــه سمعت بأن أغناما لبنى ينجاسن دخلت السوق ، وما ضرنا

سفـر الشـيخ الى القلعة بحثا عن تفسير الامـام عبد الرحمـن

ان نجتنب الشراء من السوق ثلاثة أيام فان من العلماء من يقول : اذا دخل السوق ريبة فدع الشراء ثلاثة أيام ثم لا حرج بعدها في شراء ، قال ابو محمد فاعجبنى ما قاله ، فجلسنا يوما عنده حتى تذاكروا الفقهاء ، وذكروا ابا حنيفة فقلت : أليس قد قال مالك : ابو حنيفة شيطان قذفه اليمّ ، ابو حنيفةاضل لهذه الامة من شيطان رجيم ؟ وذلك لوجهين احدهما كونه يقول بالارجاء ، والآخر لنقضه السنن بالرأى ، فلما قلت لهم ذلك وقعت عليهم وجمة وعلتهم كآبة ، ودهشوا فقام الى رجل منهم وفى لسانه ثقل فقال : ما حملك على ما قلت ؟ فقلت له انى لم اقل من عندى شيئا انما هو قول قاله مالك ، فقال لى : حسبك بالعلماء بينهم كالضرائر ، قال أبو محمد فاشتريت كتبا ووجهتها فى رفقة فأصيبت، ثم استأنفت النظر فى شراء كتب اخرى فبلغ اصحابى ان كتبى التى وجهت قد اصيبت فقالوا لى : ألا تكلم السلطان فى حقك لتكون من قبله معونة فى الذى تحاوله من تحصيل الكتب ، فانه شغل ليس بحقير ؟ فقلت لهم : لا ، بل ان كانت لى حاجة فى شيء رجعت اليكم ، ثم استعنت بكم ، قال ثم اشتريت كتبا اخرى ، فلقينى الرجل النكارى فسلم عليّ فرددت عليه السلام ، فلما انصرف قالوا لى مالك تسلم على مثل هذا ؟ فقلت مالكم تسلمون على اليهود وهم مشركون ، ولا اسلم انا على رجل من امة محمد صلى الله عليه وسلم ، فأفحمتهم ، ولم يجدوا جوابا ، ورآنى رجل منهم فى موقف الشب وهو مكان معروف باهل وارجلان ، فقال لى وارجلانى والله ! فقلت له ايحل لك ان تخاطب بهذا رجلا مسلما ؟ فقال له أهل سوق ذلك الموضع بئس ما قلت ! وكان ذلك فى مدة قتل فيها أهل وارجلان

جماعة من الاشعرية ، وسمعت رجلا منهم يقول : قل لهم فليخرجوا او يظهروا او نقتلهم . فلما رايت ذلك اسرعت في قضاء حوائجي ، ثم ان السلطان اخرج عسكرا فخرجت معه ، فلما حضرت الصلاة قال لى قائد العسكر : ماذا تصلى يا عبد الله ، وقد علمت الذى خرجنا اليه ؟فقلت له اشتغل بنفسك يا انسان ، وسرنا حتى وصلت «وغلانة» سالما ، وسمع شيوخ «وغلانة» بما اصابني فى الكتب ، فاجتمعوا واجمع رأيهم على ان ينظروا فى اعانتى بقدر ما اصيب منى ليخلفوه علي ــ فالله يحسن عونهم ، ويخلف عليهم ــ فلما احسست بالذى عزموا عليه أردت الخروج في خفية ، فخرجت بالهاجرة فلم يشعروا بى الا وأنا خارج البلد ، فوصلت «تنوال» سالما والحمد لله رب العالمين .

فهذا الذى كان منه في مواطن كثيرة من هذه الحكاية من تقية وستر حسن جميل ، لا كما زعمه الحاسدون ونسبوه اليه ، فانه واياهم كما قال ابن أبى ربيعة شعرا :

حسدا حملنه فى حسنها
وقديما كان فى الناس الحسد

وذلك انهم زعموا انه بدل وغير ، وطول وقصر ، وحاشا فضيلته من ذلك .

قائد لبني حماد يحاصر وغلانه

وذكر أبو الربيع عن أبى محمد ان أبا زعبل الخزرى حاصر «وغلانة» فاجتمع هو وامثاله من المشائخ فدعوا عليه ، فسلط الله على جنوده مطرا وابلاهطالا ، فاوهنهم وأركسهم حتى انه لا شىء لاحد منهم قبل منهم بشىء ، فتحققوا هذه العبرة ، فقال أبو زعبل ، أيكون لهذه الخوارج دولة بعد هذا وان فيها لدلائل استقامة احوالهم

وايامهم ؟ فقال له وزراؤه : انما ارسل الله اليهم هـذا المطر ليهدم الحيطان ويكسر شوكتهم ، حتى ندخل عليهم بغير قتال ، فدام المطـر اياما فجعله اللـه على أبى زعبل عذابا واصبا ، وجعله لاهل وغلانة خصبا ورفقا وتثبيتا وأذل اللـه اعداءه وحيـل بينهم وبين ما يشتهون ، فلما يئسوا منها ارتحلوا صاغرين داحضين .

على الاب ان يعين ولده على بره

قال أبو الربيع تحدثت مع أبى محمد حتى ذكر اولاده ونظر فى امرهم ، فهونت عليه وقلـت : انهـم ذكران ، رجال ، فلا يهمك امرهم فقال لا تقل هذا القول فان على الاب ان يعين ولده على ابراره ، وقد قال بعض المفسرين فى الذين سماهم الله ابرارا لانهم بروا الآباء والابناء ، ثم قلت له : كيف حالك وابنك احمد ويوسف اذا جاءامن المكتب ؟ قال كيف يكون حال ولدى العجوز ، يعنى الدنيا وانشـد :

فمـن لم يؤدبـه أبـوه وامـه
تؤدبـه روعاتـه ، وزلازلـه

وقال آخر :

وليس يـؤدب الانسـان ابنـا
كتـأديب الـدوائر اذ تـدور

ووجدته فى وقت الهاجرة يكنس غديرا له فقلت مـا هذا ؟ فانشد :

نـروح ونغـدو لحـاجتنـا
وحاجـة مـن عـاش لاتنقضـى

تمــوت مــع المــرء حاجتــه
وتبقــى لــه حاجــة مــا بقــى

وكان كثيرا ما يتمثل اذا اصابه خـوف أو مكروه بقول الشاعـر :

اذا مـا خفـت فى ارض مضيقـا
فشـد اليعمـلات الى سـواها

فانـك واجـد ارضـا بـارض
ولسـت بواجـد نفسـا سـواها

فنفسـك فزبها ان خفـت منهـا
وخـل الـدار تنعـى مـن بنـاها

ويتمثل لمن يتعاطى ما لا قبل له بقول الشاعر :

ومستعجل للحـرب والسلـم حظـه
فلمـا استدرات كـل عنها محـافره

ويتمثل ايضا فى الخادعين الخالبين وفيما ينبغى ان يصحب به الزمان واهله بقول الشاعر :

اذا اقتصـد الفتى فى المـال قالوا
بخيـل لا يهـش الى المعـالى

وان هـو سامـح الاقـوام جـودا
فيالك فيـه مـن حسـن المقال ! !

خـداعا يخلبـون نـداه حتـى
اذا عـروه مـن نشـب ومـال

فعـادوا بعـد تقـديس بشتـم
وصـار بعد مذمـوم الفعـال

انا ابن الدهر تجربة وخبرا
به ، وباهله فى كل حال

ارى لك ان تمد يداك قصدا
بلا سرف ولا امساك غال

وقال أبو الربيع قعدت انا وابو محمد على طريق فمرت بنا امرأة فالتفتت اليها ، فقال لى لا يجوز قعود على الصعدات الا لمن ادى حقها ، قلت وما حقها ؟ قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما حقه ؟ قال : اغاثة الملهوف ، وهداية الاعمى ، وغض البصر عن المحرمات ، واماطة الأذى .

وصية إبى محمد اللواتى لاهل الدعوة

وله كلام وعظ فى اثر ما مضى يقول فيه : « ثم انى موصيكم اخوانى ونفسى بتقوى الله العظيم فى السر والاعلان ، وباتباع آثار دعوة المسلمين ، فان الاتباع اولى بالهدى من الابتداع ، وعليكم بالائتمار لما امر الله به من طاعته ، والانتهاء عما نهى عنه من معصيته ، فاقتفوا آثارهم ، فان الله اوعد بالنار من خالفهم ، كما اوعد بها من خالفه وخالف رسوله ، اذ قال تبارك وتعالى : «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المومنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا» فاتقوا الله اخوانى واحذروا مخالفة ائمتكم فى القليل والجليل ، فانه قيل فى المثل : حيثما مال الحمل وقع ، واحذروا كثرة مجالسة المخالفين ، ففى ذلك اثر مشهور عند المسلمين كالذى يروى عن أبى نوح وأبى خزر رضى الله عنهما ، وتجنبوا مخالطتهم والميل اليهم ، وكثرة مطالعة كتبهم ، وحذروا من ذلك سواكم ، الا ترون مسئلة

السخط والرضا قد وقعت عند من وقعت من اهل الدعوة من كتاب احمد بن الحسن الضليل ، فرسخت فى قلوبهم ودانوا بها فضلوا واضلوا ، وكذلك خبر سليمان بن يعقوب بن الامام وما تفرس فيه ابوه انه سيضل بقراءته ديوان ابن الحسين ، فضل وقال بمسائل لم يوافقه عليها أحد من الائمة الا الشاذ الذى لا يخرج على قوله ، حتى برأ منه أبو صالح وكان معه من المباهلة ما هو مشهور ، واحذركم الترك بعد الجد ، وعليكم بالحذر من الانهماك فى الشر والخلاف بعد الزجر عنه ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك وغضب منه وقال : أمنهمكون أنتم فيها بعد ما جئتكم بها بيضاء نقية سمحة سهلة ؟ وقد قال الامام رضى الله عنه : بلغنا انه قد ألقى فى ديوان المسلمين ألف مسئلة من مسائل الزنادقة فكيف ديوان غيرهم ؟ وليس عليكم رحمكم الله الا الاتباع فانهم سنوا لكم ما ترشدون به .

ولقد بلغنا عن أبى عبيدة عبد الحميد الجناونى رحمه الله انه قال لاهل الجبل (والله ما تركتكم الا على الواضحة النيرة ، ما بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ثلاث رجال لم أرهم ، وفى بعض الروايات ان أبا خليل هو المتكلم بهذا الكلام ، وقال النفوسى (1) : (نحن اصحاب آثار لو سلكوا بنا على جدار لسكناه) فكيف يقول هذا بل قد سلكوا بنا على ظبات المرهفات ، وسلكناها ، فكيف الجدار ؟ وبلغنا عن أبى عبد الله بن يزيد الفزارى قال : « انما غلبنا اصحاب الربيع باتباع الآثار » وقال أبو صالح يعلو : « السبيل محفور الى الركبة ، فلا يؤخذ

(1) يعنى الشيخ ابى عبيده الجناونى رحمه الله .

منه مخرج الا بالوثبة » وقد حكى أبو سفيان رحمه الله عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال : « قد بينت الامور ، وقامت الحجة ، وانقطع العذر ، فلا جهل ولا تجاهل فى الاسلام » وقد روى عن الامام افلح رضى الله عنه انه قال : « عليكم بدراسة كتب المسلمين لا سيما هذا الكتاب ، يعنى كتاب أبى سفيان محبوب رحمه الله » فانا لله وانا اليه راجعون على موت الصلحاء والاولياء ، وذهاب سيرهم وآثارهم ، وقد بلغنا عن أبى مسور رضى الله عنه انه قال : ما ارى رميات الاولين مخطئتكم ، ولقد صدق نبينا عليه السلام حيث قال : « بدأ هذا الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء فى ذلك الزمان ، قيل ومن الغرباء ؟ قال : الذين يصلحون انفسهم عند فساد الناس ، ويحيون من سنتى ما أماته الناس » . وقد قال أبو محمد واسلان بن أبى صالح رضى الله عنه : ما مر قط على هذا الدين شر من هذا الزمان ، فقيل له ما يئس الناس ، بل نحن فى جموع وجماعات ، وحلق وظهور ، غير مستخفين ولا خائفين من أحد ، لم نكن كالاولين مختفين مكتتمين معتزلين فى الجبال والمغارات ، والبرارى والقرى ، فقال لهم : هيهات لم يرزمان منذ قام هذا الدين الا ولهم امام ، اما ظهور ، واما دفاع ، واما شراء ، يقتلون ويقتلون ولا يهابون القتل فى ذات الله تعالى ، القتل عندهم آثر من الحياة فى رغد عيش ، ولا يريدون غير اظهار الدين ودعوة الاسلام «ليبين للناس ما نزل اليهم»«ولتستبين سبيل المجرمين» «ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيي عن بينة وان الله لسميع عليم» فهل حال اضعف من حال اهل هذا الزمان ؟ هذا قوله

رحمه الله ، فكيف بنا وقد قل العلماء ، وكثر الجهال ، فلا تابع ولا متبوع ، الا من شاء الله .

لا يموت الاسلام حتى يفر عنه اهله ويتدافعوه

وقد بلغنا فى بعض الاخبار : «انه لا يذهب الاسلام حتى يتدافعه الناس وكل منه خال ، فنعوذ بالله من اماتة مذهب المسلمين ، ورفض سيرهم .

وقد بلغنا من سليمان بن موسى انه قال : اثبتوا ثلاثا حرمة الاسلام ، والحق ، وصلة الرحم ، خذوا لانفسكم اخوانى منها واتبعوا لها مجالس الذكر ، واختاروا لها الارشد ، ولا تأخذوابمتروك العلم الذى جفاه المسلمون فقد قال جماعة من العلماء : «من عمل بمتروك العلم واخذ به لا يموت حتى يفارق الاسلام ، ولا يموت الا محتاجا» نعوذ بالله من مخالفة المسلمين ونبذ سيرهم ، وقالوا : لا يذهب الاسلام وتبقى سيره واعلامه ولكن تذهب سيره واعلامه ثم يذهب ، واحذروا غمض الحق وتغميضه ، فان من سفه مقالة المسلمين فقد طعن واباح دمه ، وتسفيه سيرهم وآثارهم كل ذلك طعن فى الدين .

روى عن أبى الربيع سليمان بن يخلف رضى الله عنه : انه قلما يقوم من المجلس الا قال : نعوذ بالله من تهوين راي المسلمين وتخطئتهم ، ومن الترك بعد الاجتهاد ، ومن الحور بعد الكور ، ومن ذم ما يأتى ، ومن تحسين القول وتقبيح الفعل . وقد قال ابن بركة العمانى رضى الله عنه : قلما تعسف احد مذاهب المسلمين بغير فهم الا حرم التوقيق ، وقال أيضا : أعوذ بالله من مسامحة الآراء ، وتقليد الاباء والكبراء ، واتباع الامراء .

وبلغنا عن رجال من اهل هذا الزمان ، انهم قد صاروا الى ما حذر منه السلف الاولون من التعسف وقلة التعفف.

ولقد بلغنا عن بعض اهل العلم من اصحابنا انهم قالوا بقيت فرقة ستخرج من هذا المذهب ، نعوذ بالله من سوابق الشقاء ، ومما يعوق عن التقى ، نعوذ بالله من اتباع الهوى المضل ومن قسوة القلب ، وجفاء الذكر، وعليكم اخواني بالنظر لانفسكم مما يخلصها من نار عذابها طويل ، ليس لها من آخر ، ولا تغرنكم هذه الدار الفانية الغرارة ، ولا ترغبوا فيما يفنى، وتدروا ما يبقى فان الموت من قريب سيفاجئكم ، ولا تغفلوا عن الاستعداد لحياة الآخرة ، فانكم لم تخلقوا لهذه الفانية ، انما خلقتم للباقية ، رحم الله عبدا اخذ من نفسه لرمسه ، ومن داره لغاره ، ومن مره لحلوه ، ومن مرتحله لمنزله ، قطنتم فظعنتم ، ورجفتم ففجعتم ، والدنيا قد اذنت بصرم ، وانذرت بكلم ، يا اخواني بيعوا ما يفنى تربحوا ما يبقى فان الله لا يعذر جاهلا مرتكبا لمعاصيه ، وعليكم بان تعملوا ما يهديكم وينجيكم ، اخواني الم تروا التغيير فى الناس فاشيا ؟ وقد ذهب الاخيار فزالوا ، وبقى الاشرار فاستطالوا ، فلا مذكر يذكر ، ولا موقظ يوقظ ، فاتقوا الله وجدوا ، واجتهدوا ، وعضوا بالنواجذ على ما ادركتم عليه الاخيار ، فان الدعاة الى الضلال كثير ، واستعينوا بالله ، واصبروا ، « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » « واحسنوا ان الله يحب المحسنين » ، وقيل ان الكلام لاسماعيل بن صالح رحمه الله ، فالله أعلم .

وذكر أبو عمرو عن أبى محمد عبد الله بن محمد انه تلقى جماعة عزابة «بايرغت» وقد قدموا من فحص «قسطيلية» فقال : لهم انما ينبغى ان نلقاكم فى «سوف» والا ففى «وغلانة» ولكن الزمان غير مساعد ، قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم : لا تزال امتى بخير ما اذا قالت صدقت ، واذا حكمت عدلـت واذا استرحمت رحمـت ، جعل اللـه مجيئكم مجيء أبي مودود الى حضرموت ، فقام عندهم هذا الكلام اشرف مقام .

ابو محمد عبدالله بن محمـد اللنـثي

ومنهم ابو محمـد عبد الله بن محمد اللنثي رحمه الله شيخ المشائـخ واستاذهم ، ومن اذا التجأوا فهو مـلاذهم منه تقتبس الفوائد ، وفي منهله العذب تطيب الموارد ، نور هداه يكشف الغماء ، وغيث حياته يروى فيشفى الظماء ، كثـير الانبساط والانقباض ، والاقبال والاعراض ، ان احب في الله انبسط واقبل ، وان ابغض فى الله انقبض لا يتأول ولا يتأمل .

قال أبو الربيع لما أسن عبد السلام بـن أبي وزجون جلس ذات يوم مجلسا يكلم فى العقائد ، وقد حضر فيـه جماعة ممن ينسب الى النهوض فى الفن الذى بسط فيه القول ، فقال : ان من رمى احدا من أهل الاسلام بالشرك فليس على من سمعه ان يشركه ، الا ان يكون المرمى من اهل الولاية ، فلما سمع الطلبة كلامه حملوه على الضعف والخرف والكبر ، ولم يردوا عليه فى مجلسه ذلك بكلمة واحـدة ، وكان فى المجلس عـبد اللـه بن محمد اللنثي وغيره ، فاجمعوا بعد قيامهم من المجلس عـلى ان يتكلموا غدا عن المسئلة ، ويصرحوا بتشريك الرامى ، فلما كان الغـد جعلوا منهم من سـأل عـن المسئلة فاتفقوا على ان الرامى مشرك ، لم يخالف احد من الطلبة فى هذا الجواب، وبلغه ما اتفقوا عليه وفطن انه تعريض بما جرى امس

حكم من رمى احدا من اهل الاسلام بالشرك

فى المجلس ، فلما انتهى السؤال اليه اجاب كجواب امس ، فلم يخجلوه أيضا اجلالا لسنه وتعظيما لقدره ، قال الشيخ أبو عمرو ان ادعى التأويل كان الرامى منافقا كالصفرية وان لم يدع التأويل كان مشركا .

وكانت لابى محمد حلقة فى تينزارتين ولم تزل به الحلقة قائمة ، قد رتبت على الشيخ ابى محمد لا يخشون احدا ولا يمسهم سوء، حتى جعل الله لخروجها سببا، وسبب ذلك فيما ذكر ابو الربيع فيما ساقه من هذه الحكاية ، قال : كان تلامذة ابى الربيع سليمان بن يخلف من اهل سوف ، واريغ ، ووارجلان ، ومزاب ، وقسطيلية ، حلقوا على ابى محمد فى تين زراتين ، وكانت الفتنة حينئذ بين بنى « تاكسينت : وهيبتهم ، ومالكيتهم ، والوهبية منهم قبيلة يقال لها « بنو يريتن » والمالكية من عداهم من قبائل بنى تاكسينت ، فكانت بينهم الفتنة ، والعزابة منها فى أمان لا يخافون مكروها ولا يسمعونه ، فقدر بأن حضر بنو يريتن فرقى على السور رجل جاهل ممن شملته الحلقة ، يقال له : توزين من اهل قنطرار ، فقال لاهل العسكر : انصتوا واسكتوا ، ففعلوا . فقال لهم : فلان وفلان وفلان حتى عد جماعة من ائمتهم عليهم اللعنة ولهم سوء الدار ، فلما سمعوا ذلك منه تركوا القتال ، واستدعوا شيخا لهم ، يقال له : مظهر بن نفاط ، فاخبروه الخبر ، فقال أسمعتم ذلك حقا ؟ قالوا : نعم ، فقال لهم : احرقوا ، واسبوا ، واقتلوا ، فلما سمع العزابة ذلك خرجوا ليلا وتفرقوا الى اليوم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

تصرف اهوج يشير فتنة

أبو عمرو عثمان بن خليفة

ومنهم ابو عمرو عثمان بن خليفة السوفي رحمه الله .

هو في اهل المذهب احد الاعلام ، الكاشف بحسن بيانه ونور منطق لسانه دياجي الظلام ، المفتي في العلوم لا سيما علم الكلام ، المجاحش المدافع عن كلمة الاسلام ، حتى ان له في مواطن اللين قزاعا بلسان مخدام ، وربما كان في محل هدنة فاشتعل الاضرام ، ولم يعبأ بمن قال ، كل مقال له مقام .

مجادلة بالباطل تؤدي الى انقراض اهل الدعوة من حامة قابس

فمن ذلك ما حكى أبي رحمه الله وقد سأله بعض الجلساء ما سبب انقراض المذهبمن الحامة ؟ قال : ان الحامة لم تزل في ادبار منذ عهد ابي القاسم وابي خزر رحمهما الله وما طرأ على كل واحد منهما وعلى من بعدهما ، حتى اذا كان في زمان الشيخ عثمان بن خليفة فورد الحامة ، وليس فيها من اهل المذهب الا أطلال بالية ، ومساجد عامرة كالخالية ، وكان ابو عمرو عابر سبيل ، فأراد ان يذاكر من هناك من أهل المذهب بما يثبتهم في الدين ، ويمسكهم في عقائدهم على يقين ، وكان المخالفون من اهل الموضع قد سكنت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم بانقراض مذهبنا من بلدهم ، وضعف من بقي من اهله ، فلما سمعوا بقدوم أبي عمرو بما شرع فيه عضوا عليه الانامل من الغيظ ، واجتمعوا فيما بينهم ، وارادوا ما يفضح ابا عمرو اذا ناظروه ،فتشاوروا في ذلك فجعل كل منهم يدلي برأى ، فقال فريق منهم : اعلموا ان الرجل عالم ذو قدرة على المناظرة ، ولا طاقة لكم به ان حاولتم اخذه في الطريق المهيع ، لكن ان سلكتم معه بنات الطريق وجادلتموه بالباطل

أوقعتموه فى آذان العوام ، وان طلتم فانكم تظفرون به ، فقالوا وكيف يمكن الظفر به من طريق الباطل ؟ قالوا: يسئله احدكم ، هل يجوز فى مذهبكم تزوج نسائنا ؟ فانه حينئذ يقول الحق ويجيب بأن يستعظم هذا ، ويقول : ياسبحان الله قد جاز عندنا تزوج اليهوديات والنصرانيات فكيف نساؤكم ؟ فاذا قال هذا الزمناه الذنب بان نقول نراك انزلتنا منزلة اليهود والنصارى ، فنكفره ونفحمه ، وان هو اجاب بنعم فقد استانفنا سؤالا ثانيا ، فلما كان غدا اجلبوا عليهم بخيلهم ورجلهم ، وحضروه هو وتلامذته فسأله سائلهم بما اعد من مسألة النكاح ، فأجاب بما كان خصمه ينتظره منه ، فلما قال ذلك قال مدره القوم : ألا ان هذا انزلكم منزلة اليهود والنصارى ، فقاموا عليه قيام رجل واحد شتما وصفعا وضربا ، وطردا عن نفوسهم من البلد ، واكرهوا كثيرا ممن بقي من اهل المذهب على الرجوع الى مذهبهم ، وعمدوا الى المسجد الكبير من مساجد الوهبية ، وغسلوه بمياه كثيرة ، حتى جرت انهارا وسالت فى الطرقات ، وخرجت من البلد هامية يعتقدون ان ذلك تطهيرا للمسجد ، قال : ودعوا عليهم فأجاب الله دعاءهم ولكن بعد حين فلما دخلها اسحاق الميروقى قتل فيها سبعمائة رجل ، حتى سالت دماؤهم واختلطت عجاجا شبهه من رآه بالوادى الذى اجروه ليطهروا به المسجد فيما زعموا ، قال فلم يبق الا مستضعف لم يكن على بصيرة ، أو هارب بدينه الى حيث أمكنه من البلاد .

وقال عثمان خرجت من وارجلان اريد ناحية بلادنا فخرج معى أيوب ابن اسماعيل وموسى بن على يودعانى ،

فقال لى ايوب « يا عثمان العلم والوطوطة لا يجتمعـان »
وقال له موسى الحجر المتقلب لا يثبت على بناء ، فرأيت ما
اشار به هو الصواب .

الحكم فى العطايا

وقال أبو الربيع قال لى الشيخ أبو عمرو عثمان : العطايا
اربع : اثنتان جائزتان ؛ عطية لما عند الله وعطية لثواب
الدنيا . واثنتان غير جائزتين عطية اكراه وخوف ، وعطية
على وجه الركون .

الطبقـة الثانية عشر 550 هـ 600 هـ

أبو عمار عبد الكافى

منهم ابو عمار عبد الكافى رضى الله عنه . هو ابـن
ابى يعقوب التناوتى . تدارك المذهب قـد اقبر فانشره
نشورا ، ونوه به وقد اتى عليه حين من الدهر لم يكـن
شيئا مذكورا ، فأحيى الله به رفاته ، وجمع ببركته شتاته
خدم العلم دهرا حتى وعاه ، واوعى منه الاوعية ، ثـم
أخـذ يفتيه ويعلمه ، فسالت منـه الاودية ، فى تصنيف
كتاب ، أو تهذيب جواب، أو تدرب متكلم، أو افادة متعلم
وهو الذى ازرى بموجزه(I) على الماضين، واتعب الحاضرين
والآتين ، فانه رتب مقدماته ارتب تقديم ، وقوم فصوله
احسن تقويم ، وقسم الفرق ابين تقسيم ، بالفاظ عذبة
وقصد مستقيم ، وله تصانيف يشفى بريها هيام النفوس
الهيم ، واما الورع والسخاء فهما اقل صفات خـلاله ،
فذكرهما الشيخ بالنسبة الى جلاله .

ما كان من الشيخ ابى عمار وهو بتونس

ذكر شيوخنا ان ابا عمار لما عزم على طلب العلوم رأى
ان اهم ما يقدمه اصلاح اللسان ثم اصلاح الجنان بعلـوم

(I) يشير الى كتاب الموجز فى الكلام والعقائد ، وقد تقدمت الاشـارة اليه فى اول الكتـاب .

القوانين والبراهين ، فهاجر الى تونس فاقام فيها اعواما يدرس الليل والنهار ، ولا يحضر بباله ذكر الاهل والدار ، والذى توخاه فى قصده تونس شيئين أحدهما ملاقاة من يشغل خاطره عن ذكر اهله ، والثانى اراد ان ينقطع عن اللسان البربرى بالبعد عمن يخاطبه به ، والتدرب على لسان العربية ، بكثرة مخالطة من يخاطبه به ، وكان أبو عمار موسعا عليه ، فكانت تأتيه من بلده فى كل عام ألف دينار ، وبطاقة فيضع البطاقة فى موضع ، ويقسم الدنانير نصفين فيدفع النصف الى شيخه ويصرف النصف فى نفقته وكسوته ، وشراء ما يحتاجه من الكتب ، فلما كان عند عزمه على السفر وقد رأى انه قضى حاجته من طلب العلوم التى اعتمدها هنالك اعلم شيخه بذلك ، واجمع على الارتحال ، فأخذ فى قراءة الكتب الواردة من بلده كتابا بعد كتاب ، فوجد فى الكتاب الاول اعلاما بوفاة أحد ابويه وفى الثانى وفاة الثانى ووجد شواغل لا علم له بها ، فاطلع على ذلك شيخه واصحابه فعزوه وانفصل الى بلده ، ولقد حدثنى بعض الطلبة النفطين الذين قرأوا بتونس عن بعض اشياخه انهم قالوا : ادركنا اشياخنا يذكرون طالبا من أهل وارجلان قرأ معهم على شيخهم اذ ذاك ، قالوا أدركناهم يتعجبون من فهمه وحفظه ومواظبته وورعه ، وسخائه ودلالة نفسه ، وسعة خلقه ، قالوا ولم ير مثله من العرب ولا من البربر ، قال لى وكانوا يذكرون انهم اطلعوا على كتاب معه فى علوم مذهبه ، وكان نظما فى قصائد فما هذا الكتاب ؟ فقلت له : هو دعائم ابن النظر ، كانت منه فى بلادنا من قبل هذا نسخة غير محلولة ، ولما

حله ابن صاف (I) لم يرد بلادنا حتى ورد به الشيخ أبو موسى عيسى بن زكرياء واعلمته ان الطالب المذكور هو أبو عمار ، واطلعته على كتاب الدعائم لما ذكره وسأل عنه ، فلما رآه جعل يتعجب منه فنظر منه بعض قصائد العقائد وهى الرائية التي فى الرد على القدرية ، فقال معرضا ما أرى هاهنا الا موافقة اهل السنة ، فقلت له : وما خالف هذا الكتاب فهو خلاف السنة ،.

وكان ابو عمار ذا كرامات فمن كراماته ما حدثنا به فى وارجلان شيخ من اهل الصدق والبر حكاه عن ثقات قال خرج ابو عمار فى سنة من السنين فى فصل الربيع الى بادية بنى مصعب بغنمه فتوغلوا فى البرية ، تتبعا لطلب المرعى ، حتى قربوا من جبال « بنى راشد » فلما كان يوما من الايام قال ابو عمار لاهله اشتغلوا بعشاء عمار الليلة المقبلة ، وكان هذا القول منه غدوة ، وكانوا قد عهدوا عمارا بوارجلان ، الا انهم لم يمكنهم الا امتثال امر الشيخ ، فوافق وقت اعلامه اياهم توجه عمار من وارجلان الى قصور بنى مصعب ، فلما اصبح صباح يومئذ ، قال لمضيفه : انظر لى دليلا استأجره ان يصحبنى الى موضع الشيخ ، بشرط ان يكون على نجيب مثل نجيبى ، ليكون مبيتى عند الشيخ فانى شديد الاشتياق اليه ، فقال له : ليس لها الا « فلان » فارسلوا اليه فوجدوه ينضح زرعا له بالطبق ، فقال اخشى على زرعى ولا بد من موافقة ابن الشيخ ، قال فاستأجره بدينار فركب كل واحد منهما نجيبه ، وصارا يرجفان ويجدان السير بجهدهما ، قال

(I) هو محمد بن وصاف العمانى من مشائخ الاباضية بالمشرق شرح دعائم احمد بن النظر ـ وهو مجموع قصائد فى العقيدة والاحكام الشرعية ـ والشرح فى ثلاثة اجزاء وهو من المخطوطات القيمة

وكان نجيب المصعبى أسبق من نجيب عمـــار ، وكـــان اذا تقدم قال له : مالك يا هذا الوارجلانى ؟ هلكـــت زرعى عطشا يعنى أجهد ليكون رجوعى الى زرعى سريعا ، فقال وكان بين الموضع الذى فيه الشيخ وبين القصر الـــذى خرجا منه مسيرة ثلاثة ايام ، فما صلى الشيخ الا عمـــار وصاحبه قد انا خوا عندهم ، وأكلوا العشاء معهم .

وذكر عيسى بن أحمد ان أبا عبد الرحمن الكرثى كتب الى جماعة الشيوخ بوارجلان كتابا يسئلهم سؤال مسترشد قال : فلما ورد عليهم كتابه لم يروا نفوسهم اهلا لمجاوبته الا ابا عمار ، فجاوبه عن جميعها حسبما يفسر.

(سؤال) ما اليقين والقدر وما الفرق بينهما ؟ .

اسئلـة الشيخ ابـى عبد الرحمن الكـرثى والاجـابة عنهـا

(الجواب) : اليقين صحة الاعتقاد ، وهو من افعال القلب ومن افضل افعال العباد ، قال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم ، اعبد الله على الرضى واليقين ، والا ففى الصبر على ما تكره خير كثير » ، وقال : لو ازداد يقينا لمشى عـــلى الهواء . والقدر ما قدره الله قبل ان يكون قال عليه السلام فى الايمان : (ان تؤمن بالقدر خيره وشره أنه من الله)

سؤال هل يقال لله تعالى بالبربرية ايراد ؟

الجواب : ما سمعنا احدا اجازه الا ابو سهل ، ولعـــل هروبهم من جوازه اشتراك اللفظة فى لغة البربر ، فانهم يسمون الداجن من الطير والوحش « ايرادن » ولمن اخلف الوعد « يردى » وهذا على حسب اللغات ، والهروب مـــن المشكل الى الواضح أولى .

سؤال : ما الحكم فيمن قال ان الله ليس بيبيكش ؟

الجواب : ان كان بربريا أو ممن يعرف اللسان البربرى فهو كمن قال : «ان الله ليس بإلاه» ومن قال ذلك فهـــو مشرك ، فقال بعض من حضر اراك ادرجت المسئلة فقال أو تشكون فى ربكم ؟ فقال حينئذ عبد الله بن سجمان سمعت شيخنا ايوب بن اسماعيل يقول : من قال ان ايكش السلحافة فهو مشرك بالله العظيم .

سؤال ما اعلام الساعة ؟

الجواب : انها خمس اثنتان منصوصتـــان واثنـــان مستخرجتان من النص وواحدة من الحديث ، فالمنصوصتان قوله تعالى : حتى اذا فتحت ياجوج وماجوج الآية وقولـه في عيسى عليه السلام وانه لعلم للساعة الآية والمستخرجتان من النص طلوع الشمس من مغربها قال الله تعالى : (يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها) والـدابة ، قال الله تعالى : « واذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة مـن الارض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » والحديث قوله عليه السلام : « نار تخرج من عـدن تطرد الناس الى محشرهم » وحبشي يعلو عـلى الكعبة بفاسـه يهدمها ، وخسف بجزيرة العرب .

قلت وهذه الاجوبة انها هي على قدر وسع السائـل لا بكونه مقدار المجاوب ، بل انما عرض فى تلك الســوق ما اشبهها من المتاع ، وما ينفد فيها ، وادخر الخز والديباج لاشكاله ، اللهم الا فى جواب السؤال الاخير .

وقال ابو عمار حضرت انا ، وابو يعقوب يوسف بــن ابراهيم ، مجلس شيخنا ابى زكرياء يوما فقصصت رؤيا رأيتها ، وذلك أنى رأيت ابراهيم عليه السلام نــزل من

السماء إلى « تموصين » ، قرية من قرى وارجلان فتعلقت نفس الشيخ ابى زكرياء الى الرؤيا ، فجعل يقول كيف رؤياك يا عبد الكافى ؟ يحب ان اكررها عليه فالتفت الى ابى يعقوب فقلت له ، لا اعلم احدا كملت نيه هذه الصفات غير النبوءة في هذا الزمان ، الا هذا الشيخ وانى لاحسب انه سيموت فى هذا العام ، فمات فيه بعد اشهر ، وهذه الحكاية من مناقب أبى زكرياء الا ان لابى عمار فيها صدق الرؤيا واصابة التأويل .

حكم مال من اشتهد بالاغارة والنهب

وسأل الشيخ ابو يعقوب يوسف بن ابراهيم ابا عمار رحمهما الله بمحضر من أصحابهما وذلك بجبال مكة، فقال عجبا منا نتنزه من اموال العرب (1) التى بايديهم ، وننهى عن الدنو منها ، وعن الدنو ممن يدنو منها ، ونتجهم في وجوه من يصاحبهم اذ كنا ببلادنا ، ها نحن الآن نأكل منها ونحمل عليها ، ونتزود منها ، ونحن فى أكرم بقعة وابرك بلدة ، ونحن عايناهم يأخذون اموال الحجاج، ويسلبونهم ، ويقتلون من دافع منهم عن نفسه اضراب « بنى مجزية » وغيرهم ، ممن شهر بالنهب والغصب ، فقال ابو عمار هذه جزيرتهم الا قعد فيما بايديهم والاغلب عليه الحلال ، وتلك جزيرة البربر انهم فيها غارة وكل ما بايدى الغارة ريبة ، الا من ابصر شيئا عيانا فلا يحل له الدنو منه فى بدو ولا حضر، فانهم فى بلادنا غارة، ونحن البربر في جزيرتنا كالعرب فى جزيرتهم .

قلت هكذا وجدتها ، واقول والله اعلم ، ان الذى استثناه من قوله (من ابصر شيئا عيانا فيجتنبه) انما ذلك

---

(1) يعنى بهم قبائل الاعراب التى تعيش على الاغارة والنهب ، واتخذتها حرفة ، وعرفت بذلك ، وخاصة زمن اضطراب شمال افريقيا فى عهود المؤلف (راجع بن خلدون ج 6)

فى بلاد العرب وجزيرتهم ، والصواب ان يذكر أولا قبل ذكر بلاد المغرب (2) .

راي الشيخ في اهل الفتنـــة

وروى ان ابا عمار كان يقول : اذا وقعت الفتنة بـــين فئتين من المؤمنين فالاحب الى ان يصطلحوا ، فان لم يفعلوا فالاحب الى ان لا تغلب فئة فئة ، فان من احـــب ان تغلب احداهما الاخرى فقد دخل فى الفتنة ، ولزمه ما لزم اهل تلك ، وكأن سيفه يقطر دما . وروى عنه عيسى بن احمد انه قال السلامة عندى ان يكونا فى البراءة سواء ، لا يرجح احدى الطائفتين ، فانه متى رجح أثم .

ومنهم أبو يعقــوب يوسف بن ابراهيم السدراتى وابنه أبو اسحاق ابراهيم رحمهما الله

نبدأ بذكر أبى يعقوب فى صدر الاسلوب فنقول : هو بحر العلم الزاخر ، المسخر للنفع فترى الفلك فيه مواخر الرفيع القدر والهمة ، الجامع لفضائل كل امة ، المحتوى على علوم جمة ، كأن التوحيدى ينظر اليه فى وصفـــه للقاضى أبى حامد ، وما اشتمل عليه من صنوف الفـوائد اذ كان له فى كل جو منتفس ، ومن كل نار مقتبس ، وهذا الشيخ له يد فى علم القرآن ، وفى علم اللســـان ، وفى الحديث والاخبار . وفى رواية السير والآثار . وعلـــم النظر والكلام ، والعلوم الشرعية عباداتها والاحكام، وعلم فرائض المواريث ، ومعرفة رجال الاحاديث ، ولم يخل من اطلاع على علوم الاقدمين ، بل حصل مع ملازمة السنـــة قطعة من علم الحكماء المنجمين .

(2) الاولى ان يكون الحكم عاما فكل من عاين وشاهد ما لا حراما بعينيه بيد غاصبه او سارقهفلا تحل له معاملته فيه ، سواء فى وطنه او فى غير وطنه

واما ابو اسحاق ابراهيم فامام فى علـــم الادب ، وان ذاكر فى الفروع فيا للعجب ، لقد تمسك من الحديـــث ، والاصول بسبب أقوى سبب ، وعند كليهما مـــن الورع والزهد والتواضع والاقتصاد ، ما ليس يدركه احـــد من المتنسكين وذوى الاجتهاد ، وان تقاربا فى نظم القريظ فان للشيخ قدرة على تأليف التواليف ، وله من ذلك الصدر الفسيح الغليظ، وقد كان لا تهمه عظائم المهمات، الا خدمة العلم منذ نشأ حتى مات .

انقطاع الشيخ الى خدمة العلم

وذكروا عنه انه اقام سبعة اعوام ملازما داره لا ينصرف فكان متى زاره احد من الزوار وجـــده اما ينســـخ واما يدرس ، واما يقابل ، واما يبرئى الاقلام ، واما يطبـــخ الحبر ، واما يسفر كتابا ، لا يعدل عن هـــذا الفـــن الى ما سواه الا ان قام لاداء فريضة ، وكان اذا اعتمد تأليفـــا أو نسخ ديوان لا يهوله ولا يستعظم فيه صعوبة ولا كثرة فان له على ذلك قدرة ، ولقد حدثنا بعض الثقـــاة قـــال : وقفت ببلادنا قسطيلية وسوف واريغ ووارجلان على سبع نسخ أو ثمان من كتاب العدل والانصاف[1] تأليف أبى يعقوب كلها بخط يده ، واما انا فرأيت منها ثلاثا.

حرص اهل وارجلان على الاستفادة منه

وكان اذا جاء الى موضع الوضوء فى مسجد فى وارجلان انصرف كل من حـــول المتوضى ، فيضع من يـــده سفـــرا ومفتاحا ويضع عمامته وكساءه ، ويقعد فى ثوب واحد فيدخل المطهرة ، فيرجعون ويأخذ احدهم شيئا منها ويأخذ الآخر شيئا آخر ، حتى يرجع الشيخ فلا يجد شيئا فيقول ردوا علي علائقى ، فيقول احدهم ارد بعوض فيسأل عن مسألة فى النحو ثم يجيب فيرد ما أخذ ، ثم يسأل الآخـــر

(1) كتاب له قيم فى أصول العقائد والفقه لا زال مخطوطا

عن فريضة ويسأل الآخر عن مسألة فقهية ويسأل الآخر عن تأويل آية ، ويسأل الآخر عن تأويل رؤيا وعن غير ذلك ، فيجيب كلهم فحينئذ يردون عليه ما أخذوا ، فكان هذا دأبه رحمه الله حتى لقي الله .

وحدثنى ابى رحمه الله قال حدثنا بعض اصحاب ابى سليمان ايوب بن نوح قال : سألت ابا سليمان عما حصل من علم النجامة قال : رحم الله شيخنا ابا يعقوب عمد الى العلوم النافعة كعلم القرآن والفقه وعلم اللسان فحملها ابنه ابا اسحاق ، ووجد عندنا افهاما قابلة لعلم لا ينفع يعنى علم النجامة فعلمناها ، وقلت له ما غاية المنجم المحقق ايعلم يومه متى يكون ؟ قال اعلم ان غاية المنجم العالم يعرف أسعيد هو أم شقى ، وكان أيوب هذا يقول يكون أجلى يوم كذا ، فكان كما قال (I) .

وصول الدعوة الموحدية الى وارجلان

وحدثنا بعض اهل وارجلان ان أول داع وصل الى وارجلان من دعاة الدعوة المهدية العيتروسى وصلها فى خيل ، فلما قدم اليهم دعاهم الى اجابة الدعوة ، فتشاوروا فيما يأتون وما يدرون ، فاجمع رأى اكثرهم على قتله واصحابه ، حتى لا يظهر لهم ذكر ، فقال علماؤهم ما ضرنا ان نصل الى الفقيه ابى يعقوب نعلمه بما وقع فى نفوسنا ونأخذ ما عنده ، فجاؤوه بجمعهم ، فقالوا له ، ان هذه خيل تدعو الى سلطان قد ظهر ، وقد اجمعنا على ان نقتلهم قبل ان يعرفوا بلدنا ، فانا نخاف ان يخربوا بلادنا ان عرفوها ، فقال لهم ، هؤلاء لا يخربون بلدكم بل تنالون في

(I) لا يخفى ما فى هذا الكلام من مبالغة ، ففى القرآن الكريم « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس باى ارض تموت ان الله عليم خبير » هذا مع قطع النظر عما قيل فى مثل هذه المعلومات ان صح ان تسمى معلومات من التنجيم وغيره .

ايامهم عزا واقبالا ، وتلقون منهم في بلادهم خير لقاء واكراما واحسانا ، اكثر مما تلقونه في بلادكم ، فأجيبوا دعوتهم تفلحوا فليسوا بالذين يخربون بلدكم ، واما الذي يخرب بلدكم فيخرج من سلجماسة ويموت في البحر ، وان خرج من البحر ثانه يموت في سلجماسة ، وهو المتلثم ، فاذا ظهر فلا بد ان يرد بلادكم قاعا صفصفا ، سمعت هذا الخبر سنة عشرين وستمائة فلما كان سنة ست وعشرين أو سبع وعشرين دخلها يحيى بن اسحاق الميروقي المتلثم ، فهدم كل ما دار عليه سورها الى المسجد ، وعاد وارجلان كان لم تغن بالامس . (2)

الحديث عن حجازية ابي يعقوب

وبلغنا ان ابا يعقوب كان في عصر شبيبته يقرأ بقرطبة ففيها أتقن هذا الفن ، وفيها حصل بضاعة وافرة من اللغة غير مزجاة ، وفيها قرأ جملة من كتب الحديث ، ومما يدلك على سعة ما عنده من هذه الفنون قصيدته الحجازية المتطاولة ، فانه أودعها فصولا على ما ذكرته من ذلك ، ابياتها عدد ايام العام بدأ فيها بغزل رقيق ، ثم الرحلة عن وارجلان ، والتنبيه عمن صحبهم في ذلك الركب ، وذكر الطريق منزلة منزلة في سيرهم حتى وصلوا ، وذكر المناسك ، ثم فعل كذلك حتى خرج ، ثم خرج الى شيء من علم الحدثان ثم وعظ احسن وعظ ، وتذكير ، ففيها ما يشهد له باتساع الفن ، فكنت اعتقدت ان اودعها هذا الكتاب واشرحها اجابة لرغبة من رغب الى ذلك ، لكن منعتني العجلة في تعليق هذا الكتاب ، وكوني أيضا لم اجد من يرويها عن ابي يعقوب فارويها عنه على صحة

(2) يشير الى خراب سدراته على يد الميورقي وما أصاب وارجلان

واعرف مقاصده فأحدو حدوها ، ولعمر الله ان فيهـــا لفوائد كثيرة .

ولابى يعقوب تآليف كثيرة ، احسنها فيما ذكر لى أبو العباس ابن محمد كتاب الدليل والبرهان هو فى علـــم الاصول ، واما انا فلم اقف عليه لانى اذ كنت بوارجلان لم اعلق همتى بنظر هذا الفن ، فلا قوة الا بالله ، وأيضا فان الامهات منه قليلة .

وسمعت فى وارجلان من جماعة شيوخ ان ابا اسحـاق رأى فى منامه كان نخلتين صنوان احداهما باسقة والاخرى قصيرة وكان والده فى الطويلة منهما يجتنى منها ثمـارا وكأنه عالج الطلوع فقدر على الصغيرة ، فلما صار اليها عالج طلوع الكبيرة الى حيث كان ابوه فلم يطق ، فقصهـا على ابيه فقال يا بنى انك تحاول منزلة ابيك فى العلـــم وانت دونها .

أبو يعقوب يوسف بن خلفون

ومنهم ابو يعقوب يوسف بن خلفون المزاتى رحمه الله المحقق الوصول الى الغاية فى علم الفروع والاصول ، ان درس فلقن أحسن تلقين ، وان افتى فمغترف من عـذب معين ، لا يخشى منه تعسف ، ولا يدرك الفاظه تكلـــف ، كثير الاطلاع على مسائل الاتفاق والاختلاف، وكثير الدفاع عما قيده فقهاء الاسلاف ، وله تعليقات عجيبة ، واجوبـة محافظ على بيضة الدين ، محصن للمذهب امنع تحصين ، مقنعة مصيبة ، الا انه كان مع محافظته وكثـرة حفظه ، يعجب من ضعف بخته مع الاخوان ، وقلة حظه ، فانهم لم

يقيلوه فى العشرة انصافا ، ولم يهبوه من انفسهم أسعافا ، بل قد أذاقوه العقوق اصنافا ، وجرعوه منه مرا زعافا .

حدثني غير واحد من اصحابنا ان ابا يعقوب يوسف بن خلفون كان كثير المطالعة فى كتاب الاشراف (1) وغيره من تصانيف علم الخلاف ، فكان العزابة يكرهون ذلك وينتقمون عليه ، وينهون عنه ، حتى انه ربما شافهه بعضهم يقول « تركت المذهب ، أو رغبت عن المذهب » واظهروا له الكيل بهذا الصاع، فلم يكن رغبة عما اكرهوه ولا اقلاع ، قال فلم يروه معرضا عن سلوك ذلك المنهاج ، ورأوا منه التمادى واللجج فاوجبوا عليه كلمة الهجران وقالوا له لا تقربنا من الآن فانك اسهبت فى المناقضة أي اسهاب ، ورغبت عن طريقة امامك عبد الوهاب ، فعند ذلك التفت اليهم وقد ولى فقال لهم : «والله ما فيكم وهبي غيرى » ومما نقموه منه اعلان القول بان يقول لهم والله ما علمت لكم كتابا غير كتاب «اختلاف الفتيا» و«والغانمى» فكانوا ينسبوه بذلك الى تعجيز العزابة وذم تواليفهم ، والبحث عن معايبهم والتصريح عما يضع منهم ، وحاشاه بل لو قال الآن احد هذا القول لم انسبه الى نقص ولا تنقيص ، والذى يظهر فى هذا الشأن ان كلهم مصيب ، فان العزابة اذا فضلوا كتب العزابة وعصبوا الترجيح غيرها عليها فوجه العذر لهم وللمولعين بين ظاهر ، وهو ان الذى صنفه الاشياخ انما جاءوا به على حسب موافقة المبتدئين اهل اللسان البربرى ، وذلك جهد طاقتهم ، فاذا اوجبوا

خبر اختلاف الشيخ مع العزابة فى مطالعة كتب المخالفين للمذهب

(1) لعل الكتاب هو كتاب الاشراف على مذاهب الاشراف ، لابى بكر النيسابورى الشافعى المتوفى سنة 318 هـ جمع فيه المذاهب الاسلامية ، وقد علق عليه الشيخ أبو سعيد الكدمى العمانى وسمى كتابه زيادات الاشراف ، وكتابه هذا من ضمن المخطوطات أما انكار العزابة منه مطالعة مثل هذا الكتاب فرأى شخصى ، وقد وجهه المؤلف ، وليس رأيا عاما لعلماء المذهب الاباضى ، كما يدل على ذلك صنيع الشيخ أبى سعيد الكدمى

الذنب على امثال ابى يعقوب فانما اقتدوا بقول من قال من المشائخ لما وقف على الخمسة والعشرين جزءا ، لا يطعن فى هذا التأليف الا منافق ، يتخيلون ان قد حقت عليهم كلمة الخلاف ، وانه لم يبلغه هذا القول ، ولعله اذ بلغه جعل للمطعن وجها وللنفاق وجها غير الوجهين الذين ذهبوا اليهما ، وينبغى ان يحمل ذلك على أحسن محتملاته ، تزكية للفضلاء ، وقياما بحق أولياء الله العلماء .

ووجه العذر له فى ترجيح الكتابين ظاهر ، وهو انهما كلام عربى غير متكلف مع كثير ما تجد فى مسائلهم المسند اليه ، والمعتمد فيهما غير المبتدئين ، فكانهما ارفق لنفوس النجباء مثل ابى يعقوب ، ولقد حدثنى ابو الربيع عن أبى الحاج أبى عبد الله محمد بن سعيد رحمه الله ، انه يحكى عن جدى يخلف حكاية تدل على براءته مما قذف به ، قال أبو عبد الله : خرجنا حجاجا مع شيخنا يخلف بن يخلف حتى اذا كنا « بعقاب » قدم علينا فى وقت المساء رجل لا نعرفه ، فرأيناه يسأل عنا ، فقال له يخلف من هذا السائل ؟ وممن هو ؟ قال انا ابن صباح المزاتى ، فاستحال ذلك شيخنا فبادره بان قال كذبت ، قال ابو عبد الله وما رأيته قط عجل بسوء معاملة قاصدا الا تلك الليلة ، ثم تدارك فسأله ما شأنك ؟ وما وراءك ؟ قال قدمت مع عمى يوسف بن خلفون واعلمه بامور دلت على صدقه ، فجعل يستغفر الله ويتوب مما فرط منه ، فقال له وأين عمك يوسف ؟ قال يبيت عندكم الليلة المقبلة ، قال أبو عبد الله فلما كان فى الليلة المقبلة لحق بنا هو ومن معه ، فلما حل بنا أبو يعقوب لم يمكنا اقبال عليه لانا قد خرجنا من بلادنا والعلم عندنا بانه فى الهجران ، ولا علم عندنا

بتوبته ولا غيرها ، فجهدنا انا نتأسى بشيخنا فما تقـــدم
فيه تقدمنا ، قال فلما نزل الشيخان وضع شيخنا يـــده
في يد أبي يعقوب وتنحيا عنا غير بعيد ، فجعل يثرب عليه
ويعدد ما نسبوه اليه بتثريب ، لم نفهـم منه الا ما عاينا
الشيخ كلما ذكر خطيئة خط باصبعه في الارض فكلما عد
عليه شيئا ذكر وجهه وسببه واعتذر، واستغفر، حتى أتى
على جميعها وظهرت براءته وكان الشيخ يخلف يقول له في
تثريبه يا ابن خلفون كيت وكيت ثم يخط ، ويقول يا ابن
خلفون كيت وكيت ، واطال العتاب ، وابو يعقوب مطرق
الا انه مهما عد عليه شيئا ذكر عذره ووجهه ، وسببه حتى
توجه عند الشيخ عذره فسمعنا شيخنا يقول الحمد لله رب
العالمين . وقاما معا واعتنقا وقمنا نحن أيضا وسلمنا عـلى
الفقيه ابى يعقوب وسلم علينا وتأنسنا به ، وسرنا الى بلد
الله الحرام ، فادركنا هنالك ركب اخواننا اهل عمـــان
ومعهم فقيههم الذى حج بهم يسمى ناجية بن ناجية ، قال
ابو عبد الله فحججنا حجة لم يحججها مغربى قبلنا ولا بعدنا
وذلك انه لا يضيق الحال باحد من اصحابنا أو تنزل عليه
نازلة من مسائل المناسك أو غيرها من مسائـل الدنيـا الا
والاها احد الفقهاء الثلاثة ، فيجد عنده الشفاء فيما يأتى
أو يذر ، ورجعنا الى بلادنا وابو يعقوب راض مرضى عنه

وبلغنا عن بعض من عاصره انه قال قدمت من جهـــة
طرابلس بعد قراءتى فيها على الشيخين ابى محمد عبد الله
وابى عمران موسى النفوسيين مسائل المذهب فقصدت جهة
وارجلان لألاقى الشيخ « ابا رحمـــة اليكشى » وأعرض
عليه ما اخذت ، قال فاجتزت على « تينبماطوس » وبهـا
الشيخ ابو يعقوب ثم جئت الى ابى رحمة « بايفران » فلما

رآنى قال لى : على « تينبماطوس » كان طريقك ؟ قلت نعم قال هل سلمت على فلان ؟ قلت لا ، قال لو سلمت عليه لم اسلم عليك ، فهذا الخبر وشبهه لعله كان قبل قصد أبى يعقوب الى الحج ، أو كانت وحشة بين الشيخين لا ذنب فيها على احدهما ، أو لا ذنب فيها على ابى يعقوب ، والا فليكن صحيح اعتقادك على ما حكاه ابو عبد الله بن سعيد .

ومما قيد من تعليقات ابى يعقوب للاجوبة عن المسائل التى سأله عنها سائل فكتب بها اليه وبين ما فى جميعها من أقاويل العلماء ، فوجه ما قاله اصحابنا ، واستدل على صحته بادلة قاطعة ، رسالته الى اهل جبل نفوسة مشتملة على فقه ووعظ .

أبو عبد الله محمد بن علي

ومنهم ابو عبد الله محمد بن على السوفى رحمه الله . ذو السخاء والفتوة ، والدين والمروءة ، والقيام والصيام، والسهر اذا الناس نيام المتحرى الاورع ، الوقور الاروع ، الحازم ولم يفرط ، الزاهد ولم يقرط ، سلمت له دنياه مع سلامة الدين ، وكان يذكر فى الهادين المهتدين ، وممن تجرى الصالحات على يديه ، ويفزع فى الصغائر اليه ، فانه لحليم أواب ، وذو دعاء مستجاب ، وله يد فى مسائل المذهب ، وفى المواعظ اذا رغب أو رهب .

الصلح الذى تم على يده بين اهل درجين

وحدثونا انه وقعت فتنة ببلاد درجين السفلى الجديدة ، فافضت الى حرب الاوطان وذهاب الانفس والاموال ، واشفى كلا فريقيها على التلاشى فبلغ ذلك أهل الدعوة فى الجهات الشرقية والغربية ، فعظم عليهم ما نال اهل درجين من الضعف واستبدال احوالهم ، واستبعدوا استصلاح

حالهم بعدم الاسباب المعينة على ذلك ، فحرك الله سبحانه الى ذلك ابا عبد الله محمد ووفقه لما يحبه ويرضاه من امتثال امره في الاصلاح بين الفيئتين من المؤمنين اذا اقتتلوا ، ونصرة السبيل الذى منه يتوصل الى اصلاح ذات بينهم ، فقدم من سوف الى ان وصل «درجين» فتمادى الى خارج ربض « نفطة » ولم يدخل درجين ، فنزل اليه من بربط نفطة من العزابة فيهما الحاجان يخلف بن يخلف ، ومحمد ابن سعيد ، فرغب اليه يخلف في النزول الى الضيافة فامتنع ، وقال انا جئت لهم ولا ابدأ بغيره حتى يقضيه الله ، وييسره ، وانا أحب معاونتكم بأن تستحضروا له كل مهاجر اليكم ، وفارق لوطنه بسبب هذه الفتنة ، وترغبوا اليهم في الدخول في هذا الصلح ، فانهم عندى اشد ممن في درجين ، وارجوا ان اجد ممن في درجين من المطاوعة ما لا اجده فيمن عندكم ، فاغيثوني باحضارهم وهلموا بهم الى خارج درجين ، فصحبه عزابة الربض ومعهم من طاوعهم من اضيافهم من بني درجين ، والاكثر قد طاوعوا او انابوا ، ولما صاروا باجمعهم مع الشيخ أبي عبد الله حول مسجد قنطرار الفوقية خرجت اليه جماعة بني درجين من كلا الفريقين ، فيهم الواتر والموتور ، ورغب الى أولياء الدماء فعفوا عنها ، وندب جميعهم الى الصلح فاجابوا ، وعقد بينهم الصلح ، فلما اصطلح الفريقان استدعى سبع حصيات من ايدى سبعة رجال حجاج حضروا حينئذ ، ثم قال هذه حصيات تناولتها ايد قد استلمت الحجر الاسود ، وحفر في الارض على قدر ذراعين حتى غاب عاتقه ودفن الحصيات ، ثم قال هذه فتنة اهل درجين قد دفنت ، فمن أثارها جعل الله بأسه في

رأسه ، فامنوا كلهم على دعائه ، وقطع الله تلك الفتنة الى اليوم ، وكان الذين تخلفوا بالربض وأبوا ان يحضروا الصلح وأن يرجعوا الى البلد ثلاثة أشخاص ، فدعا عليهم فلم يعقبهم خيرا ، ودعا على الذين عفوا عن الدماء وأنابوا الى الصلح فنموا وكثروا .

وذكروا عنه انه قال : دعـوى القبائل هى التى تحرك الفتن فادعوا الله على من دعا بها ، ففعلوا ، فلما انعقـد الصلح دخل وتضيف وحمد الله تعالى وشكره على ما جرى على يديه من الخير والصلح .

وذكروا عنه انه لما عزم على المسير الى الحـج اودع عند الشيخ افلح المرغنى مائتى دينـار ، فلما قدم بعد عامـين قال له ما فعلت الوديعة يا افلح ؟ قال اكلها الزمان يا محمد فلم يسأله عنها حتى لقي الله تعالى .

وكان أبو عبد الله عظيم القدر فى اهل المذهب بحيث لا يجهل موضعه ، ولا يجحد حقه ، ولا ينكر فضله ، فمما يشهد بذلك قصيدة الشيخ أبى يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتى الحجازية وقد حضرت الفقيه أبى العباس احمد مـــــرارا وفى يده ديوان شعر أبى يعقوب فاذا قرأ لنا القصيدة المذكورة وبلغ قوله فيها :

خرجنا نؤم الشرق من حيز وارجلان
بفتيان صـــدق من وجــوه العشائر

الى قوله : ومغراوة عليا زنانة كلها ، يقول لنا لم يسافـر فى ذلك الركب من مغراوة غير أبى ، يعنى الشيخ أبا عبد الله فيسلم له بذلك جميع من حضر من مغراوة ، وناهيك

بواحـــد يقوم مقام جماعـــة فى مثل تلـــك القصيدة التى بقيت تاريخا .

أبو يحيى زكرياء اليراسنى

ومنهم الشيخ أبـــو يحيى زكرياء بـــن صالح اليراسنى رحمه الله ، علم المذهب ومناره ، المحمود فيه عينه وآثاره وناصره متى قلت وكلت انصاره ، وعامر ربعه متى ولت واعتلت عماره ، اتاه الله فى الدنيا حسنـــة وفى الآخرة حسنة ، أشهره اللـــه فى خدمته فاطال عن خدمـــة الدنيا وسنه ، واوســـع عليه فى الاخـــلاق والارزاق والاعمـــال والمال والعطاء والثناء سعة تناقلتها الالسنة ، ومنحه من البركة ويمن الحركة ما اقام فى ساعـــة من العـــمر مقام سنة ، وهو الذى فضله الله باشياء فضل بها الاله الاموات والاحياء : الورع ، والسخاء ، ولزوم السيرة ، ونفوذ عين البصيرة ، وتساوى صلاح العلانية والسريرة ، واليـــد العليا فى الكبيرة من الصلات والصغيرة .

ما كان منه وهم فى الطريق الى نفزاوه ومعهم امـــوال

سمعت من غير واحـــد من المشائخ حكايات فى مناقب الشيخ أبى يحيى زكرياء بن صالح ، منها مـــا هو فى باب الجـــود والكـــرم ، ومنها ما هو فى الكرامات وعجائـــب البطائن ، ويمن الناصية ، وبركة الرأي ، فمن ذلك مـــا سمعته مرارا عن أبى رحمه الله قال : وصل الشيخ أبـــو زكرياء ذات مرة من سلجماسة الى وارجلان ، ثم خرج من وارجلان متوجها الى جربة فى جماعة من اصحابه يكونون خمسة وعشرين راكبا ، أو عشرين راكبـــا ومعهم قريب مـــن مائتين وخمسين مثقالا ذهبا تبرا ، لما صاروا ببعض الطريق بـــين وارجلان ونفزاوة وأصبحوا راحلين غادين

بين كثبان رمل اشرفوا من أعلى كثب فرأوا نعما كثيرا فى المرعى ، ومن ورائها احياء فأيسوا من السلامة ، الا انهم تضاموا واخفوا شخوصهم قبل ان يراهم احد ، ثم تشاوروا فيما بينهم ، فقائل يقول (ندفع ما معنا) وقائل (نولي خلفنا) وقائل (نرسل اليهم من يجاعل على سلامتنا بجزء مما معنا) ثم قالوا لى ما عندك يا شيخ البركة ؟ فقال انما مثلنا مثل أعمى سلم عينيه الى القادح ليقدحها رجاء انجلاء العمى ، فان ابصر نورا فبفضل من الله ولطفه به ، وان لم يبصر فانما كان اعمى وبقي اعمى ، وكذلك نحن ، وعندى رأي هو بمنزلة القدح فان فعلنا ونجونا فبلطف من الله ، وان عطبنا فنحن عاطبون من قبل ذلك ، قالوا وما رأيك المبارك ان شاء الله ؟ قال : أرى ان نستدير مع بعض الاحقاف الى اقرب قطيع يلينا من النعم الذى رأيناه ، فنخرج الى القطيع على حين غفلة من ارباب الابل ورعاتها ، ثم ندخل فى وسط القطيع ، ثم نقول لهم ، نحن دخلاء هذه الابل ، ففعلوا فعند مروقهم من بين الكثبان ودخولهم فى الابل راتهم فرسان ، فما كان باسرع من اتيان الخيل اليهم مثنى وفرادى متوجهين مرجفين ، فاذا هم من «المغترف» وللمغترفين اذ ذاك احساب طيبة ، واذا برب القطيع من اشرف اول فارس ، فقال لراعى ابله ما هذا ؟ قال لا ادرى ، الا أن الابل كانت ترعى فلم أشعر الا والركبان كانت فى وسطها، وقالوا نحن دخلاء لصاحب هذا الابل وقال الفارس لهم امان الله، واذا بالخيل تركض فقال لهم : لا تتعبوا خيلكم فقد حرموا ، قال : فأنزلهم واكرم مثواهم ، ثم صحبهم أو اصحبهم من خيله من بلغهم الى مأمنهم من قرى « نفزاوة » .

مكانة الشيخ لدى العبيديين بمراكش

وسمعت من جماعة منهم أبى رحمه الله ان الشيخ أبا زكرياء يحيي كان بمراكش فى أيام ولاتها ، فبلغت عندهم منزلته مبلغا عظيما ، وكان له بها جاه عظيم لما اشتهر من امانته وصلاحه ، ومحافظته على دينه ، ولما ظهر من كراماته وبركاته ، وكان مختصا بيعقوب (I) وهو اذ ذاك وزير أبيه ، وقبل أن يلى الوزارة ، فكان يلبى له كل مطلب ، ولا يكاد يحوجه فى كثير من المسائل الى أبيه ، الى ان قال يوما عرفنى بكل سبب تامله عند أمير المؤمنين لأتكفل لك به عنده ، واسعى لك فى كتاب كريم يكون لك ظهيرا ، واتمشى لك به كلما تحب ، فقال له : بل ان عندى شيء أريد أن القيه اليك ، قال وما هو ؟ قال صح عندى بدليل لاأرده انك الذى تلى الخلافة بعد أبيك دون من سواك من بنيه ، وأراك ان تكتب لي ظهيرا بما ذكرته فيكون منك ، ولا احب ان يكون من سواك ، فقال له ان كتابى لا ينفعك شيئا ، ثم من اين لك ما ذكرته ؟ قال له ما ذكرت لك الا قولا صحيحا ، فكن منه على يقين ، ولا اعتقد النفع الا فى كتابك ، فاستبشر وكتب له بما احب، فلما ولى انحدر الى افريقية بعسا كره فوقف اليه وذكره الموطن واحضر كتابه ، فضاعف اكرامه وقضى مسائله ، واعلى منزلته وشفعه فى كل من شفع فيه ، وانتفع بعنايته جميع أهل الجزيرة بل أكثر أهل المذهب الا ما شاء الله .

ومنهم أبو يحيى فصيل بن مسعود رحمه الله

شيخ الانبساط والانقباض ، والعزوب عن الدنيا والاعراض ، والاحتقار لما يستعظم الناس فيها من

(I) هو يعقوب المنصور من احفاد عبد المؤمن مؤسس الدولة الموحدية ، وله أعمال هامة فى بجاية والمهدية ، مات سنة 580 هـ

الاعراض ، وسلامة الصدر من الشهوات والاغراض ، المجدد لما كان من السير قد أشفى على الانقراض ، المزرى بجزيل معرفته ومعروفه على البحر الفياض ، المفنى أيام عمره فى الصلاح فتساوى عنده مستقبل وماض ، الموفى لله عز وجل بما تعين عليه من الافتراض .

الشيخان أبو عبد الله محمد ، وأبو الربيع سليمان

ومنهم الشيخان أبو عبد الله محمد بن داود وأبو الربيع سليمان بن داود رحمهما الله كلاهما بحر العلم والسماح ، وعمادا أهل التقوى والصلاح ، فسيحا الجنان وان كان فى اللسان تعذر افصاح ، نصيحان فى الله متى عدم النصاح ، ان وعظا او ذكرا فنور الايمان يمتاح ، وكذا الزيغ والفساد ينكشف عن مستمعه اى انكشاف وينزاح ، لا يرى عند مرضاة الخالق بسط المخلوق من جناح ، طالت أيام أبى الربيع فعمت السعادة غدوها والرواح ، وشملت بركته أهل القرب والانتزاح .

حدث أبو الربيع عن أبيه قال حججنا وقفلنا الى بلادنا فتشبث رجال من اصحابنا من نفوسة الجبل بشيخنا يخلف رحمه الله ، فلما وصلنا حيز طرابلس رغبوا اليه كل الرغبة فى ان يصحبهم الى بلدهم ، ليبين حدودا جهلوها فى نسبهم ونشبهم ، ورجوا ان يجدوا عنده حفظ ما يخلصهم في دينهم ومذهبهم. قال فأجاب رغبتهم واذن لنا فى التقدم عنه ، فودعناه وتقدمنا ، فلما فارقته وجدت من الوحشة لفراقه اضعاف ما كنت وجدت من التأنس به ، فكنت المطلق المسجون ، المؤالف الشجون ، فما راقنى من لقيت بعده حتى قدمت على الشيخ سليمان بن داود رحمه الله

وذلك بمنزله «بتونين» قال فلما لقيته لقيت شيخا جليلا عظيم القدر ، متناهيا فى الصلاح ، ووجدت منه تأنيسا وافادة ، حتى سلوت عن كل هم ، وكان مما حفظت عنه عند التسليم انى قلت : ادع ، فقال : بل ادع انت ، ففى الاثر « استقبلوا الحاج واستدبروا الغازى » وحضرت الصلاة وهى رباعية وأظنها صلاة الظهر ، قال فأقام الصلاة وقدمنى ، فقلت : انى مسافر فقال لى اعتقد الاقامة هنالك ، وصل بنا ، فامتنعت منه كل الامتناع ، فقال ساعد ، فما من ذلك بد ، قال فلما قضيت الصلاة وحضرنا طعامه أوتى بزجاجة فيها شراب ، فعرض علي الشراب فامتنعت فلم يكرر على ، وشرب هو ، وقال هذا شراب حلاب اقتات به ، اذ لا أقدر على الطعام لضعفى ، ولما اكلنا تناول باصبعه من الفضلة ، فقال آكل هذا تبركا وان كنت لا اقدر عليه .

الشيخ ابو عبد الله يعظ اهل جربة وينهاهم عن المداينة

وحدث بعض اصحابنا ان أبا عبد الله محمد بن داود رحمه الله دخل جربة سنة من السنين زائرا فجلسوا عنده ذات يوم فجعل يعظهم ويذكرهم ويخصهم واحدا بعد واحد ، حتى افضت النوبة الى الشيخ أبى مسعود فقال له ما هذا الذى بلغنى عنك يا أبا مسعود ؟ فقال له وما هو ؟ قال بلغنى عنك انك تداين ضعفاء أهل جربة فى حال العسر ثم تاتيهم لتقاضى دينك ، فاذا رأوك من بعيد ادخلت الروعة على المرأة والطفل ، وأثمت فيهم ، ويروع المديان منك ، واستدعيت منه بذلك ضعف دينك وقلة مروءتك ، وما هو الا ان يروك ويقولوا هذا ابن أبى زكرياء قد أقبل ، فعل الله به وصنع ، أترضى لنفسك ومنزلتك وأبويك ومنصبك ان تكون هذه منزلتك ؟ كلا

والله ، ولكن جانب المداينات ما استطعت ، فان لذلك رجالا ، فقال انى تائب يا شيخ ولا اعود .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن يحيى بن عيسى العباسى رحمه الله

ممن يقدمونه اذا عد الاتقياء ، وينسبون اليه السخاء متى عد الاسخياء ، وكان لتحرجه لا يتحرى من الطرق الا ما يجرى فيه خلاصه ، ومن جوده الذى حيل عليه كان من المؤثرين على انفسهم ولو كان بهم خصاصة .

حدثني بعض العزابة عن الشيخ عبد الله عن على قال خرجت من أريغ أريد وارجلان فى جماعة من العزابة ، فسلكنا على تلا منزل الشيخ عبد الله بن يحيى ، قال فخرج الى العزابة فسلم عليهم ، وانزلهم للضيافة ، فلما دخلنا موضعه قدم لنا تمرا كبيسا معسلا ، ولبنا عجيبا ، فلما اكلنا من ذلك ما اشتهينا احضر صحفة ثريد ، يقدر كل واحد منا ان يأتى على آخرها وحده أو هو وآخر حتى لا يبقى منها شيئا ولا يدره ، قال وعليها من الزبد ما اخرجه من اللبن الذى شربناه اولا مع التمر ، قال فينظر كل واحد منا الى صاحبه تعجبا منه كيف قابلنا بالطعام القليل ونحن تسعة او عشرة ، قال ووضعنا فيه ايدينا وكلنا قد استقله ، قال فوالله لقد صدرنا شباعا غاية الشبع وفضلت منه فضلة صالحة ، قال فلما اراد العزابة الخروج عدت اليه لأخبره بذلك فوجدته يفرق تلك الفضلة على الجيران ، ثم دخلت عليه فصادفته على مرضخه وبين يديه حشف أجرش يابس وكوزماء ، وكلما رفع حشفة رضخها وازال نواتها واكلها ، واتبعها بجرعة ماء

الشيخ يدخر كرائم ماله لاكرام الضيف

من الكوز ، وفض النواة لعلف الغنم ، فقلت لـــه ما هذا يا شيخ ؟ هلا اكلت من التمر الذى أطعمتنا منه ؟ فقــال يا بنى ان من اكل خيار مالــه فقد اكل دم وجهــه ، وذلك مدخر لا مثالكم ، وان الذى بين يدى مع العافية كثير .

يعرض عليه الاقـامة والنفقة ليحفظه القرآن

ثم قال هل لك يا عبد الرحمن فى رأي هو خير لك من السفر ؟ قلت وما هو ؟ قال : ان تقيم هنا وتنتفع بتحصيل القرآن ، وفوائد ، ولا تعدم ما تتزود به من المال ، قــال فقبلت بنصحه وأقمت عنده وكان قوي الحفظ لكتاب الله العزيز ، فكنت عنده فى أرغد عيش وفى اجتهاد وعكوف على درس القرآن ، قال واقبل فصـــل الربيع وخرجت أغنامهم الى المنزل الموالى للبرية طلبا للمرعى ، ولينتفعوا بالبانها ، وخــرج بعض العيالات ، وكان الشيخ مقيمــا فيمن اقام الا انه لابراره بى قال يا بنى انى لأكــره ان يفوتك اللبن وهو فى هذا الفصل غنم ، والاغتذاء به نعم وأرى لك ان تخرج مع العيال الى المنزل البرانى ، وتخرج معك مصحفا ولوحك ، فاذا حفظت محوت كلتي صفحتنيه ثم كتبتهما من المصحف ، ثم جئتنى فتعرضه على ، ثم تخرج وتكون هنالك حتى تحفظ ما تحصل فى اللوح ، فلا يزال ذلك دأبك مــدة الربيع ، قال ففعلت وأمــر من تكفــل بمعيشتى ان يخرج تمــرا طيبــا برسمى وامــر المتكلف بعيشى ان يجعل وصيبا مملوءا برسمي لا يتناوله غيرى ، فكنت على ذلك حينا حتى نلــت مــا منانى به من حفــظ القرآن والسير والفوائد ، وافادة المال .

عبد السلام بن عبد الكريم

ومنهم عبد السلام بن عبد الكريم المزاتى رحمه الله .

الورع الجواد الكثير الاجتهاد ، كم تردد على الخلق حتى استفاد ، وتكرر فى زيارة الشيخ حتى فاز بالمراد .

حكى عنه انه قدم أول قدومه من الحلقة فسأله يوسف بن ابى حسان عن ثلاث مسائل مما يستعجز به المبتدؤون العاجزون ، فلم يجبه عن واحدة ، فقال عجلت بالرجوع يا عبد السلام وانت محتاج الى الحلقة فليت شعرى ما الذى جاء بك ؟ قال وقد اخجله بكلام شافهه به ، فكان ذلك سببا لرجوعه الى الحلقة ، قال فرجعت الى عيسى بن احمد فقرأت عليه ما شاء الله ، ثم رجعت فاجبت السائل الذى سألنى عن مسائله وعن غيرها ، قيل وكان مفتيا لاهل مكانه يحتاج اليه اهل زمانه ، وعنه يحكون انه قال : سافرت مرات فأحسن سفرة سافرتها انى سافرت مرة ومعى اصحابى عزابة قدر ثلاثين رجلا ، فاذا دعا اهل الرفقة بالكلام الذى هو اشعار بالاكل حط العريف الزاد عن البعير ، فما يحطه الا واصحابى محدقون به لم يغب منهم احد ، واحسن كتاب قرأته كتاب كتب الى به الشيخ ابو عبد الله محمد بن داود وكتب لى فيه اخبار اهل الدعوة كلهم ، واحسن مركوب ركبته حمار صحبت به خيل الاعراب ، فكانوا يهمزون خيولهم بالاشابر وحمارى لم يتخلف عنهم .

أبو نوح يوسف وابنه أبو زكرياء يحيى

ومنهم ابو نوح يوسف وابنه ابو زكرياء يحيى رحمهما الله ، لكليهما فيضان فى العلوم يزرى بفيضان البحر ، ونظم يزرى بالدر ، يباهى قلائد النحر ، بل تزان به فوائد الدهر ، ومآثر حميدة الذكر ، لها انفاس نفيس العطر ، وهما اللذان احيا ما ورثاه عن جدهما محمد بن

بكر ، وبقيت فيهما بركته تتوارث الى هذا العصر ، بل هى باقية ان شاء الله الى يوم الحشر ، وكان كل واحد منهما شديد الغضب فى الله متى قام فى انكار المنكر ، معتمدا على الحق فى السر والجهر ، فاما ابو نوح فقد كان ساعية دأبه فى تنمية الصلاح ، ومحو آثار الفساد بحيث ما كان لا يفتر عن هذا الفن ، وكان مطاعا مسخرا الى القوي والضعيف ، والقريب والبعيد من اهل مذهبه وغيرهم ، وكان اوسع بضائع حفظه سير اهل الدعوة واخبار السلف فمتى رأيت فى هذا الكتاب أو فى غيره من كتب المشائخ رواية عن أبى نوح فهو هذا الشيخ فاعرفه . وأما أبو زكرياء فحدثونى عنه انه كان اكثر حفظا من ابيه وله تأليف فى المذهب ، وله فضائل مشهورة منها القصيدة الحجازية . وقصيدة فى الاعتقاد ، ومخاطبته الى الفقيه ابى اسحاق وغيره ، امسكت عن تقييد لك كله اختصارا .

قيام الشيخ باحقاق الحق فى وغلانه

وحدثنا بعض تلامذته قال انتقل الشيخ أبو زكرياء وبعض آله من « تينيسلى » الى « وغلانة » فانزلهم اهل وغلانة ، واكرموهم اكراما بليغا ، ووهبوا لهم انواع المواهب حتى ملكوهم انواع الاملاك العظيمة من مركوب ومسكن وجنات وعيون ، واكثر ذلك لابى زكرياء وكان فيها بحلقته على ابر الاجوال ، وكان متى سمع عن احد من اهل قرى اريغ فعلة شنيعة عن فساد أو فعل شيء من الكبائر أو ما يفضى الى الفتنة وتخريب العمار كائنا ذلك ما كان فانه ينهض اليه بالحلقة ، وان احتاج الى عسكر استنهضه حتى يتمكن من الفاعل ، فاذا ثبت ذلك عليه واستحق ووجب حد ان قتل قتل ، وان سجن سجن ، وان تعزير بالحد أو النكال انفذ ذلك كله ، قال فلقد كنت فى جملة تلامذة

احتفاء اهل وغلاية بالشيخ وقيامه بالعدل والاصلاح

حلقته مرة من المرات ، وكان فى فصل الشتاء وكان البرد فى ذلك العام شديدا ، فنال التلامذة ألمه فآثره بعض اهل الموضع بقطيفة ، فكانوا يتدثرون بها في الليل في بيت بالمدرسة ، مكان مبيتهم ، وكان اذ ذاك ببلاد « تنتمرنت » رجل عات من افتك الفتاك ، واشهر الدعار ، فبات التلامذة ليلة من الليالى فنزع عنهم القطيفة ، فقاموا ليدافعوه عنها فأصاب بعضهم بجراحات ، فلما أصبح وقد عرف الفاعل استعظم اهل الموضع ذلك ، فخرج الشيخ وقد بلغت فيه هذه الفعلة مبلغا عظيما لتعديه على غرباء مساكين، منقطعين الى الله ، وكان الفاعل ليس من اهل المذهب وفى بلد ليس فيه احد من اهل المذهب، فاجمع رأي جميعهم على ان يخرجوا بعسكر عظيم وينزلوا على البلد ، ويطلبوا من اهله ان يدفعوا لهم الجانى فان دفعوه لهم ارتحلوا عنهم ، وان أبوا قاتلوهم ، فرحلوا بعسكرهم حتى نزلوا تنتمرنت فدفعوا لهم الجانى وارتحلوا عنها ، فلما صاروا ببعض الطريق ابتدره بعض العبيد فقتلوه .

ميمون بن أحمد المزاتى ويوسف بن أحمد

ومنهم ميمون بن أحمد المزاتى ويوسف بن أحمد الوسيانى رحمهما الله ، كلاهما لخلال الخير جامع ، وقد ألجأهما الى سكنى درجين زمان غير مطاوع ، فكان كل ما حفظاه من المسائل كالضائع ، وان كان أحدهما أكثر حفظا بل الآخر افقه فى الشرائع ، واعلم بالاجوبة المقاطع .

ذكروا ان الشيخ ميمون بن احمد كان ذا فطنة وذكاء ، وعقل وذهن، وكان مصدرا بدرجين من قبل مقدمها مولاهم أبى علي والجماعة ، فكان حكمه عدلا ، وقوله فصلا ، الا انه

طال عمره حتى كف بصره ، فتخلى عن التشديد ، وكــان يتمنى ان يلقى من يسأله عن المسألة سؤال مستفيد ، فقلما ظفر بسائل ، أو بلقاء عارف ، أو معترف بما أوتى مــن الفضائــل .

حدثنى ابى رحمه الله قال دخلت حلقة بنى درجين وانا صبي قبل ان اكمل حفظ القرآن فكان الشيخ ميمون سببا لتمرنى على قراءة الكتاب لانه كان يعظمنى اجلالا لوالدى ويخصنى بالفوائد ، وذلك انه متى خرج الى المسجد دعانى وقال اقرأ فآخذ الكتاب فاقرأ ، فمتى توقفت فى بعض ما يشكل علي قال لى حرك ولا ترهب ، فاذا قرأت حـــرفا فأصبت أو صحفت استحسن ذلك ، وكان يقول لى لما كف بصره اقرأ علي سورة كذا وكذا ، وكان لا يخلينى من فائدة وحدثنى من لا اتهم عن جدى يخلف انه كان متى حضرته تحفة ذكر عندها الشيخ ميمون وكان يحض على اكرامه ويقول : اكرموا ميمون بن احمد، قد اجتمعت فيه الصفات الثلاث عزيز ذل ، وغني افتقر ، وعالم بين جهال .

واما يوسف بن احمد فلا يبعد ان يكون حامل فقه الى من هو افقه منه ، فانه كان حفاظا ، ولكن لا يحسن التصريف فيما يحفظه .

بلغنى ان رجلا من أهل توزر قدم نفطه ثـم حضر الى درجين فطلب مناظرا من أهل مذهبنا ، فيمن ينســب الى التفقه فابرزوا له يوسف فذاكره فى مسألة يحفظها سردا فتلعثم فيها ولم يتكلم بفائدة تقنع ، فبلغ ذلك الشيـــخ ميمون فغاظــه واستقبحه ، وقــال : أقدمتم ذلك الجبان لمناظرة المخالف ؟ بئسما فعلتم ، وبئسما فعل ، وكان الشيخ

يوسف كثير الورع والاجتهاد ذا خمول واقتصار ممن يتعلم منه ويستفاد .

أبو الربيع سليمان بن عبد السلام

ومنهم ابو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني رحمه الله . احد شيوخ الحلق الكبار ، الحافظ للسير والآثار ، المروى عنه التواريخ والاخبار ، لم تفته سيرة لاهل الدعوة في كل الاعصار ، وجملة أوصافه باختصار انك متى وجدت في هذا الكتاب او غيره رواية قديمة عن أبي الربيع فهو راويها عن شيوخه الاخيار .

يخلف بن يخلف وعلى بن يخلف

ومنهم يخلف بن يخلف وابنه علي رحمهما الله . اما الشيخ فعلامة نسابة ، ذو خشوع وانابة ، واجوبة في فنونه معلنات بالاصابة ، وادعية سريعة الاجابة ، وفتوة على ذى الجنابة والغرابة ، يستطيب بذل المعروف كل الاستطاب ان كهم قلمه فاللسان قد حدت الآداب غرابه . واما الابن ففصيح اللسان ، ذكي الجنان ، كثير الاصابة والبيان ، ممن يقلد في فنون الآداب وعلوم الاديان .

مكانة الشيخ يخلف لدى اهل الدعوة وغيرهم

وحدثنى من لا اتهم انه كانت جماعة البربر وجماعة العرب من قبائل مختلفة ، ومذاهب مفترقة يقصدون الشيخ يخلف ، فيجتمعون عنده افواجا يقضى بينهم في الجراحات وغيرها ، كلهم راضون بحكمه ، لا يرغب عنه احد لمخالفة مذهبه ، ولا يرد عليه قوله، واما سكان الحاضرة فكانوا مفتقرين الى علمه ، وحدثنى ابو عبد الله بن بهلول النفطى قال : ورد بعض الزوار على شيخنا ابى على حسنون

بن محمد بن عمران النفطى ، قال فأخذ جلساؤه من أهل نفطة فى ذكر مناقب يخلف العزابى وبنيه ، واهل بيته فاوسعوا فى القول والزائر الغريب يستحسن ويستغرب ، حتى قال احد الجلساء للشيخ اترى يا سيدى أنهم يرجى لهم الخير عند الله لهذه الاوصاف ؟ وهم على ذلك المذهب فلم يجبه بغير الصمت ، فقال الزائر للشيخ يا سيدى وما مذهبهم ؟ قال الصلاح ، وانقطع الكلام .

وحدثنى ابو الربيع عن ابيه قال : قبلنا يوما انا والشيخ يخلف من جنته بغابة نفطة فلقينا محمد بن عمران والد ابى على المرابطى فسلم ، وسأل عن الحال ، ثم قال : يا يخلف ما منزلتى عندكم جملة العزابة ؟ قال منزلة مشمش وفشفش يعنى جلوازين حسينين كانا بين يدى قاضى نفطة فاستعظم ذلك لما سمعه وكرهه ، ثم قال بماذا ؟ قال لانك تقول تدخل النار ثم تخرج منها ، وهما يقولان انهما يدخلان النار ثم يخرجان منها فانبسط بعد الانقباض ، فقال اهاهنا عدت ؟ قال نعم ، قال والله انكم لمعذورون وان حجتكم لقاطعة .

وقوع الشيخ والركب الذى معه فى ضائقة عند رجوعهم من الحج

وحدثنى ابو الربيع عن ابيه قال لما قفلنا من أرض الحجاز بعد قضاء الحج ووصلنا الاسكندرية وقد قل ما بايدينا فاجمع الرأى على الخروج فى زى هؤلاء المشاة ، لانا لا نقدر على ركوب البحر ، ولا نجد ما نشترى به ابعرة ، فنحمل عليها ، فاقتضى نظر الشيخ ان اشترينا بثمن ما بعناه من ثيابنا ومن فضلة ما بايدينا سقط المتاع كالابر والمسلات وما خف من عطر ، ثم خرجنا متوجهين الى المغرب ونحن نسير فى قبائل الاعراب كل يوم ، فاذا كان فى آخر النهار بعنا فيما والانا من الاحياء بما نقتات به

من ذلك السقط ، فما خرجنا من برقة الا وقد نفذ الزاد وانقطع الاحياء من طريقنا ، وليس لنا رفيق ولا دليل الا الله تعالى، وقال لنا الشيخ يخلف توكلوا على الله واستخيروه وسيروا ، قال فسرنا في مهامه لا شيء فيها ، فربما وجدنا من المباح ما نقتات به مما تنبت الارض ، وسلكنا جرزا لانبات بها وليست بمسلك معتاد لسالك ، فسرنا يومين أو ثلاثة ، وليس منا من ذاق طعاما، فلما كان في ضحى الثالث او الرابع قام امامنا شيء لونه مخالف للون الحمرة، فتيممناه حتى وقفنا عليه فاذا هو لبنة من جبن عجيب ، قال العزابة ما ترى في هذا ؟ فقال الشيخ يخلف : ما هذه بأرض عمارة ولا بطريق فنقول لعل له ربا ، وما هذه الا كرامة اكرمكم الله بها ، فاقبلوا كرامته ، ثم تناول ذلك الجبن فقسمه بخنجر كان عنده على عددنا، ثم تقدم يقطع الارض ، ونحن نتبعه ، وقد اقتات كل واحد منا بنصيبه ، ثم تمادينا نجد السير الى الغد، وقد كدنا نهلك جوعا فشكونا اليه ما اصابنا فاخرج من جيبه ما كان أخذ بالامس فاذا هو لم يذقه ، فقسمه على عددنا واكل معنا سهمه من هذه القسمة الثانية ثم سرنا غير طويل فلطف الله بنا ووصلنا ما والانا من البلاد على احسن حال ، والحمد لله .

وسمعت جماعة ممن ادركه وممن ادرك من ادركه يروون عنه الفاظا من منثور الحكم هو منشئها لو قيدت صارت دواوين كلها نافعة للدنيا والدين ، وكان ابنه قد اسرع التنقل عن سلوك طريقة المتفحصين الى النظر في علوم الدين ، وبقي أصحابه جاعلين شعارهم الاشعار ، فربما عاتبهم على ذلك وبين ان في الاستغراق فيها الغر والعار ، وهم يصدون عنه ، ولا يسمعون منه فمنهم الخلف

اشتغال الشيخ بالفقه وميل بعض اصحابه الى اشعار

بن الخلف المنبوز بالزناد الوارجلاني ، وعظه يوما فقال اقلع عن هذه الاشعار فقد اكثرت ، واشتغل بالفقه ، فقال مرتجلا :

دعني بفقهك يا ابن يخلف انني
رجل غدا بفوائدي الاشعار

ان التفقه والتنسك والتقي
أنساك ذكر الخرد الابكار

ولا أقول ان هذا في الزناد مجون أو نقلته مما عبر عنه لسان شجون ، بل انما حنينه الى الادب فجعل له صفات المجون .

مقابلة مع ابن العمودي المتصوف

وكان القاضي عمر بن غزوة النفطي يقول له : ما رأيت مثل علي بن يخلف من الناس ، فمن عجيب ما رأيته منه ان أبا القاسم بن العمودي كان من مشائخ المتصوفين قدم من توزر ومعه طلبته ، فاكرمه طلبة نفطة وصوفيتهم وبالغوا في اكرامه ، فقلت لا ينبغي ان يغيب ابو الحسن علي بن العزابي عن مثل هذا الحضور ، فاحضرته وقد حضروا ، فلما رآه ابن العمودي قال لي من هذا الجالس معنا ؟ قلت هذا الفقيه ابو الحسن ابن العزابي ، فقال أهو من الذين يبغظون عليا ؟ فلما قال ذلك رأيت ظلمة حالت بيني وبينه وندمت على الاشتغال باكرامهم أو اذا اشتغلت باكرامه ، لم جنيت على نفسي وعلى صاحبي فما اغناني واياه عن هذا الحضور ، فلما سمع علي منه هذا قال له : من انباك هذا يا شيخ ؟ قال كذا يذكرون عنكم ، قال : فهل رأيت احدا يسمي ولده باسم عدوه ؟ قال لا ، قال كان ابي من فقهاء الوهبية وقد سماني عليا ، قال ثم اخذ معه في مذاكرة

تشفى الصدور ، حتى استمال قلبه وملك لبه فجعلت تلك الظلمة تنجلى حتى صرت فى ابتهاج عظيم ، ولم يفترقا حتى قال له ابا الحسن اريد ان لا تفارقنى مدة اقامتى بهذا البلد ، وانفصل ابن العمودى يحمده ويحمد مذهبه .

سفرة الشيخ الى غانه ودخول الاسلام اليها على يده

وحدث جماعة من اصحابنا ان على بن يخلف سافر الى غانة سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، فانتهى الى مدينة «مالى» فاكرمه ملكها غاية الاكرام وكان هذا الملك مشركا وتحته مملكة عظيمة كل اهلها مشركون ، وتحته اثنا عشر معدنا يستخرج منها الذهب التبر ، فكان الملك قلما جلس مجلسا الا اجلسه معه اكراما له ، وكان يتعجب من خلقه وخلقه ، وكثرة عبادته ومحافظته على دينه ، حتى عقد النية على الانفصال وقد قضى حاجته ، وكان ذلك فى سنة قحط شديد فشكت الرعية ما أصابهم الى ملكهم ، فامرهم بالاستسقاء فجعلوا يستسقون ويتقربون بقربانهم التى يعتادونها فى ملتهم ، وذبحوا انواع الحيوان من البقر والغنم والحمير ، حتى الاناسى والسنانير ، فلم يسقوا ، فقال الملك : «لعلى ألا تدعو الاهك الذى تعبد ان يسقينا ؟ فقال له لا يسعنى ذلك وانتم تكفرون به وتعصونه . وتعبدون غيره ، فان آمنتم به واطعتموه فعلت ذلك ورجوت ان يسقيكم ، فقال له الملك علمنى الاسلام وفرائضه حتى اتابعك عليه ، وتستقى لنا ، فعلمه كيف يقر بالشهادتين فعلمهما .

ثم قال اصحبنى الى نهر النيل ففعل ، فعلمه كيف يتطهر فتطهر ، ولبس ثيابا طاهرة ورقى به ربوة فوق النيل (1)

(1) لعله يقصد نهرا من انهار غانة كنهر النيجر مثلا لا النيل المعروف فهو بعيد عن غانة

فعلمه الصلاة فصلى ، ثم قال ان انا صليت فافعل ما ترانى افعل ، واذا دعوت فقل آمين ، فباتا ليلتهما في عبادتهما وضراعة الى الله عز وجل ، فلما كان بعد صلاة الصبح انشأ الله سبحانه سحابة فما حاولا الانحدار من الربوة حتى حالت السيول بينهما وبين المدينة، فجاءهما زورق في النيل ، فركبا حتى دخلا المدينة ودامت السحابة سبعا غير مقلعة تسيح ليلا ونهارا ، فزادت المؤمن ايمانا واستدعت ايمان الكافر ، فلما رأى الملك صنع الله تعالى دعا جميع أهل بيته الى الاسلام،فاجابوا ثم دعا أهل المدينة فقالوا نحن عبيدك فاجابوا ، ثم دعا من دنا من المدينة من رعيته فأجاب اكثرهم ثم دعا الاقصين فقالوا نحن عبيدك ولك منا الطاعة وتتركنا على ما الفينا عليه اباءنا فسمح لهم ، ثم حكم بان المدينة لا يدخلها الا من آمن بالله ورسوله ومتى رؤى فيها كافر قتل ، ثم قال له علمنى القرآن وشرائع الاسلام فجعل يعلمه حتى تعلم جملة ينتفع بها ، فبينما هو عنده فى ذلك اذ ورد عليه كتاب ابيه يستدعى منه المجىء ويحجر عليه فى الاقامة ، فقال للملك اعلم انى على السفر فقال لا يحل لك ان تتركنا نعود الى العمى بعد ان ابصرتنا دين الهدى ، فقال أعلم ان من فرائض هذا الدين ابرار الوالدين وقد حجر علي والدى المقام ، وهذا كتابه فلما رأى جده احسن منقلبه وانفصل، وبقوا علىالاسلام والحمد لله رب العالمين .

ومن عجائب ما يحكى ان يخلف بن يخلف وجماعة من أصحابه صلوا صلاة الصبح بمسجد ربض نفطة فقرأوا ما شاء الله وختموا ، وذلك فى يوم من ايام الشتاء فقال لهم على وجه الدعابة والبسط والادلال من يغدينا اليوم

ونوليه الامارة على انفسنا ؟ أومأ الى موسى بن اليـــاس المزاتى ، فقال انا اغديكم ، واكون اميركم ، وكان قريـب عهد بالقدوم من البادية وقد صحبه من غلة غنمه ما يجهز به غداءهم فقام فاحتفل لهم بالغداء ، فلما أكلوا ودعـوا بالبركة ، قال له الشيخ يخلف اما امارتك فلا تمكن فانك واحد منا ، ولكن ان شاء الله سيولد لك ولـد من الحمـل الذى عندكم ، وتسميه افلح على اسم امـــام المسلمين ، ونرجوا ان يكون عنده غنى وتكون فيه بركة ان شاء الله قال رواة هذا الحديث فقدر ان ولد له ولد من ذلك الحمل ، هذا الشيخ المبارك ابو سعيد افلح ، فسرت فيه همة الشيخ يخلف واصحابه ، فكان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكـر مطاعا متبعا فى كل ما تقـــدم فيه من افعال الخير ، فهذا امر شاهدناه عيانا ، الا ترى ان ذلك بفضل الله وبركـة الشيخ واصحابه ؟.

الشيخ سليمان بن علي

ومنهم سليمان بن علي رحمه الله . ذو سخاء ونزاهة نفس وورع ، وكان فرضيا متقنا لمسائل الفروع فى المذهـب ناظما للقريظ الا ان بضاعته من النحو مزجاة ، وان اتسع فى اللغة ، فلذلك قد يوجد فى شعره ما لا يجيزه أهـــل الصناعة ، الا ان اشعاره فى الوعظ قد رويت وانتفع بها وله قصيدة وعظية بلسان البربر ، وهى مقفاة وانها لمن العجائب ، ومن اهم اموره المحافظة على المذهب وله كرامات.

واما سخاؤه فقد قال ابى رحمه الله : كان والدى رحمه الله ذا مال بكنومة من عقار وناض ، فلم يزل مبسوط اليد فيه حتى انفذه ولم يبق لنفسه غير دويرة وبستانين، وكان

ان كانوا اولياء لله فان الله لا يضيعهم

كلما رأوا فيه من كثرة الاضياف وقلة المبالاة بتلف المال لم يعدم ناصحا يقول : ابق لاولادك بقية ، واتق الله فيهم ، فيقول ان يكونوا اولياء الله فان الله لا يضيعهم وان يكونوا غير ذلك فأنا أولى بمالى منهم ، قال وكان دأبه اذا قام من نومه الى صلاة الصبح يقول « اللهم ، أرضنى بما قضيت علي حتى لا احب تعجيل ما اخرت ولا احب تأخير ما عجلت » قال وكان كذلك .

يرفض اعانته ويدعوه ان يقوم بالواجب بنفسه

واما نزاهة نفسه فحدثونى انه لما قل ماله ولم تنقص افعاله أوصاه بياضة بن عزوز وصاية نصيح مشفق ، قال له : يا شيخ ان مالك قد قل ، ومؤونتك قد كثرت ، فهل فى خمسين ويبة تمرا أو مائة شاة من أحمد تكون لك من عندى فى كل عام تستعين بها على اضيافك ، واضياف المسجد ، وضعفاء اهل الدعوة ، فقال له لا والله ان فيما ابقى الله لكفاية أؤدى منها حقوق من ذكرت ولو على عسر ، ولكن اذا كنت فاعلا فقم بحقوقهم كما قام به غيرك ، وتولى ذلك بنفسك . ومالك .

اعتزاله للفتنة والهروب منها

واما ورعه فان وهبية كنومة لما خرجوا منها لمكيدة كانت من نكارتها خرج جدى من البلد يلتحق باخوانه غير معلن فتنة ولا مسعرها ، فقاموا اليه بجمع من أهل الفتنة من النكار ، فقال قائلهم كيف نترك فقيه القوم ينجو وضربوه بل طعنوه طعنة من أراد قتله ، فنجاه الله منهم ، وخرج جريحا وكان معه بعض اصهاره فافلتوه ، واستحوذوا على دور الوهبية فلم يدعوا فيها شيئا الا انتهبوه ، وكانوا قد اصابوا له ذخرا كثيرا ، أفلا ترى أنهم قد أذوه فى النفس والحصن والمال والآل ؟ ومع ذلك

فلم يكن منه الى احد منهم اذى فى شىء من الاشياء قبل الفتنة ولا بعدها .

واما نظمه فقد سمعته من أبى وامتنع ان يروى لي شيئا من شعر ابيه أو شعر نفسه ، فانه كان يقول لى انت اشعر منى وانا اشعر من ابى ، وحدثونى ان رجلا جاء الى جماعة فى «كنومة» بعد موته فشكا علة مزمنة اشرفت به على الموت لا يدرى ما هي ، ولم يدع علاجا الا عالجها فلم يجد الشفاء فقال له رجل منهم هلم بثلاث بيضات من بيض الدجاج فأتاه بها ، فقال له : اذا كان الغد فجئنى فقال له اطبخ هذه البيضات فى ثلاثة ايام كل يوم واحدة وكلها متواليات كل صباح واحدة ، وفعل الرجل العليل ما امره به فبرئى بأذن الله فى اسرع وقت ، فجعلوا يتعجبون ، ثم سألوا الرجل العالج ما زدت فى البيضة من الخصائص ؟ فقال ما زدت فيها شيئا ، غير انى رأيت علة اعيت الاطباء فعلمت انها لا تبرأ الا بمنة من الله الذى ابتلاه ، فناجتنى نفسى ان اتوسل الى الله ببعض أوليائه فخرجت الى قبر سليمان العزابى فلما كان الصباح استخرجتها فكان فيها ما رأيت من البركة .

ومما حدثنى به ابى عنه رحمهما الله ان اهل قرى « تقيوس » كانوا يعمرون جنات غابتهم بالمناصفة ، فيكون لهم النصف من تمرتها وللسلطان النصف، ثم يودون العشر من النصف فكانوا بذلك فى ضيق شديد ، وكان كل واحد منهم يحتال فيما يتخلص به من ذلك قبل امتداد يد عامل السلطان ، ولما كان سنة من السنين خرج الخراصون الى « تقيوس » يخرصون التمر فلما قربوا من جنة الشيخ وعلى انهم يدخلونها بعد غد وكان ذلك يوم الجمعة ، فتقدم

الشيخ الى الخدام فقال اريد تخفيف ما قدرنا عليه لنسلم من ان يخرص علينا ، فجعلوا يقتلعون العراجين من كل نخلة نصف غلتها والثلث والربع على حسب ما يأمنون غائلة العامل ، فلما جمعوا ما أرادوا جمعه من التمر وجعلوا يحتالون فى تنقيله حتى يدخلوه البلد ليلا اذا بالخراصين قد دخلوا من طرف الجنة ، لانهم قالوا نريد ان نخرص هذه الجنة ونطلع لئلا تفوتنا صلاة الجمعة ، فلما رآهم وبين ايديهم كدس عظيم يراه الاعمش عن بعد فخاف ما يخاف امثاله ، وقال ، «اللهم لا تفضح شيبتى» قال فوالله لقد اجتازوا الى الجنة وخرصوا ثمرها فاعماهم الله عن الكدس فلم يروه ولا خرصوا النخل التى هو فيها ، فقال اما الآن فنرفع ثمرنا علانية والحمد لله رب العالمين .

يوسف بن سدميمان

ومنهم يوسف بن سدميمان رحمه الله . من المعدودين فى القوامين بالليل ، والصوامين بالقيل ، والداعين المستجابين المصيبين والصابرين وان كانوا مصابين ، حدث أبي رحمه الله قال كان هذا الشيخ آخر اشياخ اهل الدعوة من اهل « دقاش » يعنى منزله من قرى (تقيوس) وكان في آخر عمره قد اصيب بصره ، وقل ماله فلم يزدد بذلك الا رضى بقضاء الله ، واجتهادا فى طاعته ، وكان الزوار يقصدونه من كل ناحية تبركا به ، قال فقصده يوما عزابة كنومة يزورونه وفيهم أخى محمد ، وكان حدثا ، وذلك بعد وفاة ابيه ، قال محمد : فدخلنا عليه فصافحناه وسلمنا عليه ، وقال للعزابة من هذا معكم اسمع صوته ولا اعرفه ؟ قالوا له ان هذا من أولاد الشيخ سليمان قال ثم بكى عند ذلك ، وقال الي يا ابن الحبيب ثم انشد متمثلا :

كانهم لـــم يكـــونـــوا عارفـــين بنـــا
ولـــم نكـــن لهـــم بالامس اخـــوانا

قال ثم أورد علينا من المواعظ والحكم والامثال ، ما لم أسمعه من احد قبله ولا فى حلقة من الحلق .

وحدثنا أبو الربيع ان يوسف بن سدميمان ســـار من درجين يريد توزر فصحب ناسا من العرب فكانوا فى ابلهم ووجدوا فى الطريق خصبا عظيما لم تسمح نفوسهم بان يتجاوزوه ولم ترعه ابلهم ، فساروا ثلاثة ايام بين نفطـة وتوزر ، قال والشيخ معهم لم يذق طعامهم ولا شرابهـم ، قال فلم يدخل توزر الا وقد أذاه الجوع والعطش، فكان أول من لقي بها جماعة من اهل درجين فرغبوا اليه ان يتغدى معهم ، وقد عرفوا ما دلهم على شدة ما ناله من الجوع ، قال ومعهم صرة ينفقون منها ويقضون بها حوائجهم فأخذوا منها ما اشتروا به غذاءهم وغذاء الشيخ فأكلوا ودعا لهم بالبركة وانصرف الى تقيوس ، قال الدرجينيون فاقمنـا أياما ننفق من تلك الصرة ونقضى منها حوائجنا وخرجنا من توزر والصرة بحالها لم ينتقص منها شىء . والحمد لله رب العالـمين .

الشيـخ يـأبى من أكل المـال المـراب

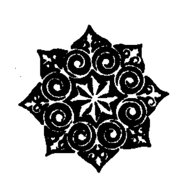
تم كتاب الطبقات بحمد الله العظيم

وحســن عونه الكريم والله الموفق

فهرس العناوين والمواضيع الواردة فى الجزء الثانى
من كتــاب الطبقــات

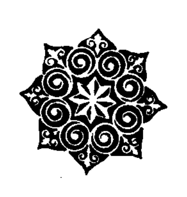
الطبقة الرابعة 150 ـ 200 هـ

الطبقة الخامسة 200 ـ 250 هـ

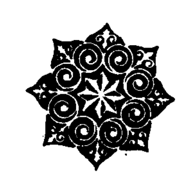


فهرس الاسماء والاعلام الواردة
فى الجزء الثانى من كتاب الطبقات

ـ ن ـ



فهرس اسماء القبائل والاماكن الواردة
في الجزء الثاني من كتاب الطبقات



جـــدول التصــويبات

رغم اجتهادنا في اصلاح الاخطاء فقد بقي البعض ننبه اليه القارىء فيما يلي : ورد اسم مدينة قنطرار بالراء وبالنون قنطنار احيانا ، مما تعذر على تحقيق اسمها ، وافادني بعض المشائخ انها بالراء على المتداول.

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
II	7	ابو فاره ابراهيم	ابو فاره محمد بن ابراهيم
ح	13	وبيبنك	وبينك
11	22	مولى بن العباس	مولى بن عباس
12	21	ثم ليعمن	ثم ليعمين
15	7	حثو المطى	حثوا المطى
23	17	قد علمتوه	قد علمتموه
82	9	فاملأ السفر	فأملى السفر
89	12	وكان فى القتى	وكان فى القتلى
90	25	ثمانين رجل	ثمانين رجلا
97	6	فى ابتداء اشغالهما	فى ابتداء اشتغالهما
106	12	ومدارستهما	ومدارستها
106	22	مستنشعة	مستشنعة
114	13	ان يجلد فى كتاب	ان يخلد فى كتاب
113	5	وتعلثم	وتلعثم
116	22	احداهما	احداها
118	1	وحرصها	وحـــرصا

السطر	الصحيفة	الخطأ	الصواب
120	22	مذكرة الطلبة	مذاكرة الطلبة
125	7	الى القاسم	الى أبى القاسم
126	3	واذا ادفعوه	واذا دفعوه
127	16	فازدادوا حنقا	فازداد حنقا
128	18	بتفيوس	بتقيوس
130	20	واورجلان	ووارجلان
131	19	جلدا وشامه	جلدا وشهامة
139	18	الانتهاء فيه	الانتهاء فيها
140	18	ومفرق سهمه	ومفوق سهمه
153	19	ولم يثبوا	ولم يثبتوا
154	5	فلما أبطوا	فلما ابطأوا
162	17	هذه احد	هذه احدى
166	22	العمل بعد الموت	العمل لما بعد الموت
169	3	قصرت عليهم الخطا	قصرت عليهم الخطى
173	20	عابر السبيل فى عونه	عابر السبيل فى كونه
178	14	على ما فعلنا	على ما فصلنا
186	16	وكان طريقة	وكان طريقه
194	15	قطعتين مملوءتين	قصعتين مملوءتين
479	14	احذروا غمض الحق وتغميضه	احذروا غمص الحق وتغميصه
حيث وردت		بنى ويليل	بنى وليل

مطبعـــة البعـــث
قسنطينة ـ الجزائـــر

هـذا الكتـاب

هـذا الكتاب ليس كسـائر الكتب التاريخية ، وكتب التراجم القديمة الشائعة ، تعتنى بـأعمال العظمـاء والامـراء ، وتتحـدث عـن انجازاتهم ومطامحهم ، او تهتم بكل ما يتعلق بالاشخاص الذين تتـرجم لهم .

انما يتجه المؤرخ فيما يكتب وفيمن يترجم لـه الى ناحية معينة يستوحى منها مادة كتابته ، ناحية الاخلاص للعقيدة ، والالتزام بمبادىء الاسـلام ، ويصور فيهم مدى ما وصلت اليه التضحية ، ونكران حظوظ النفس لـدى أولئك الذين يتعرض لهم ، وما قاموا به وعانوه لنصرة هذه المبادىء واشاعتها ، ويعرض عما سوى ذلك .

فهو من هذه الناحية يقوى فى القارىء المـؤمن الجانب الروحى والاخلاقى ، ويشجعه على التمسك بالقيم الاسلامية ، والتضحية لأجلها .

المحـقق